



بَهْجَةُ الْغَوَايَةِ

فتحى إمبابى



رواية

فتحي إِمبابي

بِهَجْر الغوايت

*City Of the Dolls*

الطبعة الأولى 2023

عنوان الكتاب: بهجة الغواية

المؤلف: فتحي إمباي

التصميم الفني: فتحي إمباي - أحمد عبد الباقي

تصميم الغلاف: أحمد عبد الباقي



رواية

فتحيه إمبريه

بهبجنا الغوايتا

*City Of the Dolls*





## الجزء الأول

# نَوَّة الحُسوم<sup>(1)</sup>

---

(1) نَوَّة الحُسوم: من أشدَّ وأخطر النَّوَّات التي تشهدنا مدينة الإسكندرية، وتهبُّ في الأسبوع الأول من شهر مارس، وتتميّز بِبَرَقٍ ورَعْدٍ شديدَيْن، وهطول الأمطار، وتُعتبر آخر النَّوَّات الممطرة الشديدة التي تهبُّ على الإسكندرية؛ ولهذا يرجع سبب تسميتها بالحسوم.



في كوابيس فلاح حبيس سلطان بغي  
أفقدته فصاحته القدرة على النطق  
حياة بغيضة... طاقة كراهية  
تأتي أكلها دونما مجهود  
فهيت لك حبيبة العمر... فعلي غير ما حُمننا  
لم تكن هناك نهايات سعيدة

حلَّ الهدوء على طريق كورنيش الإسكندرية، توقف المطر  
الغزير وانزوى صوت الرعد، تلاشى صوت محرّكات السيارات  
والدراجات النارية وما تُخلِّفه مواسير العادم من تلوث وضجيج،  
إلا من مركّبات قليلة عابرة، ليبقى هدير البحر وسيمفونية  
أمواجه تلطم الشاطئ الصخري، ثم تعود متراجعة على رقصات  
حورياته وهنَّ يعزفن ألحان الشجن وانخفاف الروح، تابع الزبد  
يتلاشى، لتعود تستجمع قواها كي تضرب ذاك الحضور الكوني  
الأزلي من جديد.

تمنّى لو غاب في النوم سريعاً، علَّ كوابيسه تكفُّ عن أن  
توقظ رأسه الزاخرة بحشدٍ من ضواري وهيرة مفترسة، طيور  
تُحلّق ذُعراً من مطاردة شياطينه، جرابيع تركض وكلّما سنحت  
لها فرصة من أمان عكفت على قرص دماغه المكدود، تخمش  
جدران جمجمة تحاول تلمس السكينة في طلب الغفران من ذنوب  
قليلة ارتكبتها خلال صراع طويل مع عالم منحرف، لم ينحنى فيه  
للحظة، قاتل صامداً متجاوزاً حكايات الأساطير القديمة، ورغم  
ذلك تعذّر عليه بلوغ عالم الصفاء الخلاب، ولا الدعة أو الهدوء  
الذين يخاصمون نومه بانتظار شروق شمس يوم جديد على  
خشبة مسرحية الحياة العفنة التي يحيها.

أغلق ضوء المصباح، حلت الظلمة وبقي صوت تلاطم الأمواج  
وانكسارها على الشاطئ الصخري، وقبة البحر هناك تحت  
سقف الأفق تلامس بنعومة كوكبة النجوم الساطعة.

\*\*\*\*



# مَدِينَةُ الدُّمَى

## City Of the Dolls

ها هو الليل يُضَمِّر لي وجهَ أُمِّ لَعْرُوسِ

التوسط

مَرِينَةَ من دُمَى

تُطَارِدُكَ الأَسْنَلَةُ وتُطَارِدُهَا

أَيضاً جَعِبُ الجَمَادِ الحَيَاةَ؟

وَيُنْقِصُ الفَسَادُ الخَلْسَ!

تَنْهَزِمُ بِمَهْجَةِ المِيلَادِ أَمَامَ كَأْبَةِ المَوْتِ

غَطَّ فِي نَوْمٍ تَغْتَصِبُهُ كَأَنَّهَاً مَجْهُولَةٌ لَا تَفْصَحُ عَنْ هَوِيَّتِهَا، تَذَاحِمُ الوجودَ الحَيَّ لِئَسْرَ خَلْقَتِهِمُ الْآلهَةَ يَوْمًا ثُمَّ اسْتَدْرَاحَتْ فِي عَالِيَّاتِهَا عِيدَ آيَتِهِ بِالْفَوْضَى الَّتِي سَتَحَتْ فِي مَنْ أْبَدَعْتَهُمْ مِنْ شَيْطَانِينَ وَمَلَائِكَةٍ... حَسَنًا... لِيَدْخُلَ كُلُّ إِلى مَصِيدِهِ، وَلِنَبِّقَ الْعَتَمَةَ لَوْحَةَ الوجودِ وَسَيِّدَةَ الظَّلَامِ، تَبَّتْ تَحْتَ المَطَرِ ضَوْعًا بَارِدًا دَاكِنًا يَتَلَأَلُ بِوَمُضَاتٍ سَدِيعَةٍ تَنْبَعُثُ مِنْ لَوْعَةٍ مُجْهِدٍ لِمَدِينَةِ تَنْبِضِ (دُمَاهَا) أَنْفَاسًا رَتِيبَةً مُسْتَبِدَّةً بِأَسْتَارِ الدُّجَى.

فِي (مَقْصُورَةٍ عَذْلَنَةٍ)، تَدْرِجُ عَقْلَهُ أَعْلَى المَشْهَدِ يَتَوَلَّى دَوْرَ البَصِيدِ المَتَأَمِّلِ، يَتَابِعُ (ذَاتَهُ) تَهْدِوْلَ فِي مَلَابِسٍ رَسْمِيَّةٍ حَامِلَةً حَقِيقَةَ حَمْرَاءٍ مِنْ جِلْدِ ثَمِينٍ، تَعْدُو مِنْهُكَةً فِي طَرَفَاتٍ وَأَحْيَاءِ الجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ التُّعْدِ، تَتَلَحَّفُ عَرَبَاتٍ تَدَامُ اسْتَبِيدَ سَائِقُوهَا بِدَوْبُونَاتِ آلِيَّةٍ عَلَى هَيْئَةٍ بِلَهَاءِ، وَقَدْ سُيِّخَتْ عَنْهَا آيَةٌ مَسْحُوحَةٌ مِنْ جَمَالٍ، تَعْبُدُ قَطَارَاتِ التَّدَامِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى مَكْتَبَةً بِرُكَّابٍ يَضُمُّونَ بِشَرًّا مِنْ دَمٍ وَحَمٍّ حَيٍّ، وَدُمَى عَلَى هَيْئَةِ بَشَرٍ تُعَسَاءُ، كَأَنَّاتٍ صُنِعَتْ مِنْ سَبَائِكٍ تَضُمُّ خَلِيطًا مِنَ البِلَاسْتِيكِ وَالسَّلِيكُونِ، يَسْرِي فِي أَوْصَالِهَا دَارَاتُ إلكترونيةٍ وَنَبْضَاتُ كَهْرٍ وَمَغْنَطَيْسِيَّةٍ، تَفْتَشُ ذَاتَهُ بَيْنَ يَافِطَاتِ التَّدَامِ عَمَّنْ يَحْمِلُهَا إِلى بَغِيَّتِهَا المَجْهُولَةِ، يَعْلَمُ عَقْلُهُ الَّذِي يَلْعَبُ دَوْرَ المِرْآقِبِ أَنَّ تِلْكَ الذَّاتِ الَّتِي تَلْهَثُ فِي لِبَاسِ رَسْمِيٍّ بَيْنَ شَبْكَةِ خَطُوطِ تَدَامِ مَدِينَةِ الدُّمَى، هِيَ ذَاتُ تَائِيهَةٍ أَنَّهُكَهَا طَوْلَ المَلَاخِقَةِ، لَا تَعْرِفُ وَجْهَتَهَا، وَلَا إِبْرِي أَيْنَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهَا المَسِيدُ...

وَتَبَّتْ ذَاتَهُ المَدْوُوحَةَ إِلى تَدَامِ رَاهَتَتْ عَلَيْهِ (بِمَا أَشَارَ عَلَيْهَا عَقْلُهُ مِنَهَا) أَنَّ يَحْمِلُهَا إِلى نَقْطَةِ مَفْصَلِيَّةٍ لِشَبْكَةِ



مواصلات المدينة قد تُمكِّننا من أن نجد خطًّا آخر يحملها إلى وجهة قد تكون المرام المُقدَّر لها، سواء في أحلامه الكبرى التي خَبَت وانطفأ وهجها، أو في حياته الواقعية...

ذنوبه القديمة، خطاياها البسيطة، الآثام التي ارتكبتها (ذاته) المكلومة جَهلاً أو قَهْراً في حق نساء شبابي، ورجال طبيين، وشيوخ وعجائز دون أن يدرك فُبحها، الآن يعلم أن أشباحهم تتوارى في مكان ما، تتعقَّبُه، تطلب القصاص، وهو يطلب بكمٍ عُفدائهم...

عقله الساكن في كوابيسه يعلم نتائج هذه (المدمطة) التي تُعانيها ذاته والتي لن تتوقَّف، ستتقذف من تدام لآخر، يحملها إلى مآلاتٍ مُتضاربة، وكلما شعر قلبه بأنه سوف يجد ملاذه الأُخيد، وراحته المُنعممة، تحوُّل الوجود المعلن إلى سراب.

في عالم مدينة الدُّمى الليلي المُرضع بمقاهٍ من تاريخ باريس وروما وڤيينا، محلَّات ومطاعم، مولات وواجهات عرض شهيدة تنتمي للمستقبل، شوارع مكتظة بدُّمى تتجوُّل في أرجائها، تتوقَّف أمام واجهات عرض حُمَّلت ببسليج باهرة لاحتياجات بشرٍ عاديين، تشتري وتبيع. ثم يسيدون الهُوَيْتَى على الكورنيش يتنقَّسون هواء البحر العليل.

يقطع الترام تقاطعاتٍ طُرُق عبدها مئات المرات، سيدي جابد، سبورتنج، محطة الرمل، بحري، الأنفوشي، رأس التين، ميناء الإسكندرية، غيط العنب، قيارى، الترسانة البحرية، علامات شديدة الوضوح وكأنها كُتِبَت خِصِّصًا كي تدلَّه على الطريق، يتابع ذاته بأسى وهي

تغادر العربات وتعاود الدكوب بكمّـد، ولا أحد يمدُّ يد المساعدة. داخل إحدها تنفرط الحقيبة الحمراء وسط الزحام، يشاهد من موقعه المراقب (ذاته) تنحني على الأرض تحاول جمع الأغراض المتناثرة في الممدّ، وأسفل المقاعد المكتظة بأقدام مُتسيّخة بقاذورات الحياة، تنزلق بعض الأغراض على الطُّرقات المجاورة لبيك الترام؛ تلك النظيفة وتلك التي تعلوها أكوام زبالة ومُخلّفات ترابية، ووسط الحيدة والتساؤلات المُضنيّة عن أي الأتساءء أكثر أهميّة عليه جمّعها، يرسل نظرات رجاء، تضيع هباء، تنظره كائنات البلاستيكيون بشيفقة، يحلُّ ذاك الشعور المتمكّن من كونه صاحب حطّ عائد... في مُقدّمة الترام يقف وحيداً يتأهب للنزول، وهناك يرى حقيبته على بُعد أمتار، أمسكت بها كائنات الامل، يدور حوار بالتحاطر عليهم يرسلونها، لديه شعور بأنهم لا ينوون سرقتها، لكنّ مجالاً من طاقة سلبية تمنعهم عن فعل شيء إيجابي يعاون ذاته في أزمته.

تغادر (ذاته) الترام في البدّة الرسمية؛ يغيب مُخلّقا قصبان فولاذية وفلنكات خرسانية، تعبر سوقاً مُكتظّاً؛ باعة ومشترون، جمهدة من دُمتي تبدو عليها قسماط الفقر والوقدم، وأخرى تفور بالحياة ونفيس بسحر وجمال وجاذبية جنسية وكأنها غادرت لتوها أغلفة مجالات مصقولة، يتابعهن يخرطن بحثاً عن رُفقة في طرقات مدينة الليل التي تصبُّ جميعها إلّ حيث شُعلة ضوء هائلة احتار الجميع في تفسيرها، هناك من يزعم أنها شاهد على الأحلام التي قُتلت، وآخرون يدّعون أنها نبراس الأمل، بينما يؤكّد البقية أنها عينُ المجهول.

بعد زمن يكتشف حقيبته الجليدية الحمراء الفاخرة  
مُعَلَّقةً في يده، يُخامدُه ارتياحٌ لا يلبث أن يتبدد عندما  
ينبّهه عقله أن رحلة المسالك المجهولة لا تزال جاريةً  
على قدم وساق، حيث يتعيّن عليه الاستمرار في  
(اللعبة) التي تحمل علامةً مُسجّلةً؛

أيها القَرَر

تانه أناكسفينه دون ربان

صنع في الجحيم

تَعُدُّوْ (ذاته) خلال متاهات كوابيسها مدّةً تلو أخرى، ولا  
نتيجة، لا نهاية، لا حقيقة، لا سماحية، لا عُفدان...

تستيقظ من نومك على حقيقة أصبحت تتعامل معها مثل قَدَرٍ  
أوقعته الآلهة بإنسان؛ أخيل نصف الإله، سيزيف، بروميثيوس،  
آدم، هيكتور مروّض الخيول، سبارتكوس مُحَرَّر العبيد، الحسين  
بن عليّ -رضي الله عنهما-، أرنستوتشي چيفارا مسيح القرن  
العشرين... لن تبلغ أبداً مدارج البهجة، لن تبلغ أنهار السعادة،  
لن ترى يوماً جنة الرّب وكوثرها الخالد، وإنما ستظل دوماً في  
مستنقع تلك التوتّرات اللانهائية...

تعلم أنه ليس ثمة خسائر مادية، ليس ثمة بريق يشع على  
حواف الأفق، ليس هناك ضوء في نهاية النفق، سوى تآكل روحك.  
هكذا جاءه هاتفها للمرة الأولى في الثالثة صباحاً يحمل نبرة  
صوتٍ يفيض بالشكوى من خِسةٍ دنيا مُخصّبة بسماذ انحطاطها...

\*\*\*



## الفصل الأول



الإسكندرية



في مطلع شهر فبراير من عام 2034 وبعد مرور ثلاثة أعوام على انقضاء النسخة الثانية من الثورة المهدورة، استيقظ في الثالثة صباحاً على تليفون يُلحُّ في الرنين، بعد صمتٍ طويل سمع صوت نسائي يبكي، سأل عمَّن يكون المتَّصل فلمَّا لم يجد إجابة أغلق التليفون، فعاد الرنين ثانية، في المرَّة الرابعة جمع المتَّصل الغامض شجاعته وهمس صوتاً خلواً كالسُّكَّر قائلاً:

- أستاذ... ممكن أشوفك؟

ودون أن يعرف مَنْ تكون؟ أجاب: أنا تحت أمرك. سألته عن موعد مناسب كأن يكون غداً. قال إن الغد لديه مشاغل كثيرة، ولكن يمكن بعد غد. سألته عن أي ساعة؟ قال: العاشرة. استفسرت صباحاً أم مساءً؟ شعر بالاستياء وقال: الصبح طبعاً. سألتها عن مكان إقامتها قالت: محرم بيك، شارع الأمير أحمد رفعت. أصدر صوتاً ينمُّ عن الدهشة وعقب بالقول إنها تقيم في شارع تاريخي.

- ليه بقي إن شاء الله؟ قال إن الأمير أحمد رفعت ابن إبراهيم باشا كانا من أخلص رجال مصر.

- والله!

- مش مصدِّقة، طبعاً! (اشمعنى انت؟)، هو حد عارف حاجة... مش مهم... أنا ساكن في القُبَّاري... اعتقد المكان المناسب محطَّة الرمل؟ أجابت بالموافقة، طلب منها أن تختار كافيته مناسب على الكورنيش وأن تبلغه.

- حاضر.

انتظرها حتى الظهيرة ولم تأت، كان هاتفاها مُغلَقًا، ابتلع قرفه ورحل غاضبًا، توجَّه إلى قرية الصيادين بالمكس ليلتقي ابن خالته الحاج مصطفى، أبلغته زوجته إنه في البحر منذ ليلتين، توجَّه إلى المرسى مُعلِنًا أنه سيخرج للصيد. فكَّ الحبل الذي يُقيِّد الفلوكة، أنزل المجدافين واتَّخذ طريقه إلى البحر. على بُعد كيلومتر من الشاطئ ألقى بعددٍ من الصنانير، وثبَّتهم على حافة الفلوكة، أخرج كتاب نقدٍ يعكف على ترجمته وجلس يُطالعُه بانتظار أن تَعلُق إحدى الشُّصوص...

منذ نومة أظافره تَعوَّد الخروج بضُحبة جدّه لعرض البحر، تعلَّم منه حركة الرياح والإبحار بالقارب، وكيف يتعامل مع البحر، وأنواع السَّمك وطُرق صيده، حتى أصبح الصيد أحدي هواياته المفضلة.

\* \* \* \*

في الثالثة صباحاً رنَّ الهاتف مرَّةً ثانية، أغلقه ولم يردِّ، طارَدته لأسبوع بلا توقف، عندما أجابها رَجته أن يسامحها ويقبل باللقاء بها، أجابها أنه أمضى ساعة في انتظارها، دَعته ألا يغضب، أجابها أنه لا يوجد ما يغضبه، وهو لا يعرفها أصلاً. أخبرته أنهما التقيا من قبل، سألتها أين؟ أشارت إلى مهرجان المسرح بالگردقة، سألتها إذا ما كانت تعمل نادِلةً بالفنادق، ضحكت للمرَّة الأولى بصوتٍ له رنين الخلاخيل، وقالت: حضرتك مُستقلٌ بي قوي. وبعدين قابلت حضرتك في القاهرة أيام ثورة يناير النسخة الثانية (2033). صمتت وهلةً وأضافَتْ إنه التقاها (عرضاً) دون معرفة سابقة في المقرِّ الرئيسي لحزب التجمُّع إبَّان ثورة 25 يناير 2031 النسخة

الثانية من محاولات المصريين لبلوغ تَوْقِهِمْ إلى الحرية، وأن صديقه دكتور حاتم عبد اللطيف قام على تقديمها له بوصفها مُدرّسة في الجامعة، وقدّمه لها بوصفه الأستاذ الدكتور كاتب وناقد ومسرحي كبير صاحب الكتابات الممتعة. قالت إنه حيًّاها بإيماءة من رأسه، وانخرط في حديث مع الحضور مُتجاهلاً إيَّها . قال: وبعدين؟ قالت نتقابل في نفس المكان؟ قال بقرف إنه بعيد، ويكفيها مرّة. قالت باستسلام: ماشي، أنا حاجي لحضرتك البيت، ممكن تعطيني العنوان. والأمكن المدام تزعل. صمت قليلاً. سمعها تهتف: أسفة... أنا غبية فعلاً. قال بصوتٍ باردٍ غاضب إن المدام توفّيت منذ سنوات. اعتذرت وتساءلت إذا كان هناك مشكلة في حضورها لمنزله. قال مُتهكِّمًا: كده، من غير سابق معرفة؟

- ليه؟ ما حضرتك عرفتي!

- عرفتك! ماشي. سألته إذا كان يمكن غدا صباحا. أجاب بالإيجاب، طلبت العنوان. وقبل أن يغلق الهاتف سألته أن ينتظر للحظة ورجّته ألا يأتي بسيرة عما دار بينهما للدكتور حاتم، وشددت عليه ألا يخبره أنها تحدّثت معه. أكد أنه لا يوجد ما يدفعه كي يخبره أي شيء، وأضاف أن صداقته بهذا الغبي المحتمل ليست قويّة. أنهت المكالمة بصوتٍ يائس: أشكرك... سامحني إذا كنت أثقلت عليك ...

\* \* \* \*



في اليوم التالي استقبل في غرفة مكتبه سيّدة مُنقّبة، ودون أن يسألها خلعت نقابها، بدت شابّةً لديها لمسة من الأناقة، قدّم لها عصير البرتقال وتناول قهوته، مضى وقت طويل وهي صامتة، مطرقة الرأس تنظر إلى الأرض، تشاغل بقراءة كتاب عن الأنثروبولوجيا، بعد قرابة نصف ساعة ألقى به جانباً، واستدار يستفسر عمّا يجري، صمتت قليلاً قبل أن تقول إن الدكتور حاتم يحترمه ويُقدّره بصورة تفوق الوصف. أضافت أنه كلما جاءت سيرته، تكلم الجميع عنه بتقدير وإجلال. ابتسم وقال: مش ممكن الكل يجتمع على وجهة نظر واحدة.

- طبعاً معاك حق، لكن مفيش حد جاب سيرتك إلا باحترام وتوقير، يمكن ده السبب اللي خلّاني ألجأ لحضرتك. فتح يديه باهتمام وقال: تحت أمرك. بصعوبة استجمعت شجاعته وقالت: حضرتك تعرفني كويس؟ أجابها نافية، قالت وهي تخفض رأسها إنه فقط لا يتذكّر. قال إنه يتذكرها عندما قرّر رئيس حزب اليسار الرسمي (النسخة الثانية) إغلاق مقر الحزب للمرة الثالثة في وجه الهاربين من مطاردات رجال الأمن، وجرحى المظاهرات الذين يحتاجون الإسعاف. علّقت: بالفعل، واحنا كسرنا باب القاعة الرئيسية واقترحناها، وظل المقر مفتوحاً للجميع حتى اليوم الأخير من المظاهرات...

أضاف مُعقّباً: حتى رحيل الطاغية.

- طيب حضرتك فاكرني أهه؟

- لا، أنا فاكراً أحداث أعظم ثورة في تاريخ مصر الحديث.  
قالت إنها لم تكن تقصد اللقاء به أثناء ثورة 25 يناير.

- ... مش فاهم تقصدي أيه؟

قالت: منذ سنوات انتشرت فضيحة في الجامعة أثارت لغظاً كثيراً. قال: إن المستور من فضائح الجامعة أكثر من المُعلن عنه. هزّت رأسها موافقةً وأضافت بصوت خفيض: إن هناك طالبة حصلت على الماجستير، أشاعوا أنها انتحلت الرسالة. قال: ظاهرة السرقة منتشرة بصورة مهينة. الجامعة لم يُعد لديها شيء أصيل. وتساءل عن مَكْمَن المشكلة؟ قالت إنه من سوء حظ تلك الطالبة أنها مُتَّهَمَة بالسرقة من رسالة دكتوراه لأستاذ جامعي مشهور في الوسط الأكاديمي والثقافي. انفرج وجهه وانخرط في ضحك هيسيتيري، قال: لا مشهور ولا حاجة، تقصدي الدكتور راغب قنديل؟

- بالضبط. قال إنه جاهل، ليس لديه ما يُسرق منه، واستطرد وهو يفتح فاه عن آخره، نعم لقد تذكّر، توجه إليها مُتسائلاً إذا ما كانت الطالبة التي اتُّهَمَت بالسرقة؟

أومأت بخجل وقالت بصوت خفيض: أيوه أنا؟ عقب ساخراً وهو يحاول دون جدوى منع نفسه من الضحك: انتي بقي الطالبة المتهمّة! انفجرت في البكاء. توقّف وغادر الغرفة قائلاً إنه سيذهب لعمل فتجان قهوة. عندما عاد جلس على الفوتيه المقابل، وقال إنه يتذكّر تلك الأيام، امرأة شابة (مربربة، ملظظة)، جسد أنثوي بَض، دخلت الوسط الأكاديمي والثقافي حَمَلاً وديعاً،

مُسترخياً، لديه شعور تامُّ بالطمأنينة والثقة، فقد أصبَحَتْ داخل أفضل وأعرق وسط ثقافي في مصر والعالم العربي؛ طه حسين، أحمد شوقي، جمال حمدان، فؤاد ذكريا، فجأة اكتشفت أنها في وكرٍ لضباع مسعورة، انقضُّوا يلتهمونها بنهمٍ ولدَّة.

قالت، وهي تحاول أن تعرف إلى أيِّ حدِّ يؤمن ببراءتها، إنها لم تعرف حتى اللحظة السبب الذي جعلهم يتصرَّفون معها بمثل هذه الفظاعة، سوى أنها دُمِّرَتْ نفسياً. أجاب يواسيها أنه عندما سمع القصة لم يُصدِّق شيئاً ممَّا قيل، بل لَوَّح إلى كونه دكتور غيبياً وجاهلاً، محدود الكفاءة، محدود العلم، لا يمكن لتلميذ ثانوي أن يسرق منه عبارة، فما البال برسالة ماچستير، لكن الدكتور وبطانته كانوا مستعدِّين لارتكاب جريمة حتى ولو كانت فضيحةً تُمكنه من لفت الأنظار إليه، علَّه يكسب السباق على كرسي في الهيكل الجامعي أو الثقافي والذي تأخَّر كثيراً. والضحية أنثى في منتصف العشرينات.

سألها أن تُكفَّ عن البكاء، وقال: وماذا تتوقَّعين؛ شابة رشيقة، ظلية تخطر بأقدامها في وكر ضواري جائعة، سوف يفترسونك، وبمتعة. قالت: وهذا ما فعلوه. صمت، ثم قام يخبرها أنه سيقوم بعمل فنجان آخر من القهوة إذا ما كانت ترغب أن يصنع لها فنجاناً معه؟

- يا ريت... ممكن أروح الحمَّام؟

- تفضّلي، على الشِّمَال. تَلَفَّتْ حول نفسها وتطلّعت نحوه، قال: اتفضلي براحتك، مفيش حد. عندما عادت تركها تنتهي من قهوتها، ولما فعلت قال إن الحديث حول الوسط الجامعي يطول، ولكن قبل أن يستطرّدَا في ذلك يوّدُ لويعرف إذا كان ثَمّة ما تريده؟ قالت باضطراب: أرجوك اوعى تقول للدكتور حاتم إنني كلّمَتك. إوعدني لو سمحت؟ قال إن عليها ألا تخاف، لكنه يوّدُ أن يعرف ما هي المشكلة؟

- إوعدني الأول. قال بغضب وقد نَفَدَ صبره: أوعِدك يعني إيه؟ البني آدم لو ناوي يقول أسرار غرف النوم لا يوجد شيء يمنعه حتى لو حلف ثلاثة يمين طلاق. قالت بلوعة: بس حضرتك قلت إن زوجة حضرتك... قاطعها: أيوه متوفية... خُدي الكلام على كونه نموذج افتراضي... قالت إنها تمرُّ بظروف صعبة وتساءلت إذا كان يمكن له أن يساعدها، وقبل أن يتحدث، استطرّدت باضطراب أنّها مرّت بأوضاع عسيرة، أصيبت بانتكاسة، وحلّ بها اكتئاب مصحوب بحالات قيء، آلام حادة في القولون العصبي، إغماءات متكرّرة، انتهت بها في عيادة دكتور نفسي، وقد نصحتها الدكتور بأن تشغّل نفسها بشيء ما، وعندما علم أنّها حاصِلة على درجة الماجستير نصحتها أن أفضل وسيلة للشفاء هي الحصول على درجة الدكتوراه. قاطعها مندهشًا وهو يقول إنها المرة الأولى التي يسمع فيها عن دكتور نفسي يُحفّز مريضه على فعلٍ إيجابي، يا ريت تكوني وافقت. قالت: مَخْبِيش على حضرتك، وافقت بصعوبة. وأضافت أن الدكتور حاتم فهمي يتّصل بعلاقة قرابة مع زوجها، ومُطَّلِع على الظروف التي مرّت بها، وأنه لم يكتفِ بتشجيعها،

بل عرض المساعدة. في ظل تلك الظروف قرّرت التقدّم لنيل  
الدكتوراه.

- ممتاز.

- مش عارفة إذا كان ممتاز ولا "ض.ج".

- ليه، فيه حاجة مُعيّنة؟ حاتم شخص غبي لكن محترم.

تطلّعت إليه بشكّ: أنا ما قُلتش حاجة.

نظر إليها بإمعان وقال: وأنا ما قُلتش إنك قُلت حاجة؟

- آسفة... اعذرني.

سألها بنبرة حازمة: طيّب ممكن أعرف فيه إيه؟

تطلّعت نحوه بعيون زائغة، مثل فأر مذعور، استجمعت شجاعتهَا  
أخيراً، وهمست أنها وقد بدأت في التعافي منذ شهور قليلة، غير  
قادرة على فهمه، وقد مضى عام ونصف دون أن تستطيع اعتماد  
خُطة البحث منه. قالت إن زملاء أخبروها بأنها أخطأت في اختيار  
الدكتور المشرف، بعضهم همسوا أنه "متباه، مُتغَطرس، سادي  
ومتعصّب، مزهو بنفسه، الأنا لديه مغرقة في العجرفة"، يهوى  
تعذيب طُلابه، قالوا إنه يجعلهم يمسحون مؤخرته، "آسفة"...  
قالت إن بعضهم أخبرها أن المفضّلين لديه هم أولاد الأثرياء  
وطُلبة الخليج؛ ساعة من ذهب خالص، شيك خمسة آلاف دولار  
للمساعدة، وعشرة كي يقوم بنفسه على كتابة الرسالة. وبين هذا  
وذاك قائمة من خدمات متنوعة.

حلت على وجهه معالم الصدمة، فرغم مرور عقود ثلاثة على مطلع الألفية الثالثة إلا أن الأوضاع لا تزال على ما هي عليه، قال يُخفف من وقع الأمر إن هناك أساتذة جامعيين شرفاء. أو مات موافقة، وقالت: طبعاً يا أستاذ، هناك شرفاء. هز رأسه مؤكداً، وللخروج من هذه المباءة سألها في محاولة لتفادي الخوض في تفاصيل أكثر: وأين ذهب المحترم زوجك؟ صمتت وتطلعت بعيون حزينة، قال طبعاً لا يرغب في التدخل. وأضاف متسائلاً: طيب، وبعدين؟.

جلست بكاء. ما دفعه للقول بأنه يمكنها البحث عن مشرف آخر على الرسالة. وكأنه ألقى بحبل نجاة إلى غريق في لجة يم، تطلعت إليه برجاء خالص وغمغمت بكلمات لم يسمعها، سألتها عمًا تقوله، هذا المرة قالت بصوت يمكن سماعه: ممكن أسجل مع حضرتك؟ هتف مندهشاً: بتقولي إيه؟ تلعثت وهي تخبره أن زملاء لها نصحوها بأنه أحد القلائل الذين يمكن أن تلجأ إليهم دون أن يسألوها الثمن.

قال بحزم إنه لا يستطيع. شاهدها تتهاوى في موضعها، عيناها المغرورقان ببحر الإسكندرية في حزنه الأبدي، مخلوق فقد دوافع حياته، قائد عسكري مهزوم يشهد مذبة إبادة وقودها جنوده، هاجمه فيض من الشفقة، قال موضعاً إن السبب في عدم قدرته على الاستجابة لطلبها أن هناك عرفاً بين طاقم التدريس لا يسمح بتعدّي الأساتذة على شؤون بعضهم البعض، وخصوصاً فيما يتعلق بالرسائل العلمية، قاطعته غاضبة وقالت: يا أستاذ إنهم عصابة... ما فيا. قال يروح عنها إنها سوف تحصل

على الدكتوراه وتكون عضواً في تلك العصا، جزءاً له وزنه في تلك المافيا... المعلمة فتكات. ضحكت بانسراح، وعقبت: يسمع من بؤك ربنا.

- طيب يا فتكات هانم، إيه المطلوب؟ قالت إنها تعلم أنها لا تستطيع تغيير المشرف على الرسالة.

- طبعاً متقدريش. استطردت أنهم يعملون خاطر بعضهم البعض. قالت إنها تشعر بأنها وقعت في مصيدة، والمصيدة أن الأستاذ الدكتور حاتم لا يدرك أن الدكتوراه بالنسبة لها ليست منصباً. ولا جاهاً، إنها جزء من علاج... أحياناً يحصل لي انهيار، أحياناً القولون العصبي يُدْمِرنِي، أحياناً أشعر أنني محبوسة في غرفة مغلقة بإحكام، أشعر بضيق شديد في التنفس، إمّا القنء أو الدخول في غيبوبة، وليس عندي سوى أمي، هي اللي تتقذني. سألتها: طيب، إذا كانت هذه ورطتك مع الدكتور حاتم، ممكن تشرحي مشكلتك الأصلية؟ وبمعنى آخر، لماذا لم تطلبي من زوجك أن يتدخل مع قريبه الدكتور حاتم.

- أصلاً أنا وجوزي لم نتفق في يوم واحد، ومن سبع شهور انفصلنا.

- انفصلتم! ارجعوا لبعض.

- نهائي، انطلقنا.

- إيه المشكلة؟ الأفضل لك يزدك، ويا دار ما دخلك شر.

- مستحيل... الشر دخل واستقر، أنا انطلقت بصعوبة، بعد مرمطة في الأقسام والمحاكم، أخيراً حصلت على طلاق كامل تام بائن. عقب قائلًا: بتقولها بسعادة. عندك أولاد؟

- لا ... الحمد لله... أنا مش عاوزه تربطني بجوزي صنف شيء،  
كفاية سبع سنين بُغض وكرهية ومذلة.

- طب إيه اللي وُرِّطَك مع قريب زوجك؟

- تصرَّف معي بدوق ونية المساعدة. مش عارفة، تفكر

غِلِطت؟

- معرفش... فِكْري في طريقة لاختيار دكتور مشرف آخر.

- حاولت قبل ما ألجأ لحضرتك، كلهم تكاتفوا مع بعض،

بعضهم قالي إن حل مشكلة غرق الإسكندرية بسبب ارتفاع

منسوب مياه البحر أسهل من مشكلتك، بعضهم نصحني إني

حتى لو تمكّنت من تغييره، يبقى "باي باي" على الدكتوراه، وبدل

البحث عن دكتور نفسي، حالي حثبوظ أكثر،

والنهاية حاكون إما مُتَجَرَّة، أو في

مستشفى مجانيين. حلّ صمّت يساوره

تعاسة، تكاثفت سحب الشفقة، قال

بهدوء ليس أمامها من سبيل سوى

الاستمرار مع الدكتور حاتم فهمي،

وعليها أن تثق في قدراتها، وإذا كان

هناك مشاكل فسوف تجد حلًا مناسبًا.

سبجت بعيداً، شعرت بالدوار وهي تستعيد محاولاته

المتكررة للتحرش بها... عندما أفاقت كانت مَغشياً عليها والدكتور

يمسح أنفها بزجاجة عطر. عندما استعادت وعيها هتفت:

- أرجوك ممكن تساعدني حضرتك؟





- ازأي؟

- كلم د. حاتم.

نظر لها باستنكار: لا أستطيع. واستطرد غاضباً: وبعدين بأمرة إيه؟ وانتِ واحدة عليّ عهد بأيمانات المسلمين ما اجيب له سيرة عنك.

قالت بفزع: أرجوك اقْفُ جنبي...

- ماشي ما أنا جنبك أهه.

ترقرقت دموعها، وقالت بصوتٍ أنثوي جريح: لا أنا محتاجة دعمك، إنْت الوحيد اللي ممكن ألجأ له وأنا واثقة إنك حتحافظ عليّ، مش حتستغلني، مش حتجرحني. قال وهو يضحك: لا لا لا... إنْت حتسجّديني، إفترضي مثلاً إني أغويتك وانتِ وقعت في ضلال الغواية، حتلوميني؟

- لو كذبت عليّ... ممكن تكذب عليّ؟

قال بحسم إنه لا يكذب مُطلقاً، لا عليها ولا على أحد. قالت وإذا لم أستجب؟ قال: الاحترام، لن تواجهي شخصاً يحاول الاقتراب منك، أو التحرش بك. سألته فلماذا الحديث عن الغواية؟ قال إنه يتحدّث عن فرضيات لنهايات مُحتملة الحدوث. وأشار بكفه يديره في دوائر متوالية وقال إنه يتحاشى التعامل مع نساء مهووسات، سايكوبتك. هزّت رأسها تنفي أنها من هذا النوع. وأضافت وهي تفكّر مع نفسها... ثم ممكن تجد نفسك أنت الواقع في الضلال. وأنا من لعبتُ لعبة الغواية... همست: أرجوك لا تقلّ من شأني.

ضحك حتى طفرت الدموع من عينيه، وهو يغمغم... يا للنساء! في قلب أزمته لا تنسى الدفاع عن كرامة أنوثتها، تمالكِ نفسه وأشار بسخرية إلى نقابها الملقى به جانباً، وقال: بهذا النقاب! قالت بغضبٍ: وماله حضرتك، تساءل مُستنكراً، كيف يمكنها إغواؤه من خلف نقاب؟ قالت مهمومة: هو احنا في إيه والأ في إيه؟ أرجوك يا دكتور. مش عاوزني ألبس نقاب. قال بحسم: ولا حجاب، أشار إلى أنها أيام ثورة يناير كانت سافرة. أضاف وعينه تلمعان: رشيقة أنيقة. وقف ينظر من زجاج بلكونة التراس إلى البحر وهو يردد أن هذا شأنك وليس لي به علاقة.

- أشكرك. بعد مُضيِّ دقائق سألها إذا ما كانت تنوي أن تكذب عليه؟ قالت مُطلقاً. أجب مُنهياً الأمر: تمام... اتفقنا.

- حساعدي؟

قال بنبرة جادة: وأدعمك. لحظة... مطلوب أساعدك ازأي؟

- مش عارفة.

- خلاص استني لما تعرفي. خليني أعمل أكل دلوقت، تتغدي

معاي؟

- لا... أنا حامشي بقي... اتأخرت. كان صوتها مثل غالبية النساء اللاتي عبّرن حياتهن، لا يعنين ما يقطن، وخاصةً أمام دعوتهن للبقاء، قال دون إصرارٍ تاركاً الباب مُوارباً كي تقرّر ما يناسبها: اقعدني نتغدي مع بعض، وندردش حول موضوعك.

- طيب اقعد انت وانا حاعمل الأكل.

- مش مشكلة.

قاما معاً، أخذت تُفتّش في المطبخ، وبسرعة أخرجت صدور دجاج مخلّية، كريمة ثقيلة، خضروات، ثوماً وبصلاً وقطع زُبْد وزعتر وأنواع بهارات كانت في عُلْبٍ مضى عليها وقت طويل دون أن تُمسّ، تابعها وهي تتنقّل كمن يطارده عفريت بين القطع والبشر والسلق السريع، وهو يتنفس وجودها مخلوطاً برائحة البهارات.

حلّ بالمكان رائحة أنثى... بلوزة (كّت) في لون دم الغزال، تكشف عن مفرق نهدين، وعُري ساعدَيْن، حزام شيفون زهري عريض عند الخصر، وبنطال كاچوال من الجينز يضمّ ردْفَيْن وساقين بتزفٍ فاحش... خلال نصف الساعة كان على المائدة طبقٌ شهيّ من دجاج كريمي على الطريقة الإسبانية، وطبق أرزٍ بسمتي بالكاري مخلوط بقطع الكبد وجوارهما تبولة سورية. وكانت هذه الأطباق الأولى والأخيرة التي برعت فيها. حملاً الطعام إلى المائدة، وعكفاً يتناولان الطعام في صمت، توقّف ورفع رأسه يسألها إذا كانت قد قرأت لوكاتش<sup>(2)</sup> وتيري إيجلتون<sup>(3)</sup>، أجابت أنها قرأت لهما كتاب نظرية الأدب، سألها إذا كان لديها فكرة عن التفكيكية، توقّفت عن الطعام وقالت بترددٍ إنها درستها في التمهيدي.

- ممكن أسألك سؤال؟

- تفضل.

(2) جورج لوكاتش: (1885 - 1971) Georg Lukács - فيلسوف وكاتب وناقد أدبي، مجري، ماركسي.

(3) تيري إيجلتون: (Terry Eagleton) (وُلد عام 1943) حاصل على زمالة الأكاديمية البريطانية، مُنظّر أدبي بريطاني، وناقد، ومفكّر عام. أستاذ في قسم الأدب الإنجليزي في جامعة لانكستر.

قال ما الذي يخطر على ذهنك من التفكيكية؟ قالت بغضب:  
ولا حاجة طبعاً. انتقلًا من المائدة وعادا هذه المرة إلى غرفة  
الاستقبال، وبينما يتناولان الشاي سألتها: أمال حتملي خطة  
البحث زأي؟



مجنونة!  
تعمل معها إيه؟

قالت إنها الآن ليس لديها قدرة على  
التركيز، وأنها تتوقّع أن يقوم بمساعدتها.  
قاطعها بقسوة: أزاي يعني؟ فهميني...  
أساعدك أزاي؟ هوانت متوقّعة إني أنا  
حامل لك خطة البحث؟ اختنقت  
بالموع، وكادت أن تنهار.

فكّر أن عليه أن يجد حلًا عاجلاً  
للهرب من هذا المأزق. طلب منها  
بهدهوء أن تستمع إليه، وقال دعينا نتفاهم  
على اتفاق، سنقوم معًا بتجربة، إذا نجحت سوف نستمر،  
إذا فشلت خلاص، عليك البحث عن حلٍّ آخر بعيدًا عني... موافقة؟  
قالت باستسلام: موافقة.

سألها إذا كان لديها مسجّل محاضرات؟

قالت إنها لم تعمل حسابها.

قال: استخدم الموبايل. مش معاك؟ أماءت بالإيجاب.

- خلاص استخدميه. وقام متوجها إلى الخارج وهو يلقي إليها  
قاموس السرديات، وطلب منها مراجعته لحين عودته. تنهّدت  
وهي تهز رأسها بالموافقة: حاضر.

قال: مش عاوز حد يعدّل عليكِ، وخاصة د. حاتم عبد اللطيف.  
عقبت: وخاصة د. حاتم عبد اللطيف.

\* \* \* \*

أمضت السيدة الشابة وقتاً في قراءة المصطلحات قبل أن يصيبها الملل، ألقت قاموس السرديات جانباً وقامت، فتحت الأبواب الزجاجية الجرزارة التي تفصل غرفة المكتب عن الشرفة، وخرجت لتجد تراس يمتد بكامل الشقة الواقعة بالطابق الأخير لإحدى العمارات القديمة المبنية على الطراز اليوناني، سارت بتمهّل في ممرات من الجرانيت الناعم تظللها برجولة خشبية، وتحيطها أضص فخارية لزهور الكاميليا والياسمين ونباتات الجهنمية المتسلقة بزهورها البنفسجية، التفتت إلى صالة الاستقبال من خلال زجاج الشرفة المنزلقة، لمحت ظهره منهنمكاً في صراخ وعويل وعراك مع دمي خالية من الملامح... وقفت على السور المطّل على الطريق، كان مياه المتوسط تمتد إلى الأفق البعيد، والموج يضرب بهدوء أرصفة الشاطئ، تنفست عبق رائحة اليود الساكن في هواء البحر، نظرت نحو النهاية الغربية للتراس، تراءى لها ظلّ يُطلّ من فرجة باب خشبي مبشور برذاذ البحر لغرفة مغلقة دوماً، جذبتها قوّة القاهرة كي تتسلّل خلف تلك الأشباح التي تتوارى في الشقة المجاورة. لكنها تمكنت من كبح جماح رغبتها وعادت إلى حيث كانت.

\* \* \* \*

قال يتشكّل الإنسان من مادة وروح، احتياجات وتطلّعات مادية، وإشباع روحي وجداني، وكي يمتلك الباحث ناصية النقد الأدبي، لا بُدَّ أن يكون مُتمكّنًا من عدّة علوم، الأول: التحليل النفسي، الثاني: النظرية الماركسية، الثالث: التفكيكية، الرابع: جماليات اللغة... تمام...

- تمام.

استطرد: علم النفس يفتح للناقد والمؤلف عالم الشخصيات، سلوكها، ميولها كوابحها الجنسية، دوافعها الأخلاقية، من ثمّ يُمكن وضع خريطة معرفية ممكنة للشخصية، التي تُعدُّ جوهر النّص الأدبي، والمغامرة التي يتعين على الروائيين الكبار اجتياز مفازاتها بحثًا عن الحقيقة الوجودية لحياة إنسان ما في عالم مُنحط... تمام. ردّدت خلفه: تمام. استطرد: العلم الثاني هو الماركسية التي تعد الأساس العلمي لتحليل البنى الطبقيّة للمجتمعات البشرية، هو علم يُمكن الكاتب من التعرّف على البوتقة الاجتماعية والمادية التي تُشكّل في جحيمها أو نعيمها حياة الشخصيات، وأنا أقصد القسم الثاني منها، وهو المادية التاريخية، علم الطبقات الماركسي يساهم في التعرّف على انتماء الشخصيات الطبقي، برجوازية صغيرة كأبطال نجيب محفوظ في رواية بداية ونهاية، برجوازية متوسطة، رأسماليون، عمّال، فلاحون صغار، إقطاعيون وكبار ملّاك، شخصيات تنتمي إلى النّخب بأنواعها المختلفة، كما يساهم تاريخ تطوّر المجتمعات في تحديد هوية الصراع المادي والتاريخي المحتمل للشخصية في مواجهة الحياة، بشقيها: الفردي والاجتماعي.

استطرد: الماركسية هي العلم الذي يُعين الروائي والناقد على فهم المكوّن المادي لحياة الشخصيات: بيئة النشأة، ريف، مدينة، التطلّعات الطبقيّة، البنية التحتيّة والفوقية للوعي. النظرية الماركسية تُفرّق بين نوعين من الثقافة، ثقافات الأفراد المبنية على حرية الإرادة والاختيار الحر، وبين ثقافات الجماعات البشرية المتعلق بمنظومة الجدل الجاري بين البنية التحتيّة لوعي الجماعات البشرية الكامنة والبنية العلوية السائدة لوعي الطبقة المسيطرة.



توجّه إليها مُحذراً وقال إن عليها أن تنتبه، أسوأ خطيئة هو وضع الشخصيات في سياقات نمطية تُطابق الانتماءات الطبقيّة أو البيئية، متجاهلاً أجمل ما تميّز به الشخصية البشرية؛ وهو تنوع الفكر والثقافة والوعي والموقف الأخلاقي النابع من الروح الإنسانية...

... يكون المرء ثرياً ولكنه طيّب باراً

مُحبّاً لأهله ووطنه، أو فقيراً يُبغض، ويحقد،

ويَمُتّ، ويحسد، وينافق، ويكذب، ويستحلّ ما كان

مُحرّماً، ويعده حلالاً. والأخير هو شيطان رجيم... لا توجد أنماط،

وإنما توقّعات وتنبؤات. عليك أن تنتبهي أن تطوّر الشخصية في

الأدب الإنساني الرفيع لا تستند على مفاهيم يقينية، وإنما على

الإمكان، الجواز، الأرجحية، فاحتمالات السلوك الإنساني غير

نهائية، ولكن مع امتلاك نفاذ البصيرة يمكن توقّعها. سألها إذا

ما كانت تفهم ما يعنيه؟

- يعني... نص نص. استطرد: تُعدُّ التفكيكية إحدى أهم النظريات الحديثة، هي العلم الثالث الذي يجب على المبدع؛ روائياً أو ناقدًا أو شخصًا يعمل في السياسة الاطلاع عليه واستيعابه. قال: تكمن قيمة التفكيكية على المستوى الأدبي في اكتشاف الطابع الزائف للخطاب الأدبي؛ رواية "الغريب" لألبير كامو تتضح بعنصريّة الجنس الأبيض تجاه أبناء البلد الأصليين، رواية "القوزاق" لجوجول تُعبّر عن الصراعات القومية والدينية، هناك أيضًا الضعف الفني في أعمال حنا ميناء المغفلة بالأيديولوجية الاشتراكية، أو الدوافع التي جعلت كاتبًا عظيمًا مثل يورهان باموق يفرض "ذاته" بصورة مباشرة على مدى سبعين صفحة، في روايته الرائعة "تلج"... التفكيكية تعطي منهجًا مناسبًا يجيب على السؤال الذي يضع كل شيء على المحك، أين يكمن الخطاب المزور؟

العلم الرابع المهم جدًا هو جماليات اللغة: تعلمين أنه يجب على كل من يشتغل في حقل النقد أن يكون مُلمًا، قادرًا على امتلاك ناصية جماليات اللغة. ولا أعني النحو والصرف. قاطعه صوت طرقات على الباب الخارجي.

قام يفتح الباب، كان يقف أمامه كائنٌ بلاستسليكون مُشوّه، رأسه على شكل مكواة، قدّم له بطاقةً تحتوي تعريفه الأمني، مسحها الدكتور بماسح ضوئي على هيئة قلم، أصدر علامات تبييه خضراء، أعاد للروبوت بطاقته، وطلب منه الانتظار، وعاد بعد قليل حاملاً الملابس التي تحتاج للكي. أخذها الكائن راجلاً. استدار نحو المرأة الشابة، واستطرد مُضيفاً: اللغة مثل ثياب



النساء، إنها المظهر الخارجي الذي يحتوي بالضرورة أجسادهنّ. عَقِبَتْ بَرْنَةٌ غُضِبَ: إيه بقى علاقة ملابس النساء باللغة؟ يعني أنا لا مُتَخَصِّصَة في علم نفس ولا درست فلسفة، والمعروف عن الماركسية إنها بتدخّل السجن، وأصحابها ملاحدة، كفاية عليّ كِدّه، إنما إيه بقى علاقة ثياب النساء بالنقد الأدبي؟ يا أستاذ حرام عليك أنا طالع عيني. لم يهتمّ باعتراضاتها، واستطرد أنه توجد ملابس للعمل، تخصّ عاملات مصانع، عاملات محلات تجزئة، عاملات محلات كوافير، عاملات تراهيل، توجد ملابس تخصّ فلاحات ثريّات، مهندسات طبيبات، ملابس رحلات، أغطية للرأس، إشارات، حجاب، نقاب، وشاح، إسدال، فساتين للسهرة، ديكولتيه واسع، يكشف عن سواعد ونهود، هناك ملابس لفتيات مراهقات، نساء في مقتبل العمر ونساء في أوسطه، متحفّظات سافرات، متبرّجات وعمليات، نساء يتميّنن بالأناقة، ورَبّات بيوت ليس لملابسهن مذاق، والقائمة تطول، لكن النتيجة أن كل نوع من الملابس يعكس شخصيّة من ترتديه، كذلك اللغة، كل إنسان يستخدم لغته الخاصة الملتصقة بشخصيته، المُعبّرة عن مهنته، مكانته الاجتماعية، وضعه الطبقي، ثقافته، نظرته للقيم، كذّاب، مخادع، صادق، قوي أو ضعيف، مغرور، متواضع، ولكن ورغم ما ذكرته، فإن لغة النص الأدبي وفي كافة الحالات لها طابع أعلى من لغة الحياة العادية، إنها البلاغة التعبيرية، لغة الجمال والتعبير الفني، إنها لغة الفن.

- حضرتك حيّرتني؟

- ليه، باتكلم هندي؟ هزّت رأسها بمأل، وتطلّعت نحوه تفكّر في المأزق الذي أوقعت نفسها فيه. قال ينفذ نفسه عن الأمر إنه يمكن لها أن تختار نوعاً أدبيّاً خلاف الرواية؛ فهي لازالت في البداية. قالت باستسلام بائس إن أوان التغيير قد فات... وتساءلت عمّا يدفعه لمثل هذا القول؟ قال يحاول السيطرة على غضبه، إن تجاربه علّمته صعوبة مساعدة أشخاص يعانون من اضطرابات نفسية، وأن أفضل شيء هو مجاراتهم حتى لحظة مناسبة يتمكن فيها من التخلّص منهم والقذف بهم من قطار يتحرك بسرعيته القصوى، والنتيجة هي اختفائهم من حياته. وأضاف يوضّح أن لديها ثلاث شهور، سيدرس لها كورس عامّاً، فإذا وصلّت نهايته استمرّ في العمل، إذا عجزت، "خلاص... براحتك، وكل واحد في طريقه".

- أمشي أحسن.

- خلاص... تمام... يلاً اتفضّلي.

- مش قصدي أمشي بزّه البيت، إنت مستعجل عليّ ليه قوي

كده... إيه هو الكورس؟

- أربع مجموعات؛ الأول كتاب أصول الفلسفة الماركسية،

لچورچ بوليتزر (إنت بتسجّلي مش كده؟).

- أيوه.

تتزيّله من النت، عملي ملخص للمادية التاريخية فقط،

الجزء الخاص بالمادية الجدلية، دي مسألة تخص كل واحد

وشأنه، كتاب نظرية الأدب للوكاتش، وسوف اعطيك كتاب

الواقعية الأوروبية لـجورج لوكاتش، ده كتاب مفيش منه نُسخ،  
تمام؟ هزت رأسها بالموافقة. استطرده:

- هذه هي مجموعة الأولى، المجموعة الثانية لـتيري إيجلتون،  
نظرية الأدب، كيف تقرأ الأدب، النقد والأيدولوجية، وفكرة  
الثقافة، أو هام ما بعد الحداثة، تمام؟

... المجموعة الثالثة؛ التفكيكية، كتاب التفسير والتفكيك  
والأيدولوجية لـبيتر بروك وتيري إيجلتون، وچاك دريدا  
والتفكيك، "في علم الكتابة"، التفسير والتفكيك والأيدولوجية  
لكريستوفر بـتـلر. تمام؟

- تمام.

- المجموعة الرابعة علم النفس. نحددها بعدين.

\* \* \* \*



## الفصل الثاني



الإسكندرية



## — 1 —

بعد مرور أشهر على لقاءهما الأول استرجعا العديد من العلوم المتعلقة بالنقد والأدب والثقافة وعلم النفس والفلسفة. لاحظ أن من تجلس بين يديه طالبة نهمة، تقرأ دونما توقف، تنهي بجدية ما يُطلب منها وما ينبغي إنهاؤه من الدراسة التأهيلية دون أن يبدر منها ما يفيد الاعتراض، تستجيب إلى مطالبه العلمية ونصائحه بكلمة وحيدة، وهي (حاضر)، تنطق بها عن يقين جندي في معركة، واقتناع وثقة من سوف يفعل في كل الظروف والأحوال، ورغم ذلك لم تتمكن من اعتماد خطة البحث، بسبب

إصرار الدكتور المشرف على رفض كل موضوع تقدمت به، وإذا ما وافق على الموضوع وضع عراقيل مستحيلة أمام خطة البحث، كانا قد تورطنا مع مرور الوقت في عالم نسجناه معاً، صارت تتألق وتزداد ألقاً مع ذلك التحصيل العلمي الذي يتحقق مع مضي كل أسبوع منذ شرعنا في العمل، يستنفذه ذلك الطعم الحريف لطالبة تتميز بالذكاء، وسيدة شابة تميل بطبعها وثقافتها ناحية اليسار دون اعتراف صريح.

في الأشهر الأولى لاستقباله لها التزمت بالجلوس بعيداً عنه، يُمضي لقاءهما لساعات لا يحاول الاقتراب منها، أثناء أوقات الراحة من عناء العمل، أو تناول الطعام. كانا ينتقلان للجلوس سوياً على الأريكة الكبيرة، يحتلُّ بارتياح الطرف الأيسر من الأريكة، وهي تختار منتصفها، يشاهدان معاً واحدة من المحطات الفضائية على القمر الأوربي تبثُّ أغنيات البوب من سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وقد أخذت عليه لُبّه، تستغرقهما متعة السماع لأغاني ذات تكوينٍ تشكيليٍّ يفوح بجاذبية من عُري الأنثى، وإثارة فائقة النعومة، مُدْمِجَان بجمال الموسيقى ومتعة اللغة والعرض، تهتف:

- أغاني تجنن. فین المحطة دي؟

يجيب بزهوة إنها محطة من طراز قديم على قمر الهوت بيرد. تسأله كيف يمكن الحصول على ذاك القمر، يخبرها بجديّة مصطنعة إن لديه طبق دش لا يتوفر الآن، قطره (180سم). تهتف بعجب (آه) وتستطرد: هو فيه حد بيستخدم الدش دلوقت...

أستاذ، باين عليك موضة قديمة. يسخر منها ويقول متحكما إنه إذا كانت المحطة لا تعجبها فلتتوقف عن المشاهدة.

كان لتلك المحطة مهمة أخرى في استراتيجيات الغواية، حيث يتابع من طرف خفيّ مدي استمتاعها بمشاهدة تلك اللقطات، التعبيرية التي تضم عرضاً متحرراً من عُري نساء جميلات، ومزيج من عناق حار وقلبات ساخنة، وفي قرارة نفسه دعوة لها للتحرُّر بالمثل.

مع مرور الوقت، وبسبب زحمة العمل، والحاجة إلى أن يستمع كلُّ منهما إلى الآخر جيِّداً، وربما لإنسياط الألفة بين رَجُلٍ وأنثى يمضيان فترات طويلة وحيدَين في فضاء يتضوّع بعطر امرأة، يفوح الأرج ببهجة الغواية، مزيج من حلومر يُشيعه وجودهما معاً دون ثالث، تنتقل رويداً رويداً وبصورة اعتيادية من مكانها البعيد الواقع عند أقصى طرف صالة الاستقبال، إلى الجلوس قريباً منه في منتصف الأريكة، تضع جهاز اللابتوب جوارها، قبل أن تجذبه وتضعه على مقدمة فخذيها ليبدأ العمل.

\* \* \* \*

منذ وطأت قدمها شقته تمكّنت مرّات قليلة من الولوج إلى الشقة المجاورة وغرفها الغامضة المغلقة دوماً. اليوم لمحت الباب مُنفرِحاً قليلاً، دفعته فصدر عنه صرير البوابات العتيقة، كانت العتمة تُخيم على المكان، أضاءت النور، مخزن يصعب التعرف على نهاياته، تساقط دهانه وتناثرت على جنبات ردهاته دُمى من ذلك النوع الذي انتشر في المدينة وأصبح يشارك البشر





حياتهم. أغلبهن كُنَّ على هيئة "مانيكان" يشبهن عارضات أزياء عالميات، وممثلات من نجوم ذاتي الصيت: مونيكا بيلوتشي، كايا جربير، وأخرى تقارب كيندال جينر ذات الابتسامة الدافئة.

الدمية التي تبادلت معها الكثير من الخواطر آنذاك كانت تشبه "رومي شنايدر"، والتي كانت تجلس في بركة المياه تستعرض جسدها المصنوع من المرمر، تتطلع لقدم الممثل الفرنسي "آلان ديلون"، ساحر النساء، الذي عشقته والذي لم يأت كما وعدّها قط؛ لم تكن تعلم أن دمية "آلان ديلون" فقدت الرأس أثناء أعمال صيانة جرت للمكان، ولم يحاول أحد استعادتها. كان يحلوسوزي التخاطر مع دمية تؤذ لو تعلن أنها تشاركها رغبة الموت المُطلّة من عينيها، وحزن انتحارها، وكلتاها متقاربتان في العمر، أمرٌ تؤذ لو تفعله، وربما سوف تفعله قريباً، فالحياة أشدُّ ظلمًا وظلمة من الموت. فيما بعد اختفت، بحثت عنها دون جدوى، عندما سألتها قال إن الشركة التي تستأجر تلك الدمي في عروض أزيائها جمعت الموديلات القديمة وشحنتها إلى أحد مصانع بلاستيك في مدينة برج العرب. سألتها عمّا فعلوه بها؟ قال إنهم ألغوها في أفران وأعيد تدويرها وتحويلها إلى أكياس بلاستيك وخراطيم لشبكات الري الحديث في محاولة الدولة لحل مشكلة النقص في المياه. ارتسمت على وجهها معالم الاستياء وقالت أنذاك إنه شديد القسوة، قال على العكس؛ إنهن الآن يروين أراضي صحراوية قاحلة في واحة الخارجة أو وادي النطرون.

بعد شهر تنبّهت لوجود دفعة جديدة من الدمي في ركن قصي بدا شديد النظافة، كانت قد أُخرجت لتوها من صناديق فاخرة مستوردة عبر التسويق الإلكتروني (أون لاين) ممهورة بخاتم (Made In China).

أصابها الهلع للحظات، هذه المرة كُنَّ يُطابِقن في الحجم ولون البشرة والإحساس ممثّلاتٍ شهيراتٍ وعارضاتٍ أزياءٍ ينتمين للعقدين الأول والثاني من القرن الحادي والعشرين، بدون وكأنهن ينبضن بالحياة؛ من ركنٍ آخر سمعت ضوضاء خافتة، تسلّلت ناحية المكان حيث

وجدت بارًا من طراز فيكتوري عتيق تجلس على الطاولة عدد من أشهر ممثّلات هوليوود، أمامهن كؤوس خمر. بدون نائمات وكأن موصّلات الطاقة فُصِلت عنهنّ. أصابتها دهشة وهي ترى صناديق لا تزال مغلّقة ملصق بها بطاقات تحمل أسماء وبار كود لممثّلات شهيرات. شعرت

بحركة تلوح من مكان قصي، أصابها فزع، خرجت مُسرعةً عائدة إلى غرفة المكتب، وجلست تقرأ في كتاب أشار عليها به.

طوال عشرة أشهر من لقائهما الأوّل، دار بينهما حوار (أحياناً يتطور إلى جدال)، تتطرقا فيه إلى العديد من الموضوعات، وبحثاً طويلاً لاختيار موضوع مميّز وغير تقليدي كما كان يُنبّهها دائماً، حتى استقرت في النهاية وبتشجيع مُضخّم بالإعجاب، على عنوان جديد للبحث.



"ثورة 25 يناير الأولي 2011"

في الرواية المصرية"

هذه المرة لم يبدي الدكتور المشرف على الرسالة اعتراضاً على العنوان... هذه المرة جاءت وقد تخلت عن النقاب والحجاب، جلست أمامه متكورة على نفسها، وهو عاكف على مراجعة خُطّة البحث؛ استعداداً لتقديمها للدكتور المشرف.

من وراء مكتبه رفع رأسه وخلق نظارة القراءة وتطلّع نحوها، تغوص في الفوتيه المواجه للمكتب، منكمشة على نفسها، يخالطها شعور قاسٍ بالتصاغر، كان قد انتهى من قراءة المقدمة التي أوضحت فيها أن ثورة 25 يناير 2011 كانت مُكرّسة لأول مرة في التاريخ المصري لمفهوم الحرية الفردية والكرامة الإنسانية في مواجهة الاستبداديين: الديني والعسكري، بعد قرون من ترسُّخ روح وثقافة العبودية، والاستلابين: الفردي والجمعي لدى الفلاحين، وأن للثورة تأثيراً على تطوُّر الشخصية المصرية، وانعكاس ذلك في نصوص روائية كُتبت عن تلك الأحداث العظيمة التي جرت في الميدان، وتلك التي تناوَلتها بصورة هامشيّة.

وقامت الباحثة بعمل فصل خاص للرواية النبوءة (التي تنبأت بالثورة)، ثم تطرّقت إلى إشكالية الدراسة والتي تناوَلت فيها تطوُّرات الأحداث خلال السنوات التي سبقت الثورة والتي أدت إلى نجاحها، وتلك التي أعقبت الثورة وانتهت إلى إخفاقها، وتأثير ذلك الإخفاق على السُّرد من جهة، وأسباب انتشار وذيوع الكتابة

النسوية في ذلك الوقت، ثم تناولت الجزء الخاص بأهمية الدراسة والذي أوجزته في ثلاثة مبادئ:

المبدأ الأول: تبلور مفهوم الحرية الذاتية وانعكاسه على الشخصية الروائية بصورة مغايرة عما تناولته رواية النصف الثاني من القرن العشرين، ابنة عصر الحداثة، والتي تبنت المذاهب الواقعية والوجودية والاشتراكية والعبث، وظهور الميل لمفهومَي العدم والاعتراب بعد حرب أكتوبر، في مقابل ظهور رواية الهوية، وقد تبنت السلطة النقدية تجاهل أو اتخاذ موقف مُعادٍ للنصوص التي تحتوي مضامين اجتماعية أو سياسية وتلك التي تتخذ من إشكاليات الهوية الوطنية موضوعها، أو ما يسمى بنهاية وسقوط المقولات والقضايا الكبرى، تحت تأثير ترويج السُلطة الثقافية للموجات النقدية التي تبناها الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، والخضوع لمفاهيم العولمة الغربية الأمريكية، وقد تناولت الباحثة في هذا الصدد عددًا من النصوص.

المبدأ الثاني: رمزية اللغة، حيث تشير الباحثة إلى اللغة المزوّرة التي سادت الواقع الاجتماعي والسياسي، وتأثيرها على النصّ السردي في الرواية المصرية عقب هزيمة يونيو 67 ثم حرب أكتوبر 73، وانتشار مفاهيم الانفتاح الاقتصادي.

المبدأ الثالث: ظهور نصوص نسويّة بارزة عقب الثورة للعديد من الكاتبات، وهو أمر لافِت. وكأن الروائية المصرية تقوم بدور الرّبة إيزيس، الحامية لوليدها القادم من رَجْم المستقبل للدفاع عن الحق والحقيقة في مواجهة إله الشر ست.

عاد إلى الأوراق المتناثرة أمامه، يتابع إشارتها إلى أن الحدود الزمنية للدراسة تقع قبل ثورة يناير 2011 بعقد من الزمان، والذي شاهد الصعود اللافت للرواية المصرية مع مطلع القرن الحادي والعشرين وحتى زمن تقديم خطة البحث في مطلع 2034، ثم أشارت إلى أنها لم تجد من الدراسات السابقة في هذا الأمر ما يدعوها لمناقشته.

نظر نحوها يسألها إذا ما كانت متأكدة بعدم وجود أي دراسات أكاديمية بالخصوص. رفعت ساعديها وهي تتمطى للخلف، لمح نهديها يرتفعان لأعلى، صلبان، نافران، مثل قباب الجوامع والكنائس الحجرية العتيقة، سمعها تقول بسعادة مُفرطة هذه المرة: نهائي، مش عاوزه وجع دماغ، كفاية اللي حصل في الماچستير، ولعلمك يا أستاذ، أحد الأسباب اللي خلّنتي أستقرّ على موضوع الرسالة، هو السبب ده، وأنا أكرّر شكري لك.

- على إيه؟ عاد يقرأ المتبقي من خطة البحث، والذي تضمّن إشارة عابرة متعلّقة بالمنهج، حيث تطرّقت إلى أنها سوف تبدأ تاريخياً باستخدام منهج جورج لوكاتش وتيري إيجلتون في نظرية الرواية، وحيث إن الرسالة تتناول الرواية المصرية في زمن الثورة، حيث يجتمع الفردي والاجتماعي، والذاتي والموضوعي، وحيث تتحرّر الروح الفردية في وحدة لافتة مع روح الجماعة، وحيث يكون مفهوم "رؤية العالم" أحد مداخل السوسولوجيا لتحليل وفهم الدوافع لدى المؤلف؛ فإنها سوف تستعين بمنهج البنيوية التوليدية لئوسيان جولدمان، والذي يربط بين التطور الاجتماعي والتطور الأدبي من حيث المضامين والشكل، ويعكس

العلاقة بين الوعي والعالم، وبين الذات والموضوع في المجتمع البرجوازي الحديث، وأحبُّ أن أنوّه إلى أنني سوف أستخدم مصطلح د. جابر عصفور الذي تناول منهج لوسيان جولدمان الخاص بالتوليدية بدلاً من مصطلح التكوينية الشائع.

وعندما تُحتمُّ الضرورة العلمية سوف أستخدم النظرية التفكيكية. وقد أرفقتُ خرائط لميدان التحرير والقائد إبراهيم وهما ممتلئان عن سعتهما بالمتظاهرين، بالإضافة إلى قائمة المصادر والمراجع (عربية ومُعَرَّبَة وأجنبية). ثم لاحظ أنها قد أتت كافة القواعد المتعلقة بالكتابة من حيث ترقيم الصفحات والمسافة بين الأسطر وأنواع وأحجام الخطوط. وعندما انتهى رفع رأسه نحوها وقال مبهتجاً: ممتاز...

هتفت بتهدُّج: بجد.

- أكثر من ممتاز... محتاج شوية ضبط لغة ونحو، وإضافة المصطلحات بالإنجليزية، طبعاً إنتِ عارفة. هزَّت رأسها مؤكِّدة أنها ستفعل. قام لعمل القهوة، وعندما عاد انتبه إلى أنها تائهة، وقد أخذها تفكير عميق لا ينمُّ عمَّا استطاعت إنجازها، تجاهل ما شعر بأنها توشك على الانهيار، دعاها للانتقال إلى صالة الاستقبال، اتَّخذت مكاناً قصيماً على مبعده ثلاث كراسي فوتيه، وجمعت حقائقها حولها، وألقت برأسها لأسفل، سألتها عن موعد تقديمها لخطة البحث.

قالت: مطلع الأسبوع القادم.

قال بإصرار يجب أن تُصحَّحِي اللغة والنحو، وأن تتأكَّدي من دِقَّة المصطلحات، أوأمأت برأسها وعقلها مشغول في عالم آخر بأنها ستتعلم. جلس قُبالتها، ولأول مرة منذ تعرَّف عليها أمسك كفيها بين يديه، جفلت وودَّت لوتسحبهما، وقبل أن تفعل تركهما، وسألها أن تخبره عمَّا تفكَّر به. أنكرت أن يكون هناك شيء يشغلها، لكنه أصرَّ وطلب أن تخبره وإلا سوف ينسحب من اتفاقهما. عقبت أنه يريد أن ينسحب من اللحظة الأولى. قال إنها يجب أن تُصدِّق فيما تعاهدًا عليه، وإلا فإن الوقت لا يزال مُمكنًا للتراجع. وأضاف بنبرة قرف أن عليها أن تكون صريحة معه الآن وفي هذه اللحظة؛ وأوضح إنه ليس مَعْنِيًا بحياتها الشخصية، وكل ما يتعلَّق بها هي حُرَّة تماماً ولا يهمله، ولكن إذا كانت تريد أن تصل إلى نهاية المضمَار، فهي ليست حُرَّة فيما يخضُّ الرسالة، وإلا فإنها ستكون عبئاً عليه وعلى مصلحتها. قالت إنه دائماً يُضخِّم الأمور. وأن الأمر يتعلَّق بالدكتور المشرف على الرسالة، وأنها متأكَّدة إنه لن يوافق على خُطَّة البحث، وسوف ينتقدها بقسوة، وربما يطلب تغيير موضوعها تماماً. سألها مُتَعَجِّباً أليس من المفترض أنها أخذت موافقة مبدئية، غمغمت أنها فعلت، لكن لديها يقين أنه سيجبرها قسراً ويكرهها على اختيار موضوع آخر، وأنه سبق أن فعل ذلك خمس مرات. وأن عاماً مرَّ وهي في حالة يرثى لها، وأضافت: حاموت يا دكتور...

سألها: السبب؟ أجابته بنبرة تهكُّم: صديقك.

- صديقي مين؟

- الدكتور حاتم.



رَنَّ جرس التليفون، قام يبحث عنه، كان ابنه الذي قرَّر التخلّي  
عن الإقامة معه والانتقال للسكن مع أصدقائه وصدقاته يخبره  
أنه قادمٌ لحمل بقية أغراضه، فأخبره أنه بانتظاره.

أعاد سؤاله الذي قطعته مكالمة ابنه: بتقولي صديقي مين؟  
- الدكتور حاتم.

أجاب بنبرة قاسية: دكتور حاتم قبل ما يكون صديقي هو قريب  
جوزك. حَلَّ بوجهها الغم. تراجع إلى الخلف، وبعد فترة صمت،  
أمسك بكفيها ثانية، هذه المرة لم تجفل، وقال إن أخاه الذي  
يعمل في سلطنة عُمان سيعود الأسبوع القادم، قالت بإعجاب:  
أخوك بيشتغل في عُمان؟

أجاب باعتزاز أنه يعمل في السلك الدبلوماسي، وأضاف أنه  
أنهى دراسته في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وهو في العشرين  
من عمره، ونجح بتقدير امتياز، وحصل على الدكتوراه من جامعة  
كمبردج بإنجلترا، وهو الآن لديه أموال وأراضٍ وعقارات، ويفكر  
في تأسيس مع أصدقائه معهدًا خاصًا بالدراسات الدبلوماسية.

- يا سلام. أضاف أن أخاه الثاني طبيب جراحة أسنان  
مشهور، لديه عيادة في محطة الرمل، وسوف يفتح مستشفى  
للولادة قريبًا.

- ياه! عندك أسرة تفتخر بيها.

- طبعًا... أشكرك.

- طيب وإيه العلاقة الأسنان بالولادة؟

- مش لازم يكون فيه علاقة، المهم توفر رأس المال والإدارة.  
قال إنه سوف يطلب من أخيه الذي يعمل في الخليج أن يحضر  
معه قطعتين قماش صوف إنجليزي (موهير) ... قَدَّميهما هدية  
للدكتور المحترم قريب زوجك. قاطعته قائلة: السابق.

- بتقولي إيه؟

قالت بصوت غاضب: زوجي السابق.

استطرد دون اهتمام: قريب زوجك السابق يُفَضِّل منهما  
بدلتين أو بدلة له وتايير لزوجته؛ علَّه يعضو عنك.

انتفضت مُتراجِعَةً إلى الخلف، استطرد مؤكِّدًا أنه لن يرفض،  
وعندما يقبل هديتك ستكونين في مأمن معقول منه، تصرَّفني  
بثِّقَةٍ وسوف تنتهي مخاوفك، وإذا ما نجح الأمر مُمكن تقدِّمي  
هدية أخرى في منتصف الرسالة، وثالثة في نهايتها.

لأول مرة تبتسم، وبدا أنها وافقت عندما سألته كم ستكلف  
الهدية؟ قال: بعد أن يقبل الدكتور المشرف قريب زوجك السابق  
هديتك، سيعطيها رقم هاتف أخيه كي تتخالص معه.

قالت بخجل إنها تريد أن تعرف قيمتهما، أخبرها ألا تهتم،  
وأن أخاه في الحقيقة لن يأخذ درهماً؛ فهو إنسان بحق، وشرع  
يحكي لها ما فعله عندما تعذَّر عليه دفع مصاريف ابنته ديانا وهي  
في عامها الأخير في الجامعة، وأضاف أنه يحكي هذه الرواية  
كي تعلم أن العالم به ناس طيِّبون، وربما أمكنها أن تتناولها في  
الرسالة.

- اتفضّل قول، سَمعاك.

قال إنه كان متورطاً في شراء الشقة المجاورة، ودفع فيها كل ما توفّر لديه من نقود، وسقط هذا الانشغال لم ينتبه لضرورة تأمين مصروفات جامعة ديانا، والمصيبة أنها سنة التخرّج، لو كانت أمها على قيد الحياة لما وقع في مثل هذه الورطة. واستطرد أن من طباعه تفضيل الموت على الاستدانة، أو طلب مساعدة من مخلوق، وأضاف ضاحكاً أن صديقاً عزيزاً على قلبه اسمه المعلم جابر يونس كان يقول: ”الجميل جميل... لكن عدمه أحسن“، أيامها نظر حوله يميناً وشمالاً، لم يجد حلاً سوى بيع سيارة زوجته، وكان قد مضى على رحيلها شهور، ولأن الموسم الدراسي بدأ بالفعل قام بعرض السيارة على أحد أخوته، وقد فوجئ (كما عرف لاحقاً) أن أخته الكبرى دعت الأسرة وسألتهم، من الذي سيتكفل بمصاريف بنت أخيكم، أم تفضّلون أن نشترك جميعاً؟

قيل لي إن أخي الذي سيشتري لك قطعتي الصوف الإنجليزي، انتفض وقال إن هذه مسؤوليته، أنتم كبار الأسرة، ضحيتكم من أجلنا، ولم يحدث أن ساهم الصغار في شيء، وحن أو ان ردد الجميل. وبعدين اعتبروها ربط كلام لأنني أريد أن أزوّج ديانا لمحسن، وسأساعدهم على فتح شركة مقاولات أو تصدير واستيراد.

قالت أخته ليس هذا وقت الهذر، وعليه ألا يخلط الأمور ببعضها، أخوك الكبير ”مزنون“ وعاوز يدفع مصاريف بنته، ما شأن الجواز باليزنس. أقسم بالله أنه يتكلم بجديّة، فلن يجد

ابنه محسن مثل ديانا. وتساءل عمًا إذا كان الغريب أولى بها من لحمها. قاطعته مُعَلِّنةً أن تربيطات العائلات لم تُعد تنفع زواج هذا الجيل، زبَّيتموهم على الحرية، ولم يُعد لأحد أن يجبرهم على ما يدور في عقلك، ثم إذا استلطف كل منهما الآخر، أهلاً وسهلاً، نعمل عزومات وخطوبات تنتهي بجوزات وأطفال تجيب العصبي، وبنبي شركات والذي منه، وإذا لم يحدث شيء يبقى مفيش نصيب.

خلال يومين دُفِعت المصاريف، وفي اليوم الثالث جاء ديانا هاتِف من عمِّها يسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة، ارتبكت وحاولت أن تتحجَّج بأمرٍ شَتَّى، نهرها، وأخبرها أن عليها أن تكون في كليتها منذ الصباح الباكر. أرسلت له السيارة لكنه رفض وقال أبدا... عربية أمها لا يمكن المساس بها، (هو كان يحترم والده ديدي جدًا)، وأضاف محدش يقرب منها، وقال من خلال دموعه أنني صرّفت عليهم وهم بعد صغار، وبنيت للأسرة دار في البلد، قال إنني ميّرتهم على البنات في الميراث، وضحيّت من أجلهم. وأن ضميره يؤنِّبه لأن الكبار قاموا بمسؤوليتهم إزاء الصغار، نحن أخذنا ولم نعطي، وهو ينتظر منذ سنوات فرصة رَدّ الجميل والدين. قلت له أن يستهدي بالله، ولا داعي لهذه الدراما، فليس لأحدٍ دِينٌ على أحد. وأن أبي أوصاني بكم قبل موته. يومها قال وهو يمسخ دموعه: اصبر عليّ يا أخوي يوم واحد فقط، وإلى الآن رفض أن يسترد ما دفعه من المصاريف.

- ياه... عندك أخ راجل، وديدي اتجوّزت ابنه؟

- اتجوّزت محسن ابنه وعندهم دلوقت أدهم ومي.

- صراحة أخ يُفتخر به، عندك أسرة عظيمة.

- والأهم سعيدة، أنا مكملتش.

- ليه فيه إيه ثاني؟

قال في اليوم الرابع ترك أخوته؛ رجالة وستات، سيارتهم أمام العمارة، وتركوا مفاتيحها مع البواب، والغريبة إن كل واحد أرسل شيك بمصاريف ديانا قابل للصّرف لحامله.

- ياااااه... معقولة!

- طبعاّ عملي خير يكون حصاد حياتك كله خير. عملي شر يكون حصاد حياتك شر، ومن الممتع أن تفعل الخير فتحصدي شرًا، وأضاف أنه المستحيل في علم المنطق أن يجتمع الخير والشر في موضوع واحد، هل سمعت مثلاً عن اجتماع جنس الملائكة والشياطين في كائن واحد؟

انتفضت وقالت: يا لهوي! إيه اللي انت بتقوله ده؟ قال: هذا هو الثالث المرفوع في علم المنطق، المهم... وعشان كده أنا راضي عن نفسي، أحياناً كثيرة يزورني أبي في المنام، لابس أبيض، وشه منور، راضي عني.

- ربنا يهنئكم ببعض.

- أنا مكملتش.

- انت ناوي تذلني بقي!

- أبداً... أنا أحاول نقل صورة كاملة، بوجهيها الإيجابي والسليبي.

- هو فيه سليبي؟

- أيوه عشان تكوني عارفة كل شيء عن الشخص اللي ح يشتري هدية للدكتور بتاعك.

- اتفضل.

- عارفة طبعا إن قواعد العشق تستلزم وجود مرسال بين العاشقين.

- وأين ومتى جاء ذكره؟

- مسمعتيش خالص.

- أنا قرئت قواعد العشق الأربعين، ومكانش فيه مرسال.

قال بسخرية: لا انتِ قرتيها ولا يحزنون، عموماً وجود المرسال بين العاشقين أحد قواعد الغرام الضرورية في ألف ليلة وليلة والحيوان للجاحظ ومثنوي لمولانا جلال الدين الرومي، وروميو وجوليت لشكسبير والواضح إنك لم تمرى بتجربة عشق في حياتك، ممكن يا مسكينة في الحياة الأخرى.

قالت باستنكار: ليه بقى؟ وليه حضرتك بتقولها وانت متأكد قوي كده. قال مُدْعِناً لغرابية الأمر، كيف لها عمل دكتوراه في الأدب إذا كانت تلك حدود خبرتها في قواعد العشق؟

- متشكّرة جدًّا ، حضرتك تستهزئ بي طول الوقت. ممكن تقول قصة حضرتك حول الوجه الثاني للأستاذ أخو حضرتك والأ أقوم أمشي؟

حكى لها أنه كان يتبادل مع الفتاة التي عشقها رسائل عشقٍ مُلتَهبة مُخبّأة داخل مُغلّف كتاب اللغة العربية أو روايات مُجلّدة لتولستوي وباسترناك ، وعلى الأخص رواية نافخ البوق لتوماس هاردي التي حملت الكثير من تلك الخطابات، إلى حبيبته المراهقة المتوهجة التي لم تتعدى الرابعة عشرة من عمرها ، وكان أخوه يقوم بدور المرسال ، دون أن يعرف ما تحتويه تلك الأغلفة من رسائل الغرام الملتهب ، أمضينا عامين يكتب كلٌّ مِنَّا إلى الآخر رسائل ولهُ مُستعرة ، وفجأة وشى بنا ، وسلّم أحد تلك الخطابات لوالدها ، وسقطت الدنيا فوق رأسينا!

انتفضت بفزع تقول إن الجامعة سوف تنهدّ فوق رأسها لو أنه وشى لأي حد بموضوع هدايا الدكتور المشرف ، وسيكون عقابها الرّفد ، ولن تدخل من بوابة الجامعة مرة ثانية. سألتها ساخرًا عمّن يمكن أن يفعل بها كل هذا الأذى؟ قالت مضطربة أخوك ، ألم يش بك؟

قال مُتهكّمًا: انتِ صدّقتِ؟ وانغمس في ضحك وهو يشير نحوها وقد أمسك بها متلبّسة بالوقوع في مكيدته. نظرتة بغضب وقالت مستنكرة إن تصرفه هذا غير مقبول ، فهو يخدعها للمرة الثانية خلال ربع ساعة. هدأها قائلاً إنه يستحيل أن يشي أحدٌ من أخوته بالآخر ، هذا مُحرم في الأسرة حرمة الحرميين.

واستطرد: إن أخاه عندما اكتشف الأمر اعتذر عن قبوله بنقل تلك الرسائل لشعوره بالخجل عند لقائه بوالدتها لأنه يخدعهم. سألته إذا كان سوف يحافظ على سيرهما؟ أجاب بأن سيره في بير. وأنه لن يكون ذلك الجبان الوضيع الذي يشي بعلاقة أخيه والإنسانة التي يحبها.



بعد أيام جاءت أختها، وكانت من أجمل الأخوات ووجهها يحمل ابتسامة تواطؤ العالم. غمزت حاجبيها لأعلى، وهي تقول إنها بانتظار إعادة الكتاب لأختها، واستطردت: اكتب بسرعة لو سمحت، عشان احنا بنذاكر في الكتاب سوا... تتهد وهو يقول... اللعنة كانت أياماً جميلة.

- وأخوك عرف؟

- لا طبعاً، هو قال لي حد الله أكون واشي

بيك، هو أنا غير ان منك.

رفع كأس النبيذ وأعلن نخباً:

- مرحباً بالأخوة العظام في عالم تعيس.

أجابته وهي ترفع كأس نبيذها: طبعاً ونعم، ويا سلام على

الحياة مع أخوة أفاخم...



- هاتي بوسة. سألته عن المناسبة، قال بمناسبة الأخوة  
الأفخم.

- لا طبعاً.

- طيب إيه رأيك في كأس من الشودكا القوقازية. قالت تُقلِّده  
بلهجة مُتفكِّهة: من الشودكا القوقازية، هذا خطر، ولكن لِمَ لا؟...  
دعنا نشرب نخب الأخوة المُبجِّلين في عالم معجون بالنُّكد.

\* \* \* \*



مرّ شهران لم يحاول الاتصال بها، أو معرفة ما إذا كانت انتهت من خُطة البحث، أو أن الدكتور المشرف قبّلها من عدمه، كان يعتقد أنها شخصٌ مهشّم، من الممكن أن يفقد اهتمامه بالأمر، مثل طفل فقد اكتراثه بلعبة ما؛ ولهذا فضّل التجاهل، وحمد الله أن الأمور قد انتهت على هذه الشاكلة بلا مشاكل أو أضرار.



يومَ جاءه هاتفاها، كانت تبكي بكاءً مراً، ولا تستطيع الحديث، قالت من خلال نحيبها وهي توشك على الاختناق، إنها قاءت ما في جوفها عدّة مرّات، ولم يبقَ سوى أحشائها، وتمنّت وهي تفهّق لو تستطيع التخلّص من حياتها... بصعوبة تبين أن الدكتور المشرف على الرسالة رفض خُطّة البحث، وطلب منها شيئاً يتعلّق بثورة 30 يونيو، أو دور الجيش في أدب ثورة 25 يناير، حاول أن يهدّئها دون جدوى، وعندما فشل سألها أين هي الآن؟ قالت: في المصيبة الزّفت. سألها عن أي مصيبة تقصد؟ قالت: الكلية. بصعوبة أخبرها أنه قادم إليها.

مضت ساعة وهو يُحدّق في وجوه الطالبات وهن يغادرن بوابة الجامعة فرادى ووزرافات، لم ينتبه إلا وكتلة نسائية مغطّاة بخيمة متحرّكة تفتح باب السيارة الأمامي وتهبط متكوّمة على نفسها، منهارة مثل عمارات الإسكندرية التي لم تتوقف عن الانهيار طوال العقود الثلاثة الأخيرة، نظر إليها ملياً، وعندما تأكد من كونها سوزي، تحرّك بسيارته باتجاه أحد كازينوهات شاطئ الإسكندرية، حيث جلسا وحيدين في عالم ينطوي على بحيرة تلتقي عند الأفق بسماء تُخفيها السحب، وأمواج تضرب الشاطئ برّثم يدفع إلى الملل، أحضر فنجان قهوة، وبعدما رشفته تحدّث يسألها عمّا حدث. أوشكت أن تنهار ثانية، لكنه ضمّها إليه، وظلّ يُربّت على رأسها ويواسيها حتى هدأت، أعاد عليها السؤال ثانية، فأجابت من خلال نحيب ودموع غزيرة، أنه رفض خُطّة البحث، سنين وأنا زي اللي بترقص على السلالم، سألها: كيف؟ أجابت أنه طلب منها إضافة فصل عن دور الجيش المصري في أدب الثورة.

- وبعدين؟

- ولا قبلين.

- بس كده؟ انخرط في ضحكة عريضة، وهي ترمقه بدهشة، فلماً تمالك نفسه، سألها: وأين المشكلة؟ قالت بسخرية: هي شبكة كباري ستقوم بتنفيذها الهيئة الهندسية للقوات المسلحة، والأ منظومة توزيع عيش وزيت وسُكَّر وفراخ، مش معقول يا أستاذ! سألتها بهدوء أن تخرج مفكرتها وتكتب وراءه. أجابته بعناد إنها لن تكتب شيئاً، وإنها لن تقوم بعمل رسالة دكتوراه مضروبة أو من مستوى وضع. سألها بروية وصبر إذا ما كانت تريد الحصول على الدكتوراه، وأضاف أن المشرف على رسالتها يريد أيضاً أن يكون عميداً للكلية ثم رئيساً للجامعة ثم وزيراً... تبادل مصالح، طلعي المُفكِّرة واكتبي.

- مش حاكتب... مش حاكتب حاجة مش مقتنعة بيها.

- وخذِّ قال لك اكتبى حاجة مش مقتنعة بيها،

اسمعي كلامي واكتبي، وبعدين عدلي اللي عاوزه تعدليه.



كيف يمكنها  
أنه تحكي  
وما عرضه عليها

أخرجت مفكرتها والدموع الغزيرة تنهمر من مقلتيها، وانتظرتة دون أن ترفع رأسها، قال: مُقدِّمة صغيرة: في أعقاب خروج الجماهير في 25 يناير 2011 وحتى يوم الثامن والعشرين، خرجت المؤسسة الأمنية من حلبة الصراع المباشر بين

الشعب والسُّلطة والدائر في ميادين وشوارع مصر، أعقب ذلك تدخل الجيش لحماية الشعب والحفاظ على مكاسب الثورة، وقد رحّب الشعب بنزول الجيش الميادين حتى رحل الطاغية في 11 فبراير 2011 نتيجة الضغوط الشعبية، ورفض الجيش الرضوخ لتلبية مطلب زوجة الديكتاتور الطيب وأم الوريث باستخدام القوة والرصاص ضد المتظاهرين، وإغراق الوطن في حمامات الدم، أو دخول معركة لتحويل النظام السياسي إلى جمهورية وراثية، وهو ما يؤكّد أن الجيش مؤسّسة وطنية بامتياز... سألها إذا ما كان هناك مشكلة أو ما تعترض عليه، قالت: أليس الجيش من أحبط الثورة في النهاية. اعترض قائلاً: السُّلطة وليس الجيش، وهما مؤسّستان مختلفتان، ومن جهة أخرى الرسالة مرهونة بما يقدم بها من حقائق في وقت مُعيّن. والآن هل لديك مشكلة؟ أجابت بالنفي، وقالت: لكن أيه العلاقة، إنت حتلفق؟

قال بغضب: لفقت إيه قبل كده؟ قام يحاول كبح جماح غضبه، وقف على حافة سُور الكازينو، سمعها تقول من خلال دموعها إنها تعتذر عن إساءتها إليه، وأنها تحاول المستحيل كي تقدّم رسالة تتّسم بالأصالة والنزاهة العلمية، وأنها مثل الفتاة (الملطوطة)، اتُّهمّت بسرقة رسالة ماجستير، وهي الآن تتملّق ما هو خارج نطاق كل ما يتعلّق بما هو علمي لرسالة علمية لا تحتمل دعايات وشعارات فجّة؛ ولهذا سوف تتوقّف عن طلب الدكتوراه، وطلبت منه أن يسامحها، وأنها تشكره على ما فعله معها، وجمعت أوراقتها ورحلت.

يذكر أنها أخبرته وهي في حالة من الاضطراب النفسي أنها سبق وان هربت من مصحة نفسية وضعها فيها زوجها بعد أن

استغفل أمها وجعلها توقع على وثيقة توافق فيها على إيداعها مصحة خاص، وقد استطاعت ذات ليلة الهرب، ولم تعود إلا بعد أن أجبرته على توقيع وثيقة الطلاق.

في تلك الليلة لم يستطع النوم... هاربة من مشفى للأمراض العقلية.. لو تصرف على غير هواها، أو بخشونة قد تحرق الشقة، قد تنحر عنقه وهو نائم... تساءل عن المصيبة التي أوقع نفسه فيها... أيها المجنون الغبي ماذا فعلت... لقد اعترفت بعظمة لسانها... هاربة من مصحة نفسية...

مضى شهر كامل، نسيها تماماً، وحمد الله أن الدكتور حاتم أنقذه بجشعه من ورطة لم يكن يعلم كيف لها أن تنتهي، وأثناء احد المؤتمرات التقى زوجة دكتور حاتم، سيدة في نهاية الستينيات، تكبره بعقد، اشترت له شقة في جليم يقيم بها، وبينما تمضي أيامها في بلاد الحرمين، حيث تقوم على تدريس الأدب الإسلامي، كان يتصرّف كغندور، أخبرته أنها قادمة في إجازة طويلة. بعد حديث مطوّل تمنّت عليه أن يتقدّم للالتحاق بطاقم التدريس في الجامعة التي تعمل بها، فعبر عن رفضه بلطف، واتّقفا على لقاء آخر، ومنذ تركها وهو متورّط في أفكار لا رابط لها، وبعد نوم مضطرب دفع دُماه الأنيقات جانباً، وجلس أمام جهاز الكمبيوتر حيث أكمل ما رفضت سوزي استكمال سماعه، وأرسله لها عبر البريد الإلكتروني، وفي الصباح الباكر كانت على الهاتف تسأله إذا كان يمكن لها أن تلتقي به؟ رفض. سألته بغضب عمّا دفعه كي يُتعب نفسه ويسهر طول الليل ويرسل لها إيميالات سوف تُلقى بها في سلّة القمامة الإلكترونية؟

- وَصَلِك؟ أَجَابَت بِالْإِيجَاب. سَأَلَهَا إِذَا كَانَتْ قَرَأْتَهُ؟ قَالَتْ  
إِنهَا فَعَلَتْ. سَأَلَهَا عَنْ رَأْيِهَا؟ صَمَتَتْ، فَكَرَّرَ سَوْأَلَهُ، فَقَالَتْ بَعْدَ  
لَأَيِّ إِنهَا لِهَذَا تَرِيدُ مَقَابَلَتَهُ. قَالَ يَنْهَى الْمَكَالِمَةَ إِنْ عَلَيْهَا أَنْ تَقْرَأَ  
مُسَوَّدَةَ الْبَحْثِ الَّتِي أَرْسَلَهَا جَيِّدًا، وَأَنْ تَقُومَ بِتَطْوِيرِهَا، ثُمَّ تَقُومُ  
عَلَى عَمَلِ صِيَاغَةِ مُحْكَمَةٍ، وَوَضْعِ مَلَا حِظَاتٍ تَوْضِّحُ أَنَّهَا سَتَقُومُ  
بِعَمَلِ مَقَابَلَاتٍ مَعَ مِمْتَلِينَ مِنْ جِهَازِ الشُّؤُونِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَرئِيسِ  
تَحْرِيرِ مَجَلَّةِ النَّصْرِ، ”وَأَرْفُقِيهِ بَعْدَ مِنْ الْأَسْئَلَةِ الْمَقْتَرَحَةِ عَنْ  
الْمَسَابِقَاتِ الْأَدْبِيَّةِ وَالْفَنِيَّةِ الَّتِي يَجْرِيهَا الْجَيْشُ فِي الْإِحْتِفَالِ  
بِالْأَعْيَادِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَاسْتِمَارَاتِ اسْتِقْتِصَاءِ عَنْ  
أَعْدَادِ الْمَشْتَرِكِينَ، نَوْعِهِمْ، الْفَتَاتِ الْعَمْرِيَّةِ، نَوْعِ الْجَنْسِ، نِسْبِ  
مِشَارَكَةِ الْعَامِلِينَ فِي الْقَوَاتِ الْمَسْلُحَةِ مِنْ مَجْمُوعِ الْمَوَاطِنِينَ  
الْمَتَقَدِّمِينَ لِلْمَسَابِقَاتِ، وَنِسْبِ حَصُولِهِمْ عَلَى جَوَائِزٍ“... قَاطَعْتَهُ:

- اسْتَنَى أَكْتَبَ.

- تَكْتَبِي لِيهِ؟ تَعَامَلِي مَعَ الْمَوْضُوعِ كَأَنَّهُ بَحْثٌ تَجْرِبِي.

قَالَتْ بِاسْتِسْلَامٍ: حَاضِر.

سَأَلَهَا بِلَهْجَةٍ خَشِنَةٍ: بَعْدَ كَدِّهِ، إِيْهِ الَّلِي مَطْلُوبُ مَنِي؟

- أَشُوقُكَ، مَا مَا قَالَتْ لِي يَا مَخْبُولَةٌ إِيْهِ الَّلِي بِتَعْمَلِيهِ دِه، الرَّاجِلِ  
وَحَدَانِي اِعْمَلِي لَهُ حَاجَةٌ تَرْمُ عَضْمُهُ. ضَحِكُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَأَضَافَ  
مُعَقَّبًا:

- شُفْتِي النَّاسَ الْقَوَادِمَ الَّلِي بِتَفْهَمَ.



- خلاص يا أستاذ ، أنا حاعمل لك محشي ورق عنب، وتشكيلة  
محشي باذنجان وفلفل رومي وكوسة وبطاطس.

- من انت؟

- لا والله أبدًا ، تحت إشراف ماما .

- طيب... سلام .

- اصبر حضرتك... أنا لسّه مخلصتش .

- إيه تاني؟

- ملوخية ورز معمر. لكن المفاجأة حتكون في الأميرة المتوجة .

- يا سلام ومن هي الأميرة المتوجة؟ قالت بصوتٍ يحمل  
رنّة المفاجأة: بطة محمّرة... ماما جايبهاها من البلد لحضرتك  
مخصوص .

- سيبك من الحركات القرعة دي ، لا بابا ولا ماما .

- ليه كده حتزعلها. لكنه أصرّ على أن تُتَهِى خُطّة البحث أوّلاً ،  
وتحصل على موافقة رسمية ، وأضاف: وبعدين نشوف ، قبل كده  
احنا منعرفش بعض .

- حاضر حاعمل اللي انت عاوزه ، بس خَلِّيني أعمل لك المحشي  
والرز المعمر واحمّر البطة... وامتزعلش ماما .

- خُدي موافقة على خطة البحث ، وسجّلي الرسالة ، وبعدين  
نشوف. أجابت بصوتٍ بارد: حاضر يا أستاذ... أمرك .  
- يلاً سلام .

\* \* \* \*



## الفصل الثالث



الأسبوع  
الأول من

جلس يتابع فيلم "Master and Commander" الذي تدور أحداثه عام 1805 بعد سيطرة نابليون بوناپرت على أوروبا، ولم يُعد هناك من يقاومه سوى البحرية الملكية البريطانية، وبناءً على أوامر من الأدميرالية البريطانية إلى السفينة الحربية البريطانية "سربريز" باعتراض السفينة الحربية الفرنسية "أكيرون" المتجهة إلى الباسيفيكي، وإغراقها، أو أخذها غنيمة حرب، دارت مطاردة شرسة في أعالي البحار... تابع الفيلم وقد استغرقت تلك القدرة الهائلة لدى بشر يواجهون بشجاعة فائقة قوى الطبيعة المهولة، كان مفتوناً بالجمال المطلق في تواضع غُف أمواج البحر وسطوة السماء تعبثان وتتلاعبان بالسفينة الحربية "سربريز"، التي يقودها بمهارة في عرض المحيط قبطان قام بدوره الممثل (راسل كرو)، فكَر في براعة التكنيك وإبداع طاقم التصوير الذي حصل على جائزة الأوسكار عن الفيلم، وهو يصوّر السفينة وكأنها ألعوبة بين قوى أسطورية هائلة: رياح مدمرة، عواصف رعدية، أمطار غزيرة، أمواج ترتفع أعلى من صواري السفينة، على وشك ابتلاعها ودفنها في باطن أكبر مقابر التاريخ الطبيعي، ثم لا تلبث أن ترتفع لتستقر على قمة الأمواج، كأنها عصفور صغير لا يأبه بالخطر الجسيم الذي يحيط به.

تصاعدت من حوله طرقات وضربات عنيفة... فكَر إذا ما كان صوت الدولبي المَجَسَّم للتلفزيون وشاشته الضخمة التي تتجاوز 60 بوصة، والذي أهداه له ابنه المقيم في الكويت، يحيط به من كل جانب، لكنه انتبه عندما انفتحت دُرَف الشرفات والأبواب

على مصراعيها، شاهد البرق يرسم على السماء صواعقه،  
والرعد يدفع بالمطر الغزير إلى الداخل، والرياح العاصفة تطيح  
بكل شيء، لحظتها تيقن أنها لم تكن شاشة التلفاز الذي انقلب  
على ظهره دون أن يتوقف عن البث...

أسدل الظلامُ غلالته على شمس الظهرية، والإعصار يدكُّ  
جدران العمارة التي تكاد تتصدع وهي تهتز كصاري السفن،  
والتي ترتفع طوابقها كلَّ عقدٍ من الزمان دون أسباب قانونية  
أو فنية معلومة سوى أنها تتجهَّز لكارثة من كوارث العصور  
المصرية الحديثة، اندفع هدير المطر يكس كلَّ شيء. قفز من  
أريكته الوثيرة وهو يفكر إذا ما كان الله قد استجاب لأمنية لم  
يطلبها وحقَّق له حُلماً لم يحلمه، بأن يصير قومندان في البحرية  
البريطانية التي غزت العالمين: القديم والجديد! وهو لم يفعل،  
ربما كان متأثراً بالفيلم الذي كان يراه لتوّه، لكن شلالات الماء  
البارد التي صفت وجهه جعلته يفيق... طرق رأسه بقبضة يده  
وغمغم:

”  
نُوة الحسوم...“

جاءت مبكرةً عن موعدها بيوم... خلل في مواقيت النوات،  
تغيّر الطقس بصورة دراماتيكية... وارتفاع مستوى سطح البحر،  
ولا نعرف ماذا أيضاً... يا الله ما أعظم قدرتك.

كل شيء يوشك على الانهيار. أبواب ونوافذ المنزل فُتحت على  
مصراعيها، وصارت تقرع الجدران وتقاتلها، وارتفع الضجيج  
حتى بلغ السيلُ الزُبى. قفز إلى الشرفات يغلِق دُرفها المفتوحة،

تلك التي تطلُّ على البحر، أو على الشوارع الجانبية، لاحت منه التفاتة إلى الأمواج الشاهقة تبتلع مراكب الصيد وتتلاعب بالسُّفن البعيدة، اختفت طيور النورس وخُلا البراح من البشر والكائنات الحيَّة التي هربت تبحث عن مأوى من غضب الطبيعة الهادر، تلاشى الأفق، واحتلَّ الكونُ سماءَ سوداء، وتولَّت سُحبٌ كثيفة داكنة سرقة شمس الشتاء وأخفتها خلف العتمة وجحافل المطر...

كان يعلم أن الأمر لن يتوقَّف عند غلق النوافذ، فالعاصفة القادمة سوف تقتلع كل شيء ولن تُبقي على شيء... يجب غلق الأبواب والنوافذ بالمزليج والرِّتائج، أسرع يطمئنُّ على دُماه من الدَّمار القادم، ويدخلهن من التراس إلى الشقة المجاورة، وهو يحرص ألا تطيح به العاصفة من سطح العمارة إلى أسفل الطريق.

انتهى من الجانب المواجهة للرياح، سمع صوت ارتطام حادًا بالأرض، أسرع إلى صالة الاستقبال حيث وجد الشرفة مفتوحة على مصراعها والتلفاز ملقَى مرَّةً أخرى على ظهره، بينما لا يزال يعرض تلاعب أمواج مضيق الكاب هورن بالسفينة "سبريز"...

غمغم... آلاف الجنيهات ضاعت هباء، وكل شيء يوشك على الدمار، تجاهل كل ما هو على الأرض وأسرع يُحكِم إغلاق الشرفة بمزلاج حديدي على عارضتين متقاطعتين، مُستخدِمًا أقفالاً رقميَّةً من طراز حديث تغلق بالبصمة، كذا فعل في بقية الغرف، عكف يجمع أشلاء المنزل، ويعيد الأغراض المبعثرة،

وتلك التي تهشمت، وقطع الزجاج المتناثرة في أرجاء المكان، وعندما انتهى من وضع كل شيء في موضعه، وألقى بقايا الأشياء المدمّرة في القمامة، وقف أمام التلفاز وأخذ يعيد ضبط تركيب وصلاته في محاولة لمعرفة حجم الخسائر، وعندما جلس أخيراً على الأريكة وأدار الريموت وجده ينطق وكأن شيئاً لم يُصبه، رفع يديه يشكر الله كثيراً على فضله، فمنذ سنوات داهمه شعور بصورة لافتة بتساؤل خسائره المادية بصورة لم يُعد قادراً على إنكارها: لا حافظة نقوده نُشِلت، ولا أوراقه الثبوتية فُقدت، كما أن عالمه الروحيّ يميل الي استقرارٍ يتيح له راحة نفسية. صِنُو لعالم الزُهد والتسكُّك. تداعت أفكاره... سوريا يشارك في فناؤها كلُّ أجناس الأرض بما فيهم أبناءها، وجيش الدفاع الإسرائيلي يقتل الفلسطينيين على نواصي الطُّرقات بدم بارد ودون عقاب، ويدكُّ غزّة ولا يتوقّف عن تدميرها وتحطيم إرادة أبنائها أمام بصر وأسماع العالم، غمغم والأسى يُمزّقه: يا إلهي الرحمة. تهاهى إليه صوتُ المحمول يرنُّ، فتح شاشته. بدا أنها تلفنت له عشرات المرات، سمعها تصرخ تستجد به. سألتها متفكّها:

- إيه؟ فيه إيه؟

- إلحقني بموت.

قال بلكنةٍ جادّة باردة: يا سوزي إنتِ عُمرِك ما حتموتي إلا لما الناس كلها تموت، ساعتها مُمكن عزرائيل يفكّر في موتك. صرخت: حضرتك بتهزر... باقول لك حاموت وانت بتتريق.

- طيب حتموتي ازاي وانت صوتك بيجلجل زي اللي بتولد ابنها  
البكري. سمع صوتها يخفت وهي تُكرّر باستسلام: باموت والله...  
حاموت وبسبب خبالك وفلسفتك الخرقاء. لوهلة انتبه الي أنها  
تعاني من مآزق، سألهما: فهميني انت فين دلوقت؟

- في الشارع اللي وراك. شعر بالدهشة: بتعملي إيه في الشارع  
اللي ورايا؟ هتفت ساخطة: باعمل إيه يعني؟ جاّيه للأستاذ الرّفت.  
- هو احنا بيّنا ميعاد؟ صرخت ثانيةً بصوت حاد: باقولك  
حاموت وانت فاتح لي تحقيق. دا انت بارد. قال معترضاً: لو  
سَمَحْتِ الزمي حدودك. انطلقت تبكي وهي تقول له: أنا باموت...  
سَمِعْتِ؟ أنا باغرق.

- إنت قاعدة في العربية؟

- أيوه... أنا باغرق أنا والعربية.

- حاضر... حاضر... دقائق واكون عندك.

- دا لولِحِقْتِنِي.

أخذ معظماً واقياً من المطر وشمسية، ثم فكّر أنه قد يحتاج  
حبالاً قوياً، حاولت دُماه أن تمعنه من الخروج، اقترحت إحداهن  
أن يأخذ دمية أو اثنتين من الدُمي الذكور، فهبّ بعضهم يعرض  
عليه اصطحابه للمساعدة، لكنه رفض بحزم، ودفعهم جميعاً  
لدخول المخزن، وأغلق عليهم المزالج بصعوبة، تدافعوا يقلب  
بعضهم بعضاً، تجاهل المصعد واندفع يقفز السلالم.

عندما خرج إلى الطريق كادت العواصف أن تقتلعه، مرّت



أمامه مباشرة دُمِيَّة مُمَزَّقَة الأوصال تطيرها الرياح، تابعها تصطدم بعمود إضاءة الشارع، في الطُّرقات اندفعت السيول تحمل عشرات الدُّمِي؛ رجال ونساء وأطفال منزوعة الأوصال، بلا رؤوس، أو فقدت أطرافها، قِطَع تربط بينها أسلاك معدنية وكهربائية تالفة، تتجمّع أشلاؤهم في الأركان أكواماً من القمامة.

أوشك على الانزلاق، فكَّر مُنْدهِشاً كيف لها أن تخرج في هذا الطقس العاصف، أسرع مُحْتَمِياً بالجدران، استدار ناحية الطريق الجانبي، حتى بلغ الشارع الخفي، كانت هناك وسيارتها الفولكس واجن الهجينية تقف وحيدة في منتصف الطريق، إلا من دُمِيَّتين تكسَّرت أعضاؤهما على مقدمة السيارة، فكَّر ربما كانتا تحاولان إنقاذها، ربما سرقتهما، ربما التحرُّش بها، كان منسوب المياه قد بلغ منتصف السيارة، بدا أنها سقطت في حفرة أخفتها مياه الأمطار التي تغطي الطريق، وتخفي مطبَّاتِه وحُفْرَه، ضحك وكانت تبكي، نادى عليها أن تغادر السيارة، دفعت بغضب الأبواب تريد أن تقول "وهل كنتُ في حاجة لأحد كي يخبرني بأمر كهذا"، لاحظ أن الأبواب ممتنعة عن الفتح، توجه ناحيةها وهو يخشى أن تبتلعه إحدى بيارات شبكة صرف مدينة الإسكندرية، التي لا تشبع من ابتلاع سُكَّانها، وصار معلوماً أن الشبكة السفلية للمجاري جزءاً لا يتجزأ من عالم المدينة السُّفلي، الذي تديره باقتدار جَنِيَّاتٌ تعشق خطف عرائسها، وشياطين تكره أبناءها، الذين لا يزالون يسيرون فوق سطحها رغم أنف عفاريت العالم الآخر... غمغم وهو يتلمَّس طريقه... ليس في المجاري تكون نهايتك. ربط الحبل الذي جاء به بجذع إحدى أشجار البونسيانا،

وتقدّم يغوص في الطريق مُتَّجِهاً ناحيتها، تعثّر قبل أن يتمكن من بلوغ السيارة، أشار لها أن تفتح الزجاج، حاولت للمرة المائة دون جدوى، جذب قطعة حديد مُلقاة على الأرض. طرق الزجاج الجانبي بقوة، انتشرت شرخ شعريّة ثم تناثر إلى فتات، مدّ ساعديه يتلقفها وهي تحاول الخروج من نافذة السيارة، مُمسِكَةً بحقيبة جلدية، لاحظ ساقها الرُخاميّتين يكشفان عن عُريهما...

**جاءت سافرة،  
شعرها معقوض بفيونكة حمراء،  
ترتدي فستاناً من الموسولين  
الأبيض، مُنقّطاً بدوائر زرقاء.  
أثناء عبورها نافذة السيارة  
كُشف الفستان  
عن ساقين من رخام...  
ما الذي يحدث؟**

بلغ بها الرصيف، وعندما لامست قدمها الأرض عادت للباء ثانية، قال وهو يناولها معطفه الواقى إن احتمال موتها قد تضاءل، ارتدت المعطف، وهي تقول من خلال دموعها إن كل شيء فُسّد، تجمّع عددٌ من الشباب يدفعون

بالسيارة ناحية الرصيف... غمغمت... حضراتكم كنتم فين؟ أجابها أحدهم بفضاظة: وحضرتك سايبية بيتك وخارجة ليه في النؤة؟ أمسكت بساعده وهبطت الطريق تتلمّس موقع الحُفْر، بصعوبة فتحت باب الشنطة الخلفي للسيارة، أخرجت حقيبتين ودفعت بهما إليه، أغلقت غطاء الشنطة، خاضا في سيل المياه والأوحال... انزلت وكادت أن تقع، طوّقها من خصرها واستندت عليه، حملها حتى بلغ بها الرصيف، في طريق العودة كانت آلات

قمامة عملاقة تجمع كائنات البلاستيك من الطرقات،  
تلتهمها، تهضمها، تلقي بها كتلاً صلبة مكعبة إلى لوريات الهيئة  
العالمية لنظافة وحماية البيئة. توفّع مصيرها؛ مصانع إعادة  
التدوير في برج العرب، أو العاشر من رمضان.

\* \* \* \*

وقفت وسط صالة الاستقبال مبلّلة تحيط بها بركة من المياه،  
أغرقت غزارة المطر فستانها وشمّت ملابسها التحتية والتصقت  
بتقاطيع جسدها، لم تستطع الجلوس وهي على هذه الحال، قال  
ينصحها إنها في حاجة إلى حمام دافئ، هزّت رأسها موافقةً،  
سبقها يضبط حرارته، فلما انتهى دعاها فاندفعت من فورها  
مقرورة في ملابسها المبتلة، نادى عليها عدة مرّات إذا ما كانت  
قد اعتمدت خُطة البحث لكنها لم تسمعه، سألته أن يحضر ما  
ترتديه، وكان قد بدأ البحث بين أمتعة زوجته التي لم يفتحها منذ  
سنوات.

من فرجة باب الحمام أعطاهما قطعتين من ملابس داخلية  
يتكوّنان من "push-up bra"، و"girdle"، وعندما خرّجت كانت  
غاضبةً، جلست أمامه وهي تشير بدهشة إلى ما ترتديه من  
"Women`s underwear"<sup>(4)</sup>، غمغمت: معندكش هدموم غير دي؟

- عاوزه "Men`s Underwear"<sup>(5)</sup>؟

تتهدّت باستسلام: إنّ مش ممكن.

---

(4) (Women`s underwear): ملابس تحتية للنساء.

(5) (Men`s Underwear): ملابس تحتية للرجال.

- فيه إيه؟ قالت بتساؤل: دي هدوم المرحومة؟

- فاتن... أيوه.

- معندهاش حاجة غير دي؟

- طبعاً... عندها "Classic, High-cut briefs"، عندها "Bikini،

"boy short، Hipster"، عندها كل الأنواع تقريباً، بس دي أكبر

حاجة عندها، مش عاجباك؟... عاوزه حاجة أصغر؟ أضاف:

فيه "Thong G-strings"، استطرده بجدية: أقوم أجيبه؟ أجابت

ساخرة: لا شكراً... مُمتنة قوي على كرمك... أشارت لما ترتديه

متسائلة: هو ده أكبر حاجة بتلبسها. أجاب بتأكيد قاطع: كانت

بتروح بيه الشغل. قالت بفرح: بتروح الشغل كده. قلب كفيه عابساً:

إيه؟ فيه إيه؟ وهلة وفهم مقصدها: إنت جري لعقلك حاجة، ده

"underwear" مش فستان سهرة.

- ما تجيب لي فستان أو بيجامة... أنا حاسّة إني

قاعدة عريانة.

قال إن

هذا ما

عثر عليه...

وأضاف:

وبعدين إنت جميلة

قوي كده... نظرت إليه

بعرفان، وقالت:



- ميرسي. حافظ كل أنواع "Women`s underwear"، إيه كنت بتتاجر فيهم، والأ فاتح محل ملابس نسائية داخلية.

- هوده كل اللي فهمتية؟

- قول لي انت، إيه اللي ممكن يتفهم، وانت عمال ترص أسماءهم واحد بعد الثاني، لا بتتلجج ولا عامل حساب لي، وكأنك بتتكلّم عن أنواع الأيس كريم... آيس كريم بالشوكولا، آيس كريم بالفانيلا، آيس كريم بالفراولة... إلى آخره...

- ما هو فعلاً كده، إيه الفرق بين "Women`s underwear".  
والأيس كريم الاتنين ب... توقّف وقال: ما انت عارفة... والأ تلاقك  
منتش عارفة حاجة خالص...

- ليه بس التهم المجانية دي؟ قال بغضب: مش مجانية ولا حاجة، إنتم جيل غلبان؛ السادات لبسكم حجاب ولباس شرعي. وقمع عقلكم، وضعه في قناع حديدي، مبارك لبسكم نقاب، مرسى نادى بكم للجهاد من الملعب الأولمبي، لبسك يا سوريا، بن لادن جعل منكم وسيلة شرعية ليشبع رجاله رغبات جنسية تاكواي، داعش حوّلتكم سبايا حرب، وجواري يتم تبادلها بالبيع في المزاد والمقايسة بأعقاب السجائر بين المجاهدين، طالبان طردت الأمريكان واستولت على كابول وأعلنت حرمة أجساد النساء على الرجال إلا الطاهرين منهم... الحرب الروسية الأوكرانية جعلت من النساء ضحايا تجارة الجنس الأبيض... أنصار الخلافة تقايض النساء بالماشية، والنسخ الأحدث جعلت من التنكيل بكم والأقليات المادة المفضلة لتجسيد ذواتهم، وتأمين دخولهم

الجنة، مسكينة، حترعفي منين الفرق بين "Bikini" و"boy short" و"Hipster"... آسف متحاوليش... عملية ميؤوس منها.

حاولت أن تتحكّم في أعصابها، وألاً تنفّلت منفجرة في وجهه، وقبل أن تنبس بكلمة باغتها قائلًا إنه انتقى لها سوتيان "push-up bra"، كي يرفع صدرها لو كان متهدّلاً بسبب... وهزّ يده، وأضاف: لسببٍ أو لآخر.

- لا يا سيدي، أشكرك، أنا صدري متماسك وصلب زي الرّمّان، أنا لا رضعت طفل ولا اتنين، وجوزي مكُنش يفهم لا في النهدي ولا الورك، كان يقضي وطره مع حاله، ويسيبني متنكّدة، مش فاهمة إيه اللي حصل. تدخّل بعنجهية: طبعًا لازم يحصل كده. آخر مرّة زحّت للدكتور إمتي؟ قاطعته غاضبة: ليه بقي؟ حاروح لخمسين دكتور... كفاية أنت.

قال إن المشكلة لا تخصّها ولا تخصّ زوجها السابق، فهم جيل لم ينشأ على قبيلات أنور وجدي وليلى مراد، شكري سرحان وشادية، ومريم فخر الدين، عبد الحليم وصباح، هم جيل لم يترعرع على لحظات الهيام والرومانسية لعمر الشريف وفاتن حمامة... ممارسة الرومانسية تحتاج تدريبًا... تبادّل المشاعر والعلاقة الجنسية تفتضي مران، لكن لسوء حظكم السادات سلّمكم للجماعات الإسلامية كالقطيع، استكبر على المصريين ممارسة عواطفهم كما فعلوا منذ آلاف السنين. كيف لعلاقتك مع زوجك حتكون سوّية؟ قالت محتجّة: هو كل حاجة عندك سياسية، حتى علاقتي الجنسية مع زوجي تحتطّها في إطار أيديولوجي...

مش ممكن، حرام عليك. أوشكت على البكاء، فتح ذراعيه على سعتهما يدعوها أن تأتي إلى حضنه، فجاءت مستسلمة، همس وهو يفك عن شعرها الفُوطة التي لفتته بها: مش سبق إنك سألتني إذا ما كنت سأقوم على غوايتك؟ هزّت رأسها بالإيجاب، استطرده أن هذا يُعدُّ مرحلة في الاستراتيجيات العسكرية، وتُسمّى نظرية استخدام الفرص السانحة في تحقيق التقرب غير المباشر.

التفتت مُتسائلة تستفسر عمّا يعنيه. قال إن من أهم وسائل بلوغ الهدف أن يتم حشد القوات والتقدم إلى خطوط القتال بطرق غير مباشرة لا يتوقعها الخصم... من حيث القدر أتاحت نوة الحسوم لحظة مناسبة وأنت الآن تحت سقف الخطر، أريكة الغواية أتاحت المكان المناسب للاقتراب غير المباشر، وأنت الآن تجلسين أمامي في ملابس داخلية فرضتها الضرورة، مكنتنا من الحديث عن علاقتك الجنسيّة مع زوجك السابق، أباحت لنهديك اللاتينيين أن يُطلّأ عليّ مثل ملحمتين أسطورتين من تاريخ آلهات الأوليمب، كلانا يتحدّث في وجود ساقين مصبوبيتين من رُخام، جسديك في الخلفية يهيمن على المشهد. قالت برفقة وهي مبتسمة بسعادة:

**في الصدمة  
التي تحل بالأغبياء  
ومعدوسي الموهبة**

- كل ده بيدور في مَخَّ حضرتك؟

قال إن كل هذا يدور في مَخَّ حضرتي منذ حملها من نافذة سيارتها، والآن هل يمكن أن

تخبريني عمّا جاء بك؟ وأضاف: وما الذي تفعله أواني الطعام التي أحضرتها معك؟



قفزت فوق الأريكة مثل المجنونة،  
شاهدها ترفع يديها وتلوح بهما فرحاً  
وهي تصرخ معلنة أنها اعتمدت خطة  
البحث، وبشروطها، وأضافت مُصححةً،  
بشروطنا، من ذاك الغبي المدعواتم.

تابعها في صالة الاستقبال ترقص أمامه جزلةً،  
هنأها دون أن يرفع عينيه عن جسدها الذي أطلَّ  
عليه بوقاحة من ملابس زوجته الداخلية: "push-

up bra" و"girdle" الأسودين، يرشفها  
ببطء، فيزداد شغفه، تنقّلت في أرجاء  
الشقة، دخلا المطبخ وعندما خفت  
حدة المطر خرّجاً إلى التراس، تجوّلت  
تحت الرزاز بين ممراته وأطلت من  
السور، دون أن يغيب عن حدود جسدها حدُّ

الأفق وسماء مكلّلة بالسُحب، ولا أمواج نؤة الحسوم  
الشاهقة التي ترتفع وهي في طريقها إلى الشاطئ، تضربه بقوة، ثم  
تهبط عليه لتعاود من جديد، مُطلقةً جدائل شعرها مع صوت الرعد  
وصواعق البرق وضربات الهزيم، وجسدها المشتهي، قطعة قطعة،  
وكلاً مُطلقاً لا يفارق عينيه...

انتقلا إلى الداخل هرباً من قوة الرياح والعاصفة، مدّت أناملها  
تعبث بكفه، وهي منخرطة في روايتها عن لحظات حصولها على  
الموافقة على خطة البحث، قالت إنه أصيب بالذهول وهو يقرأ  
الجزء الخاص بالورطة التي أراد أن يقضي بها عليها، لكنها كالت

هذه المرة  
عاملني باحترام

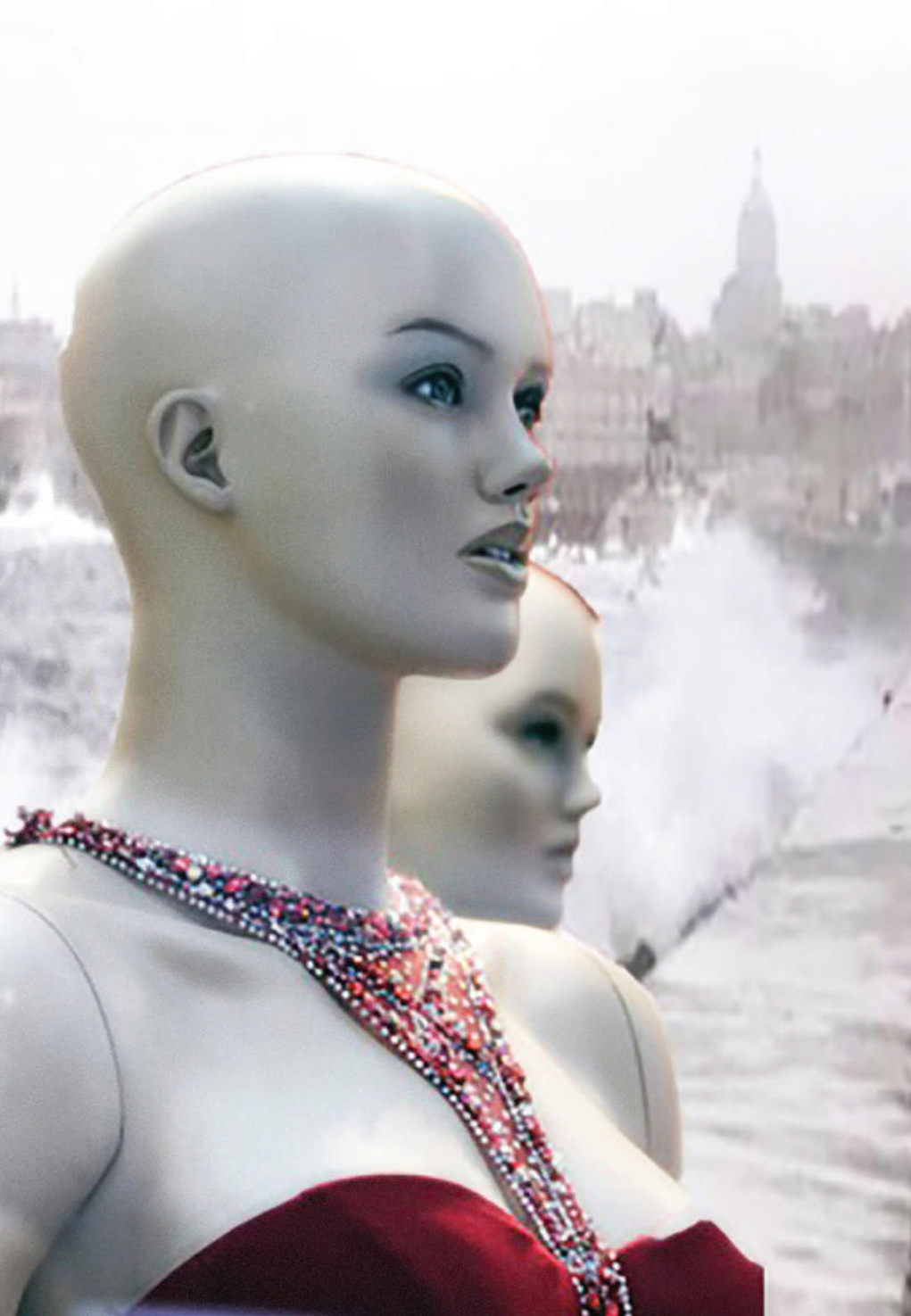
السافل  
توقف  
عن التمرش في



له الصّاع صاعين، وأن دهشته كانت مليئةً بالحقده وهو يسألها من الذي ساعدها في كتابة هذا الجزء من البحث. قالت أبدأ... إنها صمّمته خلال وجودهما معاً في ميدان القائد إبراهيم أثناء ثورة 2031 النسخة الثانية، صمت قليلاً ثم أضاف يسأل عمّن ساعدها في الاتصال بالشؤون المعنوية؟ قالت وهي مستمتعة بالغباء والغيرة اللذين يأكلان قلبه وعقله إنها أخبرته أنها استعانت بابن خالة أمها وهو لواء في الجيش، والذي صحبها في سيارته خصيصاً إلى القاهرة، حيث استقبلهما عميد في الشؤون المعنوية، بأدب جمّ وترحابٍ شديد، وأنهم فتحوا لها كل الأبواب، وأخبروها أنهم سوف يقدمون لها كل مساعدة ممكنة.

انخرطت في الضحك وقالت إنه حاول أن يلغي هذا "الشابتر" من الرسالة، فأجابته بلؤم أن هذا يسعدها جدّاً، وأنها موافقة على إلغائه؛ فالسفر إلى القاهرة والبحث عن مكان للمبيت لدى الأقارب أمرٌ يتعبها، وأن تزك والدتها وحيدة يسبب لديها قلقاً؛ لهذا استكون شاكرة لوقام على إلغاء هذا "الشابتر"، ولكنها أضافت بلهجة تحذيرٍ مبطنّة، بأنّ عليها أن تحذره من أنه لو فعل فسوف تخبرهم بأن الدكتور المشرف هو صاحب القرار، وأنه حرٌّ في تحمّل تبعات إلغائه.

\* \* \* \*





## الفصل الرابع

# يومان في النعيم

يومان قضاها يتابعها وهي تحوم حوله في عُريها كالفراشة، تقف أمامه وجواره وخلفه، ثم لا تلبث أن تجلس جواره على الأريكة التي أطلقاً عليها معاً "أريكة الغواية"، وهي مستترقة في رواية انتصارها على قوى الشر، يبتعد عنها متراجعاً إلى الخلف، كي يتمكن من رؤية جسدها شبه العاري يحتسي بعينه الأجزاء الظاهرة من نهديها وخصرها وورديها وبقية الجسد فيما بعد حدود السوتيان والسروال التحتي الأسودين...

أطلق أصابعه تتخلل جدائل شعرها الأسود، يتملأ جسدها بصبرٍ وروية؛ جبينها المعتدل، حواجبها المرسومة بدقة على شكل هلال فوق عيون متأقّة بذكاء يسبح على حزن شفيف، وجنتها المرسومان بغمازتين في المنتصف، وأخرى في قاع ذفتها الدقيق، شفتان بارزتان ورديتان ثخينتان تنضحان باللون القرمزي، يخطف لحظة مناسبة ليعرك أذنيها، يلثم عنقها الأهياف قبل أن تنتبه وتدفعه بعيداً عنها برقة متحجّجة بأنها "تغير" من مداعباته، يقف خلفها يمسك خصرها، يضمها من ظهرها إلى صدره، وهي منهمة في رواية كيف أن الأستاذ المشرف عندما هدّدته بأن التخلّص من "الشابتر" الذي طلبه بنفسه والغاء قد يتحوّل إلى كارثة على أمّ رأسه، تراجع على الفور يستر نفسه، وكأنّ أحداً أمسك به عارياً عُري آدم الفاضح الذي أودى بنسله إلى الجحيم الأرضي، وبجبن شديد قال: إنه يتفق معها في أهمية الشابتر، ولو أن الأمر تعلق بالسفر الي القاهرة فهو يعدّها بأنه سوف يصحبها بنفسه في سيارته حتى مكتب اللواء مدير إدارة الشؤون المعنوية. تنهّدت في غضب،

وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها، فاعتذرت بحسم مُتَحَجِّجَةً بزوجها السابق، الذي يغير عليها من الهواء. ذكَّرها بأن زوجها ظلَّها، لكنها قالت بحزم أنثوي رقيق: دكتور... اسمح لي... أنا مش عاوزة مشاكل... أنا تعبت وانت عارف. فزكت كفيَّه بقوة وهي تتحدث بسعادة وتقول إنها شعرت لأول مرة معنى أن يكون المرء الأقوى، وكيف استخدمت أساليبه المريضة في إثارة الرعب لديه، كان جباناً.

على مائدة الطعام جلست بجسدها الرشيقي الرِّيان، يرتشف عُريها، كتفاها العاريتان تضويان بلون الفضة، يزينهما الخيط الأسود الرفيع لِحَمَائِنِي مشدَّ الصدر، يحملان من طرفيهما ذراعين ملساوين، ينتهيان بكفين صغيرين وأنامل دقيقة، تابعتها تتناول الطعام، تمنى لو تدعه يقضم أناملها واحداً خلف الآخر... ذهب ببصره بعيداً مُنْتَظِراً اللحظة التي ستركه يمتصُّهما بشفتيه بصبر وزويَّة... قال يتنفس رائحتها: حسناً سيدتي الجميلة أين محشي ورق العنب؟

- حالاً سيدي الكونت.

- والملوخية ومحشي الباذنجان  
والفلفل الرومي؟

- أوامرك سيدي اللورد.

- والأميرة النائمة؟

- المحمَّرة المحشَّية باللوز والجوز

والمكسرات.



ها أنت  
تتولين المهمة

قال بارتياح بالغ: وأخيراً ألف مبروك، الخطوة الأولى خلصت. أجابت وعيناها مغرورقان بدموع الامتحان: الله يبارك فيك، لن أنسى لك هذا الجميل، ولكن... ولكن إيه؟ قالت برجاءٍ يحوي رنةً اعتذار لو يمكن أن يحضر أحد قمصانه. واستطرذت: مش قادرة أقعد كده.

- حاضر. قام إلى غرفة نومه وعاد بقميصين، قدّمهما إليها وقال هذا بكم وهذا بنصف كم، أيهما تفضّلين؟ أشارت للثاني، فأعطاه لها وهو يستسمحها بأدب أن تتركه مفتوحاً، نظرت إليه وقالت بلوّم إن النساء لا يفتحن عرينهن لرجلٍ عيناه زائعتان مثله، وإذا كانت لديه الرغبة، فعليه أن يفتح حصونها بنفسه. هزّ رأسه وقال: طبعا، علمناهم التسؤل سبقونا إلى الأبواب.

\* \* \* \*

وقفت أمامه تسأله وهو مُمدّد بارتخاء على الأريكة عن مكان القهوة التي تنوي عملها له، لم يكون موجوداً ليجيبها، فأمامه أطلّ بطنٌ لجينيّ ضامرٌ، ناعم من الحرير، والملين، تتوسّطه فسقية تمتدّ إلى حيث هوة مظلمة، وكأنها السفيرة عزيزة بنت الوهيدي معبد سلطان تونس الخضراء تصف للجواري بطنها وسرّتها، "فسقية أسفها جينة هاوية"، تعلن العرب والبوادي أن جسدها مشتعلٌ متأججٌ بالحرّاق، وسوف يخمد ويصير رماداً إذ لم يلحق حبيبها بها وينقذها... للمرة الثانية سألته عن مكان القهوة، لكنه كان متوّمًا، يعلم أن عليه أن يغرق في المغارة الواقعة أسفل سرّتها، ولكن كيف يفعل وبطنية نهدتها يُطلّان عليه بسحريهما

من أسفل المشد، وحلمتاها مشدودتان، بارزتان، تدعوان فمه للتطفُّل، وتطلبان كفيَّه كي يزنهما قبل أن يعرکہما برفقٍ أوْلاً ثم بتغرہ ثانياً، استدارت تقف أمامه، وهو غارق في أفكاره، ربَّت رأسه بأناملها، ما اضطرَّه قسراً أن ينظر إلى خصرها وما بينهما يطلُّ بارزاً على بُعد مليمترات قليلة بتنوءٍ صنَّعه فتَّان، حيث يحاول الهرب. لكنه هرب بالفعل... الآن تمَّ اعتماد رسالتها، وهي أسيرته بفضل "نوء الحسوم".

تابع خصرها وردفيها ملفوفين بسروال زوجته المصنوع من ستان أسود مُحلَّى بالدانتيلاً. يحوي بطنها هضيماً، وركان عريضان، فخذان، وساقان رومانيتان، مصبوباتان من رُخام إيطالي لجبال تسكاني. وقمَّة برجل ساقَيْها ناتئ يطل عليه بوقاحة. وكأنه يفيق من حلم جميل أخبرها بمكان القهوة، أثناء تناولها قالت وهي تشعر بالحرج:

- ممكن أسأل حضرتك سؤال؟

- تفضلي... إيه؟

- سؤال خاص.

- كفاية بقى، مفيش داعي... خُلِّي اليوم يعدي على خير.

- أبداً والله.

- اتفضلي.

- عن المرحومة.

- يا دي النيلة.

- فيه إيه؟

- أولاً المرحومة لها إسم، ومش لازم تفكّريني إنها ماتت.

- حاضر. ممكن أسألك عن فاتن هانم.

- أيوه كده، اتفضّلي حضرتك.

- هي كانت بتمشي في الشقة لابسة حاجة؟

- ليه... ليه يا سوزي... ح تمشي ملط؟! هو احنا في بيت للدعارة!

ده بيت محترم.

- كانت تقعد لابسة إيه؟

ارتسمت ابتسامة مريحة على وجهه وقال: كان عندها لبس خاص بالبيت. بيجامات، قمصان للنوم، وحاجات تانية.

قالت بهلع: زي إيه؟ قال: شورت، "Hot short" مع "Sport bra" أو "RACERBACK"، لكن أكثر حاجة تفتّنت في لبسها، كانت "Crop top"، أو "Cropped top"، فاهمة حاجة... طبعا لا... ما انتم جيل الجماعات الإسلامية.

استعانت بالصبر وتحاملت على نفسها تسأله، تستوضح منه عمّا يقصده من كروب توب، قال بلوزة أو شيرت أو تي شيرت أو بدي "cut"، لا يرتدى سوتيان أسفله، تنتهي حافته السفلى عند منتصف البطن، هكذا يصبح البطن والظهر عاريين، يظهر الخصر والسُرّة. ويكشف الكتفين، أو كتفاً واحداً، وعندما يكون مُعلّقاً بحمّالات أو سيور على الكتف، يفصح عن عظام كتفين وظهر عاريين، تحلّ فتنة يستحيل مقاومتها، فتنة تأخذ عليك



لَبَّكَ... وهو في كل الأحوال مثير جدًا، عارفة ليه؟

- طبعًا يا أستاذ لازم يكون مثير جدًا، هو فيه لبس خالص.

- قصدك عريان؟

قالت بيقين: أيوه. أجابها وهو ينقل إليها إحساسًا بالشفقة بسبب جهلها المفرض: لا يا مسكينة.

- ماشي أنا مسكينة وحضرتك الأستاذ، ممكن تشرح لتلميذتك؟

- إذا كان النهدان عامريين وصلبيين فإن "Crop top" يكون شديد الإثارة، وسألها إذا كانت تعرف السبب، أماءت بالنفي. قال: النهدان الصُّلبان يرفعانه لأعلى، فيبدو الجزء الأمامي منه مُعلَّقًا على النهدين، ينتره بعيدًا ولأعلى بعرض النهذ زائد طول الحلمة.

- ده درس رياضة!

أضاف غير آبه بتعليقها: يتدلَّى "Crop top" من قُبَّة النهدين وعلى مبعدة صلابتَيْهما وينترهما بعيدًا عن الجسد، فيبدو الطريق مفتوحًا من البطن العاري إلى الجزء العلوي المخفي من الجذع ومن ثمَّ إلى النهدين اللذين أصبحا طابيتين على لوحة شطرنج بلا حراسة، قرييين، سهلين كسكَب كأس من النبيذ على جسد امرأة قبل ارتشافه، لكنهما أيضًا ممتنعان كحيفا، بعيدان كيافا، مثل المشكلة الفلسطينية. لا يَجِئُ لأي كائن في عالم مُتَحَضِّر أن يلمسهما إلا بموافقة سيدتهما. تساءلت متجاهلة

شرحه المطوّل: عندي إحساس إن مراتك حالة وهمية، تختلقها في خيالاتك. حلّ الصمت وبدأ أنها مستغرقة في التفكير. تساءلت بصوت خافت: - أنا ممكن ألبس شورت؟

- بتقولي إيه؟

- ممكن ألبس شورت؟

- شورت والأهوت شورت؟

قالت بغضب: قصدي هوت شورت.

- ها... هذا يعتمد على عودك ومقاس أردافك... أقفي كده.

وقفت على مقربة. سألتها أن تدور حول نفسها ببطء. فعلت، استطرده بصفاقة يطلب منها أن ترفع ذيل القميص فاستجابت مُستسلمة، شعر بهزة تتدفق في جسده، قال بصوت بارد: الأرداف ممتلئة شوية، محتاجة تنقص ثلاثة سنتيمتر، وأضاف بغطرسة أنه يعتقد أنه يمكن لها أن ترتدي هوت شورت.

جلست على بُعد ذراع منه غاضبة، غمغمت حزينة: أحاول المستحيل عشان أخس، أحياناً أنجح لكن كثير أفضل.

- متزعلش قوي، ممكن تجربي.

قالت بلُغةٍ مُحايدة: طبعاً قماش الهوت شورت مصنوع من الچينز. هز رأسه يتأسّف من جهلها. وقال: لا طبعاً... الچينز للشورت العادي. ساد الصمت، وتشاغل عنها بقراءة خُطّة البحث، مُبقياً على عدم الحديث، حتى جاءه سؤالها:

- أَمَالٌ يَتَفَصَّلُ مِنْ إِيَّاهُ؟ اسْتَدَارَ نَاحِيَتَهَا وَرَبَّعَ مِنْ قَدَمِيهِ، وَجَلَسَ يَرُوي لَهَا حِكَايَةَ أَوَّلِ هَوْتٍ شَوْرَتْ حَقِيقِي فِي حَيَاتِهِ، بَدَأَ عَلَيْهَا الِاسْتِمْتَاعَ وَهُوَ يَحْكِي حِكَايَاتِ مَاضِي بَعِيدٍ، قَالُ إِنَّ القِصَّةَ الَّتِي سَيَرُويهَا حَدِثَتْ عِنْدَمَا كَانَتْ الأَسْرَتَانِ مُخْتَلِفَتَيْنِ عَلَى زَوَاجِهِ بِالْفَتَاةِ الَّتِي عَشَقَهَا، هَذِهِ المَرَّةُ كَانَتْ وَالدَّتْهَا الَّتِي مَا فَتَتَتْ تَعْرِضُ عَلَيْهَا الزَّوْاجَ مِنْ رِجَالِ جُلُومٍ يَنْتَمُونَ إِلَى مُؤَسَّسَاتِ سَيَادِيَّةٍ: ضَبَاطُ جَيْشٍ، ضَبَاطُ شَرْطَلَةٍ، وَكَلَاءُ نِيَابَةٍ، كَانُ غَاضِبًا وَتَعَيْسًا، وَمَسْتَقْبَلُهُمَا يَتَعَرَّضُ لِلدَّمَارِ، أَثْنَاءَ تَنَاوُلِهِمَا الغَدَاءَ فِي أَحَدِ الكَازِينُوهَاتِ المَطَّلَّةِ عَلَى البَحْرِ، أَعْرَبَ عَنِ غَضْبِهِ مِنْ وَالدَّتْهَا وَأَعْرَبَتْ لَهُ عَنِ غَضْبِهَا مِنْ شَقِيقَاتِهِ، كَانُ يَهَاجِمُ أُمَّهَا مُسْتَكْبِرًا: هِيَ السَّتُّ وَالدَّتُّكَ مَشَّ حَتَّهْمَدُ بَقِي.

- لِيهِ يَا حَبِيبِي؟

- مَرَّةً جَايِبَةً لِكَ نَقِيبِ مَهَنْدِسٍ مِنَ الفَنِيَّةِ العَسْكَرِيَّةِ مَرشَحٍ لِتَوَلِّي مَنصَبِ مِمثَلِ عَسْكَرِي فِي إِحْدَى القَنْصَلِيَّاتِ المِصْرِيَّةِ فِي أوروپَا، وَمَرَّةً وَكَيْلِ نِيَابَةٍ مِنْ مُؤَسَّسَةِ القَضَاءِ، فَاضِلُ ضَابِطٍ مِنْ أَمْنِ الدَّوَلَةِ، وَأَنَا بَنِي أَدَمٍ اتَّخَلَقْتُ مُعَارِضٍ لِلنَّظَامِ، أَعْمَلُ إِيَّاهُ؟ حَضَرَتْهَا حَتَدَمَّرَ حَيَاتِنَا، المَفْرُوضُ يَتِمُّ إِعْدَامُهَا فِي مِيدَانِ القَائِدِ إِبرَاهِيمِ بَاشَا. ضَحَكَتْ وَقَالَتْ: وَالسَّتُّ وَالدَّتُّكَ مَعَاها. قَالُ إِنَّ أُمَّهُ لَمْ تَعْبُرْ عَنِ اعْتِرَاضِهَا عَلَى زَوَاجِهِمَا. إِخْتِجَّتْ وَقَالَتْ: إِخْوَاتُكَ البَنَاتُ زَفُّوا. قَالُ يَتَحَرَّقُوا. قَالَتْ وَمَنْ وَشَى بِحَبِّنَا؟ قَالُ: كَمَا يُعَامَلُ الخُونَةُ، يُطَاحُ بِرَأْسِهِ تَحْتَ المَقْصَلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ. كُنْتُ غَاضِبًا، أَمْسَكَتُ بِيَدِي وَقَالَتْ: يَا حَبِيبِي لَا تَشْغَلْ بِالكِ... فَافْكَرِ الهَوْتِ شَوْرَتْ الَّتِي كَتَبْتُ لِي عِنْدَهُ فِي جَوَابَاتِكَ المَوَلَّعَةَ نَارًا؟ ابْتَسَمَ

وقال طبعاً، دائماً أتخيّلك وأنت ترتدينه في منزلنا وأصابع قدميك ملوّنة بالأحمر، والجَنَّة مرسومة على كعبك، يُطلّان عليّ من صندل مفتوح. قالت إنها سوف تسافر غداً على رحلة لندن، وسوف تشتري قطعيتين قماش چرسية من حرير خالص. إحداهما سوداء وتُسمّى منتصف الليل، والأخرى في لون دم الغزال. سألها عمّا ستفعل بهما. قالت إن عليه أن ينتظر ولا يتعجّل، ذلك أنها منذ قرأت ذاك الخطاب المكتوب على ورق روز، وأنا أفكر كيف أفاجئك بذلك الشورت مع هدية خاصة سوف تُرضي خيالك المشاغب. قاطعها: عرفنا إن الأول سيكون هوت شورت، وأكد الأحمر. ضغطت بيدها الساخنة على كفه وقالت برجاء: يا حبيبي الصبر، مستعجل على إيه؟

تراجع للخلف مُبقياً على كفّها في يده وقال: اتفضلي... لن أنيس بكلمة. قالت إن هذا النوع غالٍ جداً. وهو ليس چرسية فقط، وإنما استرتش أيضاً، سوف أفصل قطعة هوت شورت، والثانية ميني چيب، سيكون مشدوداً بنعومة على أردافي وفخذي... نظرت في عينيه اللتين رحلتا بعيداً يتخيّلها في كلّ من الشورت الساخن والميني چيب، وعندما أفاق كانت تقول بإصرار، وهذا سيكون من أجلك أنت فقط، لن تراه حتى السيدة والدتي. انفجرنا في الضحك، وعندما عدنا من عالم البهجة الذي أحاطتني به، سألتها عن السبب الذي يجعلها تفضّل القطعة الأخرى ميني چيب، قالت بخيبة أمل: عاوزه ميدي أسفل الركبة. هتف بغضب: مش ممكن، أنا عاوزه ميكرو چيب... تهلّل وجهها، وقالت هذا هو حبيبي، وأضافت أن هذا سوف يُقلّل من التكلفة. تراجع إلى

الخلف قائلًا: هل تعلمين فيم أفكر الآن؟ ابتسمت بغبطة تنفي معرفتها فيما يفكر الآن. نظرتُ إلى الجالسين على المناضد، ثم إلى النيل الجاري، لا أرى في الفضاء سوى شفيتها، قلت:

- باحبك... ونفسي أهصر شفيتك هصرًا...

كانت جواره منومة، وعندما بدا أنه انتهى من حكايته عن الهوت شورت، وحينه الطاعي لاستعادة ذكرياته القديمة مع حبيبته، تنهدت وانكششت على حزنٍ شفيف، ثم انتفضت تسأله: أستاذ.

- نعم.

- هو حضرتك على أي أساس بتحدّد؟

قال ببراءة: أحدّد إيه؟

- يعني إذا كان الهوت شورت حيكون مناسب لجسمي والألا؟

قال ببراءة طفل: على أساس فاتن حبيبتي.

غمغمت غاضبة... يا دي حبيبته اللي وُجّع دماغنا بيها... استطردت برنة عتب: هو أنا كنت شُفت حبيبتك فين؟ هي كانت صاحبتني وأنا مش عارفة؟

- آه... آسف... استطرّد بجديّة العلماء:

- شُفتي فيلم "Indecent Proposal"؟

...

- بطولة روبرت ردفورّد، وديمي مور.

- ده من الثمانينيات راخر؟

- لالا... التسعينيات... يعني قبل ما تتولدي... ابْتَسَمْتِ، ثم تحوّلت ابتسامتها إلى سعادة وبهجة، ها هي حاضرة في المشهد وليست مجرد ظلّ لامرأة غادرت الحياة منذ سنوات، قالت: مش للدرجة دي.

- أو كي، كنت لسه في علم الغيب... استطرّد قائلاً لو أن لديها رغبة في مشاهدة هوت شورت حقيقي، هناك مشهد في فيلم "عرض غير لائق" تقتحم ديمي مور أحد المطاعم الفاخرة حيث يتناول الملياردير روبرت رد فورد الطعام مع مجموعة من رجال أعمال، وتقلب عليهم جميعاً المائدة بما احتوته من أطباق مُحمّلة بالطعام.

تساءلت بسخرية عن العلاقة بين ما رواه وبين وصف الهوت شورت. قال وعيناه تلتمعان: في هذا المشهد تعبّر ديمي مور القاعة الرئيسية في جسدها الفارع الممشوق كشجرة سَرو، وهي ترتدي الهوت شورت، تملأ ساقاها العاريتان الشاشة من أخصص القدم حتى الخصر، وقد أحكم الهوت شورت وثاقه علي ردفها فتحول قماش الجرسية الاسترتش وبشرتها قطعة واحدة، سواء في التكوين أو الانطباع الذي تعكسه الجاذبية الجنسية المطلقة في "الفيتيش"<sup>(6)</sup> وسواء أردت أن تعرفي شكل الهوت شورت، أو تأثير مظهره علي شكل وصورة المرأة، أو معرفة كيف كنت أرى فاتن وهي ترتديه، تستطيعين مشاهدة هذا المقطع من الفيلم على اليوتيوب.

---

(6) الفيتيش: Fetichism: إشباع الشهوة بأثرٍ مادّي من المعشوق؛ ملابس، أحذية، إلخ.

- ممكن أسأل سؤال؟

- اتفضلي.

- إنت ليه مهتم بملابس النساء؟

- إيه؟ صعب قوي تفهمي؟

- لا مش فاهمة، ممكن حضرتك تفهمني.

- مش عارفة ليه؟ شايفاني ترزي حريمي، أو مصمم أزياء؟

- لأ... طبعا مش غبية قوي كده...

- لا... لا... إنت شخص ذكي جدا، ولو لم تكوني كذلك، مكنتش

قبلت إن علاقتنا تطور من مجرد مساعدة في الرسالة إلى إن

نكون أصدقاء، لكن موضوع مُحير، ازأي مش عارفة؟

- حضرتك ليه تجادل، ما تقول على طول وتخلصني.

- أنا باعشق حاجتين في الحياة: الوطن وأجساد النساء.

قالت بغضب: فعلاً... شخص بوهيمي ويساري قح، ليس لديه

أخلاق. ضحك وقال: ليه؟ حضرتك شرقتيني في منزلي، نشغل

من الصبح حتى منتصف الليل، عمري ما قرّبت منك، عمري ما

اتصرّفت معاك بأي صورة من الصور خارج أصول الاحترام.

أشعر بمدى ذكائك، مدى ثقافتك، مدى سلام نفسيّتك،

يخامرني إحساس أن لديّ صديقة نادر الحصول عليها في سوق

الصداقة المغشوش، أحياناً أحس إنني أشتهيك، وفي كل الأحوال

أنا لم أقترّب منك نهائياً.

قالت بصدق: أشكرك. استطرد: لكن أجساد النساء موضوع ثاني، مَنْ لا يعشق الزهور، مَنْ لا يعشق البحر ونسيمه، أعاصيره، عواصفه، من لا يعشق غابات التنديرا ومراعي أفريقيا، مَنْ لا يعشق النيل، ما قيمة كَلِّ هذه الأشياء أمام أجساد النساء، هذه هدية الرب لأبنائه، نعمته ونعمته، عذابه ومتعته، البهجة والشقاء، السعادة والتعاسة. عارفة رنوار<sup>(7)</sup>؟

- طبعاً. قال إن رينوار قال لابنه (كريستيان) عندما طرد الموديل التي يرسمها، "إنه الجسد... ولا شيء غير الجسد". هنا يقيم الجمال المطلق، عندما تتلاشى شخصية كَلِّ من الرجل والمرأة، عندما يتلاشى عقل كل منهما، وجسدهما الواعيان بالوَلِّه والوجد، يعبران اللغة والبصر والأفكار والجغرافيا؛ ليبقى اللا شيء، الشيء الوحيد الحقيقي هو الجسد في جماله، في اكتماله في نهاياته، خصر وأرداف وسيقان، جذع ونهدان وعُنُق ووجه وعيون وشفاه وثغر... الجسد وحدة المنتصر، أفروديت الأولى مادته. مصنوعة من نيران ثلجية هادئة تحيط به تلك القوى العظمية المحكمة للوجود؛ الحب والكراهية. هكذا وُلِد الكون، هكذا وُلِد الانفجار الكبير، وكل ما تلاه تفاصيل متعجرفة، في عالم يُندَر فيه النبل أو الشرف.

قالت إنه ولا بُدَّ يحب المال؟ أجابها عندما يكون أوراق مالية تحيط بجسد امرأة. مثل رواية "السَّام" لألبرت مورافيا، سألته، ألا يشتهي أكلة معينة؟ قال عندما يكون الكرز مرصَّعاً فوق

(7) بيير أوجست رنوار (1841 - 1919) : ( Pierre-Auguste Renoir ) فنَّانٌ فرنسيٌّ من أبرز الرسامين في تطوير الحركة.. وخاصة الحِسِّيَّة الأنثويَّة.



نهدين، عندما يكون التوت البري مرشوقاً مثل خاتم ألماس على سُرّة امرأة، عندما ينتال عسل الشهد على الما بين... رفعت يديها تمنعه عن الاستمرار، وطالبتَه أن يكفّ. ساد الصمت لوهلة، لكنها لم تتمكن من التوقّف عن ارتشاف صورهِ، بحثت طويلاً عن مدخل ما، واستطاعت أخيراً أن تسأله عن عصير الفواكه الذي يُفضّله، قال: عندما يكون نبيذاً أحمر مخلوطاً بشفاهِ النساء الغليظة. قالت متصنّعةً الغضب: بس ده مش عصير؟ قال: اعتبريه عصير الكروم. طيب ممكن حضرتك تسكت. عشان انت فعلاً معندكش أخلاق.

- تاني... أشكرك. قالت عندي سؤال أخير. ممكن؟ اعترضها موضّحاً أنها تراه غير أخلاقي، وهذا غير صحيح، وعليها أن تنتبه، إنه لم يُغويها لأي شيء ممّا تتّهمه به.

- لو سمحت، سؤال أخير.

- اتفضّلي.

- فيتيش! يعني إيه فيتيش؟ قاطعته قبل أن يشرع في الشرح وقفزت وهي تمسك برأسها تغمغم: والأ أقولك، أنا تعبت وتأخّرت، ولازم أمشي.

- يعني مش عاوزه تعرفي معنى الفيتيش؟

- لا لا لا لا، شكراً شكراً شكراً... أنا اكتفيت ولازم أروّح.

- تروّحي أزي؟ قالت: زي الناس.

- هوفيه ناس في الشارع دلوقت، والأ متوقعة مني أتطوّع بتوصيلك.

- طبعاً، أمّال حتسيبني امشي من هنا لمحرم بيك لوحدي!  
- في العاصفة والنّوء دي؟ اتجنّنت!  
- يعني مقدرش اعتمد على شهامتك.  
- وإيه كمان، أساساً عربيتك بايظة.  
- وعريّتك؟

- انسي، كلمي ماما، وبلّغيها إن عربيتك معطلة، وإنك حتنامي  
عند واحدة صاحبك. قالت باستنكار: أساساً هي عارفة إني جايّة  
لحضرتك، وبعدين أنا متعودتش أكذب نهائياً، ومش حاكذب آخر  
العمر.

- آخر العمر إيه يا بنتي، إنت لسه  
محضّلتيش ثلاثين سنة. لم تفتّه ابتسامه  
الزهو التي ارتسمت على وجهها،  
استطرد أنه ليس له شأن بالأمر، وأن  
عليها أن تتصرّف كما يحلو لها.

- أنزل لوحدي

يعني.

- أوّلا

معندكيش هدوم

تلبسيها، لا "Underwear"

ولا "Outerwea"، لسه مبلولين.

أشارت إلى غرفه نومه وقالت:

ممکن تسلفني من فساتين فاتن...



هه؟. علقُ مُسْتَنْكِراً وتغصُّن وجهه، أشار بإبهامه ناحية غرفة النوم: مستحيل طبعاً.

ضجَّت من السخَط وهي تلتفُّ برأسها في الفضاء، وتقول إنها لم ترَ منافقاً مثله، يعطيها الملابس الداخلية لزوجته التي وجع دماغنا عنها عشقاً، فتجلس أمامه عارية، ويمنع عنها ملابسها الخارجية، حتى تبقى أمامه في عريها، والله لو كنت منها لقتلتك. تجاهلها واستطرد: ثانياً محدِّثُ قالك انزلي وحدك. وليه تنزلي من أساسه. وأشار إلى غرفة النوم، وقال: نامي انتِ هناك، واقفلي الباب على نفسك، وأنا حانام هنا على الصوفا. واستطرد: عشان متخديش عني فكرة وحشة.

- هو انا لسه مخدتش.

- لازم تعرفي إني لوخَّبرت بين أجساد النساء والوطن... قاطعته وقالت ساخرة: عارفة عارفة... سوف تختار الوطن طبعاً... يساري فجَّ. زي الكتاب ما بيقول... قال بغضب:

- قصدك إيه؟ قامت للداخل وهي تشوح بغضب: إفهمها زي ما تفهمها. لكن أرجوك... متمساش تسلّم لي على الوطن.

\* \* \* \*





## الفصل الخامس

# في فضيلة التَّريُّث

قام يحضر لكل منهما كوباً من النسكافيه، لحين أن تستقرَّ على حال، مُضيفاً أن عليها أن تُهاتف والدتها، وستكون هي مَنْ تُلزمها بالأخبار مكانها في هذه النَّوَّة المدمِّرة. جلس في ركنه المفضَّل؛ يستند بظهره على المُتَكَأ الواقع في الجانب القصير منها، يمد ساعده وساقه على امتداد المسند الخلفي، تجلس في المنتصف تحمل هاتفيها النقال، تنهمك في جدال مع والدتها عمَّا حدث للسيارة، تستدير نحوه تخبره أن والدتها ترسل له تحياتها، عندما انتهت شرعت تتبادل الشات على هاتفيها النِّقَال مع أشخاص لا يعرفهم ولم يحاول أن يعرف. بعد مُضيِّ وقتٍ عنَّ له أن يسألها رأي والدتها، هزَّت رأسها بالإيجاب، قالت إنها شرحت الأمر فطلبت منها البقاء حيثما تكون، والأ تغامر بالخروج في هذا الطقس الذي جعل الإسكندرية ساحة حوادث دموية. قال بانتصار إن هذا ما يتوقَّعه أي عاقل. تساءلت عمَّا ينبغي عليها فعله الآن؟ قال بسخرية: شات مع العالم الآخر، ثم سألتها أن تقرأ له خُطَّة البحث التي تَمَّت الموافقة عليها، فوافقت بحماس، قامت إلى حقيبة الظهر وعادت بها، هبطت بجسدها على أريكة الغواية لتجلس على مقربة منه، دعاها لتضطجع بين أحضانه، فجاءت مثل قِطَّة سيامي تعرف الطريق إلى مَثواها، استلقت بجذعها الثقيل على صدره. وتمدَّد فرعها بين ساقيه... وكانت المرة الأولى...

## شرعت في قراءة المقدمة:

في الخامس والعشرين من يناير عام 2011 فُطِمَ الفَرْدُ المصريُّ للمرة الأولى في تاريخه الممتدّ لآلاف السنين من ثقافة العبودية الضاربة بجذورها في لا وَغِيه الجمعي، سرطان لا يقتل ولا يبرؤ. في تلك الأيام الخالدة تَأَلَّقَت الروح الفردية في ظل وحدة الجماعة الشعبية التي أصبحت تنطلق في سلوكها من خلال بزوغ الذات الفردية من عماء تاريخ العبودية الاجتماعية والسياسية، وأصبحت الأمة المصرية على موعدٍ تاريخي مع تواسُّجٍ وغيها الجمعي بمفهوم حرية الفرد وكرامته...

فَكَ ضفيرتها وأطلق شَعْرَها على صدره، لتملأ خياشيمه رائحةً تحمل عبق العُشب والمطر، وبتف الثلج وهي تهبط في البراري... كانت جدائلها باردة ناعمة، قطرات ندى تحطُّ على بشرته في فجرٍ شتويٍّ، مُضْمَخٍ بعطر الطبيعة الأَخَّاذ، انبَسَطَت على صدره كومة من زهور وأوراق ليمون مُنَدَى بالبكاره، تشمَّمه، فلبسته لوثه مَنْ لا يملك من أمره شيئاً، وانكبَّ ينشره على وجهه، يستنشق شذاه مرَّةً تلو مرَّةٍ غير قادر على التوقُّف، شعر أنه يتوحَّد مع جدائل شَعْرها بصورة قهرية، وأنه عاجز عن التفسير... يا الله ما هذا السحر... يا الله ما أحلى هذا النسيم... سألهَا عن ذلك العطر الذي عَطَّرت به شعرها، هزَّت رأسها وهي منهمكة في القراءة نَفِيًا، فمن أين تأتي تلك الرياح القطبية؟ ومن أين ينبعث ذلك الأريج الأسير الذي يخلب اللبَّ... تابعت قراءتها، وأنامله تترئُّض على المُتاح من جسدها، يأتيه صوتها مُسْتَقْرًا مُحَايِدًا حينًا وحينًا مُتواسِّجًا بلوَّعة واعتلال.

كبح نفسه بصعوبة كي يبتعد عنها، واكتفى بأنامله تتخلل جداولها، دون إرادة شرع في تدليك رأسها، شعر باستجابتها لأنامله. فهبط بعد وهلة إلى عنقها، كتفيها، ظهرها، وهي لا تتي تترك له كل ما يناله بارتياح واحتياج، وعندما عاد إلى كتفيها كان عليه أن يمد أنامله إلى حيث ينبغي عليه أن يفعل... سألت بصوت مبجوح: بتعمل إيه؟

- ولا حاجة. سمعها تستطرد: ...

”وسيكون لهذا الحدث الفريد في تاريخ الحياة الاجتماعية المصرية ووعيتها وقُعه الحاسم على فنون الأدب، وخاصةً الرواية. يقول جورج لوكاتش في مقاله ”المثل الأعلى للإنسان المنسجم في علم الجمال البرجوازي“: ”كلما ازدادت الحياة قُبْحًا وفسادًا في العالم الرأسمالي الذي ما فتى يتطوّر تطوّرًا واسعًا، ما فتى الإنسان يتوق إلى الجمال... في العالم الرأسمالي الذي يقوم على تقسيم العمل يتمرّق الإنسان جسًا وعقلًا، وفي ظل تطوّر فوضويّ تَضَمُّجٌ أو تتطور نوازع الإنسان“. ويقول بلزاك إن المجتمع الرأسمالي ينتج في كل مظهر من مظاهر الحياة النشاط والقبح بالضرورة. إنه يدوس بالأقدام طموح الإنسان إلى حياة جميلة متناسقة، وهكذا ينحطّ الجمال والانسجام بفضل النزعة المدرسية أو الأكاديمية إلى لا مبالاة مُجحفَة

في ظل هذا الواقع... يقول لوكاتش: ”يتحتّم على الواقعيّين الكبار أن يُصوِّروا الحياة المتنافرة الممرّقة للإنسان المعاصر، الحياة التي تسحق بلا رحمة كل ما في الإنسان من عظيمٍ وجميلٍ، بل فعل ما هو أسوأ من ذلك، تمسخه داخليًا وتُفسِّده، وتشدّه إلى القذارة، المجتمع الرأسمالي مقبرة للأصالة والعظمة الإنسانيّتين“.



مضى الوقت، لا تسمح له من نهدبها بأكثر ممَّا يُطلُّ من حامل  
المشدِّ، يهبط عليه ويتوسَّد نعومته ويملاً به كفه، يُمسِّده برقة، بينما  
كامل النهدين حلمٌ بعيد المنال، يداعب مُخيلته أفقٌ وُردِّيُّ يُطلُّ من  
قصي، ينتظر في نهايات الوري على وعدٍ بحرائق، تتضرم نيرانه  
مُختلطةً بلهب الشفق... فصبِرًا إذن آل ياسر، فإن موعدكم الجنة...

- حاقولك حاجة ممكن تكتبيها في رسالتك.

- بجد؟

- اسمعي بس...

تخلل شعرها بأصابعه، وعاد يُدلك جبينها ورأسها، تقبلته  
مستسلمة، نحت اللاب توب جانباً، وضمت ساقها وأنتهها إلى  
صدرها ومالت جانباً تتوسَّد صدره، غمغمت بصوتٍ دافئ: يلاً  
قول... ها... يلاً... قال إن غالبية الصور الشعرية لدى الشعراء  
تكوّن من خلال انعكاس للتجربة الحسيّة، هذا ما يقوله لي  
صديقي...

- أنا حاكتب كده...

- أيوه. تساءلت: أين؟ في المقدمة؟

قال: ليس مهمًا... اكتبي وإلا سوف أنسى... واستطرد: هذا ما  
يُنْبئني إليه صديقي وأنا مُمدّدة على صدره، وجدائل شعري  
تملاً خياشيمه، برائحة أرج الطبيعة الخلاب... وعطر الجسد  
الصافي... قاطعه صوت ناعس: (ملاحظة)... أنا لا أضع عطرًا...  
كملي اللي باقوله...

... يقول أستاذي وصديقي إن جدائل شعري تملأ خياشيمه  
عطرًا من ندى يلمع كالألماس على بتلات الورود والسيسبان،  
قطرات مطر تسقط في يوم شتويّ بغابات بولونيا. قفزت من بين  
أحضانها وقامت تضحك وهي تخبره أنه يريد من رئيس الجامعة  
سحب الماجستير منها، وأضافت: لا... لا حيسحب الليسانس.  
جذب جذعها الكائن بين أحضانها إلى صدره وقال يُقبل عنقها،  
دون أن تُمكنه من فعل ذلك بارتياح: لا... لا... أبداً... هؤلاء لا يفهمون  
قيمة الأنثى، ووعداها بأن سوف يسحب منها شهادة الميلاد.  
عقبت ضاحكة: يا... له حضرتك؟ قال: أنتِ كائن ينتمي لعالم  
آخر، ليس لديك حاجة لشهادات العالم الدنيوي... جسد الأنثى  
المطلق... منك تورق النساء أجسادها...

\* \* \* \*

جاء موعد النوم، دخل غرفة نومه، وخرج ومعه وسادة  
وبطانية، ألقى بهما إلى الأريكة، قدم لها مفتاح الغرفة وطلب  
منها أن تتفضل وتغلقها من الداخل. قامت يداهما شعور بقلق  
مشوب بالخوف، تمنّت لو تمر تلك اللحظة على خير، لو حدث  
فسوف تكون ممتنة إلى الأبد، دلفت وهي تحاول أن لا تلتقي  
عينها بعينه، وأسرعت تغلق الباب من الداخل. خيل له إنها  
ولا شك تتنهد بارتياح، ابتسم وهو يغمغم... غبية... بلهاوات هن  
النساء...

\* \* \* \*

في صباح اليوم الثاني وقفت على رأسه في قميصه عارية  
الساقين والبطن، تقوم بكّي فستانها، وكان مُمدداً على الأريكة  
وصوت المكواة يدق فوق رأسه وهي تدخل وتخرج بصخب من  
غرفة نومه ( التي لم يشاركها إيها ).



عندما جلست أمامه عارية الساعد  
في فستانها الحليبي المصنوع من  
الموسلين المنقط بدوائر زرقاء، مرّت  
بصدره شهقة. همس: أنتِ شديدة  
الجمال.

في فضيلة

التريّة

- شفت بقي؟

- مش عارف أزاى فاتني كل ده؟

جلسا يراجعان خُطة البحث التي نالت

الموافقة عليها، وقف في التراس يدعو ابنته وزوجها عبر الهاتف  
لتناول صينية سمك دينيس ومياس وجمبري على الغذاء في  
الأسبوع المقبل، وبينما يتجوّل لمحها من خلف زجاج بلقونة  
التراس تجلس على الأريكة وقد ضمت ساقها العاريتين أسفل  
فخذها... توقّف عن الحديث، وازدرد ريقه، مُستمعاً بعذاب النَّأي  
ومُتغّيّه، عادت بكتفيها إلى الخلف وهي تتثائب، رفعت ساعديها  
لأعلى إلى الورا، وأطلقت صدرها إلى الأمام، ارتفع نهدها في  
مشد السّتان الأسود عالياً. شعر بأوصاله تتفكك، عاجزاً عن  
اجتياز ما بين فخذها وربلة ساقها، وانشده عقله في إدراك ما  
لا يُدرك... ذاك السحر الذي قبض على حلقومه، وجعله لا يعرف

كيف يمكن له أن يحتوي كل بوصة من جسدها داخله، فكّر... ألا  
يفسّر هذا أكل لحوم البشر... لا بأس إذن؟

أمسكت به وهو في حالة تلبّس، سألته عمّا به. قال إن قبائل

أكلة لحوم البشر لا يفرطون فيمن يحبونه. لم تفهم

شيئاً، سألته إذا كان يستمتع بهويته المفضّلة؟

قال أي هواية تقصد؟ قالت وقد افتّرثعُرُها عن

ابتسامه حبيّة: "إغواء النساء"؟ تساءل بغضب

لماذا تتهمه بأن غواية النساء هواية له؟ هل

تظنّه ثوراً "طلوقة"؟ نفّت بأدب. لكنّها

أضافت أن منظره مفضوح. هتف

بحنق يسألها عمّا تعنيه؟ قالت أبداً

لنترك هذا الموضوع، لكنها عادت

تسأله بدافع قهريّ عمّا إذا كان قد قام

على غواية كثير من النساء؟ نفى، وقال إنه

لا يمضي وقته على بوابات محطات القطارات لالتقاط نساء في

حاجة للغواية. نظرت مستفسرة، فاستطرد وقال النساء أنواع.

قالت مثل؟ قال هناك نساء أقلعت عن الحب، وأخريات لم تعرفه

أصلاً، ونساء تعشق رجالهنّ، وأخريات لا تفهم معنى الغواية،

وهناك من لا تمتلك مواصفاتها، وهناك المريعات المغرورات

اللائية يقطرن كذباً، والمتكبّرات اللائي يقتلن مرصّ الأنا،

والمناققات اللائي حولن أجسادهن رماداً، وقد فقدن إلى الأبد

ما يشعل فيهنّ أحاسيس الرغبة. أصدرت صوتاً ينم عن دهشتها

وتساءلت: كل ده... لكن أكيد حاولت؟

ألا يفسر هذا  
لذة أكل  
لحوم البشر؟

- حاولت إيه؟



- إغواء امرأة. هرش رأسه يحاول تجاهلها، لكنها هاجمته متسائلة، ألا يمضي حياته في إغواء النساء، أم تبهجه الوحده؟ عاد هذه المرة وتهد بصبر وقال ليس كل النساء في حاجة للغواية، فهناك من يقتحم

عالم الرجال دون دعوة، يستمتع بالاحتراق في أتونه، هناك نساء يندفعن كي يستلقين على حافة الصوفا العريضة وهنّ لازلن يقفن في الباب... تهد وقال هناك نساء تقاضيك وتصلبك أمام كل أنواع القضاة على ما قدّمته لهنّ من خدمات... هناك

جميلات يلمعن بالجاذبية والذكاء

والفطنة، يستمتعن بالغواية، لكنهن مقموعات،

أسيرات مرض الكبح، يقفن ملجومات على الحافة، يتطلعن إلى نهر اللذة توقاً وهنّ عاجزات عن السباحة. وهناك الأنسوأ على الإطلاق.

اندفعت تسأله بلهفة وجزع:

- مثل من؟ أرجوك أخبرني يا أستاذ.

المجد لك ولاستراتيجيتك  
فونك كالأزفيق  
حقاً...  
أفضل وسيلة  
لكسب الحرب  
هو تأجيلها

قال هناك النفعيَّة التي تغزو الفراش حتى تقضي مصلحتها  
ثم تفل إلى فراش آخرين، وهناك من تخفي نرجسيَّة مُفرطة  
تحت غلالات تضحُّم الأنا الثقافية ولا بأس من مسحة من أفكار  
تقدميَّة؛ ذات مستفحلة تفرض نفسها بخيلاء على كل مجتمع،  
وهي تعلن دون تواضع أنها تعلم كل ما سطره الوجود في الوجود،  
يعصرها الألم بحثًا عمَّن يغويها، عاجزة عن إدراك أن قلبها  
خواء.

سألته بدهشة واحترام كي يخبرها عمَّا يعنيه.

قال هناك أولئك  
السايكوباتك المنفصلات  
عن الواقع، اللائي تضارب  
انحرافاتهن النفسية  
مطالِبهنَّ الجسدية...

.....

- وهناك الممرضة  
الألمانية الفاتنة التي  
انتزعها رنين هاتقها  
المحمول وهي على  
شفا بلوغ الذروة،  
قفزت من  
الفراش،



ومضت عارية يشدها التوق إلى الاستمتاع بلذّة النميمة، ليتوه المرء في معرفة إلام ينتمي لون الشبق؛ الرجل الذي سلّمت إليه جسدها أم الهاتف النّقّال وشهوة الاغتياب. توقف.

انتظرت قليلاً ثم عادت تسأل إذا ما كان هناك أخريات؟ قال ألا يكفيك؟ قالت فقط للمعرفة إذا كان هناك أنواع أخرى؟

قال فضلاً عن المتديّبات والمنذورات لأبنائهن أو للفقير المادي أو النفسي، واللائي نُذرن للعِفّة وامتنعن عن الملذّات الحسيّة، وفضلاً عن السحاقيات، والقائمة تطول...

أصدرت صوتاً ينمُّ عن دهشتها وقالت: ياااااه كل ده يا أستاذ، لكن أكيد حاولت؟

- حاولت إليه؟ قالت: تغوي امرأة... قال (يا دي النيلة)، ومن لا يفعل وهي الوظيفة التي علّمتنا إيّاها جدتك حواء الأولى.

نهضت من موضعها لموضع آخر وهي تهمس بإعجاب:

- شُفت بقي؟


سألها: شُفت إليه؟

- إنّت حكاية.

\*\*\*\*







الفصل السادس  
فيما تفعلهُ الدُّمى  
من مُنادمة

ضمَّها بين ساعديه بحميميةٍ وودٍّ، غَفَّت في أحضانه، ظلَّ  
لا يؤتِي حركةً، مُسْتَعِزِّبًا بِثَقَلِ جَسَدِهَا، عندما استيقظت سألته  
بدهشةٍ، وهي تنظر ناحية واجهة التراس الزجاجية: مين دول؟

نظر ناحية الدُمي: مين دول مين؟! أشارت ناحية التراس  
وقالت هؤلاء. تساءل إذا ما كانت تراهم، أماءت بالإيجاب. سألتها  
عمًا تراه. قالت إنها ترى دُمي على هيئة مانيكان؟  
قال: كُنْتُ أَظُنُّهُنَّ أُسِيرَاتٍ أَوْهَامِي.

قامت تفتح الباب الجرَّار، فاندفعن تجاهه. أشار لهنَّ فتجمَّعن  
في طرف الغرفة القصِّي، وجلسن على الأرائك المجاورة للتراس.

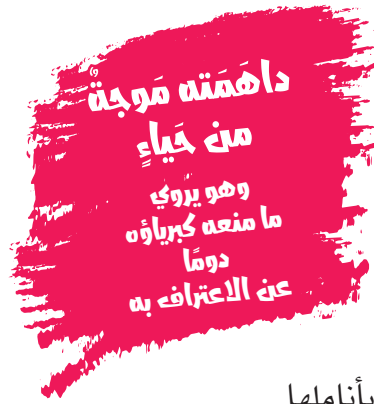
- يلاً قولِي ... مين دول؟

قال بلهجة مسرحية:  
جدار الحماية الذي يفصل  
بيني وبين الجنون. سألته  
من أين ابتاعهنَّ؟ قال إنهن  
يعملن "مانيكان" في محل  
الملابس الذي يحتل الطابق  
الأرضي بالعمارة. شعرت به

غاضباً حزيناً، أحاطت وجهه بأناملها

وطلبت منه أن يحكي قصته معهن، وكيف تسنَّى لهنَّ

الإقامة في منزله؟ تراجع إلى الوراء وقد ارتسمت على وجهه  
معالمُ الشَّقَاءِ، تنفَّس دخان سيجارته، حكى لها أن أول ظهور  
للدُمي في حياته حدث عقب وفاة فاتن بأسابيع، أنشَى دَسَّهَا



عقله المرهق بغياب المرأة التي عشقها والتي كان جمالها من نوع خاص، وبينما يحتضنها تحوّلت إلى سحلية ضخمة تحتل الفراش، بعد تلك الليلة توارد على عُرفة نومه شياطين العالم السفلي، وأصبحت كوابيسه تحجب عنه النوم؛ ما دفعه إلى الرحيل إلى الجانب الآخر من المدينة الذي يقيم بين أرجائه أجناسٌ عدّة من دُمى وكائنات البلاستسيكون أو الهولوجرام، صار يمضي أمسيات طويلة كي يتخلّص من الأرق برفقة أصدقاء وصديقات، يسهرون في مقاهي وبارات وحانات اكتظت بكائنات من عوالم متعددة؛ أدباء وكتاب وفنانون، مُثقفون وسياسيون وأكاديميون وعسكريون ورجال أعلام وأعمال ينتمون إلى أزمته عديدة؛ الحاضر والماضي وأحياناً المستقبل، غالبيتهم ممّن ضلّوا طريقهم في رحلتهم إلى بلاد النور، فوقعوا أسرى أرض الظلمات.

كان يعود في الفجر مُجهّداً، يعبر كمائن وحدات الأمن الآلي المؤتمتة دون أن تتعرّض له، يلقي بنفسه إلى الفراش ويغطّ في نوم قلق بين أحلام وكوابيس...

قال إنه في ليلة من أتعس ليالي المعاناة والوحدة، كان عائداً في الهزيع الأخير من الليل، بعد سهرة أمضاها في مقهى ”دوماجو“ الذي جمع مُثقفي العالم في مطلع القرنين التاسع عشر والعشرين، والذي افتتح مؤخراً في مدينة الدُمى، الواقعة في الجانب الآخر من ليل الإسكندرية، كان يعاني من هزيمة من هزائم حياته الكثيرة، حين ظهرت الترشيحات للخاصة بجوائز الدولة التقديرية التي يستحقها عن جدارة واستحقاق

وكالعادة لم يجد اسمه، وبقدر غضبه وشعوره بالظلم البين، التحف بكبريائه وأفرط في الشراب، كان الحنين إلى المرأة التي عشقتها ورحلت منذ أسابيع يدميه، وكانا يعولان كثيراً على قيمة الجائزة المادية، تحسين ظروف حياتهما المادية، تحقيق حلم ابنهما بالسفر والدراسة في الخارج، تأمين مستقبلهما في المرض والشيخوخة، شراء مكان يصلح كي يكون مكتباً لممارسة أعماله الفنية والنقدية، لوبقيت على قيد الحياة لشاظرته حزنه، وخففت عنه همومه وواسته، لكنه وحيد الآن، وليس هناك من ينادمه سوى كؤوس الخمر والألم.

في تلك الليلة سأله الروبوت الذي يقود السيارة مُشفقاً، وكان على هيئة عداد تاكسي، إن كان في حاجة للمساعدة. رفض العرض. فالأمر ينطوي على خطرٍ ما حقّ طبقاً للتحذيرات التي يبثها التليفزيون المحلي عن الأخطار التي تُحدّق بكل من يتعامل دون حذرٍ مع روبوتات ذوي أصول بلاستيكيون، وكانوا قد انتشروا في الأونة الأخيرة بطريقة مثيرة للخوف... خمن أن السائق السليكوني لا بدّ وأنه راقبه قبل أن يعترض طريقه ليحمله أثناء عودته من الجانب الليلي للمدينة إلى عالم الواقع. وأنه لا يحمل مشاعر الشفقة قدر ما يفكر في سرقة، مُنتهزاً حالته المزرية، وربما الاستيلاء على شقته والإقامة فيها...

عبر المسافة بين التاكسي والرصيف قفزاً بسبب برك الوحل الناجمة عن سيول المطر، وقف في مدخل العمارة يترنّح، بحث في جيوبه عن شيء لا يدرك كُنْهه، ثم وبصورة مفاجئة تمكّن من الجلوس على إحدى درجات السُّلم، وانهمر في العويل.

تطلعت إليه بشفقة وهو يستطرد أن إحدى الدُمى، لا يعرف كيف  
ومن أين ظهرت، وكانت صلعاء، ربّنت على كتفه بخنوّ. تذكّرُها، كان  
قد سبق والتقاها في مدينة الدُمى، كانت تعمل في نوباتها الليلية  
نادلةً في مقهى "لافلور" وأحياناً مقهى "لي



دو ماجو" المرسومين بألوان الباستيل.  
المبهجة، حيث كنت ألتقي همنجواي  
وزولا، وأنادم سيمون دي بوقوار وسارتر،  
أسترجع معهما أسباب انحسار مذهب  
الوجودية ومسرح العبث.

في تلك الليلة التقيتُ الفنّان  
المشرد أميديو موديليانى، يحيط  
به أصدقاؤه؛ ريفيرا وماكس چاكوب،  
كان يفاوض صديقه الطالببة  
چين هيبوترن على الانتقال إلى  
مرسمه لرسمها، وملاك الموت  
يُحلّق فوق رأسها، وهو ما  
جعلني أقرّر المغادرة على  
الفور.

سألتها إذا كانت صحبتني في التاكسي دون علمي؟ هزّت رأسها  
نفياً وأشارت إلى واجهة محل الملابس الكائن في الطابق الأرضي  
من العمارة. قالت إنهنّ يعملن وقتاً إضافياً في المناوبة الليلية في  
مدينة الدُمى ليحسّسن من ظروف معيشتهن. تذكّر. كانت أيضاً  
واحدةً من تلك المانيكان التي تمضي مناوبتها النهارية في قاترينة

العرض، والتي عادةً ما ينظر إليها بإعجاب وهُنَّ يَقْفَنُ بِخِيَلَاءٍ فِي  
واجهة المحل، يَسْتُرْنَ القليل من أجسادهن البلاستيكية، جلست  
جوارهن وأخذته على صدرها المْتَرَع، وهي تسأله الصبر والتماسك،  
وأضافت إنهن يعرفن السيدة فاتن، وأنهن كثيرا ما تبادَلْنَ وإياها  
أحاديث طويلة عن أحدث صيحات الموضة، وكثيراً من الأفلام  
التي أحبَّتها، رفع رأسه مندهشاً، لكنها قَبَلَتْهُ قُبلةً سريعة من  
وجنتيه قبل أن تتلاشى، لملم أشلائه المبعثرة، وصعد السُّلْم، وقد  
خالجته ابتسامة ترفقت وسط دموعه، وهو يفكر... ما شأن تلك  
الدُّمية بك وبأوجاعك، بلغ غرفة نومه وألقى جسده على الفراش،  
وعندما استيقظ كان ثَمَّة وجوه لأشباح تلوح من بعيد في ذاكرة  
تحترق في صحراء الوحدة الجليدية.

بعد أسبوع أمضاه في الجانب الآخر من المدينة الكائنة في  
عالم الظلام هرباً من وحدته، يقضي الليل الدائم في ضُحبة  
مُفَكِّرِينَ وفلاسفة ومثقفين وكاتبات وكتاب من طراز رفيع،  
يتبادلون الرأي حول مآلات الفوضى التي وقع فيها العالم بعد  
ظهور الأيدولوجيات الدينية والقومية المتشددة، وصعود الفاشية  
في أوروبا، والذي نجم عقب انهيار الحتميات الثلاثة.

ساعة نيوتن الكونية المنضبطة، لا تَقْدُم ولا نقصان، لتحلَّ  
نسبية أينشتاين بأبعادها المتعددة، الانتخاب الطبيعي لداروين فجاء  
الاستنساخ والتناسُخ، حتمية ماركس التي تنبأت برسو التاريخ  
عند دكتاتورية الطبقة العاملة واستقرار العالم في أحضان العالم  
الشيوعي، فتلاشت الطبقة العاملة وتوطدت الرأسمالية وشكَّلت  
نُخبةً للنخبة تفرض هيمنتها على العالمين الاجتماعي والسياسي.

وبيّنا كان عائداً من سهرته وقف للحظات في مدخل العمارة يبحث عن كبريت يشعل سيجارة، للمرّة الثانية ظهرت فجأةً وببدها ولّاعة، أشعلت له السيجارة، تناول نفساً عميقاً، ثم تطلّع نحوها بتمعّن، وقد توقّف عقله عن الفهم، وقبل أن يسألها كيف يمكن لهذا أن يحدث، سألته بأدب جمّ، إذا كان بإمكانها أن تصعد معه. تضاعفت دهشته: تعملي إيه حضرتك؟ قالت إن عم صبحي نسي زجاج الفاترينة مفتوح، وهي تكاد تموت من برد الإسكندرية القارص. نهرها قائلاً ألا تخشى أن يتصرّف معها بطريقة غير لائقة؟ قالت وهي تسبقه لأعلى إنه معروف عنه أنه چنتلمان. هرش رأسه وهو يتساءل كيف لها أن تعرف؟ وتمنّى ألا تكون على معرفة بالسبب الحقيقي لهذا المظهر؛ ذلك أنه مُحتمَل أن يكون طبعاً أصيلاً في المرء، ومن جهة أخرى يمكن أن يكون طريقة مثلى لنسج شباك من حريير لصيد فرائس من نساء من طراز رفيع. عندما بلغ شقته فوجئ بهم ينتشرون في كل مكان، تغصّ بهم الأرائك ويفترشون سجاد الأرضيات. صرخ:

- "لا"...

نظرت إليه وكأنها تجلس في حضرة مجنون، قال إنه كان عليه منذ اللحظة الأولى أن يُحدّد القواعد وإلا سيفقد وجوده الذاتي وسط جمع من دُمي ومانيكان وكائنات سليكونية، وقد يصير مجنوناً بسبب ذلك الأمر، (وكما تعلمين ما يجب على المرء فعله في مثل هذه الأمور الطارئة، والتي يمكن أن تنجم عنها ظروف حرجة)، أسرع بال صعود أعلى المنضدة وشرعت أضغ معالم الطريق وحدود العلاقة بيني وبينهم، وهو ما تحوّل مع الوقت إلى

شرائع وقوانين، هتفت بهم: على كافة الذكور من كافة الأعمار وبلا استثناء، ومعهم القاصرات والمراهقات أقل من السادسة عشرة، جميعهم وجميعهن يمتنعون عن الوجود المطلق...

همست الدمية التي استقبلته على السُّلَّم أن عليه التريث؛ فربما تحتاج بعضهم، نادت على دمية لرجل في الخمسينات تبدو عليها ملامح كبرياء وشموخ يشبه رشدي أباطة. قالت إن هذه الدمية صُنِعت خصيصاً كي تكون مانيكان رجاليًا لعرض بدل السيد محافظ الإسكندرية، وكبار رجال الدولة، واستدعت ثلاث دُمى بدأ عليها الصرامة، وقالت هؤلاء الدُمى خصصوا كي يكونوا مانيكان لكبار رجال الأمن؛ استطردت موضحةً: لواءات جيش وشرطة؛ مرور، جوازات، جمارك، ومالت تهمس: وهناك دُمى مخصصة لضباط أمن الدولة والمخابرات.

قال باستنكار، وكأنه يستيقظ من مخدر قويٍّ، وماذا يفعل بهم؟ همست بصوتٍ ناعم كالزبد محمّل بنغمة تواطؤ: نعلم أنك رجل مثقف. استطردت: أستاذ... أنت مبدعٌ عبقرى، ملهم، ورجل أكاديمي، ومخرج ومؤلف مسرحي كبير، وصاحب شأن في الوسط الثقافي والأكاديمي، ولو كنت في بلاد ما وراء البحار السبعة لقدرت حق قدرك، وأصبحت ذا شأن عظيم. هز رأسه مستسلمًا لنغمتها بانتظار المصيبة التي تلي مقدمات المديح، استطردت وأضافت بصدق: وكل ما ينقصك القدرة على مصادقة رجال نافذين، الجلوس مع هذه الدُمى يدرّبك ويعود عليك بفوائد جمّة، دعنا نساعدك.



- مثل؟

قالت بصوتٍ رخمٍ وأنوثةٍ طاغيةٍ وعمليّةٍ يهوديّةٍ، إنه يستطيع أن ينادمهم، يخوض معهم حوارات عميقة ومسلية، من حواراتك الشّيقة في الثقافة، في السياسة، يمكن أن تتناول معهم شؤون الدولة. يمكن أن تخوض معهم في أعراض الناس، يستطيعون أن يحكوا لك عن أشياء وأسرار لا يعلم عنها أحد. انظر إلى أصدقائك يرفلون في النعيم بينما أنت رغم كونك أستاذًا جامعيًا وناقداً كبيرًا فلا يزال الفقر يُنادمك مثل لعنة حلت عليك لا ترغب في الرحيل.

- لا لا لا... هذا الأمر ليس مناسبًا لي ولا مناسبًا لهم.

- أصدقائك؟

- أصدقائي ليس بيدهم حيلة، أعني أن مهمّة الأخ الأكبر يجب أن تقتصر على حماية المجتمع دون التدخّل في عالم السياسة وإدارته.

- مستر... تَريثٌ وتفكر، نحن نُقدّم لك فرصة ثمينة لن نتهياً ثانية.

- لا لا.. الجميع إلى الخارج.

فرقعت بأصبعها تستدعي دميةً عجوزًا، يعمل مانيكان لبديل العمّال، ورددت أن صاحبها يمكن أن يصنع له الشاي والقهوة ويحضر مشترياته من السوبر ماركت... قال شكرًا، وأشار بحزم كي يغادر الجميع المكان.

قال إن الدُمي نظَّرته بتعالٍ وانصرفوا، وعندما حلَّ الليل خرج إلى التراس وجلس على الأريكة الحديدية، سلَّم نفسه للبحر والرياح، يتابع السُفُن المضاءة ليلاً، ومراكب الصيد البعيدة تتلاعب بها الأمواج، شعر بإحداهنَّ تُرَبَّت على كتفه عندما استدار إلى الوراء وجدها؛ دمية أخرى، يعرف جيِّداً مَنْ وكيف تكون؛ ناعمة كالزُّبد، شُرْسَة مثل فهد جائع، ابتسامتها الكائنة على زاوية فمها تضمُّ مَكْر العالم؛ "كيرا نايتلي"، سمعها تقول بتلك النبرة التي أوقَعَت القرصان "چاك سبارو" في حبالها:

- مستر... نحن نُحترِمُك، اسمع نصيحتي، هم أصحاب نفوذٍ، ولديهم طُرُقٌ خاصَّة في التأثير، ويمكن بطريقة ما أن يُقدِّموا لك ولأولادك خدمات طيِّبة، على سبيل المثال، زوج ابنتك محسن يبحث عن شخص نافذ يساعده في الحصول على ترخيص لمكتب العقارات الذي يريد إنشاءه.

- ما الذي تعرفينه حضرتك عن محسن؟



قالت بثقة واعتزاز: أنت ترانا مُجرَّد مانيكان لعرض الأزياء. قاطعها: هه... توقفي، أنتم تتجاوزون مَهْمَتكم الوحيدة في الحياة. تساءلت مُحْتَفِظَة بابتسامتها الماكرة: يا سلام، وماذا يمكن أن تكون مَهْمَتنا الوحيدة في الحياة؟ أجابها: العرض... "الشُّو" الذي

أصبح سَرَطان العصر، نَفَرَت عروقُ عُنقها الأهيض، تحفَّزَت أعصابها بغلِّ يوشك على الانفجار، قالت إنها لن تسمح له بأن يجرح أحاسيسها، وأضافت بلهجة صارمة: أستاذ... أنا أعرض عليك خدمات، لك أن تقبلها، ولك أن ترفضها، ولكن لو سمحت بلا إهانة.

قال مُحاولاً فهم الأمر: تمام... أوكي... لكن أيضاً ما شأنكم وشأن الأولاد، لقد دعوتكم رأفةً بكم من البرد، لا تتدخلوا في حياتي الشخصية أو ارحلوا جميعاً. وكان هذا أحد الأخطاء التراجمية التي ارتكبتها. قالت لو سمحت: اسمعني حتى النهاية.

وأمام هذا المنطق المهذب لا يملك المرء سوى أن يقول: تفضلي وسوف أسمعك حتى النهاية. قالت: بحكم الضرورة نحن المانيكان شَبْكة منتشرة في أرجاء المدينة لأسباب معلومة، كحاجة التُّجَّار لعرض أنواع الملابس المختلفة لبيعها، وحاجة الناس لتلبية احتياجاتهم من الملابس، هذا جعل لدينا ميزة لا يستطيع جنسكم أن يستوعبها، إذ إننا عبر عقود من الوقوف في واجهات المحلات ونحن نتابع آلاف البشر يسرون أمام قترينات عرض مُضاءة بألوان لاس فيجاس وهم يحملقون بنا، ورغم أن الملل يقتلنا، أو ربما لهذا السبب تحديداً. قاطعها: أي سبب؟ قالت: قلتُ لك الملل. نمتُ لدينا القدرة على مراقبة الحياة الجارية أمامنا، نرى ما يحدث في شوارع المدينة، نتبادلها ونروها، فتيات ونساء فقيرات، يعلمن أنَّهنَّ لن يُحققن أحلامهن بتذوُّق الجمال يوماً ما... فتيات ليس لديهنَّ حرية الاختيار؛ لأنَّهنَّ لا يملكن ما يخترنه. لهذا، أيُّها السيد، ماتت زوجتك منذ أسابيع

وأنت وحيد، ليس لديك خيارات كثيرة، ونحن كذلك، نحن وأنت عالقون معاً... البرد يقتلنا والوحدة والفقد يغتالناك، فماذا علينا أو عليك أن نفعل، لا شيء، لا شيء البتة سوى أن نتعايش سوياً، نتبادل بعض المنافع الممكنة، قال إنها تشبه "كيرانايتلي" شكلاً، لكنها أكثر حكمة منها. قالت: صدقتُ، لديك فِرَاسَةٌ لا تخيب، على العموم أحب أن أقول لك نحن عالمٌ كامل متكامل، شبكة تنتشر مثل الهواء في المدينة، بإمكاننا أن نتصل بطبقاتها العليا، نشير حواراً خفياً مع الطبقة الوسطى، الأجهزة الثقافية، الأجهزة الأمنية، حتى الطبقات الدنيا، لدينا بهم اتصالات، نستطيع أن نقدم الكثير. واستطردت بصورة مُقنعة: أستاذ... نحن نحترمك ونتمنى خدمتك من نواحٍ مُتعددة.

تراجع رافضاً عرضها وهو يقول بصلافة: لا... لا... عفواً، يجب أن أخبرك أن الطريقة الفظة التي تعاملت بها مع القس المسكين مستر "كولينز" في فيلم "كبرياء وتحامل - Pride & Prejudice" ، وحتى تصرفاتك مع مستر "دارسي" كانت غير لائقة على الإطلاق، بل يمكنني القول إنك كنت شرسة، أنا لا أفهم لماذا يختارونك أنتِ بالتحديد لهذه الأدوار؟ تقدمت نحوه تحاول أن تكتم غيظها، لاحظ أنها تلهث وهي تسأله عن السبب الذي يتوقعه، قال بغرور إن هذه هي طبيعة شخصيتها، هرة شرسة، قرصانة، قاتلة، لديك ابتسامة تمتد على مساحة وجهك تفيض بالسخرية والثقة... اللعنة عليك! من هو الذي يستطيع الفكك من حباتك أيتها الشيطانة اللعينة. أوشكت أن تجزّ بمديتها عنقه، لكنها تراجعت وأسنانها تصطك ببعضها البعض.

هتف بعنجهية من يكسب أولاً، ولكن دائماً ما يخسر أخيراً:  
لا... لا... لن تعبتوا بعقلي، لستم سوى ذمى بلاستيكية، حاوية  
الروح، صنعتكم ما كينات ضخمة من طابعة ثلاثية الأبعاد على  
هيئة مُمَثَّلَات هولويد وعارضات أزياء نيويورك وروما وباريس،  
لتخدعن نساءً دميمات، وتدفعهن لشراء ملابس باهظة السعر  
ردية الخامة...

وأضاف بخيلاء: أنت مثلاً رأيت مثلك عشرات في ميدان  
محطة الرمل، وسموحة ولوران، دائماً ما تتصرفين بخيلاء من  
تلبسها الدور، وأنت لست كائناً فريداً مثل المرأة التي تشبهينها،  
في نهاية الأمر أنت دمية مكررة عشرات آلاف النسخ، وأضاف  
بسخرية الواثق: "I know".

همست تطلب منه برجاء أن يتخلى عن غروره. اقتربت  
الدمية (S/11) التي تشبه "سكارليت جوهانسن"، وقالت بلطف:  
أرجوك لا تستهن بنا، نحن ننتشر في أرجاء المدينة وشوارعها  
الرئيسية وأسواقها ومولاتها، نرى الإعجاب في عيون المراهقات  
والمراهقين، والحسرة لدى اللائي لا يملكن الأسعار الباهظة  
لأزياء الماركات العالمية. تخترقنا وتمتّعنا نظرات الاشتهااء التي  
تطل علينا من عيون شباب محروم في مدينة كانت ملتقى العالم  
القديم، وارتكبت فيها جرائم قتل باسم الدين، وذمّرت مكتبتها  
العريقة لتبية لرغبة رجل جاهل؛ لذا نرجوك لو سمحت لا تبخس  
من أهميتنا، نحن على صلة بكل شيء يجري في المدينة، ولدينا  
ما نستطيع أن نقدّمه لك في محنتك. قال بحزن إن معاناته لا  
يمكن لأحد أن يحسّها، فما البال بالجماد؟

قالت بابتسامتها القاتلة إنه أيضاً لا يعلم عن معاناتهن شيئاً، الخفير الذي قضى الليل في حراسة محلات محطة الرمل شرع في الاستمناء أمام بعضنا، إحدى الدُمى لم تتمالك مشاعرها وابتسمت، في الحقيقة شعرت بالنشوة، بعدها شرع في اغتصابنا جميعاً.

هتف: الوغد. رمقته بابتسامة تحمل كل معاني الاغتراب: لماذا تقول عنه كذلك؟ قال: وماذا يمكن القول؟ قالت بنظرة تخفي لؤماً وانتصاراً إنه لا ينبغي عليه قول شيء، وأضافت أن رجل الأمن ذاك بث في بعضهن الحياة. وأضافت بلؤم (وهي تتحني أمامه لتكشف عن نهدَيْها العامِرَيْن)، إن لدينا ما يمكن أن يبيث فيك الحياة أيضاً، مستر أنت تعلم أننا نملك ما يُخفّف عنك وحدتك. عندما فهم ما تعنيه استنكر ما تعرّضه، وقال بحدّة إنه يربأ بسُمعته عن التورط في أمور إباحية كالتي تشير عليه بها، كما أنه يُنزّه نفسه عن أن تتحطّ غرائزه لما تلمّح إليه.

كان البقية في انتظار نتيجة الحوار الدائر بينهما، تراجعت الدُمى (S/11) غاضبةً، جوارها التمعت عينا (K/22) بألق كراهية وبُغضٍ شديدين يتوعّدانه بقصف نووي، وأشهرت مُدِيّةً مُخبّأة بين ساقَيْها: ماذا تعني؟

أجابها بغطرسةٍ وصلفٍ مُلتجئاً إلى الاختفاء داخل قوْفَعته الممتثلة في الشعور بالاستغناء الذي يتعامل به دوماً مع النساء وربما العالم أجمعه، ثم لا يلبث في نهاية الأمر أن يركع على قدميه يندب حظّه بؤساً ورجاء، وهمس: أنسة (K/22)، أنصحك

أن تنسى الطريقة الحاذقة الماكرة الشَّريرة التي تتعاملين بها مع الرجال، أنتِ لستِ "كيراً نيايتلي"، أنتِ مجرد "A piece duplicated thousands of times" من بلاستيك وسليكون جيد الصُّنع.

- Are you sure Mr?

- Yes I am sure.

وأضاف يثيرها:

- I knows.

صرخت فيه:

- I know... I know... and you don't know anything.

أوشك نصلُ مُدِيَّة "چاك سابرو" الحاد في أفلام قراصنة الكاريبي أن يقطع وَدَجِه الأيمن، لولا الأيدي التي أمسكت به وهي تلامِس رقبتَه، استدار نحوها، رَأهم يتجمَّعون حولها يدفعون بها إلى الوراء.

قال بحسَم دون أن يدرك ما هو مُقبِلُ عليه: حسناً... كل مَنْ أَطَلَقَتْ عليه حُكمي بالامتناع عن الوجود داخل منزلي يستطيع أن يتَّخِذ من غرفة غسيل الملابس مأوى له لحين توفير مكان مناسب. ولما كانت الشُّقَّة المجاورة غير مُستخدَمة، سوف أَفتحها لكم خلال أيام. أشارت الدُّمية التي التقتَه على الدَّرَج للدُّمى بالرحيل.

كانت سوزي تحمق فيه مشدوهة، غير مُصدّقة ما يقول، سوى أن تلك الدُمية التي وقفت وراء زجاج نوافذ التراس المنزلة، كانت لا تتوقّف عن النظر إليه بإعجاب، وهُنَّ لا يتوقن عن الإيماء برؤوسهن مؤكّدين صِحّة ما يقوله، سألت باستنكار عمّا آل إليه الحال في نهاية الأمر. مدّ بوزه إلى الأمام، قال باستسلام إن الأمر آل لما هو عليه الآن. سألت عمّا يعنيه. قال إنه لا يعرف، وأضاف: صرنا أصدقاء. سألت أي نوع من الصداقة؟ أدار يده بأنه لا يدري. خرج إلى التراس مستسلما إلى زخات المطردون شبع أو ملل، يعبّ من مشهد البحر وأمامه تتزرى الأمواج قادمة من الأفق. قال إنه سوف يحكي بدايات تَوُرّطه معهن من مجرد استضافة من البرد والشتاء والمطر إلى علاقات مُعقدة.

استند بظهره على حافة السور المطل على البحر المتوسط، وقال: بعد ثلاثة أسابيع من استقرارهم بالشقّة المجاورة، وكان يداهم ملل قاتل، انثنى ينظف المكتب ويفتح جهاز الكمبيوتر، ثم جلس على مقعده في التراس أمام منضدته الصغيرة، يحاول الكتابة دون جدوى، ثمّة عيون ترقبه من خلف خصاص باب الحجرة الجانبية للتراس، يذهب ويعود ومعه قهوته، يجلس مرّة على المقعد الحديدي الذي يتوسّط التراس، ومرّة على الأريكة الواقعة في حجرة الاستقبال، شعر بالتراس نظيفاً لامعاً، وبينما كان يرشف قهوته مُغمض العينين رافعاً رأسه إلى السماء، سمع أزيز باب الغرفة الجانبية يُفتح، خرجت دُمية لمانيكان (كانت على هيئة سيدة في منتصف العمر)، عارية صلعاء لا ترتدي شيئاً، جلست جواره، كانت تلك التي أشعلت له السيجارة بعد منتصف



الليل، أثناء عودته من مقهى "لا دوماجو"، والتي سبق وأن سألته أن يفتح لهم منزله. سمعها تهمس بلطفٍ سيدي. تطلّع نحوها. سألها عمّا تريد، فقالت إن جميع المانيكان يقدمون له التحية والعرفان لما فعله، وأن تفتّح عقله واحتواءه لهنّ من صقيع الشتاء أمرٌ غير مُستغرب على مثقّفٍ عضويّ مثله من أتباع جرامشي واستدارت تتحدث مع رفاقها مؤكّدة أنها سمعته أثناء عملها وقتاً إضافياً في مقهى "لا دوماجو" يُعبّر عن إعجابه بروايات هيمنجواي التي تتسم بعالم إنساني رفيح، صرخوا مُعبّرين عن دهشتهم. قالت ليس فقط، فقد عاصرتُ أغرب محاوره بين الأستاذ وبين خُبر السريالية الأعظم سلفادور دالي، وكاد أن يفجّمه لولا أن دالي قام غاضباً وغادر المقهى. قال إنها سبق وذكّرت ذلك. نظر إليها بتأفّف؛ فهي تُعظّله عن عمله، طلب منها أن توجز ما توذّ الحديث عنه، فهمت ما يعنيه، قالت: لحظة. أسرعت تخفي في الشقة المجاورة وعادت ترتدي تايبير أنيقاً وباروكة من شعرٍ كستنائي، قال إنها تشبه لحدّ ما "ميريل ستريب"، عقّبت وأنت لا تحب "ميريل ستريب"... قال إنها ممثّلة مُكتمّلة إلا قليلاً، ترشّحت للأوسكار أكثر من أي أحد، وكأنه لا يوجد في هوليوود غيرها، قالت هذا لا يهمّ، نريد أن نُقدّم لك هدية عرفاناً وتقديراً على معاملتك لنا كأدبيين، وهذا ليس بالقليل؛ إنهم يلقون بنا في مخازنهم قطع خردّة، ثم ينظفوننا بخرقٍ مُتسخة... سألها ألا تبالغ، فأجابته بأن هذا رأيهم، وأشارت ناحية الغرفة كانوا يتدافعون جميعاً على الباب لمتابعتهم، أشار بيده كي يدخلوا، تدافعوا يجلسون حوله، عاد يرشّف قهوته مُهملاً وجودهم، لكنه سمعها تُردّد ثانية: مستر.

تطلع نحوها ، قالت إنهم يريدون أن يقدموا له هدية صغيرة ، قال بكبرياء كثيرًا ما كرهه في نفسه ، عندما يدفعه غروره ألا يفعل الصواب ، وما الذي يمكن لُدْمى من البلاستيكيون أن يقدموا له في مصائبه التي لا يجد لها حلًا؟

قالت فانازيا ، قالت نحن نستطيع أن نُقدِّم لك الفانتازيا ، أن نُقدِّم ما يُخفِّف عنك وحدتك ، وأضافت بحماس وهي تشير لإحداهن التي انشئت إلى الخلف وأسرعت عائدة وأعطته كتالوج مصقولاً يضمُّ صورًا لفانتازيات هوليوود في مطلع العقد الثاني والثالث من الألفية الثالثة ، تسألُه أن يختار بين أجمل ملكات السينما وعارضات الأزياء ذوات الجاذبية اللائي يُفضِّلُهْنَ . وهمست مُوضِّحةً أن الأمر لا يتجاوز ما فعله وهو يكشف ذاته ، وهو في الثالثة عشرة من عمره . ذكَّرته بتلك الأيام التي كان يستيقظ فيها على عضوه مُنتصبًا في أحلامه على نساء طالما شاهدن على مواقع البرنو على شبكة الإنترنت ، ثم ينفجر مجرَّاتٍ تُدْفِئُ السماء . عن اليوم الذي دعاه ابن عمه أن يُلقي النظر من حُصَّاص نافذة مُغلقة في الطابق الخامس حيث رآها هناك ؛ مُراهقة في الطابق الثاني ، تتمدَّد في الفراش على بطنها في قميص نوم قصير عاري الأكتاف ، يكشف عن باطن فخذيها ، تتصفح إحدى المجلَّات بتؤدَّة ، لاهية عن العالم ، هتف يقاطعها : نعم كانت تشبه ”ماري إيل فانينج“ التي قامت بدور ”ليلي“ في فيلم ”اشترينا حديقة حيوان“<sup>(8)</sup> ربما أقصر قليلًا ، ربما وجهها أكثر استدارة ، أكثر نعومة ، ربَّما ... ربَّما ...

(8) (اشترينا حديقة حيوان): (We Bought a Zoo-2011)

قالت تُشجِّعُه على استعادة ذاكرته إن ابن عمه الذي يصغُرُه  
وضع يده في سرواله الداخلي وشرع يُحرِّك قبضته ببطء ما  
لبث أن ازدادت سُرْعَتُه بصورة أثارت دهشته، ثم انفجر العالمُ  
حولهما برائحة الحياة. عندما حلَّ الارتياح في الفضاء لاحظ أن  
الفتاة استدارت لتنام على ظهرها، وصدورها ونهديها المُترعان  
ينبضان برتم هادئ، وان ابن عمه فتح النافذة على سعتها. أَلقت  
ابتسامة ساحرة وتحيَّة خافتة... كان العالم يُنوء بتواطؤ إنساني  
بين مراهقين لم يتعدَّيا الثانية عشرة.

قالت بصوت "ميريل ستريب" الذي يحمل دماء القهوة وبهجة  
الثلج، بعدها عرفت الطريق إلى ممارسة العادة السرية؛ مرَّتين  
وثلاثًا وأربعًا يوميًا، وأنت وحدك، مُمدًا على الأرض حينًا، أو  
على الفراش حينًا آخر، حتى وقع بين يديك وأنت بالصفِّ الأول  
الثانوي تفتش بالصدفة في الدُّرج الأخير للفصل أوراقًا تحوي  
قصصًا جنسية تدور في مدرسة مُحافظَة داخلية للطالبات.  
وهكذا وقعت في فخِّ السحاقيات... رَدَّد خلفها... وهكذا وقعت في  
فخِّ السحاقيات، حيث الجسد الأثوي وحيدًا في مشهدٍ ليس به  
من ذكورٍ سواي. مُحوَّلًا كُلُّ مُتعةٍ إلى حكايات جنسية عقلية، تختار  
بطلاتها بالطريقة التي تروقك... قالت نعلم أن الأمر استمرَّ  
على ذلك المنوال لعامين حتى انتشلتك السيدة فاتن وأعادتك  
إلى عالم الجنس السَّوي... قالت إنهن لن يتجاوزن هذا الإطار،  
سوف نعوِّضك عن زوجتك الراحلة بنساءٍ نَصْنَعُن سويًا؛ عرفانًا  
بفضلك علينا... جرِّب وسوف ترى. هل تفضِّل دُميَّةً تُشبه "إيلي  
فانينج"؟

- لا... لا... إنها طفلة!

- الآن تجاوزت الأربعين

- لا لا لو تمنيتُ فائتةً من هوليدو يجب أن تكون امرأةً ناضجة.

قالت إنهن سوف يُقدّم من الأفضل، سيدي... نعلم أنك كاتب مسرحي وأستاذ جامعي، ومعاييرك حول النساء لا توجد بها سماحية... أعتقد أن "أنجلينا جولي" هي الأفضل، النساء تُجري عمليات تجميل كي تكون شبيهة بها. هز رأسه نفيًا، وعندما سألته بدهشه عن السبب الذي يجعله يرفض موديل بجمال أنجلينا، قال إن أنجلينا تقول للرجل:

- I want you for me.

علي حين أن "سكارليت يوهانسون" توهم الرجل وهي تغرد بنعومة:

- I shall be just for you.

وهذا فارق كبير. قالت معك حق، أنت تفضلُ إذن "سكارليت يوهانسون"؟ قال: طبعًا، بثغرها الثخين يحيل وجهها لابتسامة عذبة، ووجهها يحيل العالم إلى تكوين عضوي صافٍ مُعلق على جسد أنثوي لامرأة في حالة شَبَقٍ نقيّ. قالت: حسنا سوف نفعل ما في وسعنا. استطرَدت: سيدي... هناك أمرٌ آخر. ثم توقفت عن الحديث، وقالت: لنتنظر أولاً تجربتك الأولى الخيالية.

حلّت أشعة الشمس بضوئها الهادي، قام مُبتَهجًا، توجه إلى الحمام، على باب غرفة النوم التفت إلى الخلف ينظر الدمية

الممدّدة على فراشه التي عرفها باسم (S/11)، كانت ترقد على  
بطنها عارية، وفي فمها ابتسامة رضى. في الصباح، وبينما كان  
عائفاً على عمله، اتخذت نادلة مقهى "لا دوماجو" مكانها جواره،  
التفت إليها، قالت له إن (S/11) تشكره على الليلة التي أمضيها  
سويًا، ولأن التجربة نجحت، فهي تنوي أن تخبره أن عرضها الذي  
قدّمته منذ أربعة أيام لم يُستكمل بعد، نظر مُندهشًا، ابتسمت  
وهي تقول: نعم، مستر، العرض المقدم لك لتلبية وإشباع "Your  
fantasy" يضمُّ دمتين بنفس السّعر... يمكنك أن تختار دميةً  
أخرى، وقدّمت له كاتلوج يضمُّ فنانات هوليوود على مرّ العصور...  
وقامت راجلةً.

في الأيام التالية امتلأ التراس بعشراتٍ منهنّ إليزابيث تايلور  
في فيلم "قطعة على سطح من الصفيح الساخن"، مارلين مونرو  
في فيلم "البعض يُفضّلونها ساخنة"، أودري هيبورن في فيلم  
"اثنان على الطريق"، صوفيا لورين في فيلم "امراتان"، أورسولا  
أندرسون تهزُّ أردافها على نعّات "الثقارة" في فيلم "الصليب  
الأزرق"، صوفيا مارسو فيلم "القلب الشجاع"، ميشيل فايفر فيلم  
"شخصي وعن قرب"، ماريون كوتيارد في فيلم "منتصف الليل  
في باريس". مارجريت كوالي في فيلم "ذات مرّة في هوليوود"... ما  
أن يستنفذ متعته كان يُلقى بهنّ جانبًا فيسقطن على الأرض مثل  
قطّع خشبيّة، صرخت به السيدة التي تعقد معه الصفقة:

- What wrong with you Mister?

يجب أن تكون أكثر رفقاً بهن، عما تبحث؟ سألها عن فينيسيا ريجريف، في فيلم ”كاميلوت“ قالت له تريد أن تمارس الجنس مع فينيسيا؟ نفي وقال أريد صديقة، أريد شخصاً للتجاور معه عقلياً. قالت إن هذا ليس مُدرجاً في الخدّمات التي تقدّمها، وأضافت أنه يظنُّ أنها تقدّم نُسخاً ”Copies“ حقيقةً، لكن أنت تعلم أن أفلام هوليوود تقدّم نماذجها إلى مئات الملايين من البشر، وكلُّ يأخذ ما يتوافق مع أحلامه، ليس ثمة اتصال حقيقي، أنت تفهم، أليس كذلك؟ هزَّ رأسه موافقاً، استطردت: ورغم ذلك، ولأنك عميلٌ مُقدّر لدينا؛ سوف نحاول.



كان يراها تحاول أن تلتفت انتباهه من وراء الدُمية، لكنه أغلق الملف، حتى استيقظ ذات صباح، وهو يسمع إطلاق نارٍ موجَّهاً إلى الدُمية التي تتمدّد جواره على الفراش، وقد تحوّلت إلى قطعة من

البلاستيك المخرم بالرصاص، قام مفزوعاً وسط بركة من الدماء وهي هناك: كيرا نايتلي في فيلم ”قرصان الكاريبي“، تعتمر قبعة القراصنة، وفي يدها غدّارتان تُصوّب إحداهما نحو رأسه... اللعنة، ليس هذا ما اتفقنا عليه، صرخ قائلاً إنه يعلم أنها تريد المضاجعة، وهو أيضاً... لكنها شخصٌ مُخادع، أسرعت الدُمية التي تحمل باركود (S/11) تحتضنه، وهي تهمس في أذنه... بروفيسور... لا تهتمّ، هي ”Crazy“ من بلاستيك أحمر... وأنت

چنتلمان حقيقي... تعال نغطس سوياً في دنيا الرغبة. أخذته إلى  
أريكة الغواية، وشرعت تحميه بجسدها من مخالب وجنون تلك  
التي تحمل باركود (K/22).

حلّ صمّت وسكون. بعد وهلة سألته عن بقية الحكاية  
الخرافية التي يتلوها عليها مثل ساحر بغداد. قال إنه  
بعد عراكٍ دافئٍ غَطَّ في النوم، وعندما أفاق وجد  
نفسه وحيداً يتطلّع إلى صورة زفافه المعلقة على  
الجدار يناجيها، يسألها... فاتن لماذا تركتني  
لهذا الهراء؟

لمح تلميذته تتطلّع إليه كالمسحورة، عرض  
عليها سيجارة، أخذت نفساً عميقاً، وبعد  
أن أطلقت حلقات من دخان ملأت فضاء  
الغرفة، قالت بحزن إنهم لا يزالون  
مُقيمين في غرفة السطح في البرد  
والمطر! اتهمته بالقسوة مثله مثل  
طقس إسكندرية. قال: ليس لمخاوفك  
أسباب حقيقية، هل ترين أي أثر لذرة  
غبارٍ على بشرتهم. نفت وقالت إنهم  
يبدون وكأنهن خرجن من الغلب  
لتوهن. قال: تطلعي إلى بشرتهم...  
عندما تجري فيهن الحياة، تصبح  
ورديّة، تتضح بالدم.

- يا ااه ... صحيح، بالفعل... سحر، ماذا تفعل بهنّ.

أضاف: لا شيء، إنهن من طراز حديث، لديهنّ نظامُ تنظيفٍ وتحديثٍ ذاتي ولكن عندما يتوقف نبض الحياة يتحوّلن لكائنات من بلاستيك ليكون فاخر، وقد دفعت إزاء ذلك مبلغًا محترمًا ... تساءلت إذا ما كان يمتلكهنّ أيضًا؟

قال بحسم: طبعًا، وإلا كنت شخصًا غرًا، سلّم ذقنه لمجموعة دُمى خريجات من طابعة ثلاثية الأبعاد. إنهن عالمي الخاص الممتنع على الآخرين. سألته كيف صرتم على هذه الألفة؟

قال هو الفن، كان يستعين بهن عندما يريد أن يعرض مسرحية "هاملت" أو "الملك لير" (والتي تعتبر

إلياذة الحياة المعاصرة، والتي

يحلّو فيها للأخوة والأخوات،

للأبناء والبنات أعتيال الأخ

الأكبر والاب واستحلاله)،

أو يستمع إلى سيمفونية

شهرزاد لريمسكي

كورساكوف. كان يضعهنّ

على مسرح من فراغ ويدير

جهاز الهولوجرام الحديث

المتوفر لديه، ويترك لهدير

البحر عزفه المنفرد. في

مرات أخرى، وخاصة





عندما كانت الوحدة تقتله،  
ويخفت القصف الذي  
تلقيه الطائرات على مدن  
عشوائية، وانتشار الدولة  
الإسلامية كالهشيم في  
آسيا الوسطي،  
واستباحة نساء  
طائفة اليزيديين



وبيعهن جوارى، والرغبة الهستيرية التي تلبست الولايات المتحدة  
وأوروبا في أوهام اجتثاث الثقافة الروسية والعرق السلافي من  
الوجود العام للحضارة البشرية، كان يطلب منهن عرض مسرحية  
”الدباب“ لسارتر، أو مسرحية المفتش العام لنيكولاي جوجول،  
وأحيانا كثيرة ”أميديه“ ليوچين يونسكو، والتي تحكي الحياة مع  
جثة في غرفة مُنغزلة عن العالم، تنمو الجثة حتى تملأ المكان،  
أحيانا كنت أطلب منهن عرض رواية العطر لباتريك زوسكيند،  
والتي يدفع القاتل الجمهور من فرط شعوره بالوحدة للإتهام  
جسده، تعبيرا عن الرغبة القاتلة في التواصل مع الآخرين، وكى  
أتلخّص من الغرق في الاكتئاب يرقصن باليه ”سبارتكوس“ لأرام  
خاتشاتوريان...

وإذا أردتُ طردَ مُحترفي اللغات المزوّرة من مشهد ثورة  
الشباب في ميدان التحرير، كنتُ أطلب منهنّ تمثيل روايات  
أحببتها مثل رواية ”شرف الله“، أو رواية ”ثورة 2053.. البداية“<sup>(9)</sup>

(9) رواية ”ثورة 2053 البداية“: تأليف الروائي الكبير محمود عثمان، نشرها على  
نفقته. صدر الجزء الأول في ديسمبر 2007، ونُشر الجزء الثاني في سبتمبر

بجزئيتها، والتي تتبأ كاتبها عن مْخِيلَة رائعة نقيه بالثورة قبل  
حدوثها بسنوات قليلة... هم إذن مسرحه، وملهاته، والدراما التي  
شكَّلت سوراً للحماية من الجحيم الذي يجذبه إلى قاعه بقوة  
يصعب رُدُّها ...

- تتحجج بالسياسة.

أمسك برأسه يعتصرها، وأخذ يفرك جبينه، رنَّ هاتفها  
فقامت للردِّ، لكنه لم يتركها تذهب، جذبها هذه المرة فسقطت  
جواره تسأله بآتهام: محتاجهم في إيه؟ ... إنت مريض نفسي،  
محتاج تروح مستشفى مجانيين. قال وهو يدفعها بلطف:  
- قومي نعمل العشا.

\* \* \* \*



## الفصل السابع

على أريكة الغواية تمددت وقد أخذتها سِنَّةً من نوم، احتضنها برفق، ولم يلبث أن هزَّها بلُطفٍ، فتحت عينيها بصعوبة، سألتها أن تنتقل إلى غرفة النوم، هزَّت رأسها تُعبّر عن رغبتها في البقاء، لكنه أصرَّ مُتَحجِّجاً بأن الأريكة لا تتحمَّلُهما معاً لليلة كاملة، ودَّت أن تطلب منه أن يرافقها إلى الداخل، وبدلاً من ذلك قالت بخُبثٍ وسخرية وهي تستعدُّ للانتقال إلى الداخل:

- معها حق...

سألها عمّن تعني؟ قالت

دُميتك سكارليت يوهانسون،

أنت فعلاً چنتلمان حقيقي.

الأقوي زيك فين؟

رغم نبرة السخرية في حديثها،

لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك، قالت مُحدِّرةً إن عليه

الانتباه... قد تكون مؤامرةً من صاحب ورشة الدُمي للاستيلاء

على شقته التي يُعدها لزواج ابنه. وأضافت بلُومٍ: ويمكن للمؤامرة

أن تمتد للاستيلاء على شقتك أنت أيضاً.

دفعها بعيداً، وقال: أنت أيضاً يمكن أن تكوني دُميةً تسلَّلتِ إليّ

من مخزن الدُمي الموجود في البدروم.

ضحكت واستعادت هذا الخليط المنسجم من ضربات البيانو

وخفقات الهارب الرشيق، مضمخاً بعطر نغمات الفلوت.



في مبدأ  
تأجيل اللذة

في الصباح وجدها تجمع أغراضها وحقيبتها، تستعد للرحيل.  
سألها بدهشة: رايحة فين؟

- مروحة... تأخرت.

- تأخرت! ليه؟ فيه حاجة مضايك؟

قالت بغضب: أنا مش عارفة أنا هنا ليه؟ وأشارت نحوهم.  
كفاية عليك دول. قال إنهم يختفون عندما تكونين، يتلاشون  
من الوجود، موت فاتن هو من استدعاهم، ولو بقيت في حياتي  
سير حلون إلى زوال.

- بجد.

جذبها من يدها، أجلسها جواره على الأريكة، وهمس أن عليها  
أن تعلم أن هؤلاء ليسوا سوى تعويض نفسي، يتلاشون عندما يحضر  
عطر الطبيعة الحقيقي. دفعته بعيداً، وقامت وهي تضحك: كدّاب...  
حلو وكدّاب. حرّزها متراجعا إلى الخلف:

- عارفة أهميتهم عندي.

- إيه يعني أهميتهم عندك؟

- يحموني من الرغبة في الانتحار... من كوابيسي التي تحرّم عليّ  
النوم. قال إنه غير قادر على وصف ما يشعر به، يمكن أن يقولها في  
كلمة واحدة، كمصطلح فلسفي، وليس سياسياً. سألت عمّا يعنيه؟

قال هو الفساد بالمعنى الفلسفي، التفسّخ الانساني الاجتماعي  
والثقافي والسياسي، التفسّخ العضوي... النتن... الخراء... لو كنت  
موجودة بصورة دائمة ينتهي كل هذا من حياتي... يختفي... يتلاشى.

- Do you fuck them?
- Will I be able to fuck you?
- Who's knows?

نظرها تسدُّ مدخل الباب الخارجي في فستان الموسولين  
تحمل حقائبها ومذكَّراتها، وما جاءت به من أواني الطعام،  
سوف ترحل كما جاءت صاغ سليم... له أن يكتفي بمتعة الاشتهاء  
البصري، وملاسمات عفوية مُحَبِّبة، وعليها أن ترحل وهي تسأل  
نفسها، لماذا؟... لماذا تركني أفلت من بين يديه؟... لماذا لم  
يحاول التحرش بي ليلة أمس؟ سوف يتصاعد في جوفها سؤال  
مُرٌّ؛ ألسْتُ جميلة؟ أنثى تثير الرغبة لدى الرِّجال؟ ...

ذكَرَها أنه اهتَمَّ بسيارتها، وأن مركز الصيانة وضعها أمام  
باب العمارة، وهنَّأها مرة ثالثة على اعتماد خطة البحث. تراجعت  
مُسْرَعَةً وخطفت قُبْلَةً من وجنته، فسألها مستفسراً عن سبب هذه  
المفاجأة، قالت بمناسبة الموافقة على خِطَّة البحث.



هز رأسه وهو يُردّد: مفهوم، ولكن لِمَ لم تعطيني إياها ونحن  
معاً ليومين كاملين.

- شفت بقي.

أشار إلى وجنته الأخرى وغمغم إذن عليك أن تفعلي مع  
الأخرى. فعلت من فورها، ثم سألت إذا كان لها أن تعرف السبب،  
أم هو جشع الرجال. قال بابتسامة هادئة:

- تغادرين منزلي قطعةً واحدةً لم تَمَسّ.

قالت وهي تنظر إليه بارتياح، ثم تندفع إلى أحضانه تعانقه  
بشدة، هي قبلة الامتنان لك على ما أحطتني به من شعور مُبهج  
بالأمان... ومنذ تلك اللحظة وفي كل مرة تلتقي به أو تودّعه سوف  
تحضنه بشدة، وتسحق نهدبها في صدره.

\* \* \* \*







# الجزء الثاني الرُّبْع الخالي





## الفصل الثامن



الإسكندرية

في التاسعة صباحاً دلفت إلى عمارته الكائنة على طريق المكس الرئيسي لكورنيش الإسكندرية، حيث وقف يشهد من تراس شقته الواقعة أعلى العمارة الترسانة البحرية وقرية الصيادين، يطفو بناظره فوق سطح مياه المتوسط؛ قوارب صيد، يخوت، سفن زكّاب، ناقلات عملاقة، تتنفس خياشيمه نسيم البحر. يُسلم نفسه إلى أمواجه في هدوئها وعنفوانها، يتابع عشرات العمال يتحركون في الصباح الباكر إلى أعمالهم، وقد سبقهم مع أشعة الفجر الأولى عشرات الصيادين. يغازلون البحر اللا متناهي بحثاً عن أرزاقهم.

كان قد مرّ عامٌ ونيّف على لقائهما الأول، وعلى غير العادة استقبلها في غرفة مكتبه، فهمت أن الأمر يستدعي التركيز والانتباه، جلست على الكرسي المواجه باهتمام ورهبة، تضع ذقنها البيضاء بين كفيها وهي تتابعه يراجع الفصل الأول من الرسالة والمتعلّق بالمنهج:

### الفصل الأول معنون تحت اسم "في المنهج"

عكف يسطر بقلم رصاص ملاحظاته على النص، قاطعها صوت طرقات على باب غرفة المكتب المفتوح، أطلت ابنته حاملةً صينيةً تحمل كوبين من العصير، دعاها للدخول. قدّمتها لسيده شاباً صغيرة في منتصف الثلاثينيات، سافرة، تميل إلى الطول،

قمحية اللون، ينسدل شعرها طويلاً أسفل وشاح من الحرير  
ربطته على شكل سكارف، تنتمي تقاطيع وجهها الحادة لنساء  
البحر المتوسط، ترتدي بلوز زهرياً يكشف عن نحرها وساعديها  
وجينز ضيقاً، قال: ديانا بنتي... سوزي، مُدرّسة في الجامعة.  
تبادلت المرأتان تحايا باردة. حدّته ابنته:

- بابا... إنت قدامك كثير؟ أنا عاوزاك دقيقتين.

- حاضر، اسبقيني وانا حالحك. اندفع من الباب طفل في  
الرابعة من عمره يحتضن ساقه، وهو يصرخ: جدو... ما تيجي  
بقي. حمّله بمودّة وقبّله من وجنتيه، ثم ألقى به ببرود لأمه: روح  
لماما أنا جايلك.

حملته واستدارت راحلة والطفل لا يزال متعلّقاً به.

- تمام، نحتفل بقي. قالت بابتهاج: شُفت بقي؟، نحتفل. لكنه  
أوقفها: لما البنت اللي بره تمشي. أحنّت رأسها موافقةً: تحت  
أمرك يا فنّدم، لما البنت اللي بره تمشي. صوت ابنته يأتي من  
الخارج مُلِحاً:

- بابا... محسن بيرن عليّ.

- لحظة واحدة يا ديدي. حدّث ضيفته: لحظة واحدة، أشوفها  
عاوزه إيه. قالت بكسل: أمشي أحسن.

تساءل عن الساعة. نظّرت في الموبيل وقالت إحدى عشرة.  
سألها إذا ما كان هناك ما يشغلها، أجابت برنة عذاب: خالص.

عرض عليها وهو يغادر الغرفة أن تبقى لتناول طعام الغداء معه، وأضاف عشر دقائق وارجع لك، عندما عاد استقبلته بابتسامة واسعة، وتساءلت بترددٍ عمّا تريده ابنته، قال إن عمّاه طلب منها أن تسأل إذا كان يُمكن للأسرة الحضور اليوم فاعتذر لهم. تشاغلّت للحظات تعدل من شعرها، ثم قالت: اجتمع عائلي! أجب بالإيجاب مُوضّحاً أنهم كانوا بصدد فتح أغراض المرحومة الوالدة في حضور الجميع، لكن سفر أخوه لسلطنة عمان، عجلّ بتقديم الموعد.

- وحضرتك ليه أجّلت الميعاد؟

اكتفى بالصمت، ندّت عنها صرخة فزع: بسببي أنا؟

- بسببك أنت. ظهر ضيق على ملامحها، أضاف أن لديه وأخوته ثقة في بعضهم البعض، وأن ما يجري هو أتباع للأصول واتقاء الشبهات. صوت ما أتى من الطُرقة الداخلية. ذهب متوقّفاً أن ابنته تودّعه للرحيل، لكنها وجدها تسأله باستنكار:

- بابا بتعمل إيه؟

أجاب باستياء: باعمل إيه في إية؟

بدا على طفلتها الرضيعة نيّة البكاء، فأعادت لها حلمة الرضاعة الصناعية، وقالت وهي تهزّها وتقلها من جانب لآخر:

- الست دي لسه قاعدة عندنا ليه؟

- بنت... فيه إيه؟

- ما تقوم تروّح بقى، هي معندهاش بيت؟

- عندها طبعاً... هو أنا حادخل بيتي واحدة من الشارع؟ جرى  
إيه؟ ما تخلي عندك شوية دم. عيب كده.

- يا بابا... يا بابا حرام عليك... طب معندهاش أطفال أو أم  
تسأل عليها؟

- طبعاً عندها أم، يعني جت منين، من الخرابة.

- لا يا بابا يا حبيبي مش قصدي...

عقب بسخرية: قصدك إيه يا بنتي يا حبيبتي؟

- طبعاً حضرتك حتهرج، أنا عاوزه أعرف مفيش حد يسأل  
عليها... وأضاف وعيناها تبرقان بلؤم: يعني ملهاش راجل يلّمها،  
ولا هو سايبها على حل شعرها طليقة في الشوارع؟

- لا ملهاش راجل، والله ما أنا عارف...

- يا نهار اسود يا بابا. هتف ينهي الحوار: وطي صوتك عيب  
أحسن تسمعنا، حاعرف... يلاً... جوزك منتظرك تحت، وبعدين  
عيب، خلي عندك شوية عقل وشيلي الأفكار الشاذة دي من  
دماغك.

- أفكار شاذة إيه! أنا باسأل حضرتك سؤال، على الأقل ادّيني  
إجابة عشان لما حد من سكان العمارة يسأل أجابوه.

- إيه السؤال اللي محيرك؟

- سبق وقلت لك، الست دي بتعمل هنا إيه؟

- أنا باساعدها في دراستها.

- إيه؟ دراسة! في إيه إن شاء الله؟  
- بتحصّر دكتوراه في الأدب العربي، وأنا باساعدها.  
- يا سلام، وده قانوني يا سي بابا؟  
- طبعاً، عندك شك إن بابا ممكن يعمل حاجة غير قانونية ...  
إخص عليك؟

- يا بابا بطل هزار، ينفع تقعد لوحك مع واحدة زيها، شايف  
لابسة إيه؟

- لابسة! لابسة زي ما انت لابسة، تي شيرت وبنطلون جينز.  
- أيوه بس أنا مش كاشفة دراغي وصدري.  
- ديانا ... عيب، دي زي والدتك.  
- زي والدتي! بابا فوق، دي أكبر مني بخمس سنين بس.  
- ليه؟ هوانت عندك كام سنة؟ شهقت وهي تنظر إليه  
باستنكار:

- هي نَسْتَكِ عمر بنتك حبيبتك؟  
- ديانا، حبيبتي، مين اللي في الدنيا ينسني عمر بنتي،  
استهدي انت بالله وما تعملهاش دراما وحياة أبوك، إحنا مش  
على خشبة مسرح.

استطردت بانتصار: دراما؟ طبعاً... ما انت خلاص نسيت  
ماما. ماما حبيبتك، عشقك الوحيد. وأضافت بلهجة تمثيلية:  
اللي مفيش حد في الدنيا يعوّضك عنها... دُوشْت دماغنا، واهه  
انكشفت على حقيقتك.



من خلف زجاج نوافذ تراس صالة الاستقبال ظهرت أشباح  
لدُمى تطارد بعضها بعضًا، وهم منخرطون في ضحك غير  
مسموع.

- يا بنتي أمك تركتنا من سنين! حاولت دمية لمانيكان أنيقة  
من عارضات ملابس السباحة التسلُّ إلى الداخل، لكنه نحَّاها  
بطريقة صارمة، تراجعت لتتلاشى في الفراغ.

قالت بحزن، والدموع تظفر من عينيها: بالنسبة لك طبعًا،  
بالنسبة لي ماما عمرها ما غابت لحظة. نظر إليها وهو يكظم  
غيظه: بالنسبة لي أنا كمان أمك لسه عايشة، لكن فيه حاجات  
تانية ماتت.

- ياه... ياه... على الرَّجالة لما تمارس النفاق.

- بلاش كلام فارغ، يلاً... جوزك منتظرك، عيب تسيبيه واقف.

- محسن يقف عشاني سنة، سواء تحت الشمس أو المطر...  
ميش زي ناس... عيني عليك يا ماما... جوزك المحترم يستقبل  
في بيته نساء غريبة في عمر بنته. قاطعها: أنا محترم غصب عن  
عين اللي جابوك، يلاً امشي من هنا.

- وكمان تطردني؟

- أنا أقدر أهوب ناحيتك... يلاً امشي بقى... سوزي حتقلق...

عيب...

- يا حرام! الدكتور خايف على تلميذته تقلق...

- يلا يا بنت خدي عيالك وامشي، متنسيش تخلي جوزك بيعت العربية بكرة لأخوك. أمسكت يد ابنها وضمت ابنتها الرضيعة وقالت: بتطردني يا سي بابا عشانها... أيوه يا محسن، حبيبي أنا نازلة حالأ. عادت نحوه تعانقه عنافاً حميمياً، طبعت قبلة على خده، وقالت: خلاص يا بابا أنا سايبه البيت وماشيه، باي باي... خد بالك من نفسك ومتخلهاش تأثر عليك. وأضافت وهي تتوجه إلى الباب: عموماً أنا ماشيه ومش سيباك لوحديك. انتفض مُستكبراً وهو يلتفت إلى الداخل: ليه هو لسه فيه حد جوّه؟

- لا مفيش حد اطمئن... انفرجت أساريره، لكنها أضافت وهي تفتح باب الشقة الخارجي، وأشارت وهي تنظر إلى السقف: أنا سيباك مع ماما. نظر لأعلى ثم حلت عليه راحة: طبعاً يا حبيبي طبعاً... أمك عمرها ما فارقنتي، طيفها في كل حنة في البيت.

- يا سلام... فعلاً دراما مسلسل تركي.

- يلا مع السلامة إنت وعيالك.

تداعت خارجة ورنين الموييل يطاردها، واختفت وهي تغلق الباب خلفها، شعر بارتياح واستدار عائداً الغرفة المكتب، لكنه سمع مزلاج الباب يُفتح ثانيةً ويُطل رأس حفيده وهو يسأل: هوانت يا جدو عاوزنا نمشي عشان خاطر الست اللي قاعده جوّه. أجا به وهو يفظ أسنانه: لا يا حبيبي، أبوك هو اللي بينادي عليكم... يلا بسرعة، أحسن حيروحووا الحفلة ويسبوك.

- باي جدو.

- باي حبيبي.

أغلق الباب بالمفتاح واستدار عائداً إلى غرفة المكتب. نظر إلى المرأة الشابة فاتحاً فاه، وهمس مُعرباً عن دهشته من تصرّف ابنته، وقال: البنت "المفعوسة" بتحاسبني!

علقت وهي تبتسم: مفعوسة أزي يا أستاذ. ما شاء الله عليها.  
- أيوه بس ما تكبرش على أبوها.

دعاها إلى صالة الاستقبال الرحبة، تضي أعمدتها المكسوة بحجر الجرانيت الخشن، وعارضات الأسقف المصنوعة من خشب "الماسيف"، وأرضية الباركيه- دفتاً ممزوجة برائحة القلاع القديمة.

حملت حقيبتها الشخصية، وحقيبة ظهر مكتظة بأغراضها: لابتوب، كتب، مذكرات، أدوات مكتبية، أقلام ماركر ملونة، سويتز جلدي، وشاحها الذي خلعتة، شيشب جلدي خفيف سبق وسألها أن تحضره إذا أرادت أن تكون أكثر ارتياحاً بعد أن أصبحت تمضي لديه أوقاتاً طويلة. ألقت بأغراضها في أرجاء الصالة الرحبة التي تضم فوتيهات وثيرة تحمل ألواناً بهيجة، تتصدّرها أريكة ضخمة يغلب عليها اللون الأبيض السمعي.

جلس في رُكنه المفضل على الطرف الأيسر للأريكة، هنا يحلوه الجلوس بارتياح وأريحية مستقيماً بظهره على المسند الأيسر، مُمدداً ساقه على استقامته، مُلاصقاً للمسند الخلفي الطولي أمام تلفاز حديث، قال مبتهجاً: والآن حان أوان الاحتفال.  
- أنا اتأخّرت... لازم أروّج.

- اشربي حاجة وبعدين رُوحي، تشربي قهوة؟

- لا بتعملي حموضة.

- عصير برتقال، ليمون، عصير رمان؟

- ممكن رمان... أقوم أعمله أنا.

اختفت لدقائق وعادت تحمل كوب العصير وفجأناً من القهوة،  
اتَّخَذَتْ مكانها في منتصف الأريكة، تبعد عنه قرابة الذراع. تحيطها  
شَلَّتَاتُها الوثيرة، تاركاً أصابع قدمه تلامس القماش الثقيل لنبطلونها  
الچينز، غير غائبٍ عن ذهنه أن ما يتحسَّسه يحتوي بين ثناياه كَفَلَهَا،  
وأن الأنثى الشرق متوسطة صاحبة الرِّدْفَيْن اللِّدْنَيْنِ والتي تجلس  
على مبعدة ذراع منه لم تتحرَّك مُبْتَعِدَةً.

\* \* \* \*

## الفصل التاسع

أثناء تشغيلها للابتوب، استدارت تسأله بصوت رخيم كصوت التشيللو: مالها بنتك، غيرانة والألا إيه؟

- غيرانة على إيه؟ ضحكت وقالت بصوت ناعم: على إيه؟ غيرانه عليك. ومن إيه معرفش. نفى الأمر، فأضافت: نص ساعة بتكلمك عنِّي وهي غضبانة، وكأني حاكلك، هوّ فيه إيه؟ قولِّي، لو سمحت.

عزف هاتفها أغنية لفيروز فقامت إلى التراس الخارجي، توارى عددٌ من دُمي كانت تُتصت إليهما من وراء زجاج الشرفة الجرّار الذي يفصل بين صالة الاستقبال وبين التراس. شوّح لهم بيده فاخفين. عادت من مكالمة طويلة مع أشخاص لم يهتم بمعرفتهم، وعندما جلست اقتربت منه، وهي تعيد سؤالها:

- لا... قل لي... بنتك زعلانة ليه؟ ما تحاولش تتهرّب؟  
- أتهرب ليه؟

- مش انت اللي واجع دماغي بعقدة فرويد. قال إن ابنته كبرت وتزوّجت ولديها ولد وبنت، أضاف إن عقدة فرويد لم تُعد توتّر بها. سألته: أمال مع مين؟ قال: ابنها، بنتها، الله أعلم... للمرة الرابعة عادت من مكالمة طويلة مع آخرين، وفي كل مرة تعود من محادثتها كانت تجلس على مسافة أقرب إليه من سابقتها، وهو يتجاهل تقدّمها نحوه، هذه المرة دفعت بساقها اليميني أسفل فخذاها الأيسر، تاركةً جسدها يهبط كموجة عاتية تستقرُّ على شاطئ رملي ناعم، هَجَّ جذعها على الأريكة أمامه، وساعده ينيخ على المسند العريض.

بسرعة خاطفة داهمها بمد ساقه اليمني خلف ظهرها  
ليستقر بين المسند الخلفي للصوفاً وردفيها الدافئين، واستقر  
بساقه اليسرى أمامها على حجرها، باغتها ولف ساقيه معاً بقوة  
على خصرها، جذبها بغتة ليستتب جذعها بين أحضانها، صدح  
الفضاء بسوناتا تضم مزيجاً من آلات النفخ والبيانو، هذه المرة  
كان أكثر نعومة. لحظات مرّت وهي تنام بسكون بجانبها الأيسر  
على صدره، مسد شعرها بلطف شديد، تشمّ عطره، حلّ به  
دوّار، انتفضت مثل غزال يحاول الوقوف من كمين صيّاده، تسأله  
بإصرار:

- لا... فيه حاجة انت مش عاوز تقولها لي.

- من إيه؟

- بنتك؟

- يا ستي غيرانة عشان أمها.

توقّفت للحظة وصرخت بخبث متسائلة: مني أنا! ليه طيب؟

- يا فندم مفيش داعي للتواضع. عاد المزيج المكوّن من  
ضحكة الفلوت والبيانو يرتفع بصخب، ألحقته بلزمتها الشهيرة  
"شفت بقى". أضاف: من هي السيدة التي تسير على ظهر الكوكب  
ولا تقتلها الغيرة من وجود أنفاس سعادتك في الفضاء الكوني  
المحيط بالمسكونة.

قالت بصوت دافئ حازم: كثير ده يا فندم.

ذلك صدره بجداول شعرها بلطفٍ يلقي به إلى مفاوز البهجة  
والسحر والجنون... استدارت ناحيته إلى الخلف، تسأله:

- هي زوجة حضرتك كان اسمها إيه؟

- ليه؟

قالت: مش عاوز تقول اسمها؟

- سبق وقلت لك.

- نسييت.

- اسمها عزيز قوي على نفسي... بس ممكن أعطيها اسم

كودي...

- إسم كودي... هو كان جواز سرِّي والأ إيه؟

- مش مهم...

- إسم كودي... قول مش مشكلة!

- فاتن.

على الأريكة الفسيحة استدارت تستلقي بظهرها على صدره،  
ضمت ساقها لأعلى ووضعت اللابتوب على فخذيها تستعيد منه  
فصولاً من رسالتها... أمسك بخصلات شعرها الأسود الغزير  
يشمّه، وهو يحكي لها عن تولستوي وروايته الحرب والسلام...  
يحكي عن ناتاشا الصبية الجميلة التي تضجُّ بالحياة، والأمير  
بيير الابن غير الشرعي للكونت بيزوخوف، وصديقه الأمير  
بولكونسكي وعلاقة بيير بالأميرة الفاتنة هيلين، وأخيها الأمير  
هيبوليت، والضابط دولوخوف الذي سيتمكّن من إغواء هيلين  
ويخوض بيير معه مباراة بالسلاح.



مدّت يديها تجذب جدائل شعرها من يده، وتعيد جمعه على هيئة كعكة خلف رأسها الذي يتوسّد صدره، كانت رطوبته تستدعي من الفضاء برّد سهول الغابات الثلجية بروائحها وعطورها النقيّة، فقام على حله، فساعدته، فعاد يتشمّم عبقه وهو متورّط في الغوص في حالة نشوى مبهجة، عادت تجمعه على هيئة كعكة خلف رأسها، عاد يحلّه، وعادت تساعده في حلّه للمرة الثانية، سألته متسائلة:

- ومن ثمّ؟

- ومن ثم ماذا؟ قالت بنفاد صبر: ماذا عن ناتاشا؟

- أم... فاتن كانت تشبهها. هتفت غاضبة: فاتن زوجتك تشبه ناتاشا تولستوي... واو... بدأنا في "التّش".

- بتقولي إيه؟ قالت إنه فشّار رسمي. صمتًا قليلًا، وعندما فهم ما تعنيه انطلقا في الضحك... فكّ أزرار قميصه، رفعت جذعها وعادت تسكن برأسها على صدره العاري، انبسط شعرها على امتداد صفحة صدره كسحابات شتاء بارد، عاد يتشمّم جدائلها بورع، عبق سحري، عطر بري، دغل من زهور السحلبيات البرية... تنفّسه بكل دُرّة من جسده، غير قادر على التوقّف، مرة تلو أخرى، مسح به صدره، دعه بلطف، سرّت برودته الثلجية في أوصاله، سألتها عن نوع العطر الذي استخدمته في شعرها، نفت أن تكون قد استخدمت شيئًا. ليس ثمّة عطر سوى عطر جسدها. قال لها فيما بعد، ثمّة لغز في شعرك، أتفّسه، فيشدني إليه بحرارة طاغية مثلما يشرع المرء في تقبيل شفاه غليظة لامرأة ذات جاذبية

أسيرة، فهل يمكن لشعر الأنثى أن يكون مُثيراً للذمة جنسية؟ هزت كتفها مُعلنة أنه ليس لديها إجابة، واستطردت تتحدّث:

- هي كانت جميلة؟

- مين؟

- المدام.

- مراتي! أوه هو هو هو... قَمّة في الجمال.

قالت برنة ساخرة: على مهلك مش قوي كده! إيه يعني! مارلين مونرو. عقّب مارلين مونرو جميلة، لكن نموذج للجنس الجسدي، فاتن كانت النسخة المصرية من أودري هيبورن التي مثّلت دور ناتاشا في النسخة الأمريكية للفيلم المأخوذ عن الرواية، فاتن حمامة في الحجم. لديها طاقة عصفور الكناري، وجهها ابتسامة متوهّجة، متألّقة، طبعا انت ما تعرفيش أودري هيبورن، لكن تعرفي فاتن حمامة؟ ممكن تكون قريبة من الممثّلة الإسبانية بينيلوبي كروز. هتفت: واو...

- كانت تملك المثلث الذهبي لجمال الأنثى. قفزت من جلستها واستدارت تسأله بشغف: قولّي بقي يا أستاذ، ما هو المثلث الذهبي لجمال الأنثى، وليه مش مُربّع؟ وليه مش دائرة؟ كان السؤال يستدعيه للنظر فيما بين يديه، مدّ ساقيه على استقامتهما لتمدّدا بجوار ساقيهما يرتشف من فخذيها حرارةً ووهجاً لذيذين، ثم ضمّ ساقيه حول ردفها، وعندما عبر بناظريه الرأس البحر متوسطي المحفور الملامح الذي يتوسّده، كان نهداها يُطلّان أمامه على بُعد مسافة من عنق ونحر يدعوانه بشغف للمداعبة،

قال وأنامله تمسّد بشرة وجهها وخدودها ، ثم تهبط لتعبت بعنقها ، على بُعد ثلاثة قراريط من سفح نهديها ، الحُسن والملاحة والجادبية ، هم الضلع الأول لمثلث المرأة الذهبي ، الضلع الثاني الذكاء المتوهج والثقافة الموسوعية ، الضلع الثالث وهو الأساس لكل ما سبق وبدونه ينهار البناء الجمالي للمرأة . قاطعتَه تسألُه عن ماهية البُعد الثالث؟ قال سلامة النفس؛ المرأة الأُنثى التي لا تملك سلامة وتواضع النفس وحكمة الإدراك ، تمتنع عن اعتلاء العرش الذهبي للكمال ، فهي تتحوّل إلى كائنٍ مُتوحّش أو مريض أو شخص موتور تعس .

- ياه... وهل السيدة زوجتك ذات الاسم الكودي فاتن كانت تملك كل هذا؟ تطّلع إلى الفراغ وكأنه يستعيد حضورها ، وقال إنها كانت تمضي الأربع والعشرين ساعة في المنزل مُرتديّة تي شيرت يكشف عن خصرها وشورت ، وقد ظلّت أظافرها بمونيكير أحمر قان ، وفي قدميها شبشب أنيق يسبغ المكان بحُمرة كعب بيك بدم الغزلان ، وعلى فكرة كان هوت شورت ، فاهمة "Hot" ، هه "Hot" .

- فاهمة ، فاهمة... لكن قدام الولاد؟

- طبعاً... إيه المشكلة؟

- آسفة ، ممكن أعرف من حضرتك هي ماتت ازاي؟

- حادث صعب .

- سيارة؟

- انفجار طائرة فوق صحراء الرُّبْع الخالي.

- ياه... معقولة... أنا آسفة.

- أبداً... عشان كده باحب قصيدة مظفر النواب "وتريات

ليلية"، ممكن بقى متقلِّبِيش عليّ المواجه ونشتغل.

استطردت تحاول أن تتيقّن من موتها، فربما تكون على قيد الحياة، وأنهما ليسا سوى زوجين منفصلين، هو غارق في حبها، بينما هي متزوّجة ومستمتعة بحياتها مع رجلٍ غيره.

- هوانتم وجدتم الجثمان. قال: طبعاً... على بُعد عشرات الأمتار من الطائرة المنكوبة. وأضاف إنها دُفِنَتْ في الربيع الخالي.

تمدّدت أمامه، مستلقيةً بظهرها على صدره، يملآن معاً الأريكة الوثيرة المتسعة التي تتصدر صالة الاستقبال، لوحة تمتدُّ إلى الأمام، متجاوزة الشرفة والتراس، تنتعم على خلفية من ألق البحر وأمواجه المتلاحقة والسُّفُن الصغيرة المُبحِرة، ومراكب صيد تتلکأ بحثاً عن الرزق، تحت شمس تُرسل سلاسلها الذهبية من وراء السحب، وبحر تختلط ضربات أمواجه وصفارات السفن بضحكاتها، يتدفقون معاً في سوناتا تجمع بين نعومة الهارب وضربات البيانو، من طبقاته السُّفلى إلى الذُّرى المُعقونة بضربات القدر.

هبط بكفه ليستقرَّ على المساحة المكشوفة التي لا تتعدى رُبْع قُبَّة النهدي الضالع أمامه على بُعدٍ زهيد، حاول التوغُّل بأنامله

داخل المشدّ، لكنها لم تسمح له بأكثر من تلك المساحة، وكثيراً ما حاولت أنامله أن تتسلل إلى داخل القلعة الذهبية لنعمة الرب، تقودها كتيبة خيالة خفيفة تتقدّم لتعبر الخندق المحيط بالقلعة، أسوارها كانت عالية، جسورها مرفوعة، لم يتمكن، كانت تضحك بشدّة وتتحدّج بأنه يثير لديها "زغزغة"، في النهاية استسلم واكتفى بما سمحت له به.

تتهدّد... يبدو أن اليوم هو يوم الرُّبع الخالي. اكتفى بإراحة كفه على الرُّبع الخالي من قُبّة نهدها، تقبّلته بصمت، وهو يجذب ديوان شعرٍ ويعطيه لها، كي تقرأ:

- إيه ده؟

- حيكون إيه يعني؟ شعر.

- وأنا مالي بالشعر؟

- ديوان مُظفرّ النواب،

- ماله.

- عن الربع الخالي... خَلِينَا نقرأه تقديراً للمرحومة.

ارتسمت على وجهها صدمةٌ عابرة، بدأت القراءة:

في تلك الساعة من شهوات الليل  
وعصافير الشوك الذهبية  
تستجلي أمجاد ملوك العرب القرماء  
وشجيرات البر تفتح برفء مرافقة بروية  
يلتظ حليب اللوز ويقطر من نهرها في الليل  
وأنا تحت النهرين إناء..

استدارت نحوه تنظره بعينين غاضبتين؛ إيه ده؟ قال بجديّة:  
أمّال عاوزه تاخدي دكتوراه في الأدب العربي أزاى؟

- واضح إني مش حاخذ حتى دبلومة.
- منزعة ليه؟
- اسأل نفسك.

- لا... لا... أضاف أنها غير منتبهة للطبيعة الرومانسية  
للقصيدة، وكيف أن الطابع الحسيّ بها بسيط جدًّا، مختلف تمامًا  
عن قصيدة ابن المقفع. قالت باستغراب: في إيه؟ قال: في اختياره  
للوذيفة البلاغية لحليب النهد. قالت إنها لم تفهم شيئًا. قال  
باستخفاف: طبعا... ح تفهمي ليه؟

- فهمني... قال: في قصيدة ابن المقفع الصورة البلاغية  
للحليب مباشرة، خالية من المجاز، وظيفة الحليب في البيت  
الشعري تقتصر على الإرضاع، بينما في قصيدة مظفر النواب،  
المجاز يتسم بالجمال الرفيع. سألته ولم يا أستاذ، وهذا حليب

وذاك حليب؟ مصمص شفثيه تأسياً من حالة السيدة الحاصلة على درجة الماجستير في الشعر العربي الحديث، وقال: لهم حق يتهموك بإنك سرقتِ الماجستير. قامت تدفعه في صدره غاضبة، ضحك وأغنية فرقة: "The Art Company" تتوارد إلى ذهنه...

... We sit together on the sofa... With the music way down low...

استطرد: مظفر النواب يتحدث عن مراهقة، وليس امرأة يغصُّ أو يفيض الحليب بنهديها، فليس ثمّة وليد تُرضعه، وإنما حليب اللوز هو كناية عن النهْد نفسه. فاهمة؟

- مش قوي. ضغط بلطف على الربع الخالي بقبة نهديها ومسده بصبر وأناة، يتحسس رد فعلها، تذكر مقولة الكاتب الياباني "ياسوناري كواباتا" والتي تعجب فيها عن الكمال الذي أنعم به التطور الداروني لثدي الأنثى البشرية، وحدها من بين جميع الحيوانات أن يتخذ هذا الشكل الرائع، معتبراً أن جمال نهْد المرأة يُعدُّ المثال الأبهي للتطور البشري. استطرد أن العبارة عند مظفر تحتشد بالكثير عن نهْد تلك المراهقة البدوية، فنهداها لن يكونا مكتظين باللبن، وإنما يقصد الشاعر أن للمراهقة البدوية نهدين صليبين كاللوز، وحلاوة كحلاوة اللوز، وهو شاهقُ البياض كقلب اللوز، ولنهديهما مسحة وردية كقشر اللوز، يا سلام على البلاغة... يا سلام على الشعرية... بينما ابن المقفع يتحدث في قصيدته عن إغوائه لعنيزة وتسلله إلى هودجها ومضاجعتها فوق غبيط الجمل، ويحدثها في ذلك عن عشيقاته، ومنهم تلك الحامل، ومنها تلك

التي كان نصفها السُّفلي تحته بينما تميل بنصفها العلوي جانباً كي تُرضع رضيعها، تلاحظين وسوف يلاحظ الأعمى أن في أبيات مظفر جَمالاً رومانتيكياً وحسبياً، في أبيات ابن المقفع فظاظة وجفاء، وهذا فارق كبير بين الشُّعر الجاهلي والشُّعر الحديث؛ ولهذا جرى إعدامه... توقّف بغتة، يسألها: أكيد إنَّتِ جُعتِ. هزَّتْ رأسها، لا بالإيجاب أو الرفض، سألها عمّا يمكن تناوله، وقبل أن تنطق قاطعها قائلاً: ليس المكرونة. الشيء الوحيد الذي تُجيدين طبخه. ضحكت: مش عاجباك المكرونة اللي باعملها؟ قال يسخر منها: مكرونة بالمشروم، مكرونة بالكبدة، مكرونة بالصلصة، مكرونة بالفاصوليا، مكرونة بالفجل، مكرونة بالملوخية. قالت تُعقّب على تهكّمه بسخرية: أنا عارفة إيه ده، مكرونة، مكرونة، مفيش غير مكرونة!

- كان لازم جوزك يهجّ منك.

- وأنا كنت مسؤولة عن أكله؟ عنه ما داقه. قال يغيظها: الأكل مسؤولية الزوجة. تغيّر وجهها، وبدا أنها توشك على الاختناق، كانت تحاول أن تمسك عِبراتها، ضمّتها بساعده وهو يضحك: خلاص خلاص خلاص، الأكل ليس ضمن المثلث الذهبي للمرأة، أضاف أن لديه قريديس، وسألها إذا كانت تستطيع عمله؟ أجابت بالنفي، قال إنه سوف يقوم على عمله، وأضاف يسألها إذا كانت تستطيع عمَل أرز بالطماطم بمناسبة القريديس قالت إنها لم تطبخه من قبل.

- أمّال بتطبخي أيه؟



- معرفش غير المكرونة؟ عمومًا سهلة، مفيش مشكلة  
أجيب طريقة طبخ الرز بالطماطم من النت، بس قول لي يعني  
إيه قريديس؟ تجاهل سؤالها وقال: طب ما تجيبي طريقة طبخ  
القريديس بالنبيذ والكزبرة من النت، والألاً. خليك إنت في النت  
والرز بالطماطم، وأنا حاعمل القريديس، وفي هذه الحالة لازم  
يكون عندنا نبيذ أبيض. سألته: ليه يا أستاذ؟ قال إن هذا قانون  
تناول النبيذ؛ النبيذ الأحمر مع اللحوم الحمراء، والنبيذ الأبيض  
مع اللحوم البيضاء.

- هو القريديس أبيض؟ مصمص شفتيه وقال بتلذذ: أبيض  
وردي، كما إماء وجواري حكايات ألف ليلة وليلة، كما أميرات  
الغابات المسحورات المحبوسات في قصر عالٍ لا تتعرض  
بشرتهن الشفيفة لأشعة الشمس.

- دي رواية بقي؟

- زي شفايف الأنثى.

- واو... طب أنا حاكله ليه؟

- اعتبريه شفايف رَجُل، بس بالحق هو على لون ثغر أنثى؟

- طب قول بقي؟

- إيه؟

- يعني إيه عندما تبحث عن شيء ولا تجده؟

- يعني "روبيان". فكّرت قليلاً ثم طرقت بلسانها وسألت

بجدية: طب يعني إيه الروبيان؟ قال متأففاً: أوه بقي، ساعة

وحيدخل هنا (وغررز إصبعه في سُرّة بطنها) صرخت، وأضاف،

وتعريفه على الواقع كويس. تحبّي نتغدى إمتى؟

- ممكن بعد ساعة.

- طيب ... حاعمل قهوة وبعدين نكمل. قامت وهي تُردّد بحزم:  
أنا حاعملها لك... سادة طبعاً. ارتشف القهوة ببطء وممتعة وتبعها  
بسيجارة، مدّ يده يدعوها إلى حيث كان مستقرّها، استجابت  
بليونة مُمتعة، فلما سكنت تخلّل بأصابعه شعرها القاتل، لكنها  
انتفضت واستدارت نحوه بدهشة: هو ابن المقفع كان شاعر  
أصلاً. ابتسم بخبث: إنتِ لسه فاكرة؟ قالت بغضب وهي تلكزه:  
لا قول بجد. قال بخبث: الأدباء القدامى جميعهم كانوا يقولون  
الشعر. سألته أن يقول القصيدة.

- ليه؟ مفيش داعي حتخدش حياتك. وبراءة الطفولة لديك.

- لوسمحت.

- براحتك، وقال:

وَيَوْمَ عَفَّرْتُ لِلْعَذَامِي مَطِيئِي  
فَظَلَّ الْعَذَامِي يَرْتَمِينِ بِلَحْمِهَا  
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْمَ خِدْمَ عَنِينَةٍ  
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَيْطُ بِنَا مَعَا  
فَقُلْتُ لَهَا: سِيرِي وَأْمُرْخِي نِزَامَهُ  
فَمِثْلِكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعُ  
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا أَنْصَرَفْتُ لَهُ

فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمِّلِ  
وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمْعِ الْمُنْفِثِ  
فَقَالَتْ: لَكَ الْوَيْلَاتُ!، إِنَّكَ مُرْجِلِي  
عَفَّرْتُ بَعِيرِي يَا ابْنَ الْمَقْفَعِ فَأَنْزِلِ  
وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْ جَنَّاكِ الْمَعْلَلِ  
فَأَلْهَيْتُنَا عَنْ ذِي تَمَانِهِ مَحْوِلِ  
بِشَقِّ، وَتَخْتِنِي شِفْمَا لَمْ تَحْوَلِ

انتفضت بغضب وهي تصرخ: قصدك امرؤ القيس... حرام عليك يا أستاذ... ابن المقفّع الزاهد العابد، تعمله زي الفاسق الفاجر امرؤ القيس... انهالت تلقي عليه بكل ما يقع بين يدها. كتب، مذكّرات، وسائد، وهو يقول لها إنه يختبرها وهي تردّد: تضحك عليّ... أنت تضحك عليّ... يتقيها وهو يهتف: خلاص خلاص خلينا نرجع للرّبع الخالي. يهبط جسدها على جسده يحتضنها ليستقرّ نهداها على صدره، تلهث... يمدُّ أصابعه تتخلّل جدائل شعرها الأسود، ويربّت على رأسها وهو يهمس: يلاً يا بنت كمّلي وبطلّي لعب. تستعيد موقعها، تتمدّد بين ساقيه، تلقي بظهرها على صدره، تستطرد بصوت كالقيثارة:

" في تلك السّاعة حيث تكون الأشياء بُكاءً مُطلق  
كُنْتُ عَلَيَّ النَّاقَةَ مَعْمُومًا بِنُجُومِ اللَّيْلِ الْأَبَدِيَّةِ  
أَسْتَقْبِلُ رُوحَ الصَّحْرَاءِ  
يَا هَذَا الْبَدْوِيُّ الضَّالِّعُ بِالْهَجْرَاتِ  
تَرُودُ قَبْلَ الرَّبْعِ الْحَائِلِي بِقَطْرَةِ مَاءٍ  
يَا طَيْرَ الْبَرْقِ أَخَذْتَ حَمَائِمَ رُوحِي فِي اللَّيْلِ  
إِلَى مَنَبَعِ هَذَا الْكُونِ . . .  
وَكَانَ الْخَوْفُ يَفِيضُ . . . "

أغمض عينيهِ وعاد للخلف يتكئ برأسه على مسند الأريكية،  
حاملاً جذعها ورأسها وجدائل شعرها وصوتها يتردد على  
مسامعه، يخفت ويزوي... يغمغم...

ربع التَّهدين الخالي يبعث في أحشائي الجنون... ظهري مُثقل  
بالهموم... عنقك يرجو كتف صديق... كتفك يحتاج لتمسيد...  
أرحل في بيدائك بحثاً عن قطرة ماء، أغني أهازيج... أعجز  
عن لثم شِفَاك الوردية، أعياني القَبْض على نهديك... أضناني  
الإمساك بتلك الحلمة المنتصبة أعلى التلَّة... طابية وردية تغوي  
الفرسان... تنتفضين كهرة... أظافرك... مخالبك... تُشرع في  
وجهي بوحشية...



استيقظ من تأملاته على صوتها يُرتل:

"يا طير البرق ...  
أمر يدُ امرأةً دفناً تعرفُ مثل مفاتيحِ الجنة بين يدي وأثامي ... وأمرى فيك بقايا  
العمر وأوهامي ... للخطِ الكوي في تيمُّ صلاة الصبحِ بفرزٍ جوامعها ...  
لشوايرِها ... للصبر ... لعليّ تَوْضاً بالسيفِ قبيل الفجر ...  
أنبيك عليّاً ... ما نزلنا تَوْضاً بالذِّلِّ ونَمَسَحُ بِالْحَرْقَةِ حَدَّ السَّيْفِ ... ما نزلنا  
نَحَجَّجُ بِالْبَرْدِ وَحَرَّ الصَّيْفِ ... ما نزلتِ عُمُرَةٌ عَمْرُوبِ بْنِ الْعَاصِ مُعَاصِرَةٌ  
وَنُفِجَ وَجْهَ التَّارِيخِ ... ما نزلَ كِتَابُ اللَّهِ يُعَلِّقُ بِالرُّمَحِ الْعَرَبِيَّةِ ...  
ما نزل أبو سفيانٍ بِلِحْيَتِهِ الصَّفْرَاءِ يُؤَلِّبُ بِاسْمِ اللَّاتِ الْعَصْبِيَّاتِ الْقَبَلِيَّةِ ...  
ما نزلتِ سُومِرَى التُّجَّارِ تَرَى عُثْمَانَ خَلِيفَتَهَا ... وَتَرَكَ نَرِيعَةَ السُّوقِيَّةِ ...  
أنبيك عليّاً، لَوَجِئْتَ الْيَوْمَ حَمَارَكَ الذَّاعُونَ إِلَيْكَ وَسَمَّوكَ شَيْعِيًّا ..."

قطع ترتيلها رنين التليفون، تراجعت للوراء ومقدمة نهدتها  
تطلُّ كالزغب أسفل البلوزة الروز والمشد الأسود، مدمجان مع  
لحمها الوردى، تعزف أحلى سيمفونيات الحياة... قام يبحث عن  
الهاتف وقد أصابه الغم، سمع صوتاً يسأل عن المكوجي، قال إن  
الرقم خاطئ، أجابه: عُذْرًا إِذَا كُنْتُ ضَيَّعْتُ وَقْتِكَ ... أعاد السَّمَاعَةَ  
وهو يتساءل بغضب: وهل هذا وقته... انثنى عابداً وهو يتمتم بأغنية:  
سوزانا... أنا مجنون بحبك... جلس جوارها وأخذ يدها بيده، لكنها  
جذبتها وقالت لنجلس ونتحدّث فقط. قال: هذا أفضل. نظرت تبحث  
عن الوقت، وقالت: حان وقت الرحيل... ماما تسأل عليّ.

\*\*\*





## الفصل العاشر

- 1 -

عندما توارت داخل الحمّام، فُتحت أبواب التراس، واندفعت  
الدُمى يجلسن حوله، بعضهن يرتدين بدلاً "حريمي"، تاييرات  
بجيبات قصيرة تتّسم بالأناقة، بعضهن يرتدين ملابس سهرة

بحمّالات تكشف عن أكتاف

ونحور وظهور عارية، وأخريات

يرتدين ملابس كاجوال، كُنَّ

مانيكانات لنساء خرجن

لتوهنّ من مجلات الموضة...

بعضهن أشعلن سجائر نسائية

ملوّنة، وأخريات ملأن كؤوس

خمر، اثنتان كانتا على علاقة

وثيقة، إحداهما موديل

الممثلة الإيطالية مونيكا

بيلوتشي والثانية

الفرنسية صوفي مارسو،

اتّخذتا طريقهما إلى حيث

يضع أشياءه الخاصة

وأخرجتا زجاجة كونياك

أحضرتها له من باريس

صديقتّه الفرنسية التي





تعمل في منظمات اليسار الراديكالي، ومعها زجاجتان مارتيني جعلت الأولى هدية، وأصرّت أن تتقاضى ثمن الثانية، وكانت قد روت له أن لديها شعورًا مُتمكّنًا بأن الرجال المصريين محتالون، يسرقون نقودها، وكانت تعمل على إنجاز رسالة في الاقتصاد العالمي، وعندما حاول تشجيعها على إنجازها طلبت منه أن يساعدها، لحظتها ضحك وبسخرية، فالسيدة الفرنسية باردة وعملية في آن واحد، عرضت عليه أن يتزوجها بسبب قرب انتهاء تأشيرة كارت الإقامة، وعندما تركها كان يتمنى لو كانت أقلُّ بخلًا ممّا هي عليه، رحلت واحتفظ بالزجاجتين كي يحتسيهما مع امرأة مميزة.

كادت شبيهة مونيكا بيلوتشي أن تلقي بالزجاجة غضبًا، لكنه تمكّن من أن ينتزعها منها، وقال بسخرية إنهما لا يستحقان أكثر من غلبتي بييرة هنكل، نظرنا إليه بسخط، طالبتة الأخرى بأن يحترمهما، قال ماذا تظنّان نفسيكما، لا يأخذكما الفرور، أنتما للمرة العاشرة مُجرّد دُمى من البلاستيك، دفعهما بعيدًا،



تَوَارِيَا فِي مَكَانٍ قَصِيٍّ، وَتَنَاوَلْتَا بَدَلًا مِنَ الْكُونِيَاكِ وَيَسْكِي، وَشَرَعْتَا فِي صَبِّهَا فِي كَوْوَسٍ بِحَوَافٍ ذَهَبِيَّةٍ، وَخَرَجْتَا تَرشِفَانَهَا عَلَى مَهْلٍ. سَمِعَ صَوْتَ مَزَلَاجِ بَابِ الْحَمَّامِ يَفْتَحُ، دَفَعْنَهُ بَعِيدَ، مُؤَنَّبًا إِيَّاهُنَّ، وَهُوَ يُحذِّرُهُنَّ: لَقَدْ عَادَتِ، سَتَبْقَى وَسَوْفَ تَرَوْنَ. نَظَرْنَ بِتَحَدٍّ، بَعْضُهُنَّ وَضَعْنَ قِطْعًا مَعْدَنِيَّةً كَرِهَانَ عَلَى رَحِيلِهَا، تَرَاجَعْنَ قُرْبَ بَابِ التَّرَاسِ الْجَرَارِ الزَّجَاجِيِّ، خَفَضْنَ مِنْ رُؤُوسِهِنَّ بِتَبْعِيَّاتٍ خَامِدَةٍ، وَكَأَنَّ شَاحِنَ الطَّاقَةِ فَصَلَ عَنْهُنَّ، يَنْتَظِرْنَ مَا سَوْفَ تُسْفِرُ عَنْهُ اللَّحْظَاتُ الْقَادِمَةُ، الْبِقَاءُ أَمْ الرَّحِيلُ.

على المائدة قال إنه يحمد الله على أنه لم يتركها تعبت بالقريديس. فصمتت ثم أطلقت ضحكة صاخبة وتوقفًا عن تناول الطعام، سألته عن سبب عدم إعجابه بالأرز.

- عجبني يا فندم، بس ده مش رز، هذا معجنات الأزر.

- معلش بقى البصل كان عصير بصل. قال إن سكان الهند الصينية سيكونون ممتنين لاكتشافها طريقة عمل الأرز بعصير البصل.

- شفت بقى... أتريق براحتك. قام يغسل يديه، جاء صوتها من الصالة تقول: بمناسبة أخوك اللي في عُمان، ممكن تسمح لي أحكي لك عن واحد من أعمامي. توقّع أن تحكي له عن مأساة من مآسي العائلات التي أصبحت تنتشر في الواقع المصري بصورة شائعة، لاحظ أن ملامح وجهها كانت تتغيّر عشرات المرات وهو يحكي عن نبل أسرته، أطلّ بوجهه من باب الحمام وطلب منها أن تنسى حوارات الأهل والأقارب، وأنه من الأفضل لو

تحدّثاً عن عملها. لاحظها وهي تحاول إخفاء دموع غزيرة تساب على وجهها. سألتها: مالك؟ فيه إيه؟ قالت مستعيذة حوار سابق بينهما حول الأخوة إنها كانت تعيش على أمل أن تكون حياتها ممتلئة بناس شُرَفاء، عطاء، حب، وفاء، وسألته إذا كان يظن أن هذا النوع من البشر لا يزال له وجود، أجابها: مؤكّد هناك بشر طيّبون، وأن عليها ألا تجعل تجربتها السلبية مع عائلة والدها تؤثر فيها وتحيل الحياة إلى سواد كثيب. قالت: هذا صنف لم يعد له وجود، وأنها سوف تحكي له حكاية لن تأخذ وقتاً طويلاً. فطلب منها أن تحكي ما تشاء. قالت إن والدها كان له أخ يعمل طبيباً، وكان لهم أخ أكبر يدعى ثروت توفي وهو شاب في حادث، أهل خطيبته أعادوا الشبكة لأبيها. قالت إن هذا حدث منذ ثلاثين عاماً، كانت جدّتي وعمّاتي على قيد الحياة، كان أعمامي صغاراً في المرحلة الابتدائية لا يدركون من أمرهم شيئاً، بعد ثلاثين سنة من موت عمي ثروت حدث خلاف بين أبي وأعمامي على حساب البيت الذي بناه أبي للعائلة في الريف، أحد أخوته كتب بقلم جاف وبخط صغير على ورقة تصفية الحساب، عبارة "شبكة المرحوم ثروت؟"، وعليها علامة استفهام. بابا اتجنّن، أصغر أخوته الذي أنفق على تعليمه وعلى حياته وجعل له منزلاً يقيه من طفح شبكة المجاري، الآن يُشكك في ذمّته بعد أن حصل على كل ما يمكن الحصول عليه، بعدما لم يعد في حاجة لأبي، ما عاد أبي يستطيع النوم، كان يقول سعادة المحترم بعد ثلاثين عاماً يسأل عن شبكة المرحوم أخوه، لماذا لم يسأل جدتك أو أخوته الكبار، أعمامه، أخواله، عندما كانوا لا يزالون على قيد

الحياة، لماذا بعد أن توفي شهود الواقعة وانتقلوا إلى المقابر... أقول يا بابا طيب إيه المشكلة؟ يقول يا بنتي الدكتور الذي ربّيته يُشكِّك في ذمتي، الدكتور اللي تزوج وأقام فرحه في بيتي. وعاش في المنزل الذي استأجرته لأمي الآن بعد ثلاثين عاماً يلوّح بأني استوليت على شبكة أخوه... لماذا لم يسأل بعد عام أو اثنين من موته، كان ممكن الاستعانة بشهود للواقعة، ولكن الآن ليس ثمة دلائل قاطعة عن مآل الشبكة، أنا فعلت وتحملت المسؤولية من أجلهم، ذمّتي جُرّحت وأنا الآن مُتّهم، هل هذا مقبول، بدلاً من القول شكراً، يُشكِّك في ذمّتي! قالت إنها رأّت أباها يتعارك مع نفسه، وكأن عفاريت الدنيا تحاربه، يلوم ذاته على سذاجته، في النهاية أصيب بشللٍ رَعَّاش.

قال: إن هذا أمر يثير الزعل، لكن سامحيني.

- على إيه يا أستاذ؟ قال من المحتمل أن يكون أعمامك على حق... والدك هو الغلطان. أشاحت برأسها غاضبة وهي تسأله كيف يساوي بين الضحية والجلاد... وكيف لأبيها أن يعاقبه أخوته على فعل الخير؟ قال كان عليه أن يسألهم إذا كانوا في حاجة لمساعدته بدلاً من أن يفرضها عليهم. قالت إنها سبق وأتّهمته بأنه المخطئ، كان يجب أن تسألهم، وكان يجيبني مُنفعلاً: "أسألهم على إيه؟ كانوا صغار، كل ما يشغلهم تأمين أجرة مدرّس خصوصي. كان يصرخ غاضباً: أسألهم نسيب الشقة التي كانت تطفح بالمجاري، أو ننتقل لشقة في مكان محترم، أسألهم أبني بيت عشان أحفظ كرامتي وكرامتهم... دول يا بنتي معندهمش دم، بس للأسف، أنا لم أعلم بهذا إلا في نهاية العمر، حيث يستحيل

إصلاح أخطاء الماضي... هم يعيشون سعداء بنعيم لم يتحملوا نفقته المادية والنفسية، وأنا أموت محصوراً في جحيم صنعتة لنفسي، لو كنتُ حافظتُ على أموالِي، كنتُ سأكون في وضع مالي أفضل لي ولكم. أضافت أن والدها مات محسوراً، وهو يُرَدُّ أنه عاش طول عمره شريف يؤمن بالمسؤولية، وأنه احتمل الصعب، كان الفساد يُعشش في كل مكان، طاعون يحكم المدينة، طاعون فئرانه بشر، تخيلي في واقع مثل هذا عندما تأتي الخيانة من أقرب الناس، من دمك ولحمك... قالت إنهم جعلوه يكره عشرة الناس، واكتفي عن البشر بالوحدة والكتب... بصراحة جزء من رغبتِي في الحصول على إجازة بالدكتوراه من أجله كي أرضيه وأحقق له أحد أحلامه.

قامت وهي تُذكِّره إن نوة "الحسوم" قد آن آوانها، وأنها تنوي أن تقيم معه كما حدث في العام الماضي، ولكن بقاءها لن يكون قسراً، وإنما برغبتها... قال يا الله... سبحانك...

\* \* \* \*



## — 2 —

بعد رحيلها دفع غالبيتهن إلى الهبوط إلى مواقعهن في قاترينه العرض، خرجن غاضباتٍ وعلى غير مبتغاهن، وتعبيراً عن سخطهن خلعت إحداهن باروكتها وسارت في ممرات العمارة صلعاء، وهو ما ألهم الأخريات بأن يُنضين ملابسهن قطعاً وراء أخرى، سيرن أمامه طابور من دُمي بلاستيكية عارية يتمايلن مثل عارضات أزياء على منصة باريسية. في طريقه إلى غرفة نومه هز رأسه غير مبالٍ، وأغلق عليهن باب الشقة المجاورة، أصابهن الجنون... شرعن يذُقُن على الباب المُطلّ على التراس، كُنَّ يرغبن في إثارتَه!... تساءل ذهنه المكدود عمَّن هو المجنون؛ قَطَع بلاستيكية تُحرق في أفران لاستعادتها خراطيم أو أكياساً، أم تعامله معهنَّ وكأنهن حقيقة واقعة... حلَّ بك الخيال، وشرع يفتالك كلُّيا...



استيقظ مُبكرًا، تناول إفطاره وفنجان قهوته في التراس، اقتربت أكثر دُماه سِحْرًا، التي تحمل باركود (S/11)، ويشير لها البائعون والعاملات في المحلات

والمولات برقم باركود (S/240000011) ، كانت على هيئة الممثلة الأمريكية سكارليت جوهانسن، وكانت قد بدت منذ إطلالتها الأولى على الشاشة. ثغر وعينان يجتمع فيهما جسد أنثى من "ليبدو مطلق". كان لديه الكثير منهن. يضعهن بصحبته وقتما يشاء، ويخفيهن من حياته أوقات عديدة.

تَبِعْتَهَا الدُّمِيَّة (K/22)



مثيلة كيرا نايتلي؛ والتي يشير لها البائعون والعاملات في المحلات والمولات برقم باركود (K/2440000022) ؛ عقل أنثوي محضُ جذبُه بصورة يصعب الفكأُ منها وهو يتابع أفلامها؛ أَلْمَعِيَّة وفَطْنَة وذكاء ساخر مفرط

الدَّهَاءُ، متآمر، تشعُّ منه ابتسامة

تهكُّمِيَّة، طاقة ذهنية لامعة تتدفق من عينيها؛ نظرات عميقة تحمل طيفاً متعاقباً من مشاعر متناقضة ومضطربة، وكل ما يمكن أن يطرأ على نفس بشرية من أفكار وخوارج، حباً... كُرَّة، غُضْبٌ... ذُعْرٌ، فرح... حزن... سعادة، إحباط... بهجة، لا مبالاة، طمأنينة، ينتهي الفيلم وتظلُّ نظرات عينيها المتألقَتين وابتسامتها الماكرة يحتلَّان عقله لأيام طويلة.



الثالثة تحمل باركود (P/33) ويشير إليها عاملات المحلات والمولات باركود (P/24400000033)،



وقد صنعت على هيئة الممثلة الإسبانية بنيلوبي كروز<sup>(10)</sup>، وكان قد استوردها حديثاً من موقع أونلاين من الصين بعد عام من ظهور طالبة الدكتوراه في حياته، كانت تُشبهها بصورة حادة، وإن كانت (P/33) أكثر شقاوة، تسبقها لكنتها الإسبانية عند نطقها للإنجليزية.

في الصباح الباكر أو مع جنوح الشمس للتواري في

كهف الأفق، تسيطر عليه الرغبة في الاستسلام لهدوء العالم وتصفية ذهنه من أوجاعه، يسلم "ذاته" إلى الرياح، البحر، الأمواج، مراكب الصيد البعيدة تتلاعب بها الأمواج، والسفن المضاء ليلاً، يجنح للجلوس على الأريكة التي تتوسط التراس، يتسلل للجلوس على مَبعدة يسيرة منه، فإذا كان مُنشغلاً في أعماله أو كتاباته يبتعدن ولا يفكرن في مخالطته، وإذا كان في حالة نفسية مواتية يسرعن بالاقتراب، يثرثر معهن حول أفلام هوليوود القديمة أو الحديثة، ممثلين وممثلات موجودين أعلى

(10) بنيلوبي كروز: (Penélope Cruz).

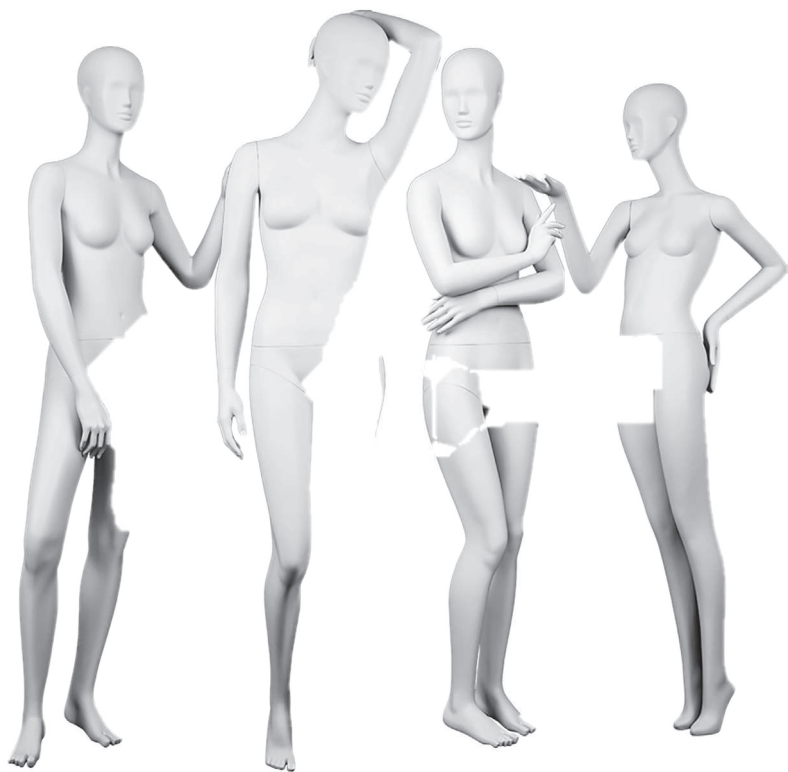
القمة دون حق، أسباب سياسية منعت ممثليه المفضلين من الحصول على جائزة الأوسكار، ولماذا تحوز إحداهن أغلب الترشيحات رغم أن الأفلام المرشحة لا تُعد الأفضل، ولم لا يحوز مخرجون وممثلون عظام جوائزهم عن أفلام رفيعة المستوى، لتتعطف هوليوود عليهم بالجائزة عن أفلام أقل شأنًا.

فإذا بلغ النقاش مبلغه، وانحنت الدمية (K/22) الجالسة أمامه إلى الأمام، وأسندت ذقنها فوق كفيها، تتابعه بعينيها المبتسمتين اللتين تجعل من مكرهما منشارًا آليًا حلوا يفت في قلوب ضحاياها، تبحث باستهانة وثقة في تلافيف عقله، لترى تأثير ظهور نهديهما على وجه رجل شرقي، أو أن أفكاره تحمل شبهة معادة للسامية، فلا يأبه، لا بها ولا بنهديهما؛ لأنه منذ أن رآها على شاشة السينما غرق في وجهها الحلو الصفيق، وعنقها الأهيض، مستمتعًا بها، تطل الدمية (M/55) شبيهة مونيكا بيلوتشي بخجلها المعهود، تعرض مفاتها وتتحرش به، تنهرها الدمية (P/33) بلُغتها الإنجليزية المغموسة في لكتنها الإسبانية بسبب تصرفاتها الملتوية، يتوقف كل شيء عندما تعترض ناظره الدمية (S/11)، تجلس جواره في فستان من مخمل قصير عاري الكتفين يكشف عن نهديهما، وجهها المكوّن من جرح خالص، يضم نُعر ثخين، وعيون تشعُّ بابتسامة فاجرة، وكلاهما من لذة صُراح وجنس صافٍ، تشعر الدميتان (K/22)، (P/33) إنهما فقدتاه في سباق الغواية، تبتعدان غاضبتين، تسعى (K/22) إلى التخلص من الحرج بالانتحار، تحاول أن تلقي بنفسها من الطابق الأخير، تمطره (P/33) بسيل من سباب بلُغة إسبانية لا يفقه منها

شيئاً، يلوح له أن ثورة الغضب تلك تُعدُّ وقتاً مناسباً للمضاجعة،  
يشرقن، تتوهج وجوههنَّ بحُمرةِ قانيةٍ ويُقبلن عليه بأريحية  
مفرطةٍ وصفاء.

الآن طالهن السأم، استسلمن لواقع ليس لأحد فيه حيلة،  
فمنذ دخولها عالمه عافهنَّ، وجاء وقتٌ لم يُعد يراهنَّ أصلاً،  
في حضورها أو غيابها، بدا لهنَّ أنَّهنَّ تلاشين من فراغٍ مُخيِّلته  
السقيمة، وما غير ذلك؟ وما هنَّ إلا أوهاماً كاذبة خلقها في  
ذهانٍ مُتقفٍ عاشقٍ مريضٍ للسيئما.

\* \* \* \*



## الفصل الحادي عشر

### أيتها الألهة

عاد من مكتبة الإسكندرية مُجهدًا، بعد أن أمضى طيلة يومه في بروقة مسرحية "هيبوليتس" Hippolytus، لـ "يوربيديس"، والتي كانت تقيض بالصراع الدامي بين مشاعر الحب العذري الجياشة ونيران الغيرة المهلكة التي تدفع إلى السقوط في دوائر الشك، وطاقاة الحزن المفعمة بالغضب مما يُنزله القدر من نوائب وخطوب غير مفهومة لبشرٍ لم يسبق لهم أن ارتكبوا شرًا أو أوقعوا أذى بآخرين. كانت المسرحية تتناول سلسلة مواقف اتخذها الصياد الوسيم "هيبوليتس" بعد أن أقسم لـ "أرتيميس" إلهة الصيد العذراء، أن يظلّ وفيا لها على الدوام، وأن يتجنّب النساء طول حياته، وأن يستعيز عن لذة الجسد الأنثوي بمتعة الصيد والحياة في الأدغال، وهو ما أشعل حنق الربّة "أفروديت" لهذه العزويّة المهينة لطبيعة الحياة، فصبّت في قلب زوجة أبيه "فدرا" Phaedra هيأما جنونيا بابن زوجها "ثسيوس"، هكذا تبدأ المأساة الأولى، حيث الوجد والهوى في أعقد أزماته، حين يصدّ الشاب "هيبوليتس" زوجة أبيه "فدرا" فيتحمّط قلبها، ويشتمل داخلها مرجل التساؤل في البحث عن معرفة المعنى الكامن وراء ظلم الحياة والوجود... تنتحر "فدرا"، وقد تركت لزوجها رسالة تتهم فيها ابنه بغوايتها، يستشيط الزوج الأب غضبًا، ويقتل ابنه الشاب؛ الذي يموت شرّ ميتة. في النهاية ينشد الكورس هذه الأبيات التي أزعجت الآلهة، وخاصة الربّة أثينا:

"أيتها الآلهة، يا مَنْ أوقعته في الشرك . . .  
إني أقذف في وجهك كرهى واحتقاري".

كانت المسرحية ضمن بروتوكول مُوقَّع في العام الماضي بين جهات رسمية، وقد بدأ العمل عليها منذ بداية العام الدراسي مع فرقة الجامعة المسرحية وكان من المنتظر أن يدخل بها مسابقة مهرجان مسرح دول البحر المتوسط.

جلس مُرهقًا تتنازعه الحيرة بين قدرات عالية يقدمها طلبة جامعيون مُولعون بفضن المسرح، وآخرون التحقوا بحثًا عن المال والنجومية، لكن الأسوأ جاء في الخطاب الذي تلقاه من وكيل الجامعة يسأله عمًا يفعله بفرقة المسرح، مقرونًا بشكوى كيدية تتهمه بنشر الإلحاد بين الطلبة والطالبات.

احترار بين الاشتعال غضبًا أو الانفجار ضحكًا للسفاهة التي يواجهها من أستاذ أكاديمي تعود أن يدفن ما يتعلَّق بالثقافة في مقابر الصدقة، أو يلقي بها في مكب النفايات الخطرة، شرط ألا يقترب أحد من الترقية التي يوشك أن ينالها ليصبح عميد الجامعة.

كان قد أرسل خطاب (وليته ما فعل) يردُّ فيه على الادعاءات المنسوبة إليه، ذكر أن غالبية نصوص المسرح اليوناني يُحاجي

فيها الأبطال القدر والالهة، وهو جوهر الثقافة الإغريقية والعقلية الغربية التي ورثت عنها مبدأ حرية التفكير، وأن المسرحية صدرت في سلسلة المسرح العالمي عن وزارة الإعلام الكويتية عام 1984، وجرى تمثيلها في عديد من البلاد العربية، وأن الأهم في الموضوع أن الدستور المصري ينص على حرية الاعتقاد، ومثل هذه التصورات المحافظة تكبح حرية الفكر ومن ثم نمؤ العقل الجمعي العام. على أن المهم أن المسرحية تتناول نقداً لاذعاً لرذيلة التطرف، وأن فكرة الطهارة المطلقة لدى الشاب هيبوليتوس تدفع الربة أثيا كي تببته وهو يعاني سكرات الموت إلى فضيلة عدم مغالاة الإنسان في حرمان نفسه من ملذات الدنيا وأطايها.

**الفساد  
لعنة أبدية**

هذه الفقرة الأخيرة وجدها  
وكيل الجامعة اعترافاً قطعياً  
ودليل إدانة مهوراً بتوقيع،  
ما دفعه إلى إسقاط تهمة نشر  
الإلحاد، وتحويلها إلى تهمة نشر الإفساد والرذيلة بين الطلبة  
والطالبات.

بعد حمّام ساخن دخل فراشه طلباً للغوص في نوم عميق، لكن  
نوبة تقلصات حادة وآلام رهيبية ناجمة عن الإجهادها جمّت قدميه،  
ففض من فراشه ووقف يبحث عن جورب صوفي، ارتداه بعجلة وهو  
ينبح من الألم، سار جيئةً ذهاباً محاولاً ترويض عضلات كف قدمه،  
وإعادتها للصرط المستقيم.



بعدها تلاشت تقصّصاته وعاد ليغفو حبيس كوايسسه، أفاق في غرفة مُعَيّمة يشيع بها ضوء باهت، زلزلة من عشرات الزنازين، يجلس على دكّة إحدى المدارس الثانوية داخل لجنة امتحانات ما قَبِيتُ تهيئه من جرّاء عدم التوقّف عن مطاردته.

شاهد "ذاته" تجلس في مؤخّرة فصل اكتظّ بطلبةٍ يَنْهَيؤون لامتحان، وأمامه ورقتا الأسئلة والإجابة بيضاء خالية، على يمينه ويساره جلس شابان في العشريّات، الجالس على اليمين يبكي عجزه عن الإجابة، ويبحث برجاءٍ مُهين عمّن يُعينه على الغشّ، أمّا هو فقد انتهى مُبكرًا من الإجابة، لاحظ أن "ذاته" تحافظ بحرصٍ على أوراقه، الجالس على يساره تبادل معه إشاراتٍ تنمّ عن رغبته في مساعدة الباكي، وعلى نحوٍ مفاجئٍ مدّ ورقة إجابته لحظة دخول المراقب لجنة الامتحان إلى الشاب الجالس على اليمين، انقضّ الباكي يخطفها، ولم يكتفِ، بل خطف معها أوراق إجاباته هو.

كنتُ لا أرغب في التورّط في مثل هذه الأمور، لكن الفشل لعنةٌ أبدية... ها هو المراقب سيمسك بي في حالة تلبّسٍ ويثبمني بالغشّ. لكن المراقب لحسن الحظّ لم يدّ شيئاً ورحل، لكن لعنة سوء الحظ دائماً ما تنتصر، إذ وقف أحد الطلاب واستدعى المراقب، ووشى بالشاب الذي أخفى أوراق الإجابات التي تخضّمه. استدعى المراقب ثلاثتنا. حاولتُ الدفاع عن نفسي، فُلّتُ للمراقب إنه ليس لي شأن، لا بمن قام بالغشّ، ولا بمن ساعده... ورغم ذلك سوف أرسب... ولقد رسبتُ دون ذنبٍ، وصار العارُ يُجلّطني...

غادرتُ كابوسي كُلِّي التعاسة، إحساسٌ طاع بالكآبة على العُمر الذي تسرَّب من بين أنامل الزمن... وعندما استيقظتُ ثَمَّة هاتِفٌ داخلي يخبرني أنني تخرَّجتُ من الجامعة بنجاح، وأني لم أفضل... أستعيد قدرًا من السعادة دون أن يُراوِخني بوَسٌ يفتالني كلَّ مرَّة يداهمني كابوسُ الرُسوب، كابوس لا يَوْمى فقط إلى فشل الأحلام والأمنيات في حياة تستحق أن تحيا، ولكن إلى أحلام دُهست بأحذية الطُغاة والفاشليين والمنافقين، ومحدودي الموهبة وسادة اللغات المزورة.

قام غير راغب في العودة إلى النوم خوفًا من السقوط في واحد من كوابيسه التي تمنى طيلة حياته لو يستطيع التخلص منها، حتى ولو يَغدُ السَّير في الطريق الذي سبقته إليه صديقاتٌ تخلَّصن من الحياة بالقفز من الطابق الحادي عشر.

\*\*\*

صنع فنجانًا من القهوة وعاد ليجد الدُّمى تملأ فراشه، بعضهن يعرضن أزياء على موسيقى هادئة، تابعهن بشغف، وموجة من النشوة تبدو في الأفق، جذب سماعة الهاتف وأدار رقمها:

- لِسَّه صاحية؟

- مش عارفة أنا.

- إيه رأيك تيجي؟

- جوزي موجود.
- جوزك والأ طليقتك؟ ... حيرتيني.
- جوزي السابق. ما تيجي انت.
- عندك بيععمل إيه؟
- كان عاوز أوراق من المكتبة، ماما قالت له بات هنا، مصدقش خُبر. فتحت له حجرة الجلوس وأهو مرمي هناك... تعال بجد.
- عرض حقيقي ولا وهمي...
- حصل إن أنا كلمتك في وهم.
- لا خالص.
- طيب تعال.
- هو انتِ قلتِ تعال والبيت فاضي لَمَّا حتقولي تعال واطليقتك نائم على بُعد خمس أمتار من حضرتك... إنتِ ح تستخدميني بقي؟ طلبت منه بصوت ناعم أن يبطل فلسفة... ويقرر إذا ما كان سيأتي أم لا؟ أجاب مستفسرا عما يمكن له أن يفعل بمجيئه وهي لا تُتيح له سوي الربع الخالي.
- يا أستاذ ربع خالي إيه؟ قال: الربع الخالي من نهديك الواقع بين حافة السوتيان العلوية إلى سفح العنق.
- رنّت ضحكاتها بشبِقٍ وقالت: مش حضرتك صاحب مقولة ما فوق جوهر اللذة.
- بس ما فوق جوهر اللذة يستدعي عبور جوهر اللذة نفسه

للوصول إلى ما فوقها ، أو تحتها ... ضحكك وغمغمت:

- إنْت مالکش حل ... تعال وأنا أخلِّك تعبرها .

- سوزانا .

- نعم .

- أنتِ معجزة إلهية ...

- تصبح على خير . حاول النوم ، لكن الأرق تمكّن منه ، وبين

إغفاءً وأخرى تستيقظ هلوساته من الرماد ...

كان يُحلِّق داخل نومه ... يشهد "ذاته" تسبح بين سُحُبٍ  
نُكِّلَ القِمَمَ النَّجِيَّةَ لجبال الأوليمب، هبطت "ذاته"  
المتدعة بالوحدة، صَبَّتْ له "هيببي" إلهة الشباب ومازحة  
الشباب الدائم السُّرَابِ في

أفداح الآلهة حتى ثمل. غَطَّ

في نومٍ رأى فيه "ذاته"

تتجوّل بين حدائق الدغبة

والغواية، ودُماه يتمدّدن عدايا بين

غدائر ووظاف الجداول، يلعبن بين

الوعول والغزلان، سارت "ذاته" وسط أدغال كثيفة

حتى انفرد الدَّغْل عن بحيرةٍ تتمدّد دُماه المفضّلة؛

... (11/S)، (22/K)، (33/P)، (44/SO)، (55/M) ...

على ضفافها، مَنَى نفسه بليلة صاحبة يُشْرِع فيها

هلاوسه، لكن صوت زئيد الريح وضربات الشدّفات والأبواب

Who's crazy?  
Who is mentally ill?  
Who is psychologically  
troubled?

أيقظه من نومٍ مضطرب. سكنت الرياح وحلَّ الصمت،  
قام يغلق نوافذه، لكنه وجدها مُغلقةً، تنهَّد وعقله  
الواعي يتساءل عمَّا يحدث حوله، شاهد زلال دُمَاه  
تسبح على الجدران والستائر يطاردن بعضهن البعض،  
يتسللن من أعقاب الأبواب وعبد أبواب مواربة يطلُّ من  
خلفها ضوء أصفر شاحب... فكَّر أن يتبعهن، لكنه  
استيقظ على "ذاته" تعدو بين حدائق الرغبة والغواية،  
تقف على حافة بحيرتها الملونة بلون السَّهْد الذهبي  
والأحمر الدموي، وقد تحوَّلت دُمَاه إلى صور مصقولة  
"2D" لفاتناتٍ حلوة تسبح على سطح المياه. انفصلت  
"ذاته" عنه وقفزت إلى البحيرة، تجمع تلك الصور... لام  
نفسه، ها هي الخيانة متجسِّدة في ذاتٍ لا تني تتورَّط  
وراء إشباع نذواتها في واقعٍ يتوه بين عالمٍ افتراضي  
وهذيان الوحدة.

تساءل إذا ما كان له أن يستيقظ من إغفائه المضطرب،  
حقاً قد فعل، ليجد الدُّمية التي تحمل بار كود "P/33" والتي تشبه  
سوزي بصورة تكاد تكون متطابقةً تستلقي ممدَّدة جواره، صلعاء  
من سليكون مُطوَّر... حاول أن يحتضنها، لكنها دفعته بعيداً،  
وطلبت منه أن يتصرَّف بلياقة، قال إنها مجرد دمية، ما الذي  
تفهمه عن اللباقة أو اللياقة؟

صرخت بإنجليزيتها ذات اللكنة الإسبانية، أنه إذا كان يريد  
مضاجعتها فعليه أن يتصرّف كچنتلمان، سألها غاضبًا عمّا  
تعنيه، قالت عليك أن تُمسّد شعري أولاً... نظر إليها،  
كانت صلعاء... لكن صديقتها ألقت لها بباروكة،  
شعْر بصوتها يخفت ويفوح بالغواية، تبتلع ريقها  
وتضيف: أن تُرَبّت بأناملك على وجنتي... أن  
تمسك وجهي بكفيك وتلثم شففتي... غَطّ في  
النوم وصوتها يتابعه، يتغلغل في وعيه  
الباطن... أن تدفع لسانك في ثغري،  
حينها يمكن لك أن تلفّ ساعديك حول  
خصري العاري، وتشدّني إليك من  
أردافي... هتف:

- دُمتُ مجنونة... سمعها تُردّد:

بروفسير، من المجنون؟  
من المختلّ عقليًا؟ من  
المضطرب نفسيًا؟

\* \* \* \*





الفصل الثاني عشر  
مجلس تأديب

استيقظ على هاتف من مكتب رئيس الجامعة، يستدعيه للحضور الساعة الثانية عشرة ظهراً، كان يعلم أن الأمر متعلق بقضية اتهامه بنشر الإلحاد بين الطلاب، توقع أن الأمر لن يستغرق دقائق، وربما يستقبله صديقه الرئيس ويقدم له اعتذاراً عن ضيق أفق وكيل الجامعة الذي يحمل دكتوراه في الجراحة ولا يفقه شيئاً في الثقافة، لكنه بوغت بتحوّل الأمر إلى وضع شديد الخطورة، وأن السيد وكيل الجامعة أنهى الإجراءات الخاصة بعرضه على مجلس تأديب.

في الثانية ظهراً دخل مكتب الرئيس الذي استقبله ببشاشة وطلب منه الذهاب إلى مكتب وكيل الجامعة، غادر المكتب الذي تفوح منه رائحة القيد ليجد نفسه في قاعة صغيرة يتصدر منصتها ثلاثة من أساتذة الجامعة يتوسطهم الوكيل رئيساً ووكيل كلية الآداب عضوين ووكيلة الآداب للدراسات العليا عضو يسار. في ركن بعيد جلس عقيد في مباحث أمن الدولة، دمية أو روبوت حديث جداً، خليط من صلب وأكلريك وبلاستيكون. كان يجلس واضعاً ساقاً على أخرى ويسجل ما يجري أمامه. وكان استخدام تلك الروبوت جاء بناء على توصيات ملزمة من مجلس حقوق الإنسان الكوني بغرض توفير حيادية مطلقة للمتهمين في قضايا الفكر أو السياسة، ولن يكون هناك أكثر حيادية من آلات خالية من المشاعر.

جلس مستغرقاً في التفكير وقد تأكد لديه أنهم اتفقوا بالفعل على قرار فضله من الكلية... فكّر أن عليه قبول عرض الجامعة النرويجية للتدريس بها... وبينما هو تائه فوجئ بجسد أنثوي



مُعْطَى بالنقاب يتقدّم إلى المنصة، تحدّثت وكيلة الكلية إلى



السيدة المنقّبة، وجّهت إليها تهمة

التحريض على التحضير لمظاهرات ضد

النظام والانخراط في تنظيم مناوئ

للسُّلطات، حلّ على المرأة الشابّة وجوم،

تساءلت أي مظاهرات وأي تنظيم؟ أضاف

الوكيل: المساهمة والاشترك في

الإعداد للاحتفال بمرور خمسة

وعشرين عاماً على ثورة 25 يناير.

كادت المرأة الشابّة أن تسقط

مغشياً عليها، رأته، التفتت

تسألها: حضرتك هنا بتعمل إيه؟

تجاهل سؤالها وهمس يطلب منها أن

تُخرج لهم الخطاب المتعلّق بموافقة

الشؤون المعنوية على تقديم المساعدة اللازمة في رسالتها.

نظر وكيل الجامعة للخطاب وقد فغرفاه؛ ما أتاح لها استجماع

قواها واستعادة ثقتها المنهارة، للمرة الثانية رأت رئيس لجنة

التأديب يتصرّف مثله مثل الدكتور المشرف على الرسالة

يتضاءل مُكَمِّشًا على نفسه، مُتصاغِرًا، يُعيد عليها نفس الأسئلة

ويتولّى بنفسه الإجابة عليها، أملى على كاتب الجلسة ما يفيد أنها

تقوم بعمل دراسة عن ثورة 30 يونيو، ولديها التصاريح اللازمة،

وأن وكيل الجامعة يعتذر لها عن سوء الفهم ويتمنّى لها التوفيق،

وقام بنفسه يودّعها إلى الخارج سليمة مُعافاة، وعلى باب القاعة

الخارجي همس لها أنه على استعداد لتقديم المساعدة التي ترغبها وليس عليها سوى أن تأمر. خرجت يُمزّقها الفرح والغضب على نجاتها من شرِّ مُقيم، وسؤال يلوح في وعيها عن سبب قدومه، انتحت كرسياً حجرياً قبالة مبنى إدارة الجامعة تنتظره...

تحدّث إلى وكيل الجامعة بغضب، قال إن عليهم التروّي في اتهاماتهم الزائفة وهولن يخسر كثيراً إذا ما تمكّنوا من طرده، جامعات أفضل مادياً وعلمياً بانتظاره، لكنه لن يقبل بأن يُلوثوا سمعته بسبب جهلهم. كانت أصابع وكيل الجامعة وجفونه ترتعش وهو يخبره بتحدّ أنه لن يسمح لهم بتلويث شرفه. تابعوه يغادر المكان من نفسه، لكنه استدار عند الباب وقال مُهدداً إن عليهم أن يُعدّوا لائحة اتّهام قوية، وإلا سوف يجعلهم يدفعون كل ما يملكونه مقابل ادّعاءاتهم الباطلة.

في الخارج وجدها في انتظاره، قفزت نحوه كهرة وحشية تريد أن تنشب أظافرها في وجهه، مُتَهمة إياه بأنه من أبلغ عنها وأن ضميره الملعون استيقظ في اللحظة الأخيرة...

دفعها بعيداً وسار في طريقه إلى سيّارته غير مُبالٍ بها، أسرعت تلحق به، اقتحمت السيارة وقفزت جواره، ولم تهدأ إلا بعد أن علمت أنه استُدعي لمجلس تأديب بدعوى إفساد ظلّابه. وأن وجوده مجرد صدفة. حلّ عليها سهم الصّمت، لكنها أفاقت عندما أخبرها أنها ليست المعنيّة بالإفساد ولكن الأمر متعلّق بالمسرحية التي تقدّم بها إلى مهرجان المسرح، وأن لها أن تحمد الله وتشكر فضله. قالت مُكشّرة عما يدعوها كي تحمد الله وتشكر فضله. قال إنه لولا وجوده الطارئ وتببيها بما يتعيّن فعله لكانت

الآن مُلقة في إحدى زنازين سجن الحضرة تعاني الصقيع.

حلَّ الهدوء وخلال دقائق نزعَت خِمارها الذي ترتديه واستبدلت ملابسها في حركات يسيره، وكأنها ترتدي ملابس صُمِّمت لسهولة اللبس والخلع في أي مكان ودون ضجَّة، وذلك لمئات الآلاف من نساء وفتيات يغادرن منازلهن مُنقبات ومُحجَّبات، ويقضين حياتهن بالخارج سافرات.

وقد أصبحت سافرةً التفت نحوها مندهشاً، عادت تُشعُّ بجاذبية وأنوثة، تساءل متى تَسُنَّى لها خلع النقاب والإسدال، سمعته يُعَمِّمُ "والله عشنا وشفنا نساء ترتدي النقاب في حرم الجامعة وتتحلَّى بالسُّفور خارجها". قالت طبعاً، جامعة مُنقبة... ماذا تنتظر؟ شعرت به يذهب بفكره بعيداً عنها، كان مستغرقاً في همومه فيما لو تمكَّنوا من طرده من منصبه، فكَّر أن عليه أن يطلب من العميد أن يقبل استقالته، بدلاً من أن يوصموه في شرفه، مدَّت يدها وأمسكت بركبته وشرَّعت تفرُّكها ودون أن تدري بدأت تنشب أظافرها، شعر بالألم، تملَّص منها بهدوء وعاد يمسك بكفِّها، قبل منزلها بعشرات الأمتار طلبت منه الوقوف جانباً، فوقف وأغلق مفتاح السيارة وسرح بعيداً عن المكان. أخبرته أنها سوف تقضي يوم الغد معه. تلقَّاها بابتسامة واسعة، قال إنه سيكون مشغولاً، سألته ولمن تتبرَّع بوقتك؟ قال لا لك ولا لغيرك. استدارت تنظر البحر غاضبة لكنها شعرت بحزنه. سألت بإصرار علَّها تجد إجابة، حاول التملُّص، لكنه اعترف أخيراً بأن غداً هو ذكرى وفاة زوجته. قالت بإصرار وهي تغادر السيارة إنها لن تتركه وحيداً وستمضي النهار والليل معه.

نزلت غيوم وهموم سماء الإسكندرية وتجمّعت حول رأسه. قاد سيارته إلى قرية الصيادين حيث التقاه ابن خاله الحاج مصطفى. في عرض البحر جلس في الفلوكة مسترخياً يستعيد ذكرياتٍ طَمَرَهَا الزمن، الآن تهاجمه بنعومة بالغة، يذكر الأسبوع الأول من دخولها الجامعة، عرض عليها أن تُفاضِلَ بين الذهاب إلى السينما أو تخرج معه إلى البحر، اختارت الأخير... في ذاك اليوم غَاصَ بالفلوكة إلى عرض البحر حتى غاب الشاطئ وبقي البحر والسماء، تزكّا الفلوكة ترقص مع البحر، واصطحبت رياح ونسائم وعواصف وسحب وأمطار فتاة في السابعة عشرة من عمرها ورقصوا جميعاً معاً... غداً ذكري رحليك، وأنا الآن أصاحب الرياح وألثم النسيم وأصارع العواصف وأتوسّد السحاب وأتوه مع المطر... فأين أنت؟

\*\*\*\*



في اليوم التالي أخبرها بحقيقةٍ جديدةٍ لم يسبق له البوح بها، قال إن السبب الحقيقي الذي دفعه لمساعدتها في إنجاز الرسالة عندما لجأت إليه، هو أنه تذكّر كيف شاهدها وهي تشارك الشباب الغاضِبَ كسُرَّ أبواب حزب اليسار الرسمي (المتحالف مع السلطة وأي سلطة عدا الإسلامية)، الذي أمرت به (النسخة الثالثة) من السيد رفعت

السعيد بإغلاق أبوابه في وجه الشباب الذي خرج طلباً للحُرِّيَّة، قال: لم يكن هذا هو السبب الوحيد، لكن روايتها عن الحوار الذي دار يوم الثامن والعشرين من يناير 2033، بين نقيب من قوات الأمن المركزي وكان (دُمِيَّة) صناعة أوكرائية من طراز حديث، الذي أمر جنديَّ الأمن المركزي (الفلاح) بدكِّ رأسها في سور كوبري ستانلي الحديدي، سألها: هل تتذكِّرين؟ هزَّت رأسها تُحاولُ التذكُّر، قال إنه يُذكِّر ما قالتَه عن أن هذا الموقف تحديداً هو الذي دفعها لعدم القبول بحلول وسط، والإصرار على خلع السلطة وتغيُّر الدستور... قال إن الملايين من الشباب الغاضب كانوا مثلك، مُصرُّون على عدم التراجُع، فكيف لا أساعدك...

\* \* \* \*





الجزء الثالث  
الرواية  
هذا الفن العظيم









## الفصل الثالث عشر

بعد مرور عامين  
على استغاثتها الليلية



عامان مَضِيًّا منذ شرعًا في العمل على الرسالة، تقتحم كهفه بجسدها الأثوي حاملةً حقائبها، تعانقه بشدَّة، تسحق نهديها في صدره، تلقي بحقيبتها النسائية جانبًا، والتي تضم حافظةً نقودها المتخمة بالبطاقات: الشخصية، ورخصتا السيارة والقيادة، وبطاقات الجامعة، ونادي سبورتج ونادي هيئة التدريس. وعلب وأدوات وأقلام مكياب ماركة "كلارنس" تحوي كريمًا مرطَّبًا، وكريم أساس، وكريم كونسيلر وعلبة بودرة جافَّة، وقلم حواجب وقلمَي أيلانر جافًا وسائلاً، وفرشاة آي شادو، تضمُّ قلمًا للرميل وآخر للرموش، وقلم كُحلٍ فضيًّا، وماسكار سوداء، وعلبة وفرشاة أحمر خدود بلون البلاش، وقلمَي روج للشفاه: موف ووردي، زجاجة عطر شاليمار، قَصَّافة ومبراة أظافر، مناديل ورقية، وجوربًا وسكارف، وأشياء لم يتمكَّن يوماً لرجل أن يبلغ نهاية ما تحتويه حقيبة امرأة عصرية، تهتمُّ بمظهرها وجمالها وأناقته...  
عندما تبحث عن شيء ولا تجده، تقلب حقيبتها رأسًا على عقب، وتخرج أحشاءها على الطاولة، تفتِّش فيها، ثم تجمعها مثل بدويَّة تقوم على جمع حبَّات القمح المنثورة بين التراب وتلقي بها في جوال.

حقيبة الظهر مُعبأة بكل ما يمكن أن تحتاجه طالبة دراسات عليا: لاب توب، هاتفين محمولين، كتابين، مفكرة، أقلام رصاص وجاف وماركر، تلقي بأغراضها على الفوتيه المجاور، والسجادة الأرضية.

في التراس شمس شتوية دافئة ورياح ساكنة، أو في صالة الاستقبال حيث أريكة الغواية التي ألفتها والتي تقودها بسماحية إلى توسّد صدره دون إدراك بمهمّتها الأيروتيكية، تبدأ مناوشات اختيار إفطار سريع يتبادلان أثناء الحديث عن أحداث الجامعة: أفكار وسلوك الطلبة والطالبات التي لا تستطيع فهمها، فقراء يتصرّفون بانسحاقٍ أو وحشية، أثرياء يتيهون بأنفسهم عجباً، ويتحرّكون مثل طواويس في حديقة حيوان، الغالبية العظمى إما فاشيون يضمنون كافة أنواع الطيف بدأ من يسار رادكالي ويمين ليبرالي وديني متطرف، البقية نفعيون، ذاتيون، لا يرون سوي مصالحهم الضيقة.

يجلس في رُكنه المفضل: نهاية الأريكة، مُتكبّأ بظهره على المسند الواقع في الجانب القصير، وساعده الأيمن على مسندها العريض، تجمع صحاف الطعام، وتحملها إلى المطبخ، تعدّ له وحده كوباً من الشاي الأسود، يبحث عن سجاثره، يجعلها قريبة منه، تعدّ كونيّ نسكافيه: هي باللبن، وهو بلاك، فإذا انتهى من طقس يجلدان فيه عالمًا بأنسًا مُختلاً يعتوره العوز والإفلاس، ولا يتبقى سواهما، لا تنسى أن تستعيد الليلتين اللتين أمضتهما في غرفة نومه وحيدة، تقول إن صالة المعيشة رائعة في الشتاء، حارة في الصيف، بينما غرفة نومه ثلّاجة في الشتاء، مُنعشة في

الصيف، يتجاهل تفسير ما تعنيه، ويسألها أن يشرعاً في عملهما. تستهزل عملها بالجلوس عند حافة امتداد ساقه، تاركة له حرية ملامسة ومن ثم مُداعبة ردفها الأيسر بحرية، تُخرج الرسالة، أو تفتح اللابتوب، تضعه فوق فخذيها، تنكفئ عليه ثم تشرع في تلاوة ما أنجزته من فصول الرسالة، وعندما ينتهي من سيجارته، يفرّد ساقه اليمنى على امتداد الأريكة لتستقرّ خلف ردفها، يدعوها للقدوم إليه، تفعل بعجلة، وبعملية، دون أن ترفع رأسها عمّا هي مُنكبّة عليه، وكأنها بانتظار دعوة تأخّرت، يمسك بجسدها، يجذبها نحوه، ترفع عجزتها، كي تسهل انتقالها لتصير بين أحضانه، وقبل أن يستقرّ ظهرها على صدره، تضمُّ شلّالات شعرها كالبنات على هيئة كعكة، يقوم من فوره بإعادة فكّ كعكتها، يفوح عطر جدائل شعرها المنسدل على صدره العاري، تنزل سفينتها عباب بحره المتلاطم، يتابعها تتلو الجزء الذي يعملان عليه، وهي مضطجعة بين أحضانه، نصفها السفليّ يمتدُّ بين ساقيه، في خفارة وحماية بنطال جينز ثقيل، نصفها العلوي مستسلم له، مُباح، مُحرّر من قِطع الملابس العديدة والثقيلة، بلوزة قطنية قصيرة، عادة ما تكون "كُت"، حيث يمكن كُفّه من التحرك أسفلها بسهولة، وسوتيان أسود، يضم ثلثي نهديهما، مُكوّرين مثل قباب الشرق، صليبين مثل ثمرتي جوز الهند، بعد قدرٍ من الوقت يبدأ الفصل الثاني من طقس لقائهما المتواتر.

بنفسه أو بمساعدةٍ منها يُحرّر أطراف بلوزتها الخفيفة القصيرة من البنطال الجينزي، التي تعوق كُفّه وأنامله من مغامراته المتواصلة لاستكشاف مسرح عمليات نصفها العلوي،

سهول وسفوح وهضاب ووديان، وهي لاهية عنه تماماً إلا إذا اقترب من مناطقها السحرية الممتعة عليه، إذ تقفز فجأة وهي مستغرقة في ضحكة مؤلّفة من بيانو وفيولا، وبلوعة لا تشي بشيء، متحجّجة بأنها "تغير".

يتراجع مندهشاً بين كبجها له، وبين تساؤله لم لم تلن عريكته بعد مُضيّ ذلك الزمن، لم لا تُرخي مزاليج قلاعها، لم عجز حتى اللحظة من أن يزغزع ممانعتها، ومن أين تأتي مقاومتها؟ لكنه لم يحاول تخطي حدود المسموح... حتى ولو حرقت الرغبة في قطف ثمار توتها البري، فإذا عجز عن كبج جماح رغبته في الولوج إلى جنّتها الموعودة، وهاجم حصونها بالمجانيق، تقفز من بين أحضانه متوعّدة بالهرب، يتراجع معتذراً اعتذاراً رقيقاً، لتعود إلى موقعها ثانية حيثما كانت.

حار عقله في أسباب رفضها حتى بات لديه يقين بأنها تعاني من برود جنسي، وأن الساعات التي يمضيها مرتجلاً على مساحاتها المباحة ليست سوى أراضٍ قفر جرى التخلّي عنها، في مقابل دفاع حديدي تقيمه حول ثغرها الذي نجح إحدى المرات أن يلثمه، مع رشقات من نبيذ أحمر، وقباب نهديها اللتين جعلتا منهما قُدس الأقداس.

تقوم بتلاوة ما أنجزته، يتفقدان ويختلفان، يتجادلان، يأخذهما الحوار إلى شتى صنوف الآداب والفنون، وفروع العلوم الإنسانية.

يدور سجال على صعيد المنهج ثم اللغة، ويترك لها ضبط اللغة والأسلوب للقائهما القادم، والذي يبدأ بمراجعة تستمر قرابة الساعتين، يُضليها بـ”طريحة“ من السخرية والتندر، تغضب في البداية ثم لا تلبث أن تستسلم للضحك لفرط حجم الأخطاء التي يكتشفها، والذي يطبق عليها انضباطاً صارماً يخص التوافق التام بين المعنى والأسلوب.

تُبارح نصفها العلوي، رأسها، شعرها المنسدل طويلاً، وجهها الهادئ، الربع الخالي من نهديها، جنببها، بطنها، أجزاء قليلة من ردفبها، ظهرها العاري إلا من سيور مشدّ صدرٍ يسكن أضلاعه، بعد أن رفع عنه بلوزتها بمساعدة منها، رأسها المحمّل بعواصف الكون ورياحه الصاخبة، يأويه صدره بألفة، حقول شعرها المنثور على نصفه العلوي؛ عشب، ببادر قمح، أزهار قرنفل، بساتين ليمون وبرتقال. نصفها العلوي، تدكّه حوافر خيوله الخفيفة، تتلمّس بلوغ مهاده، يستقرّ ساعديه على بطنها، يراوحه بأنامله، كل هذا تتخلّى عنه، تهجره إلى عقلها العاكف على مهمّته، بينما نصفها السفلي؛ عجزها، ردفها، فخذاها، ساقاها، قدماها- مُستلقية بين ساقيه، في حراسة بنطالونها المصنوع من الجينز الثقيل. تهتزّ للحظاتٍ قبل أن يتراجع مُتوجّهاً إلى جنببها يُمسّدهما بكفّيه، يتملّس نعمة البشرة، طراوة اللحم، وقبل أن يغرز مُقدّمة قواته بين ضلوعها، تنتشر في جسدها رعدة، يتراجع عائداً بقواته إلى حيث يحلّ السكون، يرتفع صوتها من ضباب، تنسحب جحافل خيوله من مراعي المتعة، وضباب غابات التندرا الثلجية وهي تلهث، صوتها الذي

يَتَّضِحُ شيئاً فشيئاً يحمل على متنه الفيلسوفَ المجري چورچ لوكاتش.

تتجَجَّجُ بمقولاته حول مكسيم چوركي، الذي صاغ روايات أيقظت حركة العُمَّال الثورية، وانتفاضة الشعب الروسي، ورفعت من وعي الإنسان وعملت على تطويره، وجعلت حياته الداخلية تزدهر، ومنحته وعياً وطاقَةً ورَقَّةً.

## مبدأ الصياغة الفنية

هنا لا يتعلَّق الأمر فقط بالصراع بين نظام اجتماعي جديد ضد نظام قديم، أو نظرة تقدُّميَّة إلى العالم ضد تصورات رجعية، لقد تمكَّن إنسان الثورة الجديد من جعل المضامين الجديدة ليست مجرد عوالم مُجرَّدة، وإنما جسيَّة ملموسة، وقابلة للمعايشة الفنية... هنا يتحول مبدأ الصياغة الفنية إلى عنصر سياسي واجتماعي...

لقد بلغ تعبير چوركي عن الانفعال بالقيم الثورية الجديدة إلى درجة من اتِّقاد الحماسة لا مثيل لهما عند أحد من معاصريه.

ذاك التمرُّد الفني مُتمثِّلٌ في عدم استسلام الفنان فنيًّا أمام النموذج الرأسمالي المسيطر، وخلق نماذج إنسانية تتوق إلى الحرية والعدالة والكرامة، ومنغمسة في قضية الدفاع عن كرامة الإنسان وإنسانيته التي تحول دونها العراقيل، وفي نفس الصَّدَد جاء تناوُل بلزاك وتوماس مان أكثر جذريَّةً وحسمًا من إميل زولا ودوس باسوس...

لم يُعقَّب بالقول بأن هذا قد يكون سبباً في شطبها من الجامعة، واكتفى بنصحها بحذف الجملة المتعلقة "إيقاظ فن چوركي حركة العمّال الثورية"، والاكتفاء بالقول كيف أن روايات چوركي أيقظت انتفاضة الشعب الثورية، وانعكست على الإنسان وتطوّره، وتجعل حياته الداخلية تزدهر وتمنحه وعياً وطاقاً ورفقاً، وأن تؤكّد على كلمة "رقّة"، مستشهداً بما شهده ميدان القائد إبراهيم والتحرير وميادين مصر طوال ثمانية عشر يوماً من عمر الثورة. متحجّجاً بأن هذا يمكن أن يُخفّف من غلواء الجانب المتخلف في الفكر الأكاديمي المصري. هزّت رأسها موافقةً، مُردّدةً جملتها المشهورة التي لا يثق فيها كثيراً:

- عندك حق... عندك حق...

ينتهز فرصة قبولها تصحيحاً من لدنه، ويندفع في هجوم خاطف متسلّلاً عبر الشريط الحارس لمشد الصدر في محاول لاحتيال قباب النهدين، تصرخ وتطلق ضحكة صاحبة، تحمل معاني الممانعة، تستدعي بسرعة أنامل يدها اليسرى الخمس، تجمعهما معاً عند نهاياتهم كرؤوس حراب تجمّعت على حواف ميدان المعركة، وتغرز مخالبتها بقوة حيث تخوض نزلاً مكتوماً لا يسمح له بالاستيلاء على نهدها، هي لا تقاومه، بل تمناعه، تحاول خيوله عبور موانعها القوية مستخدمةً قوّاتها الخفيفة، لكنه لا يتجاوز إلى الاندفاع بمدرّعاته الثقيلة، إذ في هذه الحالة قد يتطور جدل الملاعبة إلى مصطلح التحرش والاعتداء، حتى ولو كان نصفها العلوي العاري ينام في جوف أضلاع صدره، أو أنه يخوض معركته مع جسدها وحيداً، بينما هي كئيّبا في مكان آخر،



وبَعْضُ النظر كان يملك القوة التي تُمكنه من عدم الانزلاق إلى أيّ من أنواع التحرش الجنسي أو الاغتصاب، وهولن يخوض تلك المفازات مُطلقاً حتى ولو تعرّث أمامه كما ولدتها أمها، طالما ردّدت الكلمة الذهبية لحق المرأة في الممانعة...

- (NO)...

هولن يفعل... لن يفعل مطلقاً... يعطي أو امره إلى البروجي بإطلاق نفي الانسحاب، تعود القوات منكسرة منكسرة الرؤوس، وهي تحلم بتلك الروابي العالية، التي تتمنى أن تقيم فوقها وترعى على هضابها، حيث الكلاً وعيون الماء وقمم الجبال الثلجية الشاهقة المسحورة بـ"الأفا" العشق والشهوة...

يمارس تكتيكات هجوم سريعة تنشر الحرائق الخفيفة على امتداد الهضاب والمراعي التي تبلغها، يتفادى بحسم الوقوع في معارك تنتهي بمنصر ومهزوم؛ ذلك أن المعنى الوحيد للنصر هو تلاحم جسديهما معاً في شوقٍ وعشقٍ وتوقٍ ولهفة، يصيران كلاً في واحد. يزاول مناورته الكبرى في بلوغ كافة الأهداف المتاحة إلا هدفه الحقيقي، الذي يتوق لامتلاكه والسيطرة عليه، هذا هو نصره، هناك حين تحتلّ خيوله بنعومة قمّة جبل النهدين الشاهق، ويُعسكر بكتائبه وقواته: أنامله وأصابعه، وكفيه، ثغره، وشفتيه، ولسانه وأسنانه- على قبّته، وينصب رايته هناك على حلمة العشق الوردية؛ استعداداً للمعركة الكبرى.

أثناء انشغاله بتتبّع مقولاتها خلع عنها بلوزتها القصيرة، لمح وشمًا لوردة يزحف بنعومة خارج كنار بنطلونها الجنزي، يقتنص

الفرصة التي سنحت له بالإطالة على العالم؛ وردة حمراء في حجم كف أنثوي دقيق، مرسومة بدقّة فوق الخط الفاصل بين الخصر والردفين، تام بتلاتها ناعمة نديّة على الردف الأيمن، وينحني عودها لينام على ردفها الأيسر، توارى الوشم مُسرّعاً عندما التقت عيناه بهذا المتطفل. هذه فتاة تتسم بالشقاوة. سألها عن الوقت الذي رسمت فيه الوشم، ضحكت وهي تسأله: هل رأيتَه؟ وعقبت: أنت أول من رآه. سألها ألم يره زوجها؟ أليس لها عشاق؟ قالت إن زوجها أعمى. وهي لم تعرف أحداً سواه. قال (وهو يدفعها لتمدد على بطنها)، أمّا هو فيأبُه، وأخذ يُمرّر أنامله وذوابة لسانه على حواف الوشم.

سألته وصوتها يتهجّد عمّا يفعل؟ قال إنه يفعل ما يتعيّن عمله طبقاً للأصول وما تطلبه الأمور، همست وصوتها يضعف ويتلون بلون الشّبِق أنها لا تفهم شيئاً ممّا يقول، قال وهو يلحق ظهرها: إن بتلات وشمك تذبل. صرخت: بجد؟ ليه؟ قال إنها تعاني من عطش شديد، وهو يقوم على ربيها برضابه... ماذا تقصد بالرضاب؟ قال: ألم تسمعي أم كلثوم: أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب... .

فإنما الأيام مثل السحاب.

سألها متى رسمته، قالت عندما بلغت الثلاثين، هو منتصف العمر، لحظة فارقة من الزمن، قال أخبريني عمّن رسمه: رجل أم امرأة؟ ضحكت وقالت تغيظه: رجل... سألها هل كان معك أحد؟ قالت صديقة أصابها الدُعر وتوقفت... لكنك جعلته يشمك. هزّت

رأسها. أضاف وهو يعصُّ بنواجذه على كتفها: بوشم الوردة...  
تأوهت وهي تهمس بعبارتها:

- شفت بقي؟



ذلك الكائن الطفيلي  
المتربع على قمة  
السلسلة الغذائية

مدَّ جذعها إلى الأمام، ظهر الوشم  
مرسوماً على خصرها، رسم بأنامله  
حدوده، تفتق الكون عن عطر الورد البلدي،  
ينشقه بارتياح أسر، صرخت  
تطلب منه التوقف. كانت تقبض  
بأظافر يدها على وسائد الأريكة  
وهي تهمس "لا... لا... لا... أرجوك".

تراجع من فوره، ألقى عليها وشاحاً يُغطي به  
ظهرها المكشوف، وقام مُتوجّهاً إلى التراس، كانت ذمّاه يجلسن  
غاضباتٍ مُنكسراتٍ، ينظرن إليه بلومٍ وعتبٍ، سوف يهجرهنّ ولا  
شكّ؛ فقد وجد بُغيته. عندما عاد كانت تجلس القرفصاء متدثرةً  
بالوشاح، وعلى وجهها معالم الرضى...

تمرُّ الساعات وتتوالى، بينما عقلاهما الواعي منقسمان بين  
إنجاز دراسة أكاديمية لنيل درجة الدكتوراه، ترتع وترتوي من  
بحار مناهج نقدية مختلفة، يدلفان عوالم الرواية اللامتناهي  
وموضوعه المفضل، هذا الكائن الأسطوري، الظالم العادل،  
الحر المستبد، القاتل الرحيم، المبدع الجاهل، الذكي الغبي،  
الشريف الخسيس، يتنقلان بين تكويناته؛ الفردي وذواته  
المستوحشة، إلى جماعاته المتعددة التي نشأت عالةً على كل ما

تُنتِجُه الأرض من سلاسل غذائية يتربّع على قِمَّتِها ذلك الكائن الطفيلي آكل الرَّمّة، المفترس الذي يجمع بين التهام النباتات واللحوم بلا شفقة أرحمة، والذي لم يكتفِ باغتصاب الطبيعة، فاندفع يفتصب نوعه من البشر، يقف متباهياً بغنمه وجرائمه، يُخرج لسانه للمُصلِحين والأنبياء والمسالِمين والضعفاء، مُلقياً بأوهامهم عن عالم مسالِم إلى الحضيض...

أعراق وطوائف، سادة وعبيد، فلاحون وبدو وصيَّادون، بحارة وفرسان، رجال دين وبنوك ومؤسسات مالية، ضباط شرطة وقضاة، علماء، أدباء، فنَّانون، أنبياء، ثُوَّار، مادِّيُّون، فاشيون، مؤمنون بسطاء وجهادِيُّون، مُتشدِّدون، إرهابيُّون، سياسيون وعسكريون عظام وقادة عباقره تربعوا على قمة إمبراطوريات مُغتصبة. ومن ثم مناضلون من أجل الحرية.

تمضي أيامهما وتتوالى علاقتهما الفكرية والجسدية بين ضفتي الساعات... أي مجد... أي نعمة وشرف تحت دقات الزمن الأسطورية؛ عاكفان على دراسة هذا الفن العظيم؛ فن الرواية، الفن الوحيد القادر على أن يتعامل مع تلك المفردات من خلال جدلية تلك الثنائيات المقدسة في تاريخ الوجود المادي والروحي؛ الحب الخالص والكرهية المطلقة، العشق والبغض، الجنس واللذة، الكبح والممات، العطاء والنهب، المنح والاستحلال، الوهب والاستغلال، الظلم، العدل، العبودية، الحرية، الإيمان، العدم، الاستبداد، الديمقراطية، الجهل، الحمق، الخلق، الإبداع، منح الحياة وسلبها، دورة لانهائية بين عوالم ذكورية تمارس اغتصاب لأولئك الإناث المثقلات بالجمال، المخضبات بدماء الحيض.

وأخيراً وليس ثمة وجود لهذا المصطلح المدعو بالأخير،  
أولئك الجماعات من البشر الموسومون بالسادومازوخية، الذين  
تم طهوهم على نار هادئة في أفران العبودية.

كانا يتنقَّسان عالماً حسيّاً صنَّعاه معاً؛ سيدة شابة في منتصف  
الثلاثينيات ورجل في منتصف الخمسينات، يجتمعان سوياً على  
ما تقدّمه لهما تلك البحيرة الزئبقية لأريكة وثيرة من غواية، في  
عالمٍ مؤلَّفٍ من صالة معيشة مرسومة بمنتجات العصر الحديث،  
على خلفيّة من عالمٍ عتيقٍ مكون من حجر الجرانيت الصخري،  
وخشب باركيه مصنوع من الأرو، وتراس عريض يحتوي حديقةً  
صغيرة يطلُّ على بحر الإسكندرية... يُحلّقان سوياً في مرامي  
الزمن بين شوارع المدينة المُطلَّة على البحر وطرقاتها وحواريها  
الضيقة، شاطئها المطل على تاريخ المتوسط وإمبراطورياتها  
التي دُفنت في أعماقه، وحركة السيارات والدراجات الهجينية

المسرعة على كورنيشها  
الحجري، وقطارها الكهربائي  
الحديث المزدهم الناعم  
الضجيج، ومكتبها التي حرقها بدويّ  
عادِلٌ أو جاهِلٌ، وأعادت الحياة لها مُنظّمةً دولية  
تهتمُّ بالحفاظ على الثقافة الإنسانية، وصمَّمتها شابٌّ يعلم ما لا  
يعلمه أهلها؛ مُتجاوزاً المعنى الجغرافي لحركة شمس الطبيعية،  
إلى حركة شمس الثقافة.

”شمس الحضارة المصرية القديمة تشرق من الجنوب على  
الشمال“ ...

جامعتها التي صُمِّمت على الطابع الفرعوني، وردهاها التي أصبح العلم فيها مُنْهَزْماً أمام الجهل، طابعها الكوزموبولتي، الذي جعل منها موطناً آمناً لكافة أجناس البحر المتوسط: يونانيين وإيطاليين ومالطيين ويهود وروس، ومن بلاد الغال، جماعات من نثار الثورات الحروب الأهلية للقرن التاسع عشر، عاشت هنا طويلاً قبل أن تطردها الهويّات القومية والدينية الضيقة، ورغم ذلك لا تزال المدينة تحمل آثارهم باعتزاز ومحبة... يتركان خلفهما كل هذا العالم المتشعب بين جذور التاريخ وخرائط الجغرافيا ليطرقا سويةً بدءاً عوالم الشهوة والاشتهاء الهادئ، يكتشفان بنعومة وروية ذلك التواجد الحر بين امرأة ورجل، يعبران مفازات طويلة قطعها حواء وأدم في جنة الرب وفردوسه، يكتشفان تلك الجاذبية الحيوية الناجمة عن تقارب يبدأ من تخوم المودة والاحترام، إلى بحار الشهوة وأفاق الاشتها، ذلك الذي يتجاوز في قوته وأمريته قوة وحرارة الانشطار النووي، ولم لا؟ إذ ربما يكون ممارسة الجنس بين رجل وامرأة هو ذلك الخلق الناجم عن الاندماج النووي المهول فيما بينهما...

تنهار المقاربة، الانشطار النووي يخلق طاقة ماديّة هائلة مثل انفجار شمسي، الاندماج بين رجل وامرأة يخلق حياة... حيوات من السعادة والمتعة، شبع ورضا من الوجود الذاتي والتحقق... اللعنة، من يستطيع أن يستوعب تلك المادة التي نشأت منذ مليارات السنين وتطوّرت لتأتي بهذا الكائن الجميل المدعوب بالأنثى...

سيدتي، حطمني جسديك وأنت سادرة في البحث عن رسالتك المدعوة "أثر ثورة يناير المبجلة في فن الرواية"...



يتراجع مُستندًا بظهره على مسند  
أريكة الغواية، رافعًا ذراعيه للخلف،  
يشدُّهما بقسوةٍ حول رأسه الحائر،  
يخلي نفسه من مسؤولية الانتهاك الجميل  
لهذا الجسد الشهي، الذي يجمع بين الوجد  
والمسرّة، ينظره يمتدُّ أمامه يكشف عن  
ذرى النهدين وعظام الترقوة،  
وساعديها العاريين، يستسلم لأفكاره؛  
عقله المفتون بذكائها الحاد، ميولها

الليدني  
عظمي جسدي

الطبقية للفقراء، اعتناقها الجذري

لمفهوم العدالة الاجتماعية، موقفها من الحياة الذي يكشفه  
حواراتها العرَضِيَّة العابرة لموضوعات تنتقد فيها الجميع؛  
الرجال في المقدمة لحد اللعنة، ثم تأتي البقية، عائلة أبيها،  
النظام السياسي، المجتمع الأكاديمي، تسعده نزاهتها، يُبجِّل  
استقامتها، يُوقِّر صدقها، يُقدِّر القيود التي وضعتها حول نفسها  
وفي المقدمة ألا تكذب، وخاصةً على أمها ...

يمضي الوقت، والحوار لا يتوقّف عن العلاقة بين فن الرواية  
والإنسان المصري والثورة، يقوم كي يخطف فنجاناً من القهوة،  
يعرض عليها مثله، لكنها ترفض، وتسرع كي تقوم على عملها له،  
وهي الأنتى الكسول التي تُقرط في تناول أنواع المكرونة، يغضب  
ويعمارس سخريته منها، فتعدُّ بحلّة من المحشي تحضرها المرة  
القادمة، وعندما تضع فنجان القهوة بجانبه، وتشعر في وضع  
الكمبيوتر اللوحي بين فخذيهما، يسمعها تغمغم بجديّة: لماذا

يعشق الرجال المحشي؟ أجابها بأنه يحبُّه بأنواعه؛ ورق العنب، الباذنجان، الفلفل الرومي، القرع. ويضيف: في كردستان العراق كنت في ضيافة أحد الرفاق الشيوعيين العراقيين، قدّم لنا "الدولمة"، حلّة هائلة ضخمة، تضمُّ كافة أنواع المحشي: محشي بطاطس، طماطم، بصل، فلفل رومي، ورق عنب، خسروات أخرى كثيرة نسيها، ترفع يديها وكأنها تغسل يديها من الأمر: أنا حامل لك محشي ورق عنب وفلفل وبادنجان وقرع وبس. يرفع يديه مُرحّباً: شكراً، وطبعاً مكرونة باللازانيا.

- أولاً يا أستاذ، المكرونة غير اللازانيا. قال إنه يمكنها طبخ المكرونة مع أي شيء حتي الخروب.

- طبعاً... إذا كان عاجبك!

- إذا كان إيه؟ واستطرد مُهدّداً: والله عال.

تميل برأسها في انحناءة مسرحية طويلة:

- إذا كان عاجب حضرتك يا أستاذ.

يفتح ساقيه، يدعوها أن تأتي، وتأتي من فورها، تقرأ الشّابتر الثاني من الرسالة، تشير إلى تيري إيجلتون وتقول:

"إن الفن الذي يتّسم مُنتجوه بالصدق والموضوعية والرؤية الناقبة قادرٌ على سبُر البنى الأيدولوجيّة إلى ما وراء ما تخفيه، مانحاً إيّانا تبصُّراً بوقائع تعمل الأيدولوجيا على حجبها عن عقولنا".

يبتهج عقله بالفكرة اللامعة عن تجاوز الفن لضعف الأيدولوجيا وتهافت أصحابها، وبينما تتولّى ينابيع الشجن



تدمير البقية الباقية من حرائقه أمام الجسد الساكن بين أضلاعه، وعقل المرأة الممتنع عن تخطي حدود أقرتها بنفسها... لا قبيلات مباشرة في الثغر، من ثم ممنوع هصر الشفاه القرمزية الثخينة، ممنوع لمس اللسان، ممنوع ارتشافه حتى ولو بصورة عابرة، ممنوع احتساء رضابه... اللعنة... لا اعتلاء للنصف الأسفل، فقط متاح التربيت عليه لا أكثر، مثلما يمكن أن تربت على كفل مهرة، لا أنامل تتجاوز حواف السوتيان العلوية أو السفلية، لا كف تحتوي بنعومة تلك القبة الصخرية الناعمة، ولا رمحها المصنوع على هيئة قباب الكرملين المسكوفية، لا أنامل تمسدها، لا أظافر تخمشها، لا لسان يلعقها، لا شفاه تقبلها... ماذا يبقى؟ اللعنة إذن...

يستدعي معارفه العميقة عن علم النفس، يحاول أن يستبطن ما يحتمل أن يحمله تاريخها من تخريب طفولتها الجنسية، أعوام مراهقتها والصدمات التي يمكن أن يتركها الأقارب أو أبناء الجيران، أو الأب الذي رحل عن عالمها وأخطأ في حقوق الورثة والميل المتأصل لأبنائه الذكور، والأم التي تعيش في كنفها الآن، المفتونة بصندوقها السحري من المحبة والإجلال، يتبقى حبيبها الأول والأخير، سرّاً لا تُفصح عنه سوى صدمتها التي تسردها في حكاية وحيدة مكونة من جمل قليلة، خطيبها كان زميلاً في الجامعة، فلسطينياً، عندما استجابت لرغبته في تقبيلها، فسخ الخطبة ورحل، مُعلناً أنها فتاة سهلة يمكن أن ينالها أي شاب...

حسناً، وبعد أيّتها المرأة الشابة؟ كيف يفوتك مذاق القبل

لأسباب مضى عليها سنوات طويلة؟ ربما سلّمت له غشاء بكارتها، هكذا استحققت العقاب... يلقي أفكاره الرمادية جانباً ويعود الى عالمهما الواقعي؛ فصول الرسالة وفن الرواية وتلك اللافا المنبعثة من عالمهما الجسّي...

في نهاية يوم خاض فيه رحلة مع وشم الورد الوادع بطلاوة على رديها سألته وهي على وشك الرحيل: أستاذ. أجبها: نعم. قالت: هو حضرتك سادي؟ تطلّع نحوها يحاول أن يفهم ما تعنيه. ودّ أن ينفي بالقطع، لكنه قال لذي المرأة نوعان من مصطلح "NO"، الأول حيث "NO means NO"، والثاني حيث "NO" تعني "YES YES"، واليوم اخترت الأول، ربما في المرة القادمة تختارين الثانية، لا أعلم. دفعت أناملها تفرك أظافرها في راحة يده...

\* \* \* \*

تمضي الأيام والأسابيع ليعود عقله المهووس بالبحث في جذور الأشياء، وخاصة في تلك اللحظات التي يحاول الخروج عن الانصياع لقوانينها، يحاول اقتناص قبلة مخلوطة بمذاق النبيذ الأحمر، يقابل برفض صارم، يتخلّى من فوره عن محاولته مكتفياً بالهزيمة والتساؤل إذا ما كان السبب يعود لرائحة فمه، يجب أن يجد من يسأله...

يمدّ أنامله متسللاً من حافة مشدّ الصدر إلى قبّة نهدها الصخري، تنفجر في الضحك وتنشب قوة صارمة مكوّنة من خمس رماح يشكّلون أناملها مجتمعة عند حواف الأظافر، تغرزها على حافة السوتيان، يتوقّف ويتراجع وهو يعلم أنه لو جمع كافة

قواته الهجومية فلن يتمكن من التقدم خطوة واحدة ليغوص في تلك البراكين الملتهبة، والتي يحترق كي يلتئم حلمتها المشتعلة، يعود خائباً مُنصاعاً للسير في الطريق الذي قادت حواء خلاله آدم قرونًا وراء قرون، من لحظة الميلاد حتى بوابات الموت، وهو السير خلفها في عماء، مترقبًا ساعات البهجة المُستغرّة، يوم تعطف عليه وترشده الي جنبها الموعودة.

كيف يمكن  
جذب نوايا الناقد  
في جيب  
"قيمة النص"  
بسبب نابع من كون  
النقد ظلًا للأدب

يعود مستسلمًا يستمع إلى "تيري إيجلتون" يهاجم النقد الانطباعي الذي ينصاع لتأثير الانطباعات الأوليّة السريعة، والأهواء الشخصية المتحيّزة، الذي تتجم عنها أحكامٌ عامّة غير مُعلّلة، وخاصة عندما يصف ناقدًا نصوصًا تافهةً بعباراتٍ من نوع "هذه أعظم رواية، أو أفضل ديوان شعر"، أو أنه "لم يقرأ مثلها منذ ثلاثين عامًا"، مُضمّنًا أسبابًا سطحية... هنا يقول إيجلتون:

يتّصف النقد بالسذاجة والمبالغة، حيث معايير الجمال والقبح لدى الناقد تنجم عن دوافع ذاتيّة، ومثل هذا النوع يوقّع الضّرر بالكتّاب، ويحطُّ بنوع المتلقي، وهو لا يساعد الأديب على تحسين إنتاجه.

تصنيف قاتلة:



تَهافت علم النقد  
بين جريمتي  
الانتحال والاحتيال

قبض إيجلتون على النقد مُتَلَبِّسًا وهو في وضعية تناقُض لا يتلاشى. فهو يؤكد حقيقة ساطعة يتمُّ تجاهلها دائماً وهو أنه: "لولا الإبداع الأدبي ما كان هناك نقد"... ويجزم تيري إيجلتون في كتابه "النقد والأيدولوجيا" حول تناقُض

العلاقة بين الأدب والنقد، "إن الأدب هو الأصل، بينما يأتي لنقد كتابع، مُجرَّد ظلٌّ أو طيف، (يحول دون تحقُّقه أينما وُجد)"، وإذا كان وجود النقد وعفوية وجوده تبدو طبيعية، فإنه يفترض أن تكون مهمّة النقد تمهيد الطريق بين النصّ والقارئ كي يصبح أكثر استهلاكاً، لأن هناك على ضفاف الواقع "نصّاً أدبياً"، لولاه لما ظهر، ولاختفى هذا النوع من العلوم الأدبية (علم النقد).

لكن كيف يمكن تجنُّب نوايا الناقد في حُجب "قيمة النص"، بسبب نابع من كون النقد ظلًّا للأدب.

يقول إيجلتون:

"لكن قدرة الناقد أن يتفادى كونه ظلًّا طُفيلياً على الموضوع أو الجوهر، أي على النص"، ما يجعله موضعاً للسقوط في احتمال ارتكاب جريمتي الانتحال والاحتيال.

تقول الباحثة: هل يمكن للنقد ومنتجيه من النقاد المتذوّقين للنصّ الأدبي، والدارسون والباحثون في الحقل الأكاديمي أن يعترفوا بأنهم عاجزون عن التحلّي بالشفافية الذاتية والانسجام المتواضع مع حياة النص، وهو ما يعتبر محاولة عقيمة لصورة من صور إلغاء الذات؟

هل يمكن للنقد وأبائه الشرعيين من كبار النقاد. وخاصة أولئك المتبوءين المشهد الثقافي وكرسي السُلطة الثقافية الاعتراف بأن وفرة ما ينتجونه في المجالين النظري والعملي، ليست إلا افتراضات حاذقة ودقيقة ولكنها تافهة وضئيلة

الأيسم لـ "ذاته"  
بالتطفل على النص

الأدي،

هذا الاقتلاط يؤشر

إلى جريمة الانتحال،

والتغاضي عن موهبته

الأساس، المتعلقة

بالكشف عن عبقرية

الروائي وقدراته على بناء

عوالم واقعية

أو متخيّلة، أو الأثني

معاً، تكشف عن ميزات

تتجلى عبر الفن،

وربما الفن وحده.

القيمة، بصورة نهائية (على حدّ

تعبير إجلتون)، إذا ما قورنت

بعظمة النصّ الذي لا يستنفد معناه؟

على الناقد أن يمنحنا معرفة

بواقعية النص، ألا يسمح لـ "ذاته"

بالتطفل على النصّ الأدبي، ألا يسمح

لبعض مفرداته أن يكون لها تأثير

سلبّي بسبب اختلاطها بالنص.

على خط الأفق، بين حدّ البحر

وانحناء السماء انتصبت سفينة

عملاقة حديثة، سطحها الخارجي مشكل

من حراشيف الديناصورات، وكأنها خرجت لتوّها من إحدى

الترسانات البحرية العالمية، مع أشعة الصباح الأولى تلاشت

لتعود مع عتمة الليل، في نفس الموضع وكأنها لم تغادر موقعها

بالأمس قيد أنملة... حاول دون جدوى أن يتعرّف على هويتها.

ما أثار الدهشة أنها جثمت مثل شبح عملاق لا يكشف عن

وجوده تحت أشعة الشمس، لتظهر في العتمة...

ما المشكلة؟ ألسنا نعيش عصر الظلام.

\*\*\*\*



## النقد خطاباً معاقاً

**النقد خطاباً معاقاً**  
بقدر ما الأدب  
عملية إبداعية

ربما يكون النقد خطاباً مُعاقاً، وهو كذلك بالفعل، فبقدر ما الأدب عملية إبداعية فردية، تحوّل النقد لبوقٍ للسُّلطة التي تنتجه، فالنقد عملية اجتماعية تخضع لأيديولوجية الطبقة والسُّلطة المسيطرة، تتحكّم في صناعته، تتحكّم في إنتاجه في معامِلها وإعلامها وقاعات دروسها، وهو أيضاً وفي النهاية يُنتج سلعته ويبيعها لحساب مَنْ يستهلكه، والمتمثّل على المستوى المباشر في وسائل إعلام تدفع أجور مقالاتها، فتمكّن البعض من التمرُّغ في الدولار، والبعض يشحذ قوت يومه. أمّا على المستوى العام فهو يُنتج سلعته على الأغلب تحت عرش السلطان بانتظار هداياه ومِنحه العامرة. يبدو الأمر جلياً وبإدخاً في عصر النفط.

تقول الباحثة إنها استعانت في هذه المقدمة بمقولات جورج لوكاتش، وتيري إيجلتون، والتوسير، وفيض من الأدباء العظام، وهي في هذا الصدد تُقدِّمها تحية لثورة 25 يناير العظيمة في نسْخِها المتعاقبة، تلك الناجحة وتلك المهدورة، وتحية لأدب الثورة الذي نشر منه القليل، وذلك الذي لا يزال في رحم المستقبل.

هذه المقدمة في الأصل رغبة من الباحثة في التلاشي أمام النَّصِّ الأدبي تقديراً لرفْعته، وهي لا تعني على وجه الخصوص تلك النصوص التي سوف تذروها رياح النسيان، هي وأصحابها المتنطِّعين على هذا الفن العظيم. وإنما أمام تلك النصوص العظيمة التي ترشد الأمم إلى ماضيها وإلى مستقبلها.

هي مقدمة للاعتذار عن الأخطاء التي ارتكبتها كثيرٌ من النُقَّاد، الاعتذار عن تزوير المفاهيم الأدبية والثقافية بحجَّة مُحاربة الإسلام السياسي أحياناً، والاندرج في الشروط التي تفرضها العولمة، والاجتهاد في الانحراف عن مسيرته الإنسانية العظيمة والعمل على أسره في كهف الذوات المظلمة.

تراجع حائراً تائباً بين ضبط سياق رسالتها ومحاولاته الدؤوبة في اكتشاف سياق جسدها الذي يحوي جينات من النيل والمتوسط، توجه بفصائل الخيالة الخفيفة إلى مناطق غير مُتَنَزَع عليها، وأخذ يدلك فروة رأسها بنعومة لا تلبث أن تشتدَّ، لاحظ أنها تخلت عن أوراقها جانباً، مستسلمة بصورة كُلِّية، والتفت برأسها لتتام بالجانب الأيسر لوجهها علي صدره، برودة



ثلجيةً لملمس وجنتها، وحيثما يخمن أن في هذه الوديان يقبع  
ثغرها الوردى، داهمه شعور بأن لثما خفيفاً ناعماً مذهلاً يلسعه،  
وأن شفيتها الثقيلتين يرويان أراضيه الشراقي... تراجع إلى الوراء  
يناجي اللطف من رب العباد، وقد اشتد عليه الوجع والمسرة...

رنّ جرس الباب، تراجعَت مُبتعدةٌ وهي تضمُّ خُصلات شعرها،  
اقتحم المكان في حضور عاصف جواد أشهب شديد الوسامة في  
منتصف العشرينات، يرتسم وجهه بعينين تتفجّر بالبهجة، وثغر  
يفيض بضحكة أبدية، ازدحم الفضاء بحضوره الأحاذ، تمت  
لنفسه (اخترت وقتاً غير مناسب بالمرّة)، قدّم كليهما للآخر:

- إيني أدهم، مدام سوزي مُعيدة في كلية الآداب.

تبادلًا التحايا بحرارة، وعلى عكس ابنته بدا أن علاقتها بابنه  
ستكون دافئةً مثلما هي علاقات ابنه بكل صديقاته... جلس وبدأ  
أنه سوف يطيل البقاء، سألته عن أحواله، فشرع يذمُّ في البلد  
ويُعبر عن سخطه من الأوضاع السائدة والتي لن تتغير مهما ضيّع  
البعض حياته، وحطّم رأسه في جدار المستحيل، غامزاً من طرف  
خفي لحياة أبيه الجالس ينظر إلى جراته ووقاحته وهو يبتسم  
باستسلام، بقي يتجاهل التورط في الحديث الدائر أمامه مكتفياً  
بمتابعة حديث ابنه عن أمنيته بالسفر إلى أوروبا بحثاً عن حياة  
تحتزم فيها كرامة الإنسان... كان يعمل جهده كي يوفر على نفسه  
جدال ليس له نهاية سوى الغضب، وداخله يعتمل بصراع بين أن  
يطلب من ابنه أن يسرع بأن ينهي ما جاء من أجله، فيزيد من سوء  
العلاقة بينهما، وبين أن يشرح له أن المكان عندما يكون خالياً إلا

من رَجُلٍ وامرأة، تكتمل أركان الخطيئة ويفوح عطر الجنَّة، كيف يمكن أن يخبره أن بعضهن يُفضّلن مغادرة الفراش في منتصف الليل عاريات، يتوجّهن إلى المطبخ لتناول شطيرة جبن، أو إحضار قطع الثلج، يتجرّعن بعضًا من نبيذ أو قودكا مخلوطة بعصير البرتقال، ليشعلن حرائق جديدة في صحراء حياته، وربما إفراغ مثانة تُخفّف توتر الجهاز البولي، كي تترك الطريق حكرًا على توترات الشبق، كيف يمكن أن يشرح له أن الأمر ليس شخصيًا على الإطلاق، ولا يتعلق بمدى حبّه له، وأنه لن يفعل في لحظة أمرًا يُقلّل من الاحترام الواجب على الأب للابن، كيف يحكي له عن السحر الذي يُخلّفه التطلّع لذاك الجمال المطلق لجسد المرأة، ولحمهن الوردى، وهو يتطلع إليهن وهنّ يعبرن عاريات المسافة بين الفراش وباب غرفة النوم، مُخلفات وراءهن قوسًا من قُزح وألقًا من لازورد، وعبقًا من رائحة الورد... كيف يمكن أن يخبره أن أغلبهن يرغبن في إبقاء جزء خاص من تلك العلاقة سرّيًا، ولا يُحِبّبن البوح بها، بينما قليلات هنّ اللائي لا يابهن بالعلن، وربما سعيًا للإفصاح عمّا يتصوّرُن أنه ملكيّة خاصّة، وممتنع على اللمس...

اكتفى بالصَّمْت، ولم ينبس ببنت شفةٍ مُتذرعاً بالصبر، في  
خلفية الحوار الدائر بينهما لاحظا غيابه في وقع أفكاره، وجهاز  
الهائي فاي ماركة (أكاي)“ يطلق لوعة فرقة ”Art Company“:

We sit together on the sofa  
With the music way down low  
I waited so long for this moment  
The door is locked There's no one home  
Susanna.. Susanna.. I'm crazy loving you

تبادل الفتى والمرأة الشابة نظرات تحمل رائحة التواطؤ، قيل  
أن ينخرطا في الضحك، أفاق من غفوته على ابنه يطلب منه أن  
يدلف معه إلى غرفة المكتب، هناك جلسا كلُّ منهما قبالة الآخر،  
أعاد ابنه ألفي جنيه من حساب قديم، وانتهز الأب حالة الود  
الحاضرة بينهما وتحدث معه عن ظهور ”فرصة نادرة“، حول  
إمكانية شراء شقة من شقق الإسكان الاجتماعي لأسباب متعلّقة  
بعرض أبناء رجال نافذين مساعدته. سأله ابنه إذا كان يمكن أن  
يطلب من هؤلاء النافذين شقةً أخرى لصديقه، تمنى لو يستطيع  
أن يُفجّر كل الغضب المشتعل داخله، لكنه تماسك محاولاً  
تفادي أزمة جديدة، طلب منه برجاء أن يتأكد أولاً من حصوله  
هو على شقة، ثم نبحث في مساعدة صديقه أو صديقتة، أو كل  
أصدقائه داخل الوطن وخارجه، ولأنه لا يريد أن يغضب وعده  
بأنه سيحاول لوحات الفرصة، أشار ابنه بإصبعه حيث تتصاعد  
أغاني السبعينات من صالة الاستقبال، وهمس:

- Susanna؟! ... جرى إيه يا زعيم! إنت لسه واقف في السبعينات، الحاجات دي بقت قديمة قوي.

- لامش قديمة قوي، إنتم اللي دماغكم بقت عجينة هامبورجر، لحمه فاسدة وزيت محروق ووعد بسرطان ذو نكهة طيبة.  
يا بابا... يا بابا يا حبيبي... اسمع كلامي.

قال مستكراً: أسمع إيه، مين انت يا مفعوص عشان تعلمني.  
- يا عمي، حبتدي "Susanna I'm crazy loving you"، وحتنتهي "تخونوه وعمره ما خانكم..." وفي أحسن الأحوال حتغني "ظلموه القلب الخالي ظلموه..."، اسمع كلامي... أنا ابنك وعارف مصلحتك، شغل الرومانسية ارميه ورا ضهرك، معاك سنيرة "شبونيز"، خدها في التراس وكاسين نبيذ أحمر على ربع فودكا وكأقيار من موسكو العريزة على قلبك، واقلب يا حبيب والديك.  
تساءل: وبعدين؟

- انقل على الرابع.  
- يعني إيه؟ قال: يعني انقل على غيرها يا باشا، ولو متأثرة في الوجد قوي، احتفظ بيها وشوف غيرها.

- والحب وعطر الرومانسية، ووحداية العلاقة بين الرجل والمرأة؟ قاطعه مبتهجاً وقال وعيناه تفيضان بوجهه الخاص:  
- الوحداية لله وحده يا باشا.

اعترض على ما يقوله وقال: لا يا حبيبي. العلاقات الإنسانية والعاطفية مرتبطة بالطابع الاقتصادي للمجتمعات، ودور الرأسمالية الذي برعت فيه هو تدمير العلاقات الإنسانية، وعلى

رأسها مؤسّسة الزواج، العلاقة بين الرّجل والمرأة تستند على ثلاث قواعد رئيسية: الحب والجنس والزواج، عصر الرومانسية الذي لا يعجبك، كان الغرض الأول من العلاقة هو الحب، والحب يكون مُدمجًا بقدر معقول من المشاعر الحسيّة، والتي تبدأ من لمسات الأنامل الحارّة، ولثمات شفايف يتولّد عنها ليالي الأرق الجميل، تمتدّ إلي التخوم العليا للطبيعة البشرية، المتمثّلة في تلك الحالة العجيبة من الرغبة القاهرة في العناق، تندفع الفتاة للذوبان في أحضان الفتى، أو العكس. في كود القرن العشرين كان العناق الملتهب والبيان الشّعري المصاحب له، والذي يستحضر فيه كل ما برع فيه الفن عبر التاريخ العاطفي والليبدو البشري من فصيلة الحيوانات، يجب أن يتوقف عند حدود احترام غشاء البكارة التي سوف تكون قطعًا الزوجة المقبلة للشاب، والرفيقة الملهمة المؤتمنة على رحلة حياة شريفة... رفع الفتى رأسه وأصدر صوتاً يُعبّر عن الاستسلام لحالة مرضية:

- أوووووه... بكارة مين يا عم... أنا ماشي.

- ما تقعد.

- حاقابل أصحابي. وبعدين يا بابا يا حبيبي عمرك ما سمعت نصيحة ماما بإنك تبطل حالة الخيال اللي مسيطرة عليك. انتفض غاضبًا: أنا... أكثر حاجة عشقتها أمك فيّ هو ما يمتلكه أبوك من مخزون لا ينضب من الخيال، من التخيل، من المُخيّلة... يلاً امشي، روح لاصحابك.

- لا يا باشا، فهمني الأول حتعمل إيه... مشروع بديل لماما؟

- مشّ الأول نوجد الشروط والظروف الممكنة. ارتسم على وجه ابنه ابتسامة خبث مختلطة بمتعة اكتشاف الأسرار المخفية، قال: دلوقت حنسمع محاضرة في أصول الغواية.

- أيوه... وأول درس في أصول الغواية الانفراد بالفريسة، دون أدنى محاولة لافتراسها، إنما هو الاحترام المطلق، في هذا الفضاء الذي يضم قطبين من شحنتين مختلفتين صُمّما من أجل أن يتجدا في انصهار نووي، اترك السفن تجوب البحار، والمراكب الشراعية تبجر فوق عباب الأنهار تدفعها رياح المودّة والصدّاقة، وحيثما تودّ أن تلقي مجاديفها على برّ ما، أو تظل هائمة إلى أن يُقرّ الله أمراً كان مفعولاً... ثاني درس: الاحترام المطلق منبع الغواية الصافي، أن تحب أو لا تحب، أمر يأتي في المراتب الوسطى، ذلك أن الاحترام يمكن الفرائس من الهرب، من مغادرة الكمائن، بوقت كافٍ قبل أن تبزغ رياح الكراهية، بسبب افتقاد موسيقى التآلف بين الصياد والفريسة، أو بسبب التنافر الذي يحل فور اكتشاف ما تنطوي عليه رغبة غالبية النساء وربما جميعهن في استخدام صيادهن، وكيف يمكن للمرء أن يجد امرأة لا ترغب في استغلال رجل، أو أن تكبح رغبتها كفريسة في الانقضاض على الصياد، هل سببت لك الحيرة، قالها لابنه...

قال وهو يستعجله: والثالث يا "بوس".

- ألا تقتحم خلوة تضم صياداً وفريسة؛ لأنك تخلق التباساً حول السبب الذي سيترك الصياد للفريسة مهرباً يُمكنها من

الإفلات دوماً، فتنة الغواية تبدأ من حيث يخلو الحيز من كائنات مضافة، ويصير المقام مقصوداً على تلك الزبدة المشوبة بلون الشفق، المغلفة بببتلات الزهور وأوراقها المخضبة بالندي، رويداً رويداً ينبثق السحر من سفح الليل، ويشرق الجسد باستقامة الطمأنينة، ووثاق الثقة، ورياح الألفة، تفرد المراكب قلوبها مستسلمة لرياح الرغبة، تسبح بها نحو المرفأ الوحيد الساكن في خلوة صارت حرمًا مقدسًا بالانتظار، ما يخلق حالة الأمان التي تدعو الغزاة كي تتقدم باطمئنان نحو كاسر، للتمرغ على صدره... ويلاً اتفضل من هنا وامشي.

وقف أدهم وهو يُردّد "فِعلاً... كفاية عليّ كده النهارده". قَبْلَ أباه بحرارة. وخرج لصالاة المعيشة يستأذنها في الانصراف، على وعدٍ بقاء في النادي، سوف يُعرفها فيه على صديقه. ودَّعه حتى الباب الخارجي، وعاد ليجلس في موقعه من أريكة الغواية، وخلفهما صوت موسيقى هادئة، كانت تجمع أغراضها وتستعدُّ للرحيل... قالت من الأفضل أن أذهب... قال تناولني فنجاناً من القهوة... قالت سأذهب لعمليها. قال انتظري، وأضاف أنه جائع. وبينما يتناولان ساندويتشات فراخ سبايسي. سألته بجديّة أثارت دهشته: ممكن تُطعمني على خططك في غواية النساء؟

- استراتيجية إغواء النساء.

- أيوه... استراتيجية إغواء النساء ...

- ليه حضرتك؟

- عشان أحمي نفسي منها، أحمي نفسي منك... إيه خايف تقول؟

- أبداً... أساساً لا توجد خطط.

- أستاذ اسمح لي أقولك أنت كذاب. قال برعونة: كذاب! ...  
أو كي... إذا كنت مُصرّة... المؤكد الاحترام المطلق حتى ولو كانت  
السيدة عاهرة... كلهن يلقين الاحترام، عدا أولئك المتفاخرات  
الكاذبات، المتملقات، هؤلاء ليس لديهن مكان في عالم الغواية. أمّا  
من يستخدم الرجال سلماً للصعود، فليس لهنّ وجود في حياتي.  
- كذا خلاص!

- That is...

- That is... وبعد كده؟

- Nothing...

- That is... والنساء تتدحرج قدام رجلك... بالاحترام... قال أيوه..  
بالاحترام. قالت بسخرية: بس كده بالاحترام، والله يا بلاش.  
- بلا زيادة أو نقصان. قالت مُستفسرة:

- So, you will never hurt me

- Of course... you have to be sure. I shall never hurt me

\* \* \* \*



## النظرية الموضوعية

النقد الموضوعي هو نقدٌ منهجي، يطبّق قواعد مُتَّفَق عليها، يُحلّل الناقد العمل الأدبي، يبيّن مواطن الإجابة والتقصير، يستخرج من الأحكام الجزئية أحكاماً عامّة، يُقوّم من خلالها العمل الأدبي كله.

تستند النظرية الموضوعية على المنهج التحليلي لشرح الأعمال الأدبية وتفسيرها من الداخل بوصفها كائناتٍ عُضويّة مُستقلّة عن نفس المبدع، كما هي مستقلة عن نفس الناقد وأهوائهما وميولهما الشخصية، ويُحدّد "ت.س. أليوت" مهمّة النقد: شرح الأعمال الأدبية وتصحيح الذوق باستخدام التحليل والمقارنة، والعمل على اكتشاف علاقاته الداخلية والحيل الفنية والتقنية التي يتوسّل بها الفنان لتحويل عاطفته إلى جسمٍ موضوعي، له كيانه المستقل وحياة خاصة به، ثم يقارنه بالأعمال الفنية السابقة عليه في التراث الأدبي حتى يتحدّد مكانه منها، وقيّمته الموضوعية بوصفه فنّاً نسبة إلى الأعمال العظيمة.

هتف يلومها أنها اختارت نصوصاً من عصر النهضة، ولو قرّرت أن تبدئي من سمير سرحان، فنهايتك ستكون في القرن السابع عشر.

دفعته بعيداً وقالت إنها تحاول أن تستميل اللجنة، فسمير سرحان من جنسهم، وخيره عليهم، وأغدق عليهم من ميزانية مكتبة الأسرة أموالاً تدفقت بلا حساب. ثم أضافت بحسب: مش دي نصيحتك... واستطردت تقلده: ”وحياة أبوك، مفيش داعي للأفكار الراديكالية دي، عشان إنتِ تخلّصي رسالتك، وأنا أخلص منك“.

قال متجاهلاً سُخريتها، إنها تفهم الأمور خطأ، وأن عليها استيعاب كيف يتم تربيط العلاقات داخل الوسط الأكاديمي الحالي بالوسط الثقافي، وأن الإتيان على ذكر أحد مؤسسي فلسفة التنوير في تسعينيات القرن الماضي، يعود عليك بالخصم وليس بالإضافة. وعندما استفسرت عن السبب، قال إنهم يكرهون أن يُذكرهم أحدٌ بأصحاب الفضل عليهم، يكفيهم مشقة تقبيل أيادي وأقدام الأحياء. ثم من هي تلك الرواية التي تشيرين فيها في رسالتك إلى الناقد الذي قال عنها بأنه نُصّ لم يقرأ مثله منذ ثلاثين عاماً. نظرت إليه بتحدٍ وقالت: رواية ”سقوط الإمام“. قاطعها: التي كتبتها مرشحة سابقة للرئاسة.

- نعم. قال: وهل تعلمين أن الذي قال ذلك المديح في ذلك النص، هو صديق الدكتور المشرف على رسالتك.

هزت رأسها نفياً، قال مضيفاً: ولهذا وللمرة الثانية إذا كنت تنوين الانتهاء من رسالتك، كي أنتهي أنا منك، رجاء... تعلّمي لعبة... ”Microsoft Minsweeper Game“ التي أنتجتها شركة ميكروسوفت في تسعينات القرن الماضي. قاطعته قائلةً

إنها تتمنى لو تعلم سبب ارتباطه بالتسعينيات، لكنه تجاهلها واستطرد قائلاً إن عليها أن تعلم أنها وحتى تنتهي من هذه الرسالة وتعبّر من بوابة الجامعة الرئيسية التي بُنيت على هيئة المعابد الفرعونية إلى ردهة كلية الآداب إلى باب قاعة لجنة المناقشة، أنها تسير في حقل ألغام، وانحنى عليها وصرخ "بوم"، طرّق أصابعه: خلاص دكتوراه "بَح".

ارتعدت وتراجعت بخوف إلى الوراء، وهو يستمر قائلاً إن مهمته أن ينقذها من عشرات الألغام والطوربيدات الناسفة، مهمته أن يأخذها من يدها حتى يُسلمها إلى لجنة المناقشة دون فقدان أقدام وسيقان، أي "صاغ سليم"، وعندما تعلن اللجنة حصولك على شهادة الدكتوراه دون انفجار لغم يُحوّلك أشلاء، سوف يتلاشى هو من الفضاء، وعليه...

وقف مُمسِكاً يدها وجذبها ناحية مدخل صالة الاستقبال. وقفت مندهشة وهو يشير لها بالرحيل، وهو يقول إن أمامها حلاً من اثنين، إمّا أن تدخل غرفة المكتب وتغلقه عليها لأسبوعين، أو ترحل من فورها إلى منزلها وتعود بعد أسبوعين، وقد أَلقت بكل ذلك الهراء إلى صفيحة القمامة، وأعدت كتابة "الشَّابتر"، بمدخل عن نظرية الرواية لجورج لوكاتش، أو بتفكيك لغة الخطاب عند چاك دريدا وپاتلر، والأفضل استعمال الحل الثاني. قالت بهدوء: حاضر حاكمك اللي انت عاوزه، بس بعد ما أعمل الغدا.

- مش عاوز غدا... مش عاوز حاجة.

قالت برجاء وهو لا يعرف كيف استعاد سمعه صوت فاتن  
عندما يتعطر صوتها برنة اعتذار أو رجاء أو عتب: عازوني أمشي  
من غير ما أعملك أكل، مش حاسامح نفسي. وأضافت وهي تتوجّه  
إلى المطبخ: نص ساعة وحاختي من قدامك، ومش حتشوف  
خلقتي. بينما كانا يتناولان الطعام قالت بنبرة رجاء: ممكن آجي  
بعد أسبوع.

- لا، أسبوعين.

- والله حاكون مخلصّة "الشابتر".

- أسبوعين، أسبوع كتابة، وأسبوع مراجعة أسلوبيا ولغويا.

\* \* \* \*



الفصل الرابع عشر  
غَطْرَسَة  
وَعَنْجَمِيَّة ذُكُورِيَّة

بعد يومين جاءته رسالة على المحمول تخبره أنها لن تعود. أجابها بـ "بيروود أنها حُرّة، لها أن تفعل ما تشاء، ولم يهتم، كانت "نرجسيته الذكورية" تنقح عليه، وانهمك في حياته، وشرع يعدُّ مشروعاً لمسرحية جديدة عن الاغتراب، مُستسلماً لُدّما، يُبدي ملاحظاته حول تسريحة شعرهنّ، تلك البسيطة والمعقّدة، عروض الأزياء التي يُقدّمها حول حمامات السباحة، أدوارهن السينمائية التي أخذت عن عشرات المسرحيات والروايات والملاحم الكبرى، وما صاحبها من رقصات العُجْر والتانجو والفلامنجو وباليه وقطع موسيقية وأغنيات مَرِحَة وأخرى حزينة وثالثة قاتلة، يلقي ملاحظاتٍ وقِحَة حول أهمية ملابس النساء في خلق طاقةٍ إغراءٍ آسِر، تتراوح بين مزيد من العري، أو تغطية مساحات من الجسد الأنثوي، وكشف أخرى، تنتهي بنساءٍ خلّابة فاتنة، مُوغلات في الاغتراب، نساء ينفتن على عالم تتلاشى فيه الشخصية والجوهر. تُحرّكه الغريزة وتدفعه الجاذبية، مُرتدياً وشاح البهجة والمتعة البصرية وتلاشي الزمن.

**ليبقى الجسد هو المطلق "اللُب، الرُبْدَة والصِّمِيم، الجَنَان والجَوْهَر".**

يذهب ليجلس في التراس مستسلماً للبحر وأمواجه، وعمقه وألوانه، يستدعي حوريات وجنيات يستحيل تجاهل جمالهن، يشاغلهن ويُشَاغِلُنّه وحده، أو هكذا يعتقد، أو يرغب في الاعتقاد.

يداعبونه، يشاغلن أفكاره أفكاره... وهذا بالقطع ما لا تتمكّن  
من منجك إياه نساء حقيقيات، تسدّ مسامهنّ أتربة وهواء المدن  
الفاسد، وقذّى مسامعهن ضجيج خُطب أصحاب اللّحى، أو  
تلك الشظايا السّميّة لأغاني خُمّلت على منصات التوك توك  
والميكروباص، وأعمت أبصارهنّ جُثث نافقة تطفو على أسطح  
الترع والأنهار.

بعد أيام ضبط نفسه يبحث عنها وسط دُماه اللائي اخترعهن،  
أو أولئك اللائي خلقهنّ في مخيلته، كما خلق الله حواء، ووهب  
الإنسان وحده رخصة للخلق.

يحلّ الربع الأخير من الليل يُحلّق في العتمة، يغوص في عالم  
المتاهات، يناجي الله ربما يهبه الخلاص من عوالم توقع المرء  
(قصدًا وعمدًا)، في إثم وخطيئة أغلبها ناجم عن الفوضى التي  
آلت إليها حياة البشر في الألفية الثالثة من الميلاد؛ غموض  
الحدود بين الصواب والخطأ، بين المعرفة والجهل، بين العالم  
الجسّي، وما بإمكان الحواس أن تدركه، وعالم سُفليّ تفضّى فيه  
الجوع والجريمة والرذيلة، ومتاهات عقلية مُنغمسة في معرفة  
كُنْهه وحقيقة الأشياء، جوهرها وماهيّاتها، بلوغًا إلى عالم الغيب  
والشهادة... فمن المسؤول عن هذا الانهيار الجماعي؟

السيدة المُسيّجة بالدروع... السيدة التي جعلت من جسدها  
قلعة حصينة غير قادر على التوغّل في متاهاتها... تسبح به  
خيالاته الجسّيّة بحثًا عن وسيلة تأخذه عبر متاهة تفضّى عن  
أسرار جسدها. يرتجف في نومه، يستيقظ مُعنفًا "ذاته"، فما

من جوهر يكشف عن حقيقته وكنهه مجَّاناً، بلا مُقابلٍ، وما من  
أزهار تبوح عن عطرها السماوي دون أن تمضي الليل تشهد في  
مقام الوجد... تقضي الزمن تتأمل الوجود في محرابه، وبدلاً  
من أن تصل إلى كُنْهها، تجد ذاتك تقف عارياً أمام الباب الواقع  
بين عالمي الأحياء والموتى، يناوشك الصقيع، مثلما كوايبسك،  
فإلى أي متاهات تنتمي؟ متاهة جزيرة بلوشوي زياتسكي، أم  
متاهة كاتدرائية نوتردام شارتر القوطية، التي يتوه فيها الرهبان  
والحجاج منغمسين في التأمل الروحي؟

اهرب من ذكرياتك إلى ذاكرة الخليقة العظمي... اهرب إلى  
البحر علك تجد ما يبعث على الراحة...

\*\*\*\*

بعد أسبوع تأتيه على "الشات" رسالتها الثانية، تخبره أنها  
أنهت عملها، وانتهت من مراجعته حسبما أمرها، ولكنها لن تأتي  
في الموعد الذي حدده لها. أجابها منزعجاً، إذا ما كانت مريضة  
أو والدتها، فنفت بصورة قاطعة، وأضافت أن عليه أن يطمئن؛  
ما دفعه أن يفعل ما تريده، وهو أن يضطر أن يسألها عن السبب  
الذي يمنعها من الحضور؟ قالت إن عليه أن يدعوها بنفسه، وهو  
أقل ما يمكن أن تطلبه تقديراً لكرامتها. فهي لا ترغب أن تكون  
ضييفة ثقيلة على شخص سبق وطردها من منزله، ساد صمت  
لبرهة قبل أن يسألها عمّا يمكن أن يكون مناسباً لكرامتها؟  
هتفت وهي تحاول أن تمنع نفسها من الصراخ عليه: أن تعتذر  
للتلميذة، أليست كرامة التلميذ من كرامة أستاذة؟ حلّ صمتٌ  
طويل، وقد أصابه عماء ذكوريّ ناجم عن شعورٍ طاغٍ بالتفوق. كتب



على الشات، وكأنه يوقع لنفسه شهادة امتياز، وهي في الحقيقة شهادة وفاة:

... "ليس هو من في حاجة للحصول على الدكتوراه".

أغلق هاتفه المحمول، وعكف ينهي تحضير امتحانات القبول للمعهد العالي، وكان واثقاً من قدومها، ولكنها لم تأت، ظل ينتظر عشرة أيام منذ الحوار الأخير ولم تأت، أصابه سقم، وأخذ يدور حول نفسه مثل دبّ حلت به كهولة مفاجئة، وعندما رحل آخر الليل لفراشه كان مقبوراً في همومه، مدفوناً في وحدته، يهيئ نفسه لاستقبال كوايسه التي اندثرت بظهورها في حياته.



\* \* \* \*

تسلّلت الكآبة وثيداً إلى روحه، كان قد مضى على لجوئها إليه ما يجاوز العامين ونصف العام، في البداية أمضى العام الأول دون أن يقترب منها، ولا تقترب منه إلا ما تستلزمه الحاجة، كأن تطلّعه على أحد النصوص، يجتمعان على القراءة، فإذا انتهى أسرعاً بالابتعاد، تقضي الساعات وكلاهما على الطرف الآخر من المكان، مع مرور الوقت محا التآلف بينهما المسافات.

كان هذا جزءاً أصيلاً من استراتيجية الغواية، وها هو مضى أكثر من عام منذ تخلّت له عن نصفها العلوي، واحتلت صدره،

تُحلّق في فضاء البحر، وتعود مثلما عصفور يأوي إلى عشه، دون أن تُمكنه من تجاوز الحدود التي سنّتها بصرامة: لم تسع مرّة للولوج إلى صدره دون دعوة، أو همست: دعني أنم على صدرك. أو دعني أتوسّد كتفك. مُطلقاً، فكل شيء مرتبط بطقوس البحث الدراسي، وبدعوته لها، جدلاً ينمو بين البحث الذي بدأت كي تحصل منه على مساندة نفسية وعلمية من أجل الحصول على الدكتوراه، وبين محاولته المتواصلة الحذرة للولوج إلى عالمها الجسّي، مثل فلاح يفتل "سلبية"، أو رجل دين تأخذه حالة من نزق فيتخذ من متاهة "أريحا" مؤثلاً يخفي فيها زندقته وفسقه، يطوف حولها ستة أيام، وفي السابع يكتسح الجسد الأثوي، كما فعل اليهود وهم يحاصرون مدينة أريحا الموغلة في القدم، أيام ستة يدورون حول أسوار المدينة العالية لتسقط في اليوم السابع، يتقدّم الرهبان نحو متاهاتها ودوائرها السبعة، نحو مركزها، حيث رُسم الاسم المقدّس: "Sancta Ecclesia"<sup>(11)</sup>.

لم يكن يخشى فقدانها، فسوف تأتي على أي حال، تدفعها حاجتها للحصول على درجة الدكتوراه، والعلاقة الرحيبة التي تأسست بينهما، ولكن لماذا لم يستطع التقدّم في مهاد جسدها؟ ... هل تعاني من برود جنسي؟ ... هل مرّت بتجربة جنسية مؤلمة؟ ... اغتصاب مبكّر، تحرّش أو اعتداء جنسي؟ ... هل تكابد الخجل؟ ... هل تجاليد الشعور بالذنب؟ ... دائماً منخرطة في التزاماتها الدينية، لا تفرط في أداء فروض الصلاة في موافقتها، دون أن تنسى الاستدلال منه في كل مرة على اتجاه القبلة. وهي تكره الكذب، وتنفر من الأتعليم أمّها بما هي مُقدّمة عليه! تقاسي الاكتئاب؟ امرأة مُطلّقة تلجّ النصف الثاني

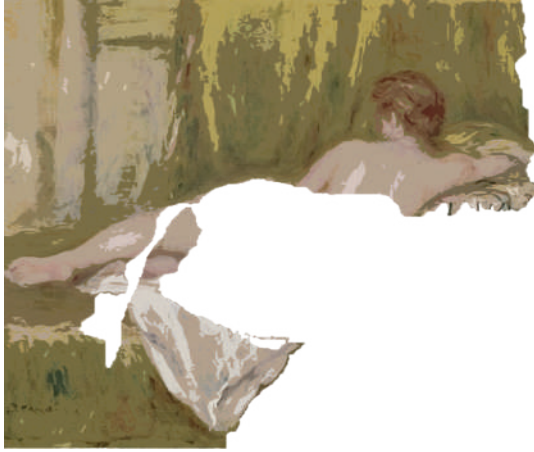
(11) (Sancta Ecclesia - الكنيسة المقدسة).

من عقد الثلاثينيات، بلا زوج ولا أطفال، في مجتمع يكتسحه خواء أو خراء نفسي، لا بد من أن يترك المرء أسير التعاسة...

قام يصنع فنجان من القهوة، غير قادر على الاستسلام لفكرة أنه موشك على خسارة حامله التيجان الثلاثة، التي طالما حملتها زوجته المتوفاة، والتي لا يستطيع عمل علاقة عميقة مع أي امرأة كانت دون أن تكون متوجة بهم؛ (الحسن، الذكاء، سلامة النفس)، الثلاثية المؤلفة من فنتة حسية، وجاذبية تأسر العاشقين للجمال، وذكاء يتسم بالنزاهة وانحيازات ثقافية مفرطة في راديكالياتها، فضلاً عما لا يمكن التنازل عنه للحظة، وهو حلاوة الروح وسلامة النفس... والآن يا طالبة الدكتوراه، كيف وأين تسنى لك الاختباء؟

اقتحمته نظرات رينوار بنفاذية وغضب، حاول ألا يلتفت نحوه، لكن قوة قاهرة جعلته يعيد النظر إلى هاتين العينين اللتين تجمعان بين صلادة العمال اليدويين، ونفاذية فنان منغمس في عالم من الانطباعية في أزهى تألقها. شدته لوحته المسماة "عارية من ظهرها مستلقية بعد الاستحمام"<sup>(12)</sup>، وما لبث أن داهمه سيل من لوحات لأجساد نساء عاريات، تفيض بقوة التضاد بين الضوء والظل، وروعة الألوان، يبرزن في علاقة وثيقة تجمع بين اللون الأحمر والفضي، وفيض من الضوء يرمي إلى إحساس مفعم بالقرب والحميمة.

(12) أحدي لوحات رينوار "عارية من ظهرها مستلقية بعد الاستحمام": Reclining  
Nude from the Back, Rest after the Bath



لوحته المسماة "Nude in an Armchair" (13) رأى في وضعية جسدها من الخلف وضعا مُشابهًا لجسد الطالبة التي تدعوه بالأستاذ، وحيثما يحولها أن تتمدد وتستلقي على صدره نصف عارية. ما جعله يصرخ مثلما فعل أرخميدس "وجدتها". تملكه شعور بالتمكُّن، وقام على طباعتها في أحد مكاتب الطابعات المتخصصة، وعلّقها في مكتبه. وهو يُردّد مفتونًا باللوحة...

...ها أنا أمتلكك... وبانتظار شازة تعلمه بأنها قادمة، أمضى الوقت يحدّق في لوحة رينوار هو يُردّد اسم اللوحة "عارية في الكرسي"، وشعور بالزّهو ينتابه، وكأنه يمارس طقسًا من طقوس السحر الأسود، متمثلاً في اللوحة التي بدا له أنها تشبهها.

---

Pierre Auguste Renoir Title- Nude in an Armchair (13)



*Nude In Armchair*<sup>N</sup>

خَفَّتْ حماسته وعاد يفكر هل هي مصابة بمرض انعدام الثقة

في النفس، هي عنيدة، أحياناً تصبح ثورية بصورة فجأة، تتناول النبيذ باقتصاد، ولا تمارس التدخين إلا معه، فهل تظن نفسها قبيحة، دميمة؟ بالعكس لديها جمال وجاذبية، يصيبها القلق عندما يتعلّق الأمر بزيادة في وزنها، هل تخشى العُري مخافة اكتشاف

مناهة

الإبرنت

عيوب جسدها، ليس لديها عيوب تُذكر، جسدها

متماسِكٌ، لم تُعانِ حملاً أو عمليات جراحية، يذكر أن نساءه السَّرِّيَّاتِ كُنَّ يتعرَّين بسهولة، أحياناً دون أن يطلب، بعضهن كُنَّ في رشاقة الغزلان... بعضهن كُنَّ من وزن ثقيل،

فَكَّر... رغم أنها مُطلّقة ربما تعاني جهلاً بالأُمور الجنسية؟ ربما لديها نوازع دينية قوية، ربما نشأت في بيئة دينية متزمتة؟ تعتبر الجنس خُطيئةً أو إثماً أو دُنساً، ذنباً يستحيل غفرانه.

لكن كون والدها يسارياً قَطَعَ عليه التفكير في تلك الاحتمالات، مَنْ يعلم؟ هي واحدة من نساء لا يستجبن للمبادرات الجنسية من الرجال، وينتهي بها الأمر إلى كونها شريكاً غير متجاوب (مؤدِّ سَلْبِيّ). نعم، فأكثر الأُمور وضوحاً أنها تحمل للرجال مَعِيناً لا ينضب من كراهية تُعبّر عنها كلِّما أُتيح لها أن تفعل، وخاصة تجاه أولئك الرجال (على حدِّ قولها) الذين لم يُفْظَموا من ثدي أمَّها تهم بعد.

فإذا رغبت في العشق الذي أسقمك فارحل معها إلى جزيرة كريت، واصحبها إلى "قصر التيه"، متاهة اللابرننت- التي تقود إلى اللاشيء، احك لها عن أسطورة "ماينوتور" ثمرة العشق المحرّم بين "باسيفائي" زوجة الملك "ماينوس" والثور الكريتي الأبيض كبياض الثلج الذي نذره "ماينوس" ملك كريت لـ "بوسيدون" إله البحار.

"باسيفائي" التي وقّعت في غرام الثور الأبيض، طلبت أن يُصنع لها بقرة من الخشب مُجوّفة من الداخل؛ كي تمكّن ثورها من مضاجعتها، فحملت منه وحشاً دمويًا مُخيفًا، له رأس إنسان وجسد ثور، سُمّي "ماينوتور"، احتجزه الملك "ماينوس" في متاهة عملاقة بناها له، يركض بين ممرّاتها كيفما يركض، لكنه يظل أبدًا عاجزًا عن الخروج... فكيف لي أيتها السيدة الوقور أن أفكّ طلاسم متاهة جسدك...

ينظر إلى لوحة رينوار المعلّقة أمامه، يهزُّ رأسه رفضًا... ليس هذا جسدك... نعم... مسيورينوار... لوحتك المدعوّة "عارية مستلقية من الخلف بعد الاستحمام"، لا تماثلها... ردفا امرأتك، فخذأها، وربلتا ساقها مكنتزان بالشحم بصورة فظّة، ولخصرها ثنايا ثقيلة، وجسدها العلوي لحيمّ... يُعرض عن اللوحة مُحْتَجًّا، ثم ينزلها من على الحائط، يحملها في طريقه إلى سور التراس مُستَكِرًّا: عفوا. يلقى بها في الفضاء على طول ذراعه، تتطوّح يُمْنَى ويُسْرَى، تحملها الرياح إلى البحر، كَفَّ عن النظر في وجه رينوار، لقد تخلّص منه.

\* \* \* \*



*The Large Bathers, 1887.*



## أشباح (2D)

للمرة الثالثة يستيقظ في نومه، يرى "ذاته" تُسبح مُسَطَّحًا من بُعْدَيْن، تسبح بالسرعة البطيئة في فضاءٍ كإِ مُعَيَم، سَجِينة ألوان ليل كوايبسه؛ (رمادي، أُرقي، نيلي)، يتابعها تعدو في مقدِّمة آلاف الأشباح، جميعها مُسَطَّحة من بُعْدَيْن (2D)، فهل كان يعدو في عالمٍ كونيٍّ نزع عنه بُعْدَه الثالث، أم أن الأمر مجرَّد فيديو كرتون تعدو داخله أشباح بشرية من بُعْدَيْن رسمتها القدرة، أم هي خزعبلات عقل مُغْتَلِّ؟

تداعت روحه المُنْهَكة ببيِّم عالم مجنون، أوغل في شَتَّى أنواع العَنَّة والقبح، فصار يصنع من "ذاته" وذواتٍ لآخِرين "Thousands Of Copies"، آلاف النسخ، مثل كل كابوس يكابده حيث العَدُو السريـع ظله، خطر له أن ركضه المتواصل (الذي لم يصل به لنهايةٍ ما، سواء كانت نعيم أو جحيم، لم يكن نتيجة جُبني أو هروب، لم يكن تعبيرًا عن شجاعة أو بسالة، كان عقابًا قَدْرِيًّا، دَوَّامة شيطانية، تُنْذِرُ سقَط في فخاخه مبكَّرًا، ظاهرة جهنمية قَصَّت مضاجع نومه وصحوه، بحثٌ (لا طائل منه) عن أشياء لا يعلم عنها شيئًا...

في كابوسه هذا... يعدو بلا توقُّف يسابق "ذاته" المُعدَّبة  
في مضمارٍ من أراضٍ شاسعة بلا نهايات، تقسمها تلك  
الألوان الكأبية المورَّعة في درجات الرمادي المغسول  
بالليل ورُقَّة مُعَيَّمة، مُتقدِّمًا حشودًا هائلة من بشد،  
متشابِهين في الملامح، متطابقين في المساحة،  
يعدون في صمتٍ كونيٍّ مُطيق يحيط به خواءُ رياحٍ  
أزليَّة... جماعتان تعدوان في اتجاهين على هيئة فرعين  
منفِرَجَيْن، مثل فرعي دلتا، هاتف يقوده بأنهم هم  
الأحياء، يعدون في اتجاه يميل نحو اليمين.

لأن الموتى هم من يعدون في اتجاه يميل نحو  
اليسار، يستمدُّ في العَدْو طيلة الليل... يخرج من  
فيديو العدو ويستيقظ... كابوس داخل كابوس،  
تراوح خواطِطَه "ماتريوشكا" الدُّمِيَّة الروسية: عدوس  
داخل عدوس... أين الحقيقة وأين المُتَحَيِّل، وأين  
الصِّدق وأين المُزَيِّف؟... شبح امراة جَهَمِيَّة ضخمة  
تقف على الحَظِّ الفاصل على حافةٍ مُثلثات مُكوَّنة  
من درجات ضوء مُعَيَّم شاحب، تظهر الحشود ثانية  
تعدو بين المساحات، بعضها في اتجاهك، بعضها في  
الاتجاه المقابل، في ذاكرتك الشاحبة تُذكر أنك عبَدت  
فضاءً شبحيًّا يضمُّ عمارات مُشيَّدة في الخلاء...  
يسكنها الصمت والفراغ... بقايا صورة باهتة تشيد إل  
أنك ابتعتَ طعامًا من محلٍّ ما... ألا يؤكِّد هذا أنك  
من الفئة الناجية... تستمر في عَدْوِكَ للخروج وحيدًا  
إل عراء مُعَيَّم، ترى المراة الجهممة تقف بالقرب من  
تلاقي رأسي المثلثين...

تحاول أن تُنبِّهها بالأ تعبد الحَظَّ الفاصل بين حدود الضوء...  
على مبعدة يعود قليل من نسخٍ بشرية مسطحة (2D)  
إرشاد منك من شفا حَظَّ الهلاك، فهل امتهنت إنقاذ  
الأخرين، تفاعاً بظهور حشد من تلك الحشود التي تتبعك  
منذ الليلة الفائتة، نُلِحْ على المرأة أَلَّا تنتقل عبد الخط  
الفاصل بين ما تظنُّه عالمي الموت والحياة... كابوسك  
المتكرّر، تواتره المتواصل، لا يمكن أَلَّا يكون سوى أنك  
تعيش عالمك الحقيقي؛ عالمك المفصلي القابع في  
المساحة والزمان الكائِنَيْن بين الحياة والموت، في انتظار  
تلك اللحظة النادرة التي يقبض فيها عزرائيل روحك، ويعود  
بك من عالم النهار إلى عالم الظلام الأبدى...  
... وَإِنَّكَ لَمَيِّتٌ...

هي رسالة، وأنت تعلم أن خاطراً ظلُّ يُخَيِّدُك أن أخاك  
غرق بدلاً منك، وأن قتيل بغداد كان عوضاً عن اغتيالك  
المحتمل في بيروت الحرب الأهلية، وأن الجميع يموت،  
وأنت صامدٌ دونما سبب واضح...  
... وَإِنَّكَ لَمَيِّتٌ...

في ظل الصمت المطبق، وأزيز مفاصل أبواب وشرفات  
منازل هجرها الأحياء، وهربت من شقوقها الكائنات  
الحية، تستيقظ من كابوسك وأنت تلهث في استسلام...  
غرفة يغمرها ذات الفضاء الشبحي المكُون من اللون  
المعتم الرمادي وسماء زرقاء نيلية، مصحوباً بخواء  
الرياح الأبدية، تجلس على الفراش تلهث دون أن تلهث،  
يحدُّ بعقلك الممْتَثِل المنقاد لمصيده، حيث لا يوجد  
سوى الحُوء، ينبوع من الحزن الشفيف وإكسيد يتعهد  
فيك اللُصُوح والإزعان...

تفريق على حقيقة مفذعة تجيب عن سؤالك الذي يتغلغل بين ثنايا وعيك الواقع في كمين التساؤل المُمِصِّ، ما الذي يحدث لك؟ وأين أنت؟ هل أنت ميّت بالفعل... أليس جَزْمًا أنّك تعيش عالمَ موتك...

هذا الفدراش الذي تغادره عدّة مرّات إلى حَمّامك المظلم للتبؤل... رائحة الحمض المتصاعدة من المرحاض، ليست سوى لكائن يتنقّس رائحة تحلُّه... انتقالك في الظلام إلى المطبخ كي تبتلع قدرًا من المياه، لتنظّف كما تعتقد كليّتيك وكبدك من سمومهما، ليس سوى ظلام العالم الآخر... جسّدك الذي صار هدفًا لجحافل النمل، ما أن تدخل المطبخ الممتلئ ببقايا الطعام، حتى يطير نحوك من كل حذب وصوب، تشعّر به يهبط على بشدتك، ويشدّد بعزيمة لا تُفهر في الاستيلاء على

أديمك، تأخذه معك إلى فدراشك لينكبّ على قدرك بكلايات حديدية... لأيام طويلة تظنّه نوعًا جديدًا من نمل طائد، تبحث عن كل أنواء المبيدات، لتجدها غير ذات فاعلية...

هو الموت إذن؟

وكيف تتوقّع ألا يكون الموت سوى وجودك الذي يتدرّس في عالمي العنّمة والوحدة... كوابيسك أشد حقيقة من أي حقيقة أخرى...

وإنك لميّت...

لحظة تنوير

فاحشة

أنت تعيش البرزخ  
الواصل بين الحياة  
الدينا والموت الأبدى  
وإنك لميّت.

إِنَّكَ لَمَيِّتٌ غَادِرٌ مِنْذُ أَيَّامٍ أَوْ شُهُورٍ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ وَانْتَقَلَ  
لِعَالَمِ الْمَوْتَى... وَأَنْتَ تَعِيشُ عَالَمَ مَوْتِكَ... كَوَايِبِكَ  
أَشَدُّ حَقِيقَةً مِمَّا تَظُنُّ... لَوْ تَعَلَّمُ فِي أَيِّ عَالَمٍ  
تَمَضَى؟ أَيُّهُمَا عَالَمُكَ الْحَقِيقِيُّ؟ وَمَا كَوَايِبِكَ إِلَّا حَيَاةٌ  
أَشْبَاحُ فِي عَتَمَةٍ... الْحَاضِرُ هُوَ الْبَرَزُخُ الْوَاقِعُ بَيْنَ الْحَيَاةِ  
وَالْمَوْتِ... تَسْأَلُ اللَّهَ بِأَسْمَى: هَلْ قَدَّرْتَ لِي هَذَا الْمَصِيدَ...  
عَالَمِ أَشْبَاحِ الْمَيْثُولِوَجِيَا الْيُونَانِيَّةِ؟

تقوم يغمرك حزن شفيف... ترتدي سروالك ولديك يقين بأنك  
تعيش عالم موتك الأسيان... ترتدي فائلة قطنية، تستغفر الله  
وتحمده مثل زاهد يسعى لأن يجد موقفاً بين طبقات الصوفية،  
غير مهتمّ إذا ما كانت بوذية، أم زهاد أصفهان، أتباع التبريزي  
أم رهبان أورشليم، فالله سوف يغفر، تسأل نفسك، تحاسبها كما  
يحاسب قائد روماني منتصر فيالوق جيشه، سؤالك المعهود؛ هل  
أخطأت في حقّ إنسان ما... هل تسببت في إلحاق الأذى بأحد...  
تهاجمك أفكارك بأن عليك أن تسرع بإزالة الضرر الذي أوقعته  
بآخرين، أو طلب المغفرة وأنت مُنحَنٍ على ركبتك المرتكزتين  
على وسادة من رمال صحراء الربع الخالي التي ماتت فيها  
أحلامك.

في مُرَبَّعٍ مِنْ شِقَّتِكَ، ثَلَاثَ غُرَفٍ مُغْلَقَةٍ، وَصَالَتَا جُلُوسٍ لَا  
تَدْخُلُهُمَا، لِيَبْقَ حَيِّزٌ لَا يَتَجَاوَرُ حَجْمَ مَقْبَرَةٍ كَبِيرَةٍ، فَإِنَّكَ لَمَيِّتٌ  
يَعِيشُ مَوْتَهُ بِالْفِعْلِ... وَعَلَامَاتُ مَوْتِكَ مُؤَكَّدَةٌ...



لحظة تنويد فاصلة، وقد أقام لك القَدْرُ عرسًا من الوحدة، ليس ثمة أحد في منزلي خالي من البشرد سوى شياطينك، مات الجميع، وإذا كنت تستطيع أن تتناول كوبًا من شاي وفنجان قهوة، وتشعل موقد الغاز، وتجلس أمام مكتب الوهمي، تفتح جهازك اللّوحيّ، وشاشتك الضخمة التي تُعوّضُ كلالَ عينيك وذُهان عقلك. تفقد أعداد النمل على جسدك بمرح، لحظة تنويد أخرى، منذ أشهر عديدة ظهر النمل فجأة في حياتك، فعلت المستحيل لتقضي عليه لكنك فشلت، استخدمت كافة أنواع المبيدات وتلك المكوّنة من عجائن سبق وأن أُنبئت نجاعتها، وأخرجت النمل من حياتك لسنوات كاملة، هذه المدة فشلت، بدأت تعناد وجوده، تقاسي منه قسوةً مُفْرِطة، حتى احتلّ فراشك... هو الموت إذن، ولكن أهو ذاك الموضع الذي يُدعى بعالم الأُشباح، أم هو البرزخ الذي عبده ملايين البشر ومليارات الكائنات، دون أن يفاجئنا أحد بالعودة من العالم الآخر، كي يروي لنا ما عاشه، وعمّا رآه... فإذا أدركت حقيقتك وتيقّنت ممّا أنت عليه، تزدرد لعابك وغصّة في الحلق، وتمنع في صدمةٍ وعن شجاعة جيلت عليها أن تنهمر منك زفردات بكاء، تتمدّد على الأريكة التي انطلّقت منها حمم الغواية، تأخذ الوضعية التي جمعتك معها دائميًا، وحيث يصبح صدرك مؤنّلاً لطائذ يعود إلى عنقه بعد رحلة طيران في فضاء الحياة، تعتب على الله إذا كان قد قدّر لك الأبدية عالمًا مُعتميًا على هذه الشاكلة...

أثامك النادرة التي فعلتها لم تكن عن وعي، وإنما عن قوة قاهرة، أخطأوك التي ارتكبتها. لم تتوقف في الليل والنهار عن طلب المغفرة، أن يثملك بعبادة الرحمة والمغفرة... تمضي كل لحظة من حياتك تحاول فعل الصواب، ألا تقول إلا ما تعتقد أنه الحق، بلا زيغ ولا بهتان.

تستقبل الليل، وكل ليل تخاطبه بأسى بأن أخطاءك وأثامك لا تقاس بما أمضيت به حياتك تحاول التمسك بممارسة تلك اللعبة الخطرة، ألا تحيد عن الصراط المستقيم.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ  
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ (14)

لكن كوايبسك تطمرك بعلامات عالم أخروي، عالم منقسم بين جحيم مطلق ونعيم سرمدى، وعالم ثالث هو عالم الدمي والأشباح والظلال؛ فأيهم قُدِّرَ لك مصيراً أبدياً؟

تقبّل مصيرك ولا تكن أحمق...ربما هم الآن عاكفون في المفاضلة بين سيئاتك وحسانتك...ربما قلبك الموضوع الآن على راحة كفّ الميزان، يثير الحيرة، وأنت المحير دائماً بين النقائص...

(14) سورة الفاتحة- (6 - 7) خط حفص-- الرسم العثماني

لم تنتصر يوماً ولكنك لم تهزم أيضاً... فتقبل مصيرك ولو بقيت في البرزخ إلى أبد الأبد، أفضل من أن يكون الجحيم قدرك، وتذكر ما قاله لك الهر جوزيف هايدن المبشر الآري لكنيسة شهود يهوه الذي لم يتخلف يوماً عن مواعده معك في مدينة ميونخ، وأنت مستغرق في الحوار الوحيد الذي قدّمه لك بلاد الجرمان، متعطش لمعرفة سر قوة الجنس الآري الكئيبة... وعندما تبين للسيد هايدن الآري أنك تعبت معه، أحضر مساعديه من رجال التبشير أفارقة وهنود، من شرق آسيا وقلب ألمانيا، وكلما اقترب رحيلك عائداً إلى الوطن جُنّ جنونه، وأنت صاحب النزعات المادية تخبره ببرود أن الإسلام ينعم علينا في عالم ما بعد الموت بالجنة، وأنت لا تقدّم سوى الموت والقبور نهاية أزليّة، قال في مواعده الأخير برنة مُشبعة بروح الانتقام على ما ضيّعه معك من وقت، وخاصة بعد أن اكتشف العناوين المزيّفة التي أعطيتها له: إن الإسلام ورث الجحيم والنار عن الكنيسة الكاثوليكية، فهل تظن أن الله من القسوة حتى يحرق قطعة، فكيف بحرق إنسان؟!

سؤال ظلّ يطرق ذهنك طويلاً، وإذا كنت الآن في العالم الواقع بين الحياة والموت، فهذا شاهد على سقوط نبوءته، وإذا كان الأمر كذلك فعليك أن تقبل بما قدّرتك، ربما ينجيك من عقاب مريع على أخطاء ارتكبتها، فأنت لم تداوم على إقامة فروض الصلاة، وأنت لم تؤدّ الزكاة متحجّجاً بأن شرفك وتنزّهك عن فساد العالم جعلك فقيراً، ومثل هذا يكفي، وأنت لم تحجّج إلى بيت



الله الحرام، ولم تفكر أن تفعل، وأنت إذا كنت تُقرُّ بالشهادتين قبل نومك المرة تلو المرة فهو عن خوفٍ من الموت القادم لا محالة، وعن اعترافٍ بضعفك، وليس عن قوة إيمان، وأنت لا تحفظ من القرآن الكريم سوى سورة الفاتحة، أنت المُتيمِّم والمفتون بها، أنها نبراس حياتك، ربما منذ وعيت الحياة وحتى سكونك عالم الأشباح... يا الله... الرحمة...

\* \* \* \*

أفاق من نومه يدعوربه أن يُنعم عليه بجسد صبيبة شابة جميلة ذكية سليمة الجسِّ والنفس... تضاء الغرفة فجأةً بلحظة تنوير... هو جسد الأنثى... الحياة والوجود هما جسد الأنثى... يقفز من فراشه، يستعيد ما قاله رينوار، إنه الجسد ولا شيء غيره، هذا الجمال المطلق، عندما تتلاشى شخصية كل من الرجل والمرأة، عندما يتلاشى عقل كل منهما، وجسدهما الواعي بالوجود، يعبران اللغة والبصر والأفكار والمكان والزمن. ليبقى اللا شيء، الشيء الوحيد الحقيقي هو الجسد في جماله، في اكتماله في نهاياته؛ خصر وأرداف وسيقان، وجدائل شعر تتسدل على جبهة فضية، ووجه وعيون وشفاه وثغر... الجسد. وحده منتصراً، أفروديت مادته المصنوعة من نيران ثلجية هادئة، تحيط به تلك القوى العظيمة المتحكِّمة للوجود؛ إيزيس الربة هي روحه، إيزيس سيدة العشق والحنان، ملكة الحب والوفاء، والأم المقاتلة المنتصرة في ميدان العشق والكراهية. هكذا وُلِد الكون، وما تلاه تفاصيل متعرجة، في عالم يندُر فيه التُّبَل أو الشرف...

يضاء عقلك... يا إلهي! كيف يمكن للرجل أن يعيش وحيداً... أو دُ  
لو أعرف لِمَ خلقت لأدم أنثاه... هل خلقتهما معاً، أو أنه توجه إليك  
بعد عالم طويل من العزلة باكياً يشكو وحدته، ويطالبك بإلحاح  
أن تهبه رفيقاً... هل أعطيته غلاماً من نوعه فأمضي دهرًا ثم عاد  
يشكو وحدته، كيف انبعث الذكر والأنثى، من أين نبت مفهومي  
الموجب والسالب؟ وكيف إنبتق مفهوم الشوق والوجد والهوي  
والتوق إلى الاكتمال.

يا إلهي هبني فتاة شابة، لجسدها جمالٌ وحياءٌ، أريد حواء  
فريدة متوجهة بتيجان الفرادة الثلاث: الحُسن، والذكاء، وسلامة  
النفس، تحيطني بجُدر الحماية من عالم الفساد والفراغ، تعينني  
في حياة الوحدة والكرهية.

كف عن النظر في لوحات رينوار، لكن صدى أفكاره جعله يعود  
للبحث، حتى وجد تلميذته تطلُّ عليه من لوحة أخرى لرينوار؛  
”عارية على أريكة“<sup>(15)</sup>، عودٌ خالٍ من الشحوم، يبحث للمرة  
الثالثة، يجد تلميذته هناك مثلما كانت في الحقيقة، تطلُّ عليه  
من الجانب الأيمن للوحة رينوار المسمّاة ”المسيح الكبير“<sup>(16)</sup>،  
ينسدل شعرها الأسود طويلاً غزيراً يتوقّف أعلى الخصر، تغوص  
بساقها في مخاضة النهر عارية، بينما بقية النساء يرقدن  
على العشب عاريات وبأجسادهن سمنة، هي تلك المرأة الشابة  
ذات الجسد المتناسق الذي يميل للنحافة عن بقية نساء اللوحة.  
وعندما أصبح موقفاً هتف عن رضا... وجدتها... ها هي تأتيه

(15) أحدي لوحات أوجست رينوار “nude in an Armchair

(16) أحدي لوحات أوجست رينوار: المسيح الكبير، 1884-1887 The Large Bathers,

كاشفة له عن عُريها، تجلس في لوحة رينوار المسمّاة "متحمّمة تُرتّب شعْرها"<sup>(17)</sup>. لقد رسمها منذ قرن وربع قرن بدقّة فائقة، غفا تحت ههددة نسائم البحر، وأمواجه الرتيبة، وعندما استيقظ استيقظ، شاهد جسدها يتأرجح برتابة على سطح أمواجه. ابتسم، ودَّ لو تمكن من مدِّ يده، يجمعه من الزبد المخفوق يتجرعها لتعود إلى حيث كانت؛ ضلعه الملتف حول القلب، عضواً مدمجاً في خلاياه، ليعيد الأسطورة القديمة منذ البداية. في الظهيرة يطرق بابه أحد مندوبي دور الطباعة الإلكترونيّة حاملاً معه أربع نسخ للوحات رينوار، وقّع إيصال الاستلام، وأسرع إلى الداخل، فتحها، وبدأ في تعليقها على الحائط:

- Nude from the Back, Rest after the Bath.

- Nude in an Armchair, 1900.

- The Large Bathers, 1884-1887.

- bather arranging her hair.

- Whether you want to come or not ... It does not matter anymore ... Anyway you are with me.<sup>(18)</sup>

تتلاحق الساعات وهو جالس في التراس يراقب البحر، تمخّر عبا به السفن، وتلهو على أمواجه مراكب الصيد، يروح العمال جيئةً وذهاباً، ويلعب الأطفال والصبية في الشوارع الجانبية الكرة، وفتاة مُحجّبة وحيدة تعبر الطريق الرئيسي وهي منهمكة

(17) أحدي لوحات أوجست رينوار: المسبح الكبير، The Large Bathers, 1884-1887.

(18) إذا شئت القدوم أو لم تشائي... لم يعد الأمر مهم فأنت الآن معي.

في الحديث في موبايل مُثَبَّت بين أذنها وحجاب الرأس، لتجد شابًا في انتظارها على الجانب الآخر من الطريق، يأخذها من يدها لمقهى صغير مَخْفِي عن العيون، يرتفع صوت نفير السيارات المسرعة وسط خليط من صفارات السفن، وصفارات نوبات ورديات العمل في الميناء والترسانة البحرية.

يمارس هوايته المفضلة في عزل كل الأصوات التي تصدر عن البشر ليغوص وحيداً مع سيمفونية الأزلية التي تعزفها ضربات الأمواج المتلاحقة، ووجدانه يُوَهِّل "ذاته" لقبول الهزيمة، ورأسه يقاوم انصياعه لهشاشة الروح، مُنْبَهًا إِيَّاهُ أن العقل هو أقوى مُنْشَط جنسي، وأن الخيال المصدر الأشد قُدْرَةً على إطلاق طاقة التحفيز لدي الليبدو... تَتَرَى الأمواج متعرجة بزبدِها، يغفو ليستيقظ على البحر المكتنز بلألئه تَبزغ على صفحته لوحة رينوار:

( المسبح الكبير -1887-1884, The Large Bathers ) .

تصعد من البحر عارية، تقف بميلٍ خفيف على الجانب الأيمن من اللوحة، رشيقة بها جاذبية جمال سرمدى لما خلق الله عليه حواء... شَعْرها الأسود لنساء المتوسط متسربل حول ظهرها، يمد يده عله يمسُّها وحدها من بين نساء رينوار فلا يستطيع، هو البحر إذن، ذلك الوجود الكلي الذي يمكن لك دومًا أن تتاجيه، هل تجد لديه إجابة؟

تلقى رسالة جاءتة من كابوس سابق... أربعة من رجال العصابات يتقاتلون في شوارع كابوسه الأخير، يطلبون أن يبتاع لهم غُلبَ رصاص، وشيء آخر يخضُ النساء نسيه...

قام سعيداً، أضاء كافة الأنوار ووقف على طاولة غرفة الاستقبال يدعو دُماه للحضور على الفور، جئن يتساءلن عما يبتغيه السيد البروفسور، قال إنه يشعر بالبهجة فلا شيء يضيع في تلك الحياة، وإذا كان هناك ما يضيع فبإمكان المرء الاستعاضة عنه باستخدام المخيلة، والآن هل تقبلن بدعوتي لكنَّ على رحلة إلى مدينة الدُّمى؟ صرخن وقفزن من الفرح، احتضنت كلُّ منهنَّ رفيقتها، واندفعن يغمُرْنه بالقبَل، وعكفن يتبادلن الحديث عما سوف ترتديه كلُّ منهن، وهن يتنافسن على أيهنَّ ستكون أكثر جمالاً، وأيهن ستصبح أكثر جاذبية، وأكثر إثارة.

بعد أن حلَّ الهدوء سألتها (S/11) إذا ما كان لديه برنامج؟ سألتها عن أي برنامج تتحدَّث؟ قالت بابتسامتها الناعمة، القتالة: برنامج للرحلة، أضافت إذا ما كان ينوي أن يأخذهنَّ للسينما، أو إلى المسرح الروماني؟ قاطعتها (P/33) وأضافت وهي ترقص: أو إلى ملهى ليلى نرقص السالسا؟ تدخلت



(K/22) بَخْبُثٍ ووجهها ينفرج عن ابتسامتها الواسعة وعينيها اللتين تحملان ألقاً ينمُّ عن ذكاء شديد الخطورة، وقالت إن بإمكانه أن يدعوهن إلى عشاء فاخر في مقهى ”دي فلور“ أو ”لي دو ماجو“ الباريسي؛ كي يجمعنا بأصدقائه الأدباء والفنانين؟ ربما نلتقي أوجست رينوار أو هنري ماتيس وربما بيكاسو أو أميديو موديليانى، قال وهو يخفي خوفه وغيرته إنه لا يرى سبباً يدعوه لذلك. قالت (M/55) شبيهة مونيك بيلوتشي: لماذا مستر بروفوسور؟ ربما يفكر أحد منهم في رسمنا. قال باستعلاء: أنتم؟ بَخَجَلٍ وحياءٍ تطلَّعت (M/55) نحوه بطرف عينيها الفاتنتين وهي تنظر إلى الأرض كما فعلت دائماً في فيلم ”مالينا“ وهي في طريقها من منزلها الواقع على الساحل إلى ساحة القرية الرئيسية وجميع الذكور -مراهقين ورجالاً وعجائز- يتطلَّعون إلى هذا الجمال الشهي بعجزٍ واشتهاءٍ، وغمغمت بخجلٍ ”سنيور بروفوسورا“<sup>(19)</sup> نحن الأحقُّ بالرسم؛ ألسنا موديلات، سألهما إذا ما كانت ستقبل الوقوف أمامهم عاريات... تراجعن غاضباتٍ، وغمغمت (M/55): هذا الرجل مجنون.

اتَّهَمته (K/22) بالنفاق، وسألته كم مانيكان سيصطحب معه؟ قال برعونة: الجميع. سألته إذا كان سيراقصهنَّ جميعاً؟ إذا كان سيقبلهنَّ بأسرهنَّ عندما تظلم شاشة السينما، ومن التي ستحظى بحظوة مرافقته ووضع يدها في مرفقه... لا مستر... هذا ظلم بيِّن، أنت لن تكفيننا ونحن في حاجة لرجال. وأضافت وعيناها تطلقان بالشرر... قضية واضحة مستر... نحن في حاجة ماسَّة للصُّحبة. صمت وقد هزمه منطقها. حدِّقت فيه بعيني ذبَّبة شابة وسألته عمَّن

(19) Signor Professore: (سنيور بروفوسورا) : السيد الأستاذ

سوف تحظى بمرفقه، قال: لا أحد، سوف أصطحب زوجتي المتوفاة.  
صرخن جميعاً وهنّ يتأوهن: أوووو... نووو... فانت.

تجاهلهنّ واكتفى بالصمت، سألته (SO/44) شبيهة صوفي  
مارسو كيف سيتسنى نقلهم إلى مدينة الدمى. قال ساخراً كيف  
سأنقلكن! أستأجر أسطولاً من سيارات المرسيدس الفارهة!  
سأستأجر شاحنة وأشحنكنّ فيها. مثلما جيئتُ إلى المحل اللائى  
تعرض فيه الملابس. أصابهن الهلع يستكزن ما ينوي فعله بهنّ.  
قالت له (K/22): مستر... أنت تُقلّل من شأننا كثيراً، أنت تستمتع  
بإهانتنا، هذا غير مقبول تماماً.

دافع عن نفسه موضّحاً أن أمر الانتقال بهنّ في شوارع  
الإسكندرية أصبح مُعضلة، بعد أن أعلنت قوانين المدينة  
الجديدة عن خشيتها من استخدام الأنواع الحديثة من صنفكن  
(أعني الدُمى المُطوّرة) في أغراض غير أخلاقية. سوف  
يعترضنا كمائن المرور الآلية، وقد يُقبض علينا ونمضي ليلتنا في  
تخشيبية قسم المكس. هتفت (M/55) بوجهها الصارم الحزين  
المغلق على عالم وحدتها: تقصد تهمة العمل في الدعارة؟ قال:  
نعم، هناك كثير من قضايا وفضائح تدور حول استغلال الدُمى  
في مواخير وتجارة الجنس، وأضاف أن جرائد الصباح سوف  
تأتي مُحمّلةً بمانشيت رئيسي:

**أستاذ جامعي يدير وكرّاً لبائعات الهوى من نوع  
البلاستيكون!**

... ضاعت الحفلة، قام مبتعداً وتركهن يعانين من الصدمة. واسته (M/55) بخجلها المعهود: صدقتني سنيور بروفوسورا إن قضاء ليلة في سجن المقاطعة أفضل من انتقام حيز بونات وعوانس ونساء هجرهن رجالهن في المضاجع.

هز رأسه متفهماً تلك المعارك التي سحلت فيها نساء قبيلات امرأة شابة وحيدة فريدة في جمالها.

\* \* \* \*

في الصباح استدعاهن، فجئن دون حماس، قال إنه وجد حلاً، وأن دعوته لهن ما زالت قائمة. صرخن من الفرح، كنَّ يتقن إلى الخروج إلى الهواء الطلق، والسير في شوارع وطرق المدينة بحرية لم يعهدنها من قبل، وامتناناً لقراره أعلنَّ أنهنَّ يتخلين عن مطالبهنَّ كئيبة، وأنهن يقبلن ما يعرضه عليهن حتى ولو اقتصر الأمر على رحلة على كورنيس البحر في الجانب الآخر من مدينة الليل، قالت (P/33) وهي تصرخ فرحاً إن بإمكانه أن يأخذهن في رحلة بحرية على يخته الخاص.

فكر أيُّ يختٍ خاص أيتها المأفونة، أعمل النَّظْرُ أنها ربما تقصد تلك الفلوكة الخشبية العتيقة. سألها إذا كان لديها ما يوه للسباحة، ضحكن وغرَّدن كعصافير الصباح الباكر، يُخبرنه أنهن عاريات لا يُعطيهن ورق التوت، وأنهن لسن في حاجة لملايس من أصله، طرقت (P/33) جبهته بأصبعها وقالت بلطفٍ رخييم: مستر نحن دُمى بلاستسليكون... أنت لا تتوقَّف عن أن تُدكرنا بهذه الحقيقة.



قبل منتصف الليل طلب من كل واحدة أن تكشف عن مدخل (USP) الخاص بها، وحمل كلاً منهن على هارد ديسك خارجي، واستدعى تاكسي من مدينة الدُّمى، فبلغها قبل منتصف الليل، تمكَّن من عبور الحرس الحديدي المصنوع من سبائك الصُّلب المدمج مع السليكو بلاست أكريليك، والذي يحرس بوابات مدينة الليل.

أمضوا الوقت بين مقاهي وحانات مدينة الدُّمى، تعرَّفن على كثير من أصدقائه وصديقاته، دعاهن على تناول عشاء فاخر في مطعم "سانتوريني اليوناني" أفخم مطاعم المأكولات البحرية والمشيد من السليكو بلاست أكريليك، ثم انتقلوا لمقهى "دي فلور" الباريسي المرسوم بألوان الباستيل المبهجة، وبينما كان يثرثر مع أستاذته الحميمين "جورج لوكاتش" و"تيري إيجلتون" حول تطورات النقد في العقد الرابع من القرن الحادي والعشرين، التقى بصره بالفنان والمفكر المٌصادر، والذي اعتبره دائماً كاتبه المفضل، قام من فورهِ وتوجَّه إليه.

سأله عن آخر مشاريعه الأدبية، قال إنه منهمك في كتابة مشروع جديد أطلق عليه (الإيزية)، يدور حول الحروب التي دارت حول البحر المتوسط. هنأه بسعادة وأخبره أن كثيرين متشوقون للقراءة، وسأله عن المكان الذي ينوي النشر فيه؟ قال إنه وللأسف كما سبق وأخبره أن دور النشر الكبيرة مثل دار (الغروب) أو (المصرية البيروتية) وغيرهما تتجاهله، وإذا قدَّم عملاً فهم يرفضون النشر. أضاف أن دار (الغروب) ترفض عرض كتبه في منافذ توزيعها، المتاح هو دور النشر الصغيرة.

سأله عمًا ينوي فعله؟ قال إنه سيسعى للنشر في ( المؤسسة الإقليمية).

فاقت سعادتي الوصف، أخبرته أن إصدار المؤسسة الإقليمية لمشروع مثل (الإيزية) هو بمثابة الحصول على جائزة الدولة التقديرية المباحة لمن يستحق ولمن لا يستحق، في الحقيقة أنت تستحق عن أعمالك وسام النيل.

تمنّى له التوفيق، وغادره عائداً إلى دُماه، فوجدهن يتناثرن بين البار وعلى طاولات المقهى يجالسن الحضور وقد تجرّعن الخمر حتى الثمالة، كُنَّ مستغرقات في كافة أنواع الرقص؛ شرقي وبلدي، سالساً وتانجو، فلما عدتُ اندفعن إلى صالة الرقص، وقفن صفتين، كلُّ منهما قبالة الآخر ليرقصن "الكونترا"، اشتعل حماس الحضور من الدُمي والبشر، ثم تحوّلن إلى رقص رقصة "التشاتشا" الكوبية، وغنّين ولعبن النرد والبليارد ولعبة القوس والسهم القاتلة، حتى أشرقت أشعةُ السّحر، عندها آن أوان العودة. وضمن مقابسهن في وحدة (USB) وانزلقن إلى وحدة التخزين وهن يهللن ويهتفن من البهجة

\* \* \* \*

أستيقظ على هاتفٍ صاحب مصنع الدُّمى يخبره أنهم تعاقدوا مع مؤسسة إعلامية إقليمية على إنتاج طلبية جديدة من دُمى إنتاج طابعة ثلاثية الأبعاد، وهو يؤكِّد على حضوره كممثل للهيئات الثقافية والفنية، دار بينهما حديث ثَمَّن فيه نجاحهم في استخدام تكنولوجيا حديثة، اقترح عليه دعوة رؤساء ومندوبين عن شركات الإنتاج السينمائي الكبرى وشركات الإعلان وتلك العاملة في مجال الجرافيك، والمسرحيين؛ لمشاهدة المنتج الجديد.

في المرة الثالثة استيقظ على رنين هاتف صديقه الروائي يدعوه لحضور ندوة عن كتاب في النقد الأدبي، وافق على الفور، واستفسر عمَّا فعله بخصوص نشر مشروعه الأخير، أجابه سعيداً أنه التقى رئيس المؤسسة الإقليمية منذ يومين، وقد تلقَّاه بترحاب ومودَّة، أسرع بهنئه مؤكِّداً أنه لا يتوفَّر أفضل من المؤسسة لنشر هذا المشروع الحيوي.

في المرة الرابعة كانت هي مَنْ تُهاثفُ وفي صوتها عطر البهجة. تخبره بأنها تلقَّت منه رسالة في السادسة صباحاً، وتسأله إذا كان يعني ما تحتويه؟ صمت وهو لا يتذكَّر إذا كان

راسلها أم أنها تصطنع حجّةً للحديث، قال إنه لا يتذكّر، واستدرك أنه ربما يكون قد فعل. قالت إنه أرسل رسالة يدعوها بلهجة اعتذار أن تأتي كي تنتهي من كتابة رسالة الدكتوراه، وأضافت أنه كعادته وكي يُخلي نفسه من جرأة المسؤولية، أضاف عبارة: "لو شئت". أطلت دُماه من خلف زجاج التراس يتابعون حديثه، فيما بعد أخبروه أنّهنّ من أرسل الرسالة، لقد أردن أن يرددن إليه الجميل الذي فعله معهن باصطحابهن في رحلة إلى مدينة الدُمي.

سألها إذا كانت تظنّه جباناً؟ تنهّدت وقالت إنه عنيد، وأنها ظنّت أنه لن يفعل قطّ. لم يحاول أن يتحدّج، وقال مُعترفاً أن توقّه لرؤيتها هو السبب. قالت إنها أيضاً لديها لهفة وشوقٍ للقاءه. وكان هذا أكثر ما يسيئه، فالسيدة الشابة من عاداتها الإفراط في لُبتها العاطفية، والتّحفّظ في أفعال وألعاب التواترات الجسيّة.

عندما جاءت لاحظ أنها ترتدي بلوز قصيرا ينتهي أعلى بنطالها الجينزي، وعندما تحرّكت بين الهنا والهناك أبان طرف البلوزة السُفلي بطناً ضامراً هضيماً، تغوص السُرّة داخل حضرة حريرية شديدة النعومة، من الخلف أطلّ وشمّ الوردية الحمراء المرسوم أعلى الردفين. فكّر أن البلوز القصير الذي ترتديه يفتح الطريق بنعومة إلى نصفها العلوي وسوتيانها وما يحتويه. سألها عمّا فعلته بالشابتر الذي طلب منها إعادة صياغته، قالت إنها سبق وأخبرته أنها أنهته منذ أسابيع، استوضح إذا كانت قدّمته للدكتور





المشرف؟ أجابت بصوت يفوح  
باستتكار، تبتغي إرضاء غروره:  
وكيف يمكن أن تفعل دون أن  
تعرضه على "أستاذي وملاذي".  
وكان برداً وسلاماً حلاً عليه،

غمغم وهو يكبح زهوه: خلاص،  
خلينا نبتدي... شعرت بأن  
الفضاء مُتخَم بالوجود  
المتناقل لأشباح من دمي غير  
مرئيين تحلقن حولها بغضب...  
قامت باتجاه الشقة المجاورة،  
لاحظت اختفاء النسخ القديمة  
للممّثلات والعارضات، وحلّ  
محلّها نسخٌ حديثة تلبس  
بالحياة لشاباتٍ وعارضاتٍ  
ملا بس سباحة وملا بس تحتيّة  
لا تستر شيئاً من الجسد سوى

اكتماله وبهائه. عادت غاضبةً، فهم

معالم غضبها واستتكارها، تساءل إذا كان يحقّ لامرأة جميلة أن  
تغار من كائنات بلاستليكون،

قالت إنه مريض نفسي، يلزمه أن يعيش في مصحّة أمراض  
عقلية، أجابها مؤكّداً أن العالم بأجمعه صار مصحّة للأمراض  
العقلية، وهي ليست زوجته ولا عشيقته، وعليها ألا تحشر أنفها فيما لا

**اكتفت بالصمت**

**وتشاغل هو بمناقشة**

**أخريين وتركها حتى النهاية،**

**تأخراً الوقت وساد الظلام**

**ردهات الجامعة، نهض**

**مكتفياً بما ناقشه**

**وقال هذا يوم مرهق،**

**لازم امش**

**والذي عملته يا دكتور؟**

**نناقشه الأسبوع الجاي**

**وبعدين فكري في الذي**

**عرضته عليك**

يعنيها. حلَّ صَمْتُ طويل، لكنه عندما تَسْنَى له الوقت المناسب قال إن غيابها هو السبب في عودتهن، وسوف يرحلن حالما يَشْعُرْنَ بوجودك. صرخت بغضبٍ وهو تردد لا مستر تشيبس<sup>(20)</sup> أنت من طردتني.

قال إنه فعل ذلك حفاظاً على الهدف الأساسي من قدمها. صاحت مستنكرة تستفهم عن ذاك الهدف. كانت تظنُّ أنه سوف يَتَّهَمُها بأنها تدفعه للتحرُّش بها، لكنه لم يفعل.

دفت رأسها داخل اللاب توب، وخرجت ومعها ملفات بحثها، شعرت بنقرات أطراف الوسائد والحشايا تحيط بها من كل جانب، وتشير نحوه، دفعت بهم بعيداً عنها، حلَّ الهدوء قليلاً، لكن الحشايا والوسائد عاودت لكزها بقوة، وشرعت تدفع بجسدها نحوه دفعاً، همست:

(20) ( وداعاً مستر تشيبس فيلم موسيقي 1970، بطولة بيتر أتول، بيتولا كلارك يروي قصة معلم في الحرب العالمية الثانية يقع في حب مغنية شابة، تموت أثناء قصف الألمان للمسرح



## "الفصل الثاني"

### "ساعات رواية الثورة وتناقضات اللغة الزورّة"

لكنها توقفت وقالت وفي صوتها بحّة عشقٍ وجوى -في مفاجأة من عيار ثقيل- إنها فكّرت كثيرًا، وأن هناك خطرًا يُهدّدهما، سألتها: مثل ماذا؟ قالت وهي تضحك إن عليه أن يفكر فيما يمكن أن يحدث من أمور غير متوقّعة بين أرمل ومُطلّقة؟ سألتها إذا كانت تخشى من ضعفها، استكرت. سألتها إذا كانت تخشى على سمعتها؟ نفت الأمر. سألتها ثانية: ومن ثم؟ قالت: نتجوّز مثلًا.

سألتها إذا كانت تريد أن يدعو الله بأن يأخذك أخذ عزيز مقتدر مثلما يدعو الرجال على زوجاتهم؟ ثم ألم تكوني متزوّجة وتطلّقت، ما الذي يدعوك لتكرار الخطأ؟ قالت وهي على بُعد خطوات من المطبخ، إن فكرة الزواج لم تُعد مطروحة على الأجنّدة. ردّد في سريره...

- Yes... you are the one .

عادت من المطبخ تحمل "مَجِين" نسكافيه وجلست أمامه، انكبّت تُخرج أغراضها من حقيبتها الهانديباغ، وهي منشغله بالتفكير في الغرور الذي يعاني منه، كان وجهها شاحبًا سألتها إذا كان هناك ما يُقلِّقها؟ نفت، رغم أنها ودّت لو تخبره أن لديها عرضًا بزواج عُرفيٍّ من صديقه الدكتور حاتم، دقّ جرس الباب فقام يفتح، وانتقلت إلى مقعد قصي. دخلت حفيذة الجار، وخلفها وقف على الباب السيد محمود متولي الذي يسكن الطابق



صاحبة  
تعرشك في  
أنا تعبت

الذي يقع أسفل طابقه، مال يُقبَل كَفَّ يدها الصغير وهي تضحك، استدعتها سوزي باحتفاء، سأل الرجل إذا كان قد جاء في وقت غير مناسب، فنفى الأستاذ، فأضاف أن الشركة القابضة للمياه أوقعت غرامة على عداد العمارة المسجّل باسم مالكة العقار، تتجاوز

الخمسين ألف جنيه، وعلينا أن نقسمهم على السُّكَّان. تساءل وهو يدعوه للدخول عن شأنه بالأمر، ولديه عداد مياه خاص به وحده. هذا أمر يَخْصُ سُكَّان الوحدات السكنية المشتركة على عداد مالكة العقار. قال جاره إنه مثله لديه عداد خاص، ولكن الأمر ليس على ما يعتقد؛ ولهذا فهو سوف يأتيه في وقت لاحق حين يكون غير مشغول ليوضِّح الأمر بالتفصيل. لكنه أصرَّ على دخوله، قدَّم كُلاً منهما إلى الآخر، وقام يحضر له كوباً من الشاي، والسيد محمود يخبره بتفاصيل الموضوع.

أوضح أن السُّكَّان القاطنين بالعمارة والمشاركين على عداد السيدة مالكة العقار ارتفعت فواتير السداد بأرقام خيالية؛ وذلك لأن الشركة القابضة تحاسب المشتركين بصورة تصاعديّة، وأنا وأنت مثلاً ندفع مأتين جنيهاً في الشهر، بينما تُجاوز قيمة ما يدفعه كلٌّ منهم ألفين جنيهاً، رغم أن الاستهلاك متقارب، فظنُّوا أن عداد المياه الخاص بهم هو عداد فاسد و"مُخرَّف"، ولما طلبوا تغييره بأخر جديد مُعتقدين أن قيمة الاستهلاك ستكون أقل، ويدفعون مثل "خلق الله"، وجدوا أن الشركة القابضة أوقعت





على العقار غرامات تتجاوز خمسين ألفاً  
بِحُجَّة أن هناك ثلاث طوابق مُخالفة، لم  
يسبق وتمّ التصريح بها.

قال: تقصد الطوابق  
العلوية، هذا معناه أن  
الغرامة مُتعلِّقة بمخالفات  
تصريح البناء، وهذا يخص  
إدارة الحي، وليس الشركة  
القابضة للمياه. قال الجار  
الطيب: بالضبط، وقد ذهبنا  
وجاري السيد اللواء متقاعد  
أمين بهجت إلى الحي فأفادوا  
هناك بأنهم ليس لهم علاقة  
بهذا الأمر، وأنهم لم يوقعوا  
أيّ غرامات علينا. وأضاف  
أنه أثناء تغيير العداد قامت  
الشركة القابضة بإصلاح  
الوصلة الواقعة بين خطّ المياه

الرئيسي والعقار، فالغرامة تتضمّن إصلاح وصلة  
المياه، وتغيير العداد، والغرامة الموقَّعة على الطوابق المخالفة؛  
ولهذا أرى أن تُوزَّع الغرامة على السُّكَّان وننتهي من الأمر.

صاحبك فاتحني  
في زواج عرفي  
قلت بعداء: يا دكتور أنت  
متزوج وعندك أولاد، مراتك  
أستاذة في السعودية وجاءت  
لك شقة في العجسي  
قال وقد اتبناه الحماس وفيها  
آته، فين المشكلة؟  
يعني ده مشه ح يزعلها خالص  
هي مشه ح تعرفه،  
أحنا ح نتجوز عرفي،  
عندي شقة عاملها  
مكتبه في محطة الرمل  
ح نتقابل فيها



قدّم لهما الشاي، وأخذ مكانه  
على الجانب الأيسر من الأريكة،  
أضاف السيد متولي أن عليه أن  
يدفع خمسة آلاف جنيه عن شقّتيه. علّق  
مُسْتَكِرًا: من أين؟ هذا ظُلْمٌ بَيِّنٌ، وهذه دولة  
كل علاقة بينها وبين مواطنيها هي عقد  
”إذعان“.

**قلت: تقصد جواز سري؟ قال**

**بإبتهام: تتم عن ثقة بالغة:**

**أنا معجب بيكي**

**وأنت معجبة بي**

**أخط لحمتي على لحمتك**

**قاطعته: ومين قال لحضرتك**

**إني معجبة.**

**همسه: أنا واثق؟**

**يا دكتور أنا تعبت من الجواز**

**واكتفيت. وقف غاضبا قال**

**وفي صوته نبرة تهديد: ابقني**

**تعالني قابليني لو شفقتيها**

تتاول كلّ منهما كوبه،  
وحفيدة جارة تشاغلها عن  
الحديث، قبّل كفّها الرقيق،  
واستعادتها سوزي ثانية، وعاد  
يتبادل الحديث مع جاره  
والقرف يتملّكه. تحدّثا عن  
أشياء كثيرة، أوضح خلالها  
لجاره أن الوصلة المذكورة التي  
قامت الشركة بإصلاحها هي  
جزء من شبكة المياه العمومية،  
وأن تكلفة إصلاحها تتحمّلها

الشركة القابضة، أما فرض غرامة

على الطوابق المخالفة فهو أمرٌ مخالف للقانون والدستور، فلا عقوبة  
بأثر رجعي، والطوابق المخالفة لتصاريح البناء مضى عليها أكثر من  
ثلاثين عاماً، وسبق للحَيّ أن قام بتوقيع مخالفات وتمّت المصالحة  
على تلك المخالفات، أمّا عمر الشركة القابضة أقل من ذلك بكثير.

قال: ينبغي علينا التقدم بشكوى نطلب فيها قرار توقيع غرامات على الطوابق المخالفة وتاريخ صدوره، ومن المؤكّد أنه سيكون تالياً لتاريخ إدخال المياه وتركيب العدادات بـعقود.

بعد حوارٍ طويل اتّفقا على أن يقوم بصياغة شكوى يُقدّمها إلى فرع الشركة القابضة، وإلى جمعيات حماية حقوق المستهلك، وهما يعلمان أن تلك الشكوى لن يكون لها قيمة، أمام قوة الدولة البيروقراطية القائمة على اغتصاب حقوق مواطنيها، وأنهما يفعّلان ذلك كنوع من إرضاء الضمير ليس إلا، فلا شرطة سوف تعاونهم، ولا قضاء سينصفهم، في زمن تقاضٍ غير معروفة نهايته، وحتى لو حكم لهما القضاء بدرجاته جميعاً، وهو ما ستفنى خلاله أجيال، فمن المعلوم أن السُلطة التنفيذية لا تحترم أحكام القضاء ولن تقوم على تنفيذها.

لكن رئيس أي مجلس إدارة لشركة قابضة تدير المرافق العمومية يعلم جيّداً أن السكان سيزحفون على رُكبهم، ويُقبّلون أقدامه، ويمسحون حذاءه بدموعهم من أجل أن يتعطف عليهم، ويعيد ضخّ المياه كي يغسلوا وجوه أطفالهم وهم ذاهبون إلى مدارسهم.

عكفت سوزي على أخذ صور "سليفي" على هاتفها المحمول مع الطفلة الصغيرة، ثم تظهرها لها، فتفجر الطفلة بالسعادة، وتخطف الهاتف تنظر في صورها، ثم تُسرّع تأخذ لنفسها ولسوزي صوراً أخرى، في ذات الوقت كانت تتلقّى لكزاتٍ وضربات خفيفة من وسائد الأريكة التي تنتصب في منتصف غرفة المعيشة، عرش مُتوّج بألوان الغواية والبهجة، تدعوها كي تأتي إليها وتجلس في منتصفها، وربما بميلٍ حادٍّ جهة اليسار حيث يجلس...

هنا المكان الأفضل الذي صُمِّمَت الأريكة من أجله، هنا يجتمع القُدَّاحُ قريباً من حجر الزُّند، ليَطْرُق طَرْفَتَهُ فتشتعل الأجساد بنيران الرغبة، وتحترق بلهب الاشتهااء.

دفعتهم بعيداً عنها، وهي تهمس أنها تعرف عمَّا يتحدثون، لكنها يجب أن تنتظر حتى يرحل الجار وحفيدته. تنتهَد الوسائد وتخدم على الأريكة التي تحوَّلت إلى بركان مشتعِل بسيماء اللدَّة، ومحيط تضطرب أمواجه الثلجية برحلاته الأزلية نحو المنطقة الاستوائية حيث تستوي الحياة وتتخلَّق سوناتا العشق والرغبة.

تمدُّ الطفلة البريئة كفِّها الناعم مثل الحرير، تجذب وجنتها ناحيتها، وهي تسألها إلام تنظرين؟ تكبح نفسها عن الضحك، ترفعها من إبطيها وتنهال على صدرها تدغدغها، وهي تقول "لا زلتِ صغيرة يا بنت يا شقية". تصاعدت ضحكات الطفلة، يدعوها جدُّها إلى الرحيل، فترفض. تحاول سوزي الإبقاء عليها، لكن السيد محمود متولي أصرَّ أن يصطحب حفيدته معه حتى لا تشغلها عن عملها المهم.

قام يودع ضيفه، وجدت نفسها تطير في الفضاء محمولةً على الوسائد والحشايا لتهبط على خط الاستواء الواقع في منتصف أريكة الغواية، تطلَّع نحوها دونما اهتمام، كانت تستعدُّ للعمل، همست:

- نبدأ حضرتك ...

\* \* \* \*



الجزء الرابع  
خرائط الجسد





في كوايبس مثقف ثوري  
أوقعته أوهامه في أن الثورة  
على بعد فرقة كعب

# الفصل الخامس عشر فلسفة الحكاية



في صباح باكر لأحد أيام يوليو 2036، سارت تجد الخُطى على كورنيش الإسكندرية، تحتضن جسدها الناعم أمواج بحرها الرتيب بكسل مُنعم، لا يصيبها السأم من لطم شاطئها الصخري، يرتفع الرّذاذ عاليًا، يُبلّل خصلات شعرها، تلتثم خدودها المتوهّجة نسائم منعشة منبثقة من الوجود الشاسع، تغمره بالقبلات، ولسعة برد الصباح، يمطرها العدد القليل من المصيّفين الشباب القادمين من خارج الإسكندرية بعبارات الغزل وهي تقفز على الرصيف برشاقة غزال يسابق الريح للقاء صيّاده. توالّت طرقاتها على باب الشقّة وهي تعلم أنه لا يعلم بقدمها، ستكون مفاجأة؛ فهُما ليسا على موعد. إنها إجازة العام الدراسي، فتح الباب أشعثُ الشّعْر، وعيناه لا تزالان تَعُظّان في النوم، اندفعت كعادتها تحتضنه وتسحق نهديها في صدره، سألها عمّا جاء بها، تساءلت بنعومة إذا ما كان يتوجّب عليها القدوم لسببٍ ما، قال: فقط للعلم. قالت إنها تريد مراجعة الفصل الثالث، قال أليس من المبكر والعام الدراسي لم يبدأ بعدُ، قالت إن لديها تصوّرات وأفكارًا جديدة غير تقليدية وتريد أن تأخذ موافقته عليها. قال ينفذ عن نفسه المسؤولية إنها ليست في حاجة لموافقته، طالما كان إبداعًا يخصّها. ضحكت وقالت وهي تغمز له: ولو... مع حضرتك مفيش حاجة سهلة قوي كده.



شاهدت ابنته ديانا تسدُّ مدخل الطُّرقة الداخلية، تتابع الحوار الحميمي الذي يجري بين أبيها وتلميذته. اختفت مُتجاهلةً مبادلتها التحية، ألقت سوزي بحقائبها على فوتيه جانبيًّا، نُصت عنها قميص الشيفون الأسود، وجلست في بنطلون جينز استرتش، وبلوز أصفر كناريا بدوائر سوداء وديكولتية واسع يكتفي بتغطية طرف كتفها الأيمن ويترك الأيسر وأعلى ساعدها عاريين يلمعان بندى البحر وغبش لا يرى، تاركةً حمالة السوتيان الأسود لنهدها الأيسر تُشعل ساحة الميدان بقصف من نيران ملتهبه بالنزوات. اعتذر، يخبرها أنه سيعدُّ كوباً من الشاي قبل أن يدخل الحمام ويغسل وجهه، تانبَعته وهي تخبره أنها أحضرت الإفطار، جاءها صوته وهو يردُّد أنها استعدت ليوم طويل. قالت عبارتها المعهودة:

- شفت بقي.

أطلت ديانا تحمل صينية الشاي يحيط بها طفلاها وجلست قُبالتها لا تبادلها الحديث، بعد أكثر من نصف ساعة دخل الأستاذ فقامت ديدي تعلن عن رحيلها، وهي تقول بلكنة ساخرة إنها كانت تريد أن تعدَّ له إفطاره، لكن الإفطار جاءه "ع الطُّبطاب"، أعدت سوزي ساندويتشات للطفلين من فلامنك ورومي وسلطات طحينية ومخلل وهي تدعو ديانا للبقاء، لكن أمهما منعتهما عنوةً وهي تعتذر عن تناوُل أي شيء، تراجعاً يوشكان على البكاء... على الباب سألت أباها عن نتيجة زيارته لكتور العيون بالأمس، أخبرها أن الطبيب أخبره أنه في حاجة إلى عملية جراحية لإزالة المياه البيضاء، وقد تأكَّد من الطبيب أنها ليست عاجلة، ولكنه

حذّره أيضًا من أنه قد يضطر أثناء العملية إلى إزالة غشاء يقع أسفل الجسم الزجاجي، في هذه الحالة ستكون عملية صعبة...



بالأمس وقفه خلفي  
شعرت بشيء صلب  
أصابني رعب  
جريت على دورة  
المياه  
تقيت وأنا أبكي

قالت له: سلامتك يا بابا، أرجوك  
متهمّش فيها... ربت على ظهرها  
يطمئنّها ويطلب منها ألا تقلق، أخبرته  
أنها ستعوده الأسبوع القادم،  
وأضافت وهي تنظر نحو ضيفة  
أبيها الثقيلة على قلبها أنها تريده  
في أمرٍ خاصّ، وحبّذا أن يكون  
وحده.

قال إنه في انتظارها في أي  
وقت تشاء.

انتهيا من الإفطار وأثناء تناول القهوة  
سألها إذا ما كانت قدّمت الفصل الثاني، أجابت بالإيجاب. تساءل  
إذا كان عملها أعجب الدكتور المشرف، قالت: الحمد لله. قال عن  
رضى: الحمد لله، طيب يلاً نبدأ. أشارت للمرة الثالثة أنها تحب  
غرفة نومه، فهي ثلاجة في الصيف، وأن صالة المعيشة رائعة في  
الشتاء. تجاهلها وهو يخفي دهشته، وأضافت تقول إن لونها "حلو  
قوي"، اختيارك أو اختيار فاتن؟ قال مُندهشاً: فاتن مين؟ قالت  
فاتن زوجتك. هزّ رأسه وقال إنه لا يتذكر، لكن محتمل يكون  
اختياري... زامت تقول: "ذوقك حلو يا أستاذ". حملت الصينية إلى

الداخل وعادت لتجده جالساً في الرُّكن القصيِّ من الأريكة يسند جذعه على مسندها الأيسر، أَلقت عَجْزها في منتصفها، مَدَّ ساقه اليمنى بين رذفيها وظهر الأريكة، ولفَّها حول خصرها أثناء اهتزازها صعوداً وهبوطاً كخَطَّافٍ يَضُمُّ حوريَّةً من البحر، جذبها ناحيته، فأُتت وهي تهبط بجذعها على صدره، أحاط خصرها بساعديه، تشمَّم رائحة شعرها الزهري، تابعها تسرد ما سوف تضمُّ رسالتها عن الدكتوراه، يذهب بكفيه ناحية الربع الخالي من النهد الواقع بين سفح العنق المرمرى وشفير السوتيان الأسود، يحاول الولوج لقُبَّته، لكنها تضم أصابعها الخمس بتلقائية حول أظافرها، وترشقهم كمجموعة من جراب جيش الثورة الفرنسية، تغرزهم عند الحافة، تترك له حرية العُدو في براح الربع الخالي، وتحظر عليه الولوج لقُبَّتيهما الورديتين الواقعتين أسفل السوتيان المشغول من الدانتيل الأسود، يستسلم مكتفياً من غضبه بتمتات الدهشة وشهقات استنكار خافت لا تبالى به.

البيلة الثامنة  
والسبعون  
بعد الستمئة

جلست قبائته، أعادت عليه وعيناها

تنظران أطراف أصابعها تضرب لوحة مفاتيح اللاب توب ما سبق وقالته عن صالة المعيشة الدافئة في الشتاء، وروعة غرفة نومه في الصيف، هذه المرة لم يستطع تجاهل ما تعنيه، تستطرد في سَرْد عملها عمَّا أعطته عنواناً غير مُتداول في النقد الأدبي، سمعها تقول: والآن دعني يا مولاي أحدثك عن:

بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أن الحكاية هي مخزون ذاكرة الشعوب، تضمُّ في ثناياها خبرات الجماعات وحكمتهم عن الخير والشر، وقيم الجمال والحَقِّ، وتسطر أساطير عن ذلك المخلوق البائس والكائن الذي لا يتجاوز حجمه شذرة غاية في التَّضَاوُل في كونٍ شاسِع المدى، أبديِّ الزَّمن، وهو يتحدَّى الآلهة، ويصرخ ويرفع سيفه في مواجهة أهوائهم بصخبٍ...

أوقفها بإشارة من إصبعه. سألتها عن مفتاح الحديث، رفعت يديها تسأله: مولاي، ألا يعجبك ما أتلوه عليك من "فلسفة فن الرواية"؟ قال ساخرًا وكيف له أن يفترق بين الواقع والخيال، وكيف اصطفت تلك الليلة المجنونة؟ واخترت هذا الرقم الميمون (الثامن والسبعون بعد الستمئة)؟ قالت: هو مجموع الليالي التي أمضيتها في صحن معبدك منذ قرعتُ هاتفك في الثالثة من صباح مطلع سبتمبر 2034... قال ساخرًا: يا سلام على الأحكام... هذه دراسة بحثية، وليست فرعًا من رواية. أجابت أن ما تقوله يا مولاي هو الحق. قال مندهشًا: مولاي؟ همست وهي تميل نحوه:

- بالطبع أنت مولاي وسيدي وتاج رأسي. تراجع يشعل سيجارة واضعًا قدمًا على أخرى، استطردت:

"تروي الحكاية نماذج الشجاعة والبطولة، وتمجّد رجالاً ونساءً أصحاب حكمة وجرأة وبسالة ومروءة، جعلوا من الشرف مذهبهم، وقادوا شعوبهم للخروج من كهوف الظلام الى مراعي النور".

قاطعها: سيدتي لا فُصَّ فُوك، ولكن والأمر هكذا لنصعد إلى  
فِرَاش الحُكْم. وأشار إلى غرفة النوم. أومأت برأسها وقالت  
السَّمْع والطاعة.

وقَفَّت من فورها، يتأملها مَبْهُوتًا تجمع أغراضها وتسبقه  
إلى الداخل، وقف على باب غرفة النوم يشهد فِرَاشه الذي خلا  
لأوقات عديدة دون جسد لامرأة (عدا دماه) مضمخ بعبق أنثي  
من لحم ودم حقيقيين..

جلست في منتصف الفراش الوثير مُعتدلةً وجهاز اللاب  
توب فوق فخذيها، وعادت تسرد مقدمتها عن الفصل الثالث من  
الرسالة:

”وظنِّي أيها الملك العظيم الذي أصبح له المكان المفضَّل على  
عرش قلبي الشقي أن الحكاية التي هي مخزون ذاكرة الشعوب،  
تضمُّ في ثناياها خبرات الجماعات العمليَّة عن الصيد والزراعة  
والرعي وتدجين الحيوان والحِرْف والطب وصناعة السلاح وملاجئ  
للسكن؛ هربًا من ظروف المناخ الصعبة والوحوش الضارية، وتختزل  
في مقولاتهم الخير والشر، وتسرد على أسماعهم وهم مجتمعون  
حول النار في ظلام الغابات ووهج قمر الصحراء وسهوب الثلج  
ومضارب الخيام حول عيون الماء، ووديان الأنهار الكبرى، وسهول  
وتلال المراعي الشاسعة- حكايات الحكمة والشجاعة والبطولة،  
تُمجِّد رجالاً ونساء قادوا شعوبهم للخروج من كهوف الظلمة إلى  
النور، وترفعهم إلى مصاف الآلهة“.

\* \* \* \*

في الظهيرة تسلَّت إلى الشقة المجاورة، تجوَّلت في أرجائها، كانت فارغة، لم يُعدْ لُدماه وجود، غادرت المكان مُنتَشِيةً تشعُر بالفرح، ووقفت تتطلَّع إلى البحر، تفكر إذا ما كان قد ترك على عاتقها إدارةَ عالمِه الموحش المرصَّع بالفانتازيا... غمغمت "ماشي يا مستر تشيبس".

\* \* \* \*

ارتاح جِدْعُها فوق صدره،  
وقام بنشر جداولها الغزيرة  
عليه، تَشَمَّم مُنتَعِشاً بالنشوة  
عَبَّق شَعْرها المخصب بزهور  
وفراشات البرية وهي تتلو مقاطع من الرسالة،  
مدَّ يده يتصفَّح على جهاز "iPad" الخاص به المجلَّد (12) من  
الموسوعة البريطانية المصوَّرة للعلوم، فتح الرسوم التفصيلية  
للهيكل التشريحي لجسد المرأة، وشرع يستعيد بصبرٍ ورويةً رحلة  
اكتشاف جسدها والولوج إلى أسرارهِ... لم تكن تعرف ما ينوي  
فِعْلُه، كان قد اغْتَرَمَ أن يتقدَّم في مهادها خطوة خلف أخرى،  
قطعة بعد قطعة، وأن يمسِّد جسدها مِنْ قِمة الرأس إلى أخمص  
القدم، استطرَدت:

"وظني أيُّها المُفكِّر ذو الذهن اللامع الذي احتلَّ المكان المفضَّل  
على عرش قلبي النَّيِّر، أن الحكاية سلاح رَجُل الكهف البدائي لتوارث  
المعرفة، ووضع منظومة الصواب والخطأ ووسائل السيطرة على  
الطبيعة الأمِّ واغتصابها.

الحكاية هي كلمات سحرية غامضة لساحرات ومُشعوذات تُفَسِّر الغامض والمجهول من الطبيعة والكون السَّرْمَدِي، هي قصائد أنشدها وعزفها شعراء وموسيقيين جوالين عن حياة ملوك وأبطال وأميرات، قاتلوا بشجاعة، ووقفوا على حافة الموت بحثًا عن الحياة، وِدشَنوا بدمائهم انتصارات جماعاتهم أمام الأعداء“.

عاجز عن كبح هوس امتلك لباب مشاعره، تنفَسَ أريج شِعْرها الزَّكِّي، عاجز عن بلوغ نهايات الارتواء، وقد فَتَدَ القُدرة (من فرط طيب عطره)، على الاكتفاء... ألقى بلمحة إلى رسوم الموسوعة المصوَّرة البريطانية على “iPad” خاصته، وهمس: “الرأس: الجمجمة/ الأم الجافية/ الأم الحنون/ الدماغ/ المخ/ المهاد/ ما تحت المهاد/ الغدَّة النخامية”، تابع: “الهيكل العظمي، الجمجمة، العمود الفقري، القفص الصدري... الجمجمة تضمُّ المَخَّ وتحميه“. ضَمَّ جُمُعتَها بحرصٍ، واحتضنها بحنان وشرع يلثمها بتقدير وتعبُد؛ احترامًا لعقلها المتميز، ثقافتها، راديكاليَّتِها، نزاقتها، وهَجَّها، حالات حزنها واكتئابها... شعر بها تترك رأسها يموء بين أصابعه بخفَّة، ذلك فروة رأسها بهدوء ثم بقوة، استسلامها مفرد، عيناها تغيمان، يسمعها وقد حلَّ في تون صوتها نعومة ووهج الشبق:

”وفلسفة الحكاية يا أمير العاشقين هي مروية الرَبَّة إيزيس، الأخت والعاشقة والرَّوْجة الوفية والأمِّ المقاتلة، وطلاسمها السحرية التي أحييت بها أوزوريس كي تُنَجِّب منه حورس الذي قضى على عمِّه إله الشر (ست)، الحكاية هي الطقوس التي تصاحب ملايين الموتى أثناء مثولهم أمام المحكمة الأوزورية في عالم الموت، حيث تُوزَن

القلوب الطيبة بريشة الماعت، فيرحل أصحابها إلى حقول الأيارو، أرض الخلود، أما مَنْ ثَقَلَتْ موازينها فتَلَقَى إلى أنوبيس إله الموتى كي يلتهمها، فيعلق أصحابها في مدخل الأبدية، أو تتلقفهم الملتهممة الشيطانة (عمعموت) ليكون مصيرهم الموت الأبدي.

فلسفة الحكاية يا سيدي هي مسرح النبلء وسامر الفلاحين، هي النور الذي يهدي البشرية، والأمل الذي يضيء حاضر ومستقبل الإنسانية حين تسود الظلمة... فلسفة الحكاية هي مرتبة الموهوبين الذين يحبون البشر والبشرية، وأصحاب القرائح والضمان المتقدمة، الحكاية لا ينسجها الأغبياء والحمقى والمُنْتَطَعُونَ والمتحذلقون، والذين يتيهون غرورًا بذواتهم الضحلة، إنه الفن القاصر على الأنبياء والمصلحين العظام، والبسطاء الذين تُثَقِّلُ ضمائرهم هموم البشر.

عقاب الطيبين  
لعنة أبدية

انظر يا مولاي حكاية مُحَبِّ البشر بروميثيوس الذي سرق النار من جبل الأوليمب وأعطى قبسًا منها للبشر. فارتفع شأن الفن والحضارة والثقافة،

غضب زيوس فطلب من هيفاستوس أن يصنع سلاسل قوية يُقَيِّدها بها على صخرة في جبال القوقاز... يأتيه (آثون) النسر العملاق كل صباح ينهش كبده، الذي ينمو في المساء لينهشه النسر في الصباح، وكأن الحكاية تقول إن عقاب الطيبين لعنة أبدية.

عاقب زيوس جميع البشر. فأعطاهم صندوق باندورا الذي خرج منه الظلام والأرواح شريرة؛ الجوع، الفقر، النفاق، المرض؛ فملائت الشُّرُورُ العالم، وتحولت الأرض من نعمة الجهل إلى جحيم المعرفة، وقد أبقى روحًا وحيدة من ضوء ساطع حبيسة صندوق باندورا يُقال إنه الأمل“.



... يرسو بكفه على كشحها الأيمن ويتوه في صوتها ويروح  
في نوم عميق... نظرت ساعتها كانت قد جاوزت الحادية عشرة  
مساءً، قالت وفي صوتها لوعة إماء بغداد:

- وقد أدرك شهرزاد الصباح، فكفّت عن الكلام المباح... سمع  
صوت الدّيقة تؤذّن الفجر، والغانية تهتف... مولاي...

قفزت تجري، تطاير ثوبها المصنوع من الحرير الدمشقي،  
بدا خصرها عارياً، خلعت عمامتها فنثرت جدائل شعرها وحملتة  
الرياح والظلمة، وعادت ترتدي بلوزتها وبنطالها الجينزي، وافته  
بسبيل من القبل على وجنتيه وأسرعت تغادره عائدة إلى منزلها.

فيما يقارب الثالثة ليلاً استيقظ لليلة الثالثة على التوالي  
والفراش يهتز به، والدواليب تميل يمناً ويسرة، علا صرير  
مزاليج عملاقة تبرز في الفضاء الكوني، كان الصوت يأتي  
من عرض البحر، قفز من فراشه وهو يظن أن زلزالاً يضرب  
الإسكندرية، وأن العمارة التي يقيم بها (على شاکلة عمارات  
الإسكندرية) سوف تنهار خلال دقائق. على سور التراس نظر  
صوب مصدر الصوت، كان صادراً من سفينة شبحية عملاقة من  
الصعب أن يفهم لمن هي، ولأي جهة تتبع، وأين تختفي في النهار،  
ولا تبزغ إلا مع أشباح الليل.

\* \* \* \*



منذ أعوام مضت دعاه صديقٌ شاعرٌ إلى رحلةٍ إلى سوق الكتب القديمة بسور الأزبكية الكائن في حي الزنازين السُفليّة بمدينة الدُمي؛ ساراً في سرايب السوق الذي كان مشعلاً للثقافة في مصر القديمة، وتحوّل إلى كهوف سرية يُطارِدُ بأمر القانون كُلّ مَنْ يحاول الولوج إليه، على وعدٍ باقتناء نسخةٍ سرّيّةٍ نادرةٍ من كتاب "نهج البلاغة" للإمام علي بن أبي طالب، كان يشعر أنه مُقبِلٌ على مغامرةٍ رائعةٍ ستُمكنه من تحقُّق حلمه باقتناء كنزٍ يحوي ما اعتقد طويلاً أنه آس البلاغة العربية وجوهرها، وبدلاً من ذلك وجد نفسه في حضرةٍ مرتبّةٍ ينعي فيها صاحب الكتاب الأشهر نفسه، رجلٌ بكّاءٌ يصبُّ جام غضبه على جنوده وأتباعه، ويدعو الله أن يصيروا أتباعاً ومناصرين لعدوّه... يعلن عن غيرته من جنود عدوه، ويدعو الله أن يعينه بأمثالهم في صراعه المرير ضد خصمه، بعدها تلاشى السؤال المُرّ: كيف للحقّ أن يُهزم أمام الباطل؟ ليحلّ سؤالٌ آخر: ما الأسباب التي انتهت بهزيمة الورع التقيّ علي بن أبي طالب، الذي لا تُقارَنُ أحقيّته بالخلافة أمام أمير الطُّلقاء معاوية بن أبي سفيان، ولم يمضِ على رحيل رسول الله سنوات قليلة.

بعد عقد من الزمان عثرتُ على حلّ اللغز في كتاب "الفتنة"<sup>(i)</sup> للعالم والمفكر تلتونسي دهشام جعيط<sup>(21)</sup>، الذي استخدم المفهوم المادي إزاء ظاهرة تاريخية ترتدي ثوب القداسة، وجد أن العصبية أقوى من الصواب والخطأ وأشدّ صلابةً من أتباع الخير والجمال. وأزاح عن علي بن طالب الذي مثل الإسلام المحض قدسيته، وجعله إنساناً يخطئ ويصيب، حفظ له كونه عقائدياً صلباً، وسياسياً استراتيجياً فاشلاً، حاربه خصومٌ أشداء: السيدة عائشة، طلحة. الزبير، وأخذ عديد من الصحابة موقف الصامتين. قوَّض أهل الكوفة سلطته، وتقاعس أهل البصرة عن مناصرته وقت الحرب، وأخيراً جاءته الطعنة القاتلة من "القرّاء"؛ نواة جيشه، الذين انقلبوا عليه وحاربوه تحت راية "الخوارج"، سيفتاله أحدهم (ابن ملجم). لتحلّ حقيقة مؤلمة، وهي أن الخلافة التي ثار "القرّؤون"<sup>(22)</sup> لإصلاحها ممّا اعتبرها في خلافة عثمان من تقديم للعصبية ومحاباة الأقارب قد آلت في النهاية إلى معاوية والأمويين، وأصبحت ملكاً ينعم الخلفاء فيه بأموال الأمة دون حسيب أو رقيب، وتكتظ القصور بالعبيد والجواري التي أرسلها عقبة بن نافع من نساء الأمازيغ إلى سُدّة الخلافة في دمشق.

\* \* \* \*

---

(21) هشام جعيط: ولد في تونس (1935، يونيو 2021). جامعي ومؤرخ ومفكر إسلامي، من دعاة الاعتدال والوسطية، أعاد النظر في المسلمات التاريخية، عرف بكتاباته الداعية إلى التحديث والتنوير.

(22) (القرّؤون): الموالي الذين ينتمون لعرقيات غير عربية، أرادوا المساواة بسادة قریش.

في ليلة من ليالي مدينة الدُّمى ذهب إلى مقهى "ليب" المرسوم بألوان الباستيل الطازجة، والمفضّل لدى الروائي هيمنجواي وبيكاسو، والذي شهد التوقيع علي بيان الخمسة، المناهض لرواية "الأرض" لإميل زولا، هناك التقى بعالم المصريات هنري برستيد صاحب كتاب "فجر الضمير"، والمفكر التونسي الراحل هشام جعيط صاحب كتاب الفتنة (جدلية الدين والسياسة)، والدكتور زكي على أستاذ التاريخ اليوناني الروماني ورئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة (سابقاً)، مؤلف ومترجم ذلك الكتاب الفريد "مقننة الإيدولوجوس": الدستور الذي سنه الإمبراطور أوغسطس لمصر الرومانية، الذي جعل منها على امتداد ألفي عام أمة من العبيد، هو الكتاب الذي لوقرأه كل مصري لتأجج عقله بالوعي بالحرية، كان هناك أيضاً عدد من عظماء المؤرخين المصريين والعرب تصدرهم الشيخ والعالم الجليل عبد الرحمن الجبرتي والشيخ زين العابدين محمد بن أحمد المعروف بـ (ابن إياس الحنفي)، والإمام أبو جعفر الطُّبري، والأمير عمر طوسن وعبد الرحمن الراجعي، والدكتور طه حسين وجمال حمدان، وكثيرين غيرهم. هناك عرض عليهم مشروع ثقافي يتم من خلاله تدريس الطلبة في مراحل التعليم الأولي حزمة من الكتب الفارقة في تاريخ الفكر المصري لتشكيل وعي عام يقوم بتحقيق أمرين: الأول يعمل كلقاح مبكر ضد أنواع التعصب والتشدد الديني ومن ثم إخراج الصراعات الدينية والمذهبية من حلبة الصراع الثقافي والاجتماعي للمجتمع المصري، ومن جهة أخرى يحدد العدو التاريخي السياسي لأحلام الوطن، وعلى رأسها مطلب الحرية.







من خلال اكتشاف الدور المدمر الذي قامت به الإمبراطورية البريطانية المتعلق بتخريب كل محاولة قامت بها الجماعة المصرية من أجل الاستقلال وكبح كافة محاولاتها المستميتة للنمو الديمقراطي، والتطور إلى الدولة المدنية الحديثة. والذي ورثه عنها ذلك التحالف البغيض الذي ضم الولايات المتحدة وبريطانيا، والدولة الصهيونية والاتحاد الأوروبي...

دار بينهم حديث طويل وفي نهاية اللقاء اتفقوا على أهمية ضم أعمالهم العظيمة فضلا عن أعمال أخرى إلى مشروع تدريس تلك الكتب الفريدة؛ وغيرها من المراجع العلمية والانسانية الجليلة.

غادر المقهى المرسوم من ألوان الطباشير البهيجة، ورحل باتجاه سوق مدينة الدُمى وكان يغصُّ بزُوراه، اشترى قطع الغيار تخص بعض المناطق الحيوية من خرائط الجسد أوصته دماه بإحضارها، وقام على تغيير العملة من ماكينات سرية خاصة، عرج بعدها إلى أحد الأزقة، توقّف أمام حانة ترقد وسط أضواء شموع القرون الوسطى، ينبعث منها أزيز خافت لدارات إلكترونية عاكسة تحمي الحالة السوداء الجارية للزبائن من اكتشاف أجهزة البنك الكوني وعملائه السريين

\* \* \* \*



من قاعات الحانة الداخلية سمع سيلاً من الضحكات، من بينها صوت صديقه الروائي، ما لبث أن توقّف لتحلّ حالة من صمت مريب، عزم على الدخول. شاهده ينتحي مقعداً جانبيّاً من صالون "جماليات الرواية" المرسوم بألوان الزيت الداكنة، وعدد من الكُتّاب والمتقّفين يتناولون إحدى القضايا الفكرية المتعلقة بالواقع "المنخولوي"<sup>(ii)</sup> المُعاش، تساءل عن سبب الوجوم الذي حلّ بهم، قالوا إن السيد الروائي طرح سؤالاً معرفيّاً غامضاً، من غير المعروف إذا ما كان يمزح أو أنه يتحدّث بجديّة، فقد كان من المعلوم أن البنك الكوني أقرّ حديثاً عدداً من القوانين لترسيخ السلام العالمي، والتي صارت تُطبّق بصرامة، وخاصة بفضل التطورات التكنولوجية في عمليات تتبّع الوجوه وبصمة الأصوات والأسنان وأنفاس الضحايا ورائحة فساتيمهم. وأهم تلك القوانين تحريم أي حديث يتعلق بتاريخ الصراعات الطبقيّة والعرقية والطائفية والكفاح من أجل الاستقلال، وأحكام الإعدام التي قام بها جلاًدون مشهود لهم بالكفاءة، وعمليات التعذيب والاعتقالات السرية التي اضطلعت بها أجهزة مخابرات إقليمية ودولية تتبع (الأم الحانية) صارت من الماضي ولم يُعد لها وجود.

علم أن السؤال المطروح يتعلّق بالإفصاح عن الوسائل التي تُستخدَم في تصفية كاتِبِ مُعارض، وإزاء حالة الذهول السائدة صَحَّتْ أوقظهم بكل لغات العالم:

- بَنِي آدَم، بنات حواء، human. Mensch. Humai، أيها الناس، لا داعي للتّعاسة؛ إذ كيف يمكن تتبّعنا ونحن مُجرّد رسوم في لوحة زيتية قاتمة من الذاكرة؟

حلّ الارتياح، وانحلت حالة الذهول التي جعلتهم والجماد سواء، عادوا يتجرّعون كؤوس الويسكي والمارتيني والجمعة، وهم يتبادلون أحاديث خافتة، وقد استقرّ لديهم يقين أنهم في مأمن من أجهزة مدينة الدُمى السرية. تحدّث أحدهم قائلاً إن هذا سؤال يَسِيرٌ، يحمل إجاباتٍ سهلة، فقام السيد الروائي وعيناه تتألقان بالتحمدي بدعوة صديقه التي كانت ترتدي بلوز سَمْنِيَا قصيرا يكشف عن سُرّة كخاتم سليمان تتوسّط بطنها الناعم، وتثورة قصيرة من الكِتَان الأسود، وأجلسها على المقعد المجاور، وطلب منها الانتباه لما سيُقال، وأشعل غليونه بانتظار ردودهم التي جاءت مُتعدّدة. منهم من قال "إعدام في سجن الاستئناف بتهمة العمالة"، "اغتيال بالرصاص في ليلة مُظلمة"، "اختطاف في سيارة رباعيّة الدفع قبل أو بعد تمزيق جُثّة الضحية إربا إربا، وإلقاؤها في عراء الصحراء". آخرون قالوا هناك "الصّلب على أعواد المشانق".

بقي صامتاً ورحلت عيناه بعيداً. سأله آخر: ألا يكفيك ذلك؟ قال: هي طُرُق حديثه للموت، سأله محدّثه إذا ما كان يبحث عن أساليب

قديمة؟ لم ينتظر إجابته، وقال: لديك قطع الرأس بفأس وتعليقها على باب زويلة. أو توثيق جثة بحبال من الساعدين والقدمين وربطها بجياد تُساق في اتجاهات مُتعاكسة حتى تتمزق أوصال الضحية المسكين، وهناك إلقاء الأحياء من علو شاهق. والضحايا إلى الضواري في ملاعب الرومان. وأحياناً إلى حفرة ممتلئة بالقوارض كما يُفضل ملوك الصين، وهناك الإعدام بالحرق، وهو من أقدم العقوبات في تاريخ البشرية، والوسيلة المحببة للتخلص من الساحرات والمهرطقين. تدخلت صديقتها وقالت لديك في العصور الوسطى نزع الأظافر والأسنان بالكلاب، وخصي الخصيتين واجتثاث القضيب بخطاف ينتهي بشفرة حادة.

ساد ضحك، وهو ما دفعني كي أدلي بدلوي أنا الآخر، سحبت مقعداً وجلست في مواجهته وقلت: هناك الخوزقة بأعواد الخيزران المطلية بالدهن، يدفن في المؤخرة حتى لوح الكتف، وهناك تقييد الضحية عارياً في قاع حفرة عميقة بعد غمره في العسل وتركه إلى الحشرات والقوارض تلعه وتقرضه وتلتهمه على مهل وبترو، وهناك صلب الضحايا على الصُلبان، والتي تبنّتها المسيحية رمزاً لها، وجميعها طُرِق قديمة مُجربة، يقوم بها جلادون مُتخصّصون، مهمتهم إنجاز موت بطيء حتى تتعذب الضحية بالقدر الواجب، وهو الأمر المحبب لجميع الملوك والسلاطين للتخلص من أعدائهم ومن مؤامرات الطواشية والحريم، وخاصة أباطرة الصين وقيصرة الرومان والخلفاء العباسيين وسلاطين بني عثمان، وفي العصور الحديثة كانت المقصلة وسيلة مفضلة لدى الثورة الفرنسية.

شاهد مُقلَّتِي صديقه تدوران في حدقتيه بقلق وهو ينظر باهتمام، أضفتُ كي أزيد من دهشته بما يتوفَّر لديَّ من معلومات أن هناك أفران الغاز النازية، والموت بالسيانيد وأحواض حمض الكبريتيك المُركَّز، واستطردت مُعْتَذِرًا، هذه طريق حديثة استخدمها صدام حسين. ولديك الذبح بالمُدى على شاطئ المتوسط والحرق بالبنزين في صحراء البادية داخل قفص حديدي أمام فصيلة إعدام مُقنَّعة بالأسود. ولا تنسى القنص على الهوية الذي استخدم بوفرة في الحرب الأهلية اللبنانية.

لاحظت أنه يمرُّ بحالة مُغرقة في السوداوية، وأن صديقه أمسكت بكفِّه وأخذت تربتها بلطف. سمعه الحاضرون يقول:

- ربما يأتي القتل بنتائج عكسية. قالتقالت سيدة أرسقراطية معروفة بثقافتها الفائقة ونزاهتها الفريدة مؤكِّدة أن وسائل تعذيب المعارضين تختلف بين الشرق والغرب، والماضي والحاضر، والنُّظم الاستبدادية والديمقراطية وبين الملوك والسلاطين والجمهوريات العسكرية التي تفتنَّت في القتل المصحوب باغتصاب متكرَّر حتى تتمنَّى الضَّحِيَّة إشباع جلاَّدها واستجلاب اللَّذة منه من فرط العنف والسادية، فضلًا عن إلقاء جماعات المعارضين من مؤخرات الطائرات إلى المحيط الأطلنطي. قال: ولكن التصفية في النهاية هي إزهاق حياة إنسان بريء. أضاف يسألها وماذا عن الكُتَّاب المعارضين.

تألّقت عيانها بالشفقة، بعد أن فهمت المرامي من سؤاله،  
قالت بحُزنٍ إن هناك طُرفًا مُتوّعةً للتعامل مع ذلك النوع الناعم  
من الخصوم، مثل الحبس الانفرادي في زنزانة باردة  
وإغراقها كل صباح بمياه الغائط، أو  
النفي إلى سيبيريا أو الاعتقال في  
معتقل الأوردي أو سجن المزة الدمشقي،  
وهناك الحرمان من العمل والقتل في  
أكفان الفقر المدقع. تتهدّد وقال بحُزنٍ إنه يشعر بأن "أخا  
أكبر ما" أصدر حكمًا باتًا عليه بالاعتقال المعنوي.

**اغتيال**  
معنوي

رفعت الليدي الأرسقراطية ورفيعة الثقافة رأسها مؤكّدة أن  
أحكام الاغتيال المعنوي تلجأ إليها السُلطات بأريحية تخلصًا من  
وجع الدماغ. فهي وسائل مناسبة للتخلص من الفنّانين والكتّاب  
والمثقفين المعارضين غير المتواطئين مع الجماعات الإرهابية  
الدينية أو الفاشية، ولكنهم يُشكّلون خطرًا على الوعي العام.

خطر لي أن أسأله عن رواياته الملحمية "الإيزية"، لكن الوضع  
لم يكن مناسبًا، وفضّل أن يكون الأمر فيما بيننا، انتقلت جواره،  
قال إنه بعد عام من لقائه رئيس المؤسسة، حاول أن يستفسر  
عن الموقف من النشر، لكن الدكتور تجاهل الردّ على تليفوناتهِ  
ورسائلهِ، ويبدو أنه عمل (block) على هاتفهِ، وبقية وسائل  
الاتصال الاجتماعي، كان هذا مؤشّرًا مُظلمًا، استترد قائلًا إن  
أصدقاء قريبين من السُلطات الثقافية طمأنوه.

سألته بلهفة وأنا متوقِّع الخير (كُلَّ الخير) إذا ما كان هؤلاء الأصدقاء سيَتَدخَلون لى "أخ أكبر ما" كي يتراجع عن قراره، أجاب مُحَبِّطًا بالنفي، قلتُ: فعلام إذن؟

قال إنهم أخبروه أن هذا في حد ذاته أمر طيِّب، فلن يتمَّ القبض عليه مثلاً والإلقاء به في زنازين السجون الرطبة حتى يتعفنَّ مع أمراضه المزمنة، ولن يُمنع عنه راتبه، أو يُلغى تأمينه الصحي، ولن يتمَّ الاستيلاء على شقته وطرده الى شارع الضباب، وسيظل يستمتع بضوء الشمس والبحر وصوت الرياح، ويستمتع إلى موسيقاه الهادئة وسيمفونياته الغاضبة. والأمر الأهم الذي ينبغي عليه تقديم الشكر والحمد بكرة وأصيلاً لله -سبحانه- وإلى "أخ أكبر ما" -جَلَّ شأنه- أنهم لن يذيعوا على السوشيال ميديا واليوتيوب ومحطَّات التلفزة الفضائية تسجيلات مكالماته الجنسية الإباحية مع نساءه ودُمَاه المستوردة من الصين والولايات المتحدة، وهي طريقة مُجَرَّبَة وفَعَّالَة في سحق الذُكُور معنوياً وما دَبَّياً ونفيهم إلى منافي لا يعلم سوى الله سواؤها، وبلوغ الإناث ذرى الشهرة والتعاطف الثقافي والفني وحصولهن على أدوار سينمائية يصحبها ثورة في شباك التذاكر. وهو أسلوب ناجع يجني منه المنتجون ورجال البنوك والأمن السبراني أرباحاً هائلة، والحصول على تمويل مناسب من خلال طُرُق معلومة لدى المؤسسات الحقوقية النسوية للدفاع عن حقوق النساء المُنتهكات والمُنتهكات، وأن عدم قبول المؤسسات الحكومية نشر كُتُبِه أو تحويل رواياته إلى أفلام سينمائية أو مسلسلات درامية هو مجرد



عقاب بسيط من المحتمل أن يتخذه "أخ أكبر ما" في زمن ما، ورغم ذلك فليس ثمة شيء مؤكد، فيمكن له أن يتغاضى عن الأمر برمته، ويكون الرفض من قبل جهات أخرى. فالأمر إذن هو بين بين.

وأضفت مؤكداً في محاولة كي أطيّب من خاطره أن حكم الاغتيل المعنوي أقلّ قسوة من أحكام أكثر بشاعة لم أرغب في سردها عليه. قال غاضباً: وما هو أشدّ قسوة من الحكم بالموت حياً؟ قلت بوضوح وصرامة كي أجعله يقبل بالواقع المتاح: هناك

السَّحْل والسَّلْخ، والدَّفْن حياً، والغلي في زيت أو قطران مغلي، أو في رصاص مصهور، والظَمَر داخل وحدات الخرسانة الجاهزة، وهناك الحرق طهياً داخل ثُور برونزيٍّ ضخَم، تُوضع الضحية داخله وتوقد النار خارجه، وعجلة كاثرين التي يسرع الجَلَاد من عملية التكسير باستخدام مطرقة ضخمة. وهناك العذراء مريم الحديدية التي تحوي داخلها مسامير وسكاكين حادّة تنغرس في لحم الضحية عندما تحتضنها العروس، وينبغي عدم التفاوض عن الكنايات البلاغية والجنسية في طرق الاغتيال. وهي كثيرة لا حصر لها، لا تنس الموت بالمنشأ حيث تُعلّق الضحية رأساً على عقب، ليقوم الجَلَاد باستخدام المنشأ بدءاً من بين فخذي الضحية ما يسهل عليه شطرها نصفين. وهناك قَطْع أعضاء الضحية التناسليّة. وأنت لا زالت أعضاؤك بخير. فاحمد ربك على ما أنت عليه. وأنت صحيح معافى تضاجع من تحبُّ.

استفسر من الجلوس بما ينصحونه من أجل الدفاع عن حقوقه في الوجود. قالوا لا تحاول، فالأحكام المتعلقة بالاغتيال المعنوي لم يتم الإشارة إليها في إعلانات حقوق الإنسان، ولم يأت ذكرها في الدساتير أو القانون الوضعي أو موثيق البنك الكوني. أضافت مثقفة أنه ما عليه من كل هذه الفظائع وأنه يستطيع النشر في دور النشر الخاصة بكل أريحية... قال إنه وبعد تفكير طويل سأل الدكتور الطيب المهذب رئيس المؤسسة أن يقوم على تزكية مشروعه للنشر في دار الغروب، وخصوصاً أنها أكبر دار نشر خاصّة جنوب البحر المتوسط. ضحك الدكتور المهذب وقال وهو يهزُّ رأسه نافياً أحكام الجهالة، وهمس وهو ينظر حوله بقلق:



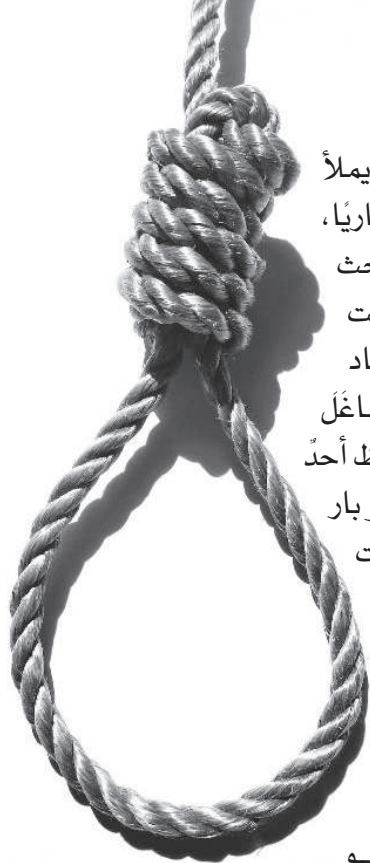
يعتقد البعض أن تلك الدار تتبع الأم الحانية الكبرى. قلت وكنت أظنّها ملك الأصدقاء المسلمين. قال إن هذا أيضًا بصورة ما حقيقيّ. ثم أخرج رواية "المسخ" لفرانز كافكا وهزّها بين يديه، وقال إن لديه يقينًا جازمًا بأن نهايته ستكون جُتّة مجهولة بين أكوام القمامة.

صار الموقف كئيبيًا يفيض بالبؤس والتعاسة، قلتُ باهتمام وأنا أحاول مواساته وإخراجه من حالة المناخوليا التي يعانها إن عليه أن يدرك أن الحكم بالاغتياال المعنوي يحمل احتمالين؛ الديمومة والتأقيت؟ سألني كيف؟ أجبته بالقول إنه قد يأتي نظام "منخلاوي" يضعه على القمّة التي يستحقّها، أو يحدث تغيّر في النظام "العصبي الاجتماعي"، أو زلزال في البنى



التحتية والفوقية،  
يصعد بالأسافل إلى  
النور ويخسف بالأعالي  
إلى السجون، ومن ثمّ  
يجد في أعماله ما يبحث  
عنه في معركة الوعي ضد  
التخلّف وبلوغ الحرية  
العصبية الاجتماعية لكل مواطن.

هزّ رأسه وهو يغغم: ولكن قد يصبح الحكم دائمًا. قلتُ: نعم، من الممكن أن يأخذ الحكم مسار الديمومة.



غامت عيناه، وقال إنه يؤذ لويملاً  
الدنيا صراخاً، أو يخلق في الفضاء عارياً،  
ثم داهمته حالة من الاحتراق، قام يبحث  
عن مكان يقىء فيه همومه، أسرع  
صديقه تسنده، وعندما استراح عاد  
إلى منضدته، وجلس مهموماً. تشاغل  
الحضور كل مع جلسه، ولم يلحظ أحد  
ذهاب صديقة السيد الروائي نحو بار  
الحانة المرسومة من ألوان الزيت  
الطازجة على لوحة من قماش خشن،  
وكيف انتحت بالبارمان حيث دار  
بينهما حديث خافت.

لم يمض وقتٌ حتى تابعت  
عيونٌ ملتصقة من شلّة المكتئبين  
والمكتئبات عودها الناعم الحلو  
في البلوز السمني القصير وتثورة الكتان  
الأسود، ساقبها الرخاميتان تتسلق سلم مزدوجاً نصبتة خلف  
مقعده، تشرب الألق الأنثوي للحم فخذها الوردى، عندما نزلت  
مالت عليه تواسيه وتحضنه من الخلف، وهي تسأله بحنان طاغ  
عمًا به، وكيف له أن يشكو العالم وهي بجانبه، تُسانده وتقف  
خلفه مثل كتيبة مدرعات لا تغطيها وحدات الدفاع الجوي، تواجه  
قصف متواصل للطيران الإسرائيلي، تماماً كما حدث في حرب  
أكتوبر؟

تطلّع نحوها بعيون تحويان الفراغ. وتحدّث أخيراً، قال إنه يتعرّض لاغتيال معنوي. تراجعت إلى الخلف وتحولت إلى جلا د من جحيم محاكم التفتيش الإسبانية، حلّ صوت ارتطام ناعم، ليملاً المشهد سقوط حبل قوي من السقف أمامه مباشرة، كان غليظاً، معقوداً على هيئة أنشودة، حلّ فنوط وترقّب، قالت: تريد اغتيالاً معنوياً، ها هو، ضع رأسك وسوف البّي رغبتك كي تستمتع باغتيالك المعنوي.

أحاط خصرها بساعديه وهو يتطلّع نحوها غاضباً، سمعه الجميع يسألها إذا ما كانت جادّة، قالت: بالطبع، مدّ رأسه داخل الأنشودة ينظر الحضور من خلالها، شدّت صديقتة الأنشودة حول رقبتة، جحظت عيناه وازرقّ وجهه وتدلىّ لسانه وهو يبتسم، انفجر الجميع في الضحك، أحكمت وثاقها وهي تتهمه بحنق أنه هو من أحكم وضع حبل المشنقة حول رقبتة، وعليه ألاّ يلقي بالتبعية على "أخ أكبر ما" أو "عم أكبر ما فتى"، أو "خال أكبر ما انفك"، الجميع بريء من دمك، وبكاثيتك ليس لها ما يبرّرها، الجميع عرض عليك الكثير من الفرص، وأضافت وهي تعود لما هي عليه أنثى مُحبّة فانتة (تجلس جواره بغضب وتتهمر في البكاء)، وإن عليه ألاّ يلوم سوى نفسه.

مسح دموعها وضمّها إلى صدره فأراحت رأسها على كتفه، أدار ذقنها ناحية منطقة مظلمة من الحانة، بقعة ضوء سقطت من أعلى، أضاءت وسط العتمة شبح رجل ستينيّ صاحب صوت جهوريّ، أشار نحوه وقال ذلك كان من أعزّ أصدقائي، بل عدّته من صفوة الصفوة، سلّبتني أحد كتّبي عن الحركة الطلابية، وأزال اسمي من الغلاف ومن مقدّمة الشكر التي كتبها أصدقاءه لي مكتفياً باسمه، أليس هذا اغتيالاً؟

بقعة ضوء أخرى كشفت عن وجهٍ وُرديٍّ أبيض لكهل، قال:  
هذا الأصلع الميديكور صاحب الشارب العريض، بعد رُبع قرن  
من العمل المشترك قايضني لصالح ثلّةٍ من نوعه، ليصعد في  
ثنايا السُلطة الثقافية ويكون أحد رجالها المتحكّمين في عالم  
المناخوليا...

ذاك الجالس في الركن البعيد يعبُّ الخمر بلا حساب ألقى  
في وجهي بقنبلة على شاشة التلفاز، يسأل هل هناك علاقة تربط  
جامعة الأم الحانية بالمخابرات الكونية؟ قلتُ: نعم، مثلها مثل  
جامعة "أفريقيا السوداء في العصر الستاليني"، واستطردتُ  
كي أنقي سريرتي من أي شُبْهة، قائلًا: وهذا شبيه بعلاقة شركة  
النصر للتصدير والاستيراد بالمخابرات المصرية في العهد  
الناصرى، هذه إجابة حاولتُ بها أن أدلي برأيٍ منطقيٍّ موضوعي  
مجرّد من الانحياز جعل السيدة الأرسقراطية مُمثّلة جامعة الأم  
الحانية في الحوار التليفزيوني تصاب بالجنون...

نعم، طلبت دكتورة مُبجّلة وناقِدٌ محترم كبير التقدّم لنيل  
جائزة جامعة الأم الكبرى، فاعتذرت بلطف لأن السيدة المشار  
إليها لم تترك لا وطنًا ولا قوميّةً إلّا وعربدت فيها دون رحمة...

تجرّع كوب المياه وأضاف أنه في المؤتمر الوحيد لأدباء  
الأقاليم الذي دُعِيَ له وضع على منصّةٍ أقيمت خلسةً في كهفٍ  
سُفليٍّ أسفل القاعة الكبرى، واستدعوا مجتمع المناخوليا  
للحضور، كانت المعضلة التي طُرِحت على الحضور بحثًا عن  
تفسير هي: هل كان من الممكن لمبارك الابن تطوير نظام مبارك



أن يعطوا ما تستحقه  
لأنك لا تستحق

الأب إلى الديمقراطية، وهو سؤال شديد البراءة، أشار الجميع إلى وجود عيوب في النظام يمكن إصلاحها، لكنه الوحيد الذي تطوَّع ل طرح سؤال آخر وهو: ألم يكن هرب الابن في مباراة المنتخب القومي أمام الجزائر في السودان تاركًا الجماهير

المصرية خلفه دليلاً على أنه مجرد طفلاً مُبتسراً في حضّانة، وأضاف أنه قال أيها الأصدقاء إن نظام مبارك كان نظاماً فاشلاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ومهزوماً عسكرياً... نعم، حاول الجميع إسكاتي، وأشار عميدهم أن هناك من يحمل أجهزة تسجيل بالقاعة العلوية... بدا أنه يستفزني، لكن هذا تحديداً ما أوضح لي كم كنتُ ساذجاً... أي مخبر غبي هذا الذي لا يزال يستخدم جهاز تسجيل، والعالم كله مُراقب من السماء بواسطة السيدة الكبرى والصغرى وكل الأخوة الكبار والسيدات الأفاضل... عادت صديقتي تتقمَّص صورة عاهرة من مواخير شارع (سان دوني)، وهو ما أكَّد للحضور أنها إحدى دُمى مدينة الليل، غرزت زكبتها في ظهره وهي تحكِّم الأنشطة حول رقبتة، همست في أذنه أن هذا كان محاولة لاختبارك، شارك فيها من كنت تظنه صديقك أيها الغبي، لكنك أردت أن تكون دون كيشوت، أشهرت سيفك في بدروم مظلم لأحد قصور وزارة الثقافة النائية ورفضت اليد الممدودة لك.

ورأسه تطل من الأنشطة تحدت مبتسما بحزن: سيدتي الحكايات تطول ولا تنتهي، ولكن على المثقف (احتراما لهذا الوطن) قول الحقيقة مهما كان الثمن الذي سوف يدفعه، وعلى الروائي ألا يخدع قراءه بالترويج للضلال، وألا يمالئ السلطة، أي سلطة، هكذا هم الروائيون العظام، وعلى السلطة الاستماع إليهم، فهم ضمير الوطن،

السيدة التي تنتمي إلى طبقة النبلاء الراديكاليين أشارت لها بالتوقف وقالت في محاولة لتأجيل قراره بالانتحار إن هناك كورسات خاصة بالاغتيالات المعنوية تُدرّس لقلّة مختارة في المعاهد العليا والجامعات المختصّة بالتخلّص من الخصوم، مثل استراتيجيات

### “إعطاء ما تستحقه لمن لا يستحقُّ”.

ضاعت عيناه مستفسرا. قالت السيدة الأرستقراطية: “يغدقون الشهرة والمناصب العليا، والمال وجوائز الدولة التقديرية وتلك الدولارية، تُفتح دور النشر وبرامج التوك شو والفضائيات لمن لا يستحق، في الوقت الذي تسحب منك ومن حولك ومن نصوصك الأضواء، وتمتنع الصحف والمحطات الفضائية عن التعامل معك، وإن فعلت فمن أجل تشويهك، ألا تحوّل أعمالك إلى دراما تليفزيونية تدخل كل البيوت لتنتهمر عليك الملايين والنساء والعربات الفارهة وقيّلات الساحل الشمالي والغربي والجنوبي، ومن ثم تمارس حياتك بكل أريحية... وهناك استراتيجيات المهد واللحد (Output- Input)، أو بمعنى آخر السيطرة على (تطور

المعرفة ومناهل الوعي والثقافة) قبل تفاقمها، يتولى المدخلات مفكرون ونقاد وكتاب وروائيون تناصرهم كتائب الميديكور، ولا بأس أن تأخذ أفكار بعضهم مسحة حمراء، يعكفون على تشوية القضايا والمفاهيم من منابعها، فتُحسَّن صور الاستعمار القديم، وتقدم بوصفها نُعمٌ على الشعوب الفقيرة، ويفقد كفاح الشعوب من أجل الاستقلال مبرراته، يشوهون حاجة الشعوب النامية لهوياتها وثقافتها الوطنية، وتتهم بالفاشية، النيل من القادة الوطنيين والتركيز على سوءاتهم، كي يُفقد الأمل، ولا يكون لدي الأمة ماضٍ تسند إليه، ومن ليس لديه ماضٍ، كيف يستبصر المستقبل؟

المخرجات تتولاها دور النشر الكبرى والجوائز وغيرها من مؤسسات ثقافية وإعلامية، حيث يكون العنوان الرئيسي المكتوب على بوابتها: ممتنع عن النشر؛ لأقضايا كبرى ولا تناول للصراعات الطبقية والتاريخية ولا مظلومية، مسموح فقط بالخوض في نفسك الوُضِيعَة والتغني بلغة البذاءة والانحطاط، فإذا حدث وتمكنت بعض النصوص التي تتسم بالجدارة، يكن مصيرها دور نشر صغيرة، حيث تطبع نسخ لا تتجاوز الخمسين، هو الظلام الأبدي على أي حال هي استراتيجيات غايتها الكبرى وضعك أنت وتاريخك في حُفرة عميقة، اسمك وكُنْيَتك، نصوصك وأفكارك، سلوكك وأخلاقك، ويُهال عليك حيًا وعليها الظلام، لتتوه في معالم النسيان الأبدي.

همس لصديقه يدعوها لسماع حكاية أخيرة من الخطايا الكبرى التي ارتكبتها كي تحكّم حبل المشنقة حول رقبتة بضمير مُرتاح. قال يمكنك إضافة عدم الخضوع والانصياع السياسة

التي أبدعها الناقد الذي أدار الحياة الثقافية لعقود، وكان منوط به أن يكون نسخة من عميد الأدب العربي طه حسين، فاختار القيام بدور النحاس، فأذلل وأهان فن الرواية، وسأسه بعيداً عن أهدافه الإنسانية العظمى إلى مكبات ومستنقعات الذات الفقيرة الضحلة، ووضع كعب النقد فوق رقاب المبدعين، وعمل على التصغير من شأنهم وكبح إمكانياتهم الأخلاقية وامكانيات هذا الفن الذي تربع على عرش الإبداع المصري طيلة عقود منذ هزيمة يونيو 67. وأخيراً دعيني أخبرك بوصيتي مع قرب قدوم النهايات:

أي ذنب جنني من جعل من الحرية وعشق الوطن ورفعته،  
ومن الإنسانية المخصبة بكلا الماركسية والصوفية دينه ودينته؟  
أي إثم ارتكبه من لم يقبل بممارسات الأم الحانية التي  
سحقت شعوب الأرض قاطبة، لا رحمة... لا شفقة...  
أي فحش وأي سوء اجترحه من لم يقبل بدولة توسعية  
استيطانية تباشير حرب إبادة في حق شعب، وقد فاقت  
جرائمها النازية والفاشية.

أي رذيلة وأي جريرة يعاقب عليها من لم يقبل يوماً بنظم  
استبدادية ديكتاتورية.

أي ورر وأي إفك يجازي عليه من قاوم ورفض سياسات  
التنوير الزائفة التي روج لها كي تسوس الشعب وتقوده من جديد  
إلى عصور العبودية المظلمة تحت ظلال الجمهوريات الوراثية.

لماذا يعاقب من لم ينخدع يوماً بأجندات النقد الغربية



وشراحها المحليين التي رُوِّجَت إلى نَبْذ الصراعات الطبقيّة والاجتماعيّة والحطّ من قدرها، واستبدالها بالأنا النفعية والذات المستوحشة وممحكات الذنوبية واتضاع الجسد ومهانات الجنس ولغات البذاءة، وحطت من قيمة قضايا الهويات الثقافيّة تحت سناك عصر العولمة المتوحشة ومقاصلها، وانحطت بفن الرواية المصري عن المكانة الرفيعة التي كان من الممكن لها أن يبلغها؟

أي جُرمُ اقترفه من فطن إلى الجرائم التي ارتكبتها السياسات الأجنبيّة كسونيّة منذ قرنين والتي عملت بجديّة ودأب على كبح تطور الوطن باتجاه حلم دولة ديمقراطيّة حديثة. ودهست بأحذيتها أحلام الحرية والارتقاء.

في مطلع القرن التاسع عشر منعوا محمد علي الكبير وابنه الفاتح إبراهيم من بناء إمبراطوريته وجعلوه يموت خرفاً داخل قلعته، وفي منتصفه أغرقوا وطنك في الديون، وفي نصفه الأخير قصفوا برلمان 1881 وسحقوا دستوره، وضعوا بيادتهم على رأس أمتك، فصلوا عنك السودان جسداً الطبيعي، وأمضوا القرن العشرين يناصرون ملكيّة استبداديّة ويقاومون التطور الديمقراطي، وزرعوا على الحدود دولة وحشية استيطانيّة توسعية، وفي نهايتها أخرجوا من قمم التاريخ شياطين الأصوليّة والإرهاب، وفي مطلع القرن الواحد والعشرين ألبسوا ثورة الحرية التي تاق لها وطنك بشوق ورغبة عارمة رهاب الأصوليّة الدينيّة فماذا أنت فاعل؟

لو أعلنت عن كراهيتك للرجل الأبيض (وكيف لا يكره المرء قاتله وقاتل أطفاله ومن يعمل بدأب على إماتة مستقبلها؟)،

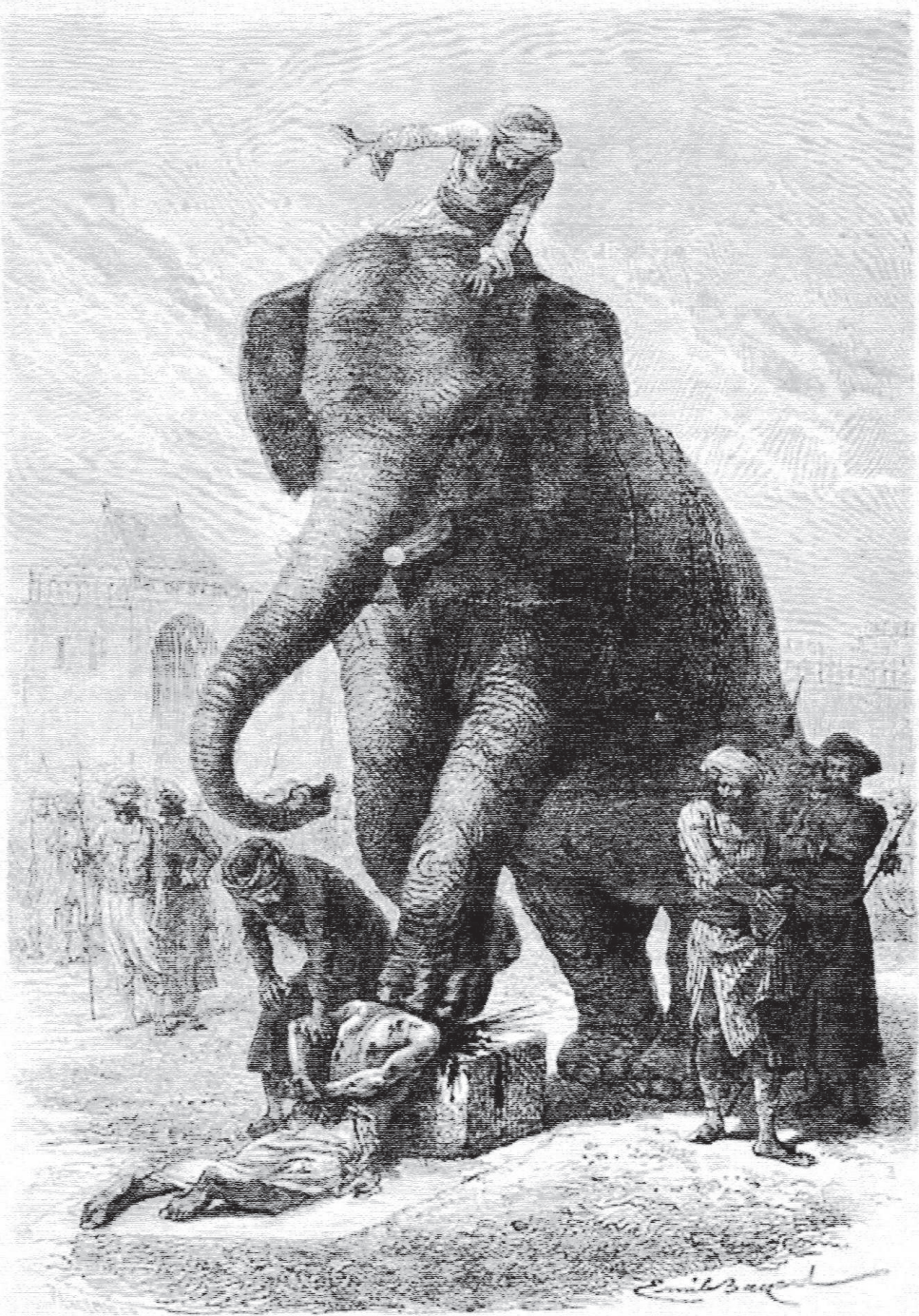
لأتهمت بالعنصرية مجتمعة مع العدا، إلى السامية. وهذا كفيـل  
بتوقيع كافة عقوبات الإعدام الجسدي والمعنوي. فماذا أنت  
فاعل؟

فماذا أنت فاعل وأبناء، جلدتك يتحلقون حولـه وحول  
مؤسساتهم مثلما يتحلق الذباب حول آنية ممتلئة بالعسل السام،  
يجرعون من جرار ممتلئة بالخراء.

حسنًا سيدتي إذا كان قول الحقيقة ومواجهة الباطل والضلال  
أنشطة اغتيال معنوي فما باليد حيلة...  
... وضلال لك يا ضلال...

هل تريدين المشاركة في طاقم الكتيبة؟ إنهم يقفون هناك في  
ساحة الإعدام...  
تفضلي، يُمكنك اللحاق بهم...

\* \* \* \*



Un éléphant enlevé par un éléphant, à Barotsi. — Dessin de Émile Bayard, d'après un croquis de M. L. Hildebrandt.

## الليلة التسعون بعد الستمائة

بلغني يا راوي الأساطير الذي  
امتلك عرش قلبي الرَّغِيدَانِ الحكاية  
-لمن لا يعلم- تَضُمُّ بين حناياها  
ميثولوجيا الإغريق التي هي عُقْدٌ من  
أدب رفيع، غني بالقصص والأساطير،

واسطة العقد هي الإلياذة، التي حَلَّدَهَا الشاعر الإغريقي العظيم  
هوميروس، التي تحكي حكاية طروادة الحزينة التي دُمِّرَتْ عن بكرة  
أبيها، بعد حصار دام لعشرة سنوات، مُحِيَّتْ على أثره من الوجود  
بسبب عبث الآلهة (التي تهيم بالتلاعب بمصائر بشرٍ نُعْساء)، لقد  
تحدد مصير المدينة العظيمة يوم دفعت الرِّبَّةُ "أفروديت" باريس  
العاشق المفنون للوقوع في حُبِّ هيلين الفائقة الحسن، ملكة  
أسبرطة، المنذورة للعشق الملعون.

الأبطال الذين ماتوا دون أن يكون لهم شأن بالأمر: أخيل البطل  
الأسطوري نصف الإله، الذي أثر أن تُخَلِّدَهُ الأسطورة في المعارك عن  
الموت على فراش الشيخوخة... صنوه المغدور به أمير طروادة النبيل  
هيكتور مُرَوِّض الخيول...

سيدي وملكي ومولاي، دعني أَتَهَجَّدُ في حضرتك كي أحظى  
بشرف الحديث عن رغبة أنا كارنينا بطلة تولستوي في الخلاص  
بعد فقدان الحب، وانتحار نفيسة وأخيها حسنين في رواية "بداية

ونهاية“ لنجيب محفوظ، انتحارهم يا مولاي أسئلة مُوجَّهة للقدر الذي يلصق القُبْح ببعضنا فيُسبِّب له الشقاء، ويهب الجمال لأخرين فيفقدون السيطرة على نوازعهم الإنسانية ويدوسون بأقدامهم الشَّرْفَ والوفاء...

الحكاية هي مرويات الجَدَّات حول مواقد النيران، المأخوذة عن ألف ليلة وليلة؛ عن جارية الجني العملاق التي جمعت عقد يضم سبعمائة خاتم هم عدد عشاقها، تجبرهم على مضاجعتها رغم أنف من أسرها، عن الشاطر حسن ومصباح علاء الدين وامرأة أبيه التي تلقى به إلى غمِّه الساحر الشرير، وهي غناء شُعراء الرابطة أمام جموع الفلاحين عن بطولة أبو زيد الهلالي، وعشق ياسين لبهية، واجتماع أولياء الله الصالحين في الديوان الكبير بإمرة السيدة زينب، يتداولون عرائض الفلاحين يشكون ظلَمَ الإنسان لأخيه الإنسان.

الحكاية (يا مولاي العارف بالله والغارق في صوفيَّته المادِّيَّة)، هي نهر البلاغة الذي خطَّ فيه الإمام علي بن أبي طالب أحزانه وآلامه ومرارة دهشته وهو يرى الدينَ الحَقَّ مهزومًا أمام دين العصببيَّات الباطل، الحكاية تومئ لنا إلى متاهة ودهاليز اللغة المزوَّرة التي يُخفي العقل العربي في ثناياها حقيقة عوراته بمهارة يصعب تفسيرها.

وفي نهاية المطاف وأس البرهان وخلاصة المعيار وزُبدة القياس على الشرف الذي بلغته الحكاية في تشكيل وعي الإنسان القديم هو ما حوته الكتب المقدَّسة وأساطير الأوَّلين من حكايات وقصص الأقدمين كالتوراة والأناجيل والقرآن الكريم، وما جاء في متون الأهرام وكتاب الموتى وترنيمة أتون العظمى ومتون هرمس، والكتب المقدَّسة للديانات الشرقية وسكَّان العالم الجديد...



تحوّلت كُفُّه إلى قطعة من اللافا الثلجية، بركان ينفجر في  
جبل الثلج، وإذ هي تُتَحَّى اللاب توب جانبًا، وتندفع تسف نفسها  
في أحضانها، وتغمره بقبلااتها.

تلَقَّفها بين ذراعيه بموَدَّةٍ واحتراس، ولمَّا تَبَيَّن أنها لا تزال  
تتفادى فمه، تساءل: وما الجديد؟ قالت: عليك أن تدرك السبيل.  
قال: وكيف لي أن أدرك الغامض والمجهول من متاهة جسدك،  
ولي زمنٌّ أطرق باب المستحيل؟

قالت بغنج:

– وأنا مالي، أصلًا ومنين أعرف أنا.

هذه الجملة سمعها من قبل؛ تذكّر أهازيح مولانا جلال الدين  
الرومي..

“ ما أدرا نبي أنا ”

كان يعلم أن لها مثيلًا في العامية المصرية... (وانا مالي، وانا  
مالي) ... سمعها تستطرد:

لكن الرواية يا مولاي وتاج راسي هي تاج الحكاية وصولجانها.

سألها: وكيف علمتِ بالأمر؟ ضمَّت جسدها وأخرجت رأسها  
من كنفه وهمست أن هذا ما سوف أتלוه عليك في الليلة المقبلة،  
قال: ولمَ ليس الآن؟ قالت: هكذا أغزل من نسيج الحكاية حبل  
النجاة من سيف السَّيِّف مسرور، والمهم أن أسرد على مولاي  
وتاج رأسي نصًّا لا ينتهي بقدوم الصباح، فأنجو الليلة، ويكون لي  
في الغد للحديث والعمر بقية.

- آه يا شهرزاد... تساءل وقد أَلقت به في متاهة الشَّرِك الذي  
يغزله لها... فيمَ أمضيت الوقت الذي انقطعت فيه عني؟ في حلِّ  
لُغز العلاقة بين العارف بالله شمس الدين التبريزي، والعاشق  
لله مولانا جلال الدين الرومي؟ أم في الربط بين الحكاية وفن  
الرواية استكمالاً لرسالة الدكتوراه؟ ...

**آه يا شهرزاد الحكاية...**

\* \* \* \*







الفصل السادس عشر

# رواية الميدان

## الفصل الثالث من الرسالة

### — 1 —

الرواية تاج الحكاية  
وصولجانها  
هي ملحمة  
العصر الحديث

في الليلة السادسة والتسعين بعد  
الستمائة، بلغني أيها الملك السعيد،  
ذو الرأي الرشيد، "أن الرواية تاج  
الحكاية وصولجانها، وهي مَلْحَمَة العصر  
الحديث".

الرواية هي التطوُّر الراهن للحكاية، الرواية هي مَنْ جعلت صراع الفرد  
البرجوازي الوجودي مع العالم وسعيه للبحث عن "ذاته" المتشظية، بطلها  
يقاقل طواحين الهواء. الرواية هي الفن الذي تَبَنَّى مبدأ الإنسانية في مواجهة  
الضعف الكائن في الأيديولوجيات، من هذا المنظور يمكن أن نتناول الفصل  
الثالث من الرسالة المعنون:

### "رواية الميران"

رواية الميدان هي النصوص التي كُتِبَتْ عن الثمانية عشر يوماً  
الخالدة في تاريخ الشعب المصري وانتهت برحيل الطاغية الطيب.

وخلال الأعوام القليلة التي تلتها، ضُمَّت تلك المرحلة عددًا وافرًا من روائيين وصحفيين وإعلاميين ومُثَقِّفين، غالبيتهم محسوبين على الفن الروائي، يبحثون عن مكان في المشهد، وأولئك الذين وجدوا في فنَّ السرد طريقةً ميسرةً للتعبير عن الأزمنة وانصبَّت دوافعهم على ربط أسمائهم بالحدث الأهم في تاريخ مصر المعاصر، أكثر من محاولة فهمه وإنتاج إبداع يُعبّر عن روح الشعب الثورية، وأصالة وعيه العام، فأنجبت نصوصًا سردية متماهية مع وصف الوقائع والأحداث، وميل للطابع التسجيلي، تلك النصوص كُتِبَتْ على عَجَلٍ من أجل الظفر بحصاد معنوي ومادي، وقد صيغت (عدا النادر) بلُغَةٍ وبنيةً فنية تفتقر إلى الإبداع، وإلى الأبعاد الفنية والأيكولوجية للثورة.

سألها عن لقاءها مع الدكتور المشرف. قالت: مش بطال. شعر بقلقها. سأل إذا كان هناك ما يضايقها؟ نفت. استطردت: وأخيرًا هناك من لا يمتُّ إلى فن الرواية بصِلَة، بعضهم يسجل بطولات ينسبها لنفسه، وبعضهم يُحرّف الثورة ويسرقها، والبعض يغسل ضميره وتاريخه وما ارتكبه من خطايا وموبقات. ولم لا وفن الرواية هو الفن الراهن الذي يسبغ على المنتفعين مال وشهرة، وعلى عظمائه سيماء النبوة والمصلحين العظام وبُرْدَة الحكماء، فلا بأس إذن.

\* \* \* \*

في النسخة التوراتية وصداها فيما جاء بكتب الأوتلين من حكاية قابيل وهاييل<sup>(iii)</sup> لا تهتم الحكاية بأن تقدم أسباب تفضيل الرب يَهُوه لقربان الراعي هاييل على قربان الزارع قابيل، كلاهما قدّم للرب قرباناً ممّا ينتجه، والإنسان كائنٌ يعيش على لحم الحيوان والحبوب والفاكهة والخضّر، فما هي خطيئة الزارع سوى أن أهواء الراوي تُعبّر عن ثقافة الرُعاة التي تتميز بالعنصرية والاستعلاء تجاه الفلاحين، فلا الرب يمكن أن يكون ظالماً، ولا الزارع قصّر في واجباته نحو يَهُوه، كانت كل جريرة قابيل أنه أحب أخته وتوأمه "إقليما" وهي التي أحبّته وهربت معه لأراضي الله الواسعة، فأهال الرُواة عليهما التّهّم والمظالم، جعلوا من قابيل أخا الشيطان، وأطلقوا على "إقليما" الجميلة لقب الجَسَّاسَة<sup>(23)</sup> أخت الشيطان؛ فزاد الظلم ظلماً، هم يكرهون الحب، ونسوا أن الرب عادل لا يفرّق بين الأعراق، أو بين أنثى وذَكَرٍ، ولا راعي أو مزارع أو صانع، وكى يكون الرّبُّ جَمالاً مطلقاً يجب أن يكون عدلاً مطلقاً.

بعد قرون، ومع ظهور العصر الرأسمالي، قدّم فنُّ الرواية الحياة الواقعية والمُتخيّلة، فكتب إميل زولا روايته "الأرض"<sup>(iv)</sup>، قال إن هذه إحدى الروايات التي قرأها مبكراً، والتي تصوّر العلاقات بين أسرة في الريف الفرنسي، وقد أثارت دهشته. قالت إن فرانسواز لم تُعدّ قادرة على العيش تحت سقف واحد مع صهرها بوتو الشرس، الذي يتحرّش بها بصورة فاضحة، تلجأ للزواج من چان كي تحتمي به من مطاردة صهرها. تُصاب ليز بالغيرة، وتطلب من شقيقتها أن تغادر المنزل هي وزوجها، بيد أن فرانسواز تطلب حصّتها من ثمن المنزل؛ كي تتمكن أن تجد مأوى.

(23) الجَسَّاس: الأسد؛ لأنه يؤثّر في الفريسة ببرائته. معجم المعاني الجامع.

الرجبة القاتلة لدى بوتو وزوجته ليز في الاستيلاء على ملكية الأرض والبيت تعمي بصريتهما، حين يختليان بفرانسواز في الحقل، تقبض ليز على أختها الصُغرى وتلقي بها إلى الأرض، تمسكها وتقيدها لزوجها بوتو كي تُمكنه من اغتصابها، يجتمعان على قتلها وقتل الجنين في بطنها. إنه سلسال



أموت خوفا  
صار يؤخر مواعيد  
المناقشة  
لما بعد ريكال الجميع  
يدعوني  
للجلوس حوار  
يسعي لي  
يلامس جسدي

الأرض والدم. بعد التخلص من فرانسواز، يتسللان إلى غرفة الأب العجوز فوان، ويذهقان روحه بإشعال حريق بالمنزل وهو به، ويستوليان على كل من المنزل المحترق والأرض. سألها عمًا يجمع بين أسطورة قابيل وهابيل التوراتية ورواية الأرض لإميل زولا التي تنتمي إلى المدرسة الطبيعية؟ قالت: نعم يا مولاي، هما حكايتان عن قتل الأشقاء بعضهم بعض، عن أرض ترتوي بدماء الأخوة... غمغم وهو يضم ظهرها لصدره ويلثم عظمة ترقوتها باحترام: قُتل ملايين البشر وارتوت الأرض بدمائهم. قالت: انتظري يا

مالكًا قلبي... هما حكايتان تفيضان حقدًا وحسدًا وغيره، فقابيل غضب من آدم لأنه فضّل عليه أخاه الأصغر هابيل، فكان في هذا دافع لقتله، وليز قتلت أختها فرانسواز لأنها نعمت بالحب والأمومة مع چان ماكار، وفي الروايتين يتقاتل أبطالهما حول الأنثى، قالت لو نزع المقدس عن الحكاية التوراتية نكون أمام حكاية عشق فريدة

بين أخ وأخته وتوأم روحه بين أبناء آدم وحواء... هما روايتان يجمع بينهما زنا المحارم، فقايل عصى الربّ لأنه وأخته انغمسا في العشق المحرّم... قال لها إن في الأزمان الغابرة لم يكن زواج الأخوة محرّمًا. عقّبت تصديقًا على كلامه أن الفراعنة القدماء كانوا يبيتون بأخواتهم وبناتهم حفاظًا على نقاء الدم... وأضافت أن



**لماذا يجتمع الناس  
على واد الحب؟**

الحكاية التوراتية قد تكون غطاءً يُعبّر عن تلك الصيرورة التي استمرت آلاف السنين من هجوم البرابرة والرعاة على الفلاحين واغتصاب أراضيهم بعد أن مهّدوها وزرعوها وحولوها الي جنة من جنات عدن... في الأسطورة التوراتية كان آدم يملك الأرض، لدى زولا كان فوان الأب لديه الأرض والمأوى، وهو ما تريد ليز

وزوجها بوتو الاستيلاء عليهما... ولكن يا مولاي

لماذا جاء ذكر زولا على موضوع الاغتصاب؟ سألها إذا ما كان السؤال موجّهًا له، قالت: بالطبع، أحاول أن أعرف إذا كنت تسمعي أم أن بالك مشغول بشيء آخر؟ ابتسم وقال مُندفعًا بحماسة من يظنون أنّهم من العارفين: إن هذا حدث بالطبع بسبب كراهية ليز لأختها الصغرى وغيرها منها. سألته: وماذا أيضًا؟ قال: ولرغبة بوتو الشديدة في أخت زوجته. قالت: وماذا أيضًا؟ قال: ألا يكفي اجتماع الكراهية والجنس والرغبة في القتل. قالت: بين النساء هناك أمور أخرى لا يعلم عنها الرجال... وما هي يا فيلسوفة؟ قالت: يا حكيم، إن

ليز لم تدفعه لاغتصاب أختها، بل شاركته الأمر... قال مُندهِشاً: حتى الاغتصاب؟

ليس لأمرئ  
أن يعترض  
على مصير اختاره  
عنه وحي وقصد...

- حتى الاغتصاب؟ ربما كانت تملك قضيباً تخيئياً... ربما كانت تحلم باغتصاب أختها، فلمّا فعلت مع زوجها قتلتها لتستحوذ على كل شيء. شعر

بانزعاج ممّا قالته، دفع بجسدها جانبا وقام مُتوجّهاً لعمل فنجان قهوة، كان ناقماً يفكّر فيما تعنيه بالضبط... جاءها صوتُه من الداخل يقول إن لديها خيالاً جامحاً، وأنه من الأفضل لو اهتَمّت بكتابة الرواية بدلاً من الاشتغال في علوم النقد. قالت:

- نعم، معك حقّ؛ فالأدب إبداعٌ وخيال، والنقد صنعةٌ وإصدار أحكامٍ تحتل الصواب والخطأ...

... هوووووهوووه... هتف بها أن تتريّث، وقال إن لديها إمكانية لدراسة علوم السيكلوجي والأنثروبولوجيا؛ لامتلاكها بصيرة تجعلها قادرة على الغوص في نفوس البشر والجماعات وتاريخ الثقافات والحضارات...

عاد حاملاً قهوته، شعر باضطرابٍ مكتومٍ يعتمل داخلها، كانت تجلس مكوّمةً بعيداً عنه، سألتها دون أن يدرك ما سوف يتعرّب به، إذا ما كان هناك شيء تودّ أن تضيفه؟ رأى الدموع تتثال من عيونها، احتضنها في صدره، سألته إذا ما كان يظنّ أن الحكايات القديمة يمكن لها أن تتكرّر؟ قال إن هذا يحدث دائماً.

استدارت بجذعها نحوه وهمست، وقد تلبّس وجهها جديةً وغضب، وقالت إن أحد أعمامها تحرّش بأمرها وهي بعد طفلة في العاشرة من عمرها، خلى يديه عنها وتراجع مندهشاً، قالت إنها حضرت الواقعة، سألتها وأين كان أبوها؟ قالت في رحلة عمل في أوروبا... جاء عمي لزيارتنا، وطلبت أمي منه أن يقوم بعمل أشياء في المنزل، في نهاية اليوم طلبت منه أن يظلّ للمبيت، في تلك الليلة أخذتني أمي في حضنها، في الثالثة صباحاً شعرت بالألم الشديد، كانت أمي تشدُّ بقبضتها على يدي، استيقظت وأنا أبكي، رأيت شبحاً هائلاً يقف على مؤخرة الفراش، يحاول نزع الغطاء عن أمي، جذبتني أمي خلفها وাসرعت نحو الشرفة حيث وقفت تهدده ألا يقترب منها، وإلا ألقى بنفسها من الشرفة، تقدّم الحيوان نحونا والبرد قارص، أذكر أنني قاومته ودافعت عن أمي المسكينة وطلبت منه الرحيل...

وجه أبي المنكسر كان مهيباً... مُنكسراً أمام شرفه المهان... مُحطماً أمام أمي، أمام خسة أخيه الفاشل... في ذاك الصباح سألت أمي وأنا أرى وجه أبي المُحطّم: هل أخبرت أبي بما حدث؟ قالت: نعم كي يعرف حقيقة أخوته.

ضمّ رأسها على كتفه، قالت إنها سألت أمها عن السبب الذي دعاها كي تخبر أباهما بحادثة كان يمكن أن يدفنها الزمن، قالت إنها فعلت ما كنت أريده، سألتها وما الذي كنت أريده يا أمي؟ قالت ألسنت من هدّدت الكلب بأنك ستخبرين أباك إذ لم يغادر المنزل من فوره؟ نعم، قلتُ، وقد فعل وغادر المنزل، واتفقنا أن نبقي الأمر سراً، قالت إن أباك يحب أخوته، وكان يجب أن أجعله يفيق من أوهامه... ولكنك كسرتَه يا أمّاه... لم أكن أقصد... وهل أخبرته بأنك من أصررت على



أن يمضي أخوه ليلته بالمنزل... ألم تُقدّمي له عشاءً فاخرًا كي يقبل بالمبيت؟ خلعت شبشبها وقامت تطاردني في الشقة وهي تصرخ: قصدك إيه يا بنت الكلب؟... قصدي أنك أغويته كي يتحرّش بك... احرسي، أنا أشرف منك ومن أبوك وعيلته... ابتسمت... عارفة يا أمي، عملتي كمين ونجحت فيه، والضحية كان أبي... ساد صمتٌ طويل، شعر بلسعةٍ دموعها على عنقه، بعد وقت طويل غمّمت... أخبرني يا مولاي... فسّر لي يا أبته... لماذا يجتمع الناس على وأد الحبّ والفتك به... كرهت أمي حبّ أبي لأسرته، دمّرت حلمه عن أسرة يجمعها الحب والمسؤولية، نجحت في الأمر، لكن في الحقيقة ساعدها الجميع شرقًا وغربًا، ولقّنوا أبي درسًا طالما عدّ به...

أجلسها أمامه مُنتصبةً وحمل وجهها بين كفيّه وقال بجديّة: دعيني أقلّ لك أمرًا هامًا؛ الحياة علّمتنا أن البشر نوعان: إمّا شياطين أو ملائكة، وبينهما ما بين بين... صيادون أو طرائد، آثمون أو أطهار، والذي لا يرغب ألا يكون من عشائر الجنّة، عليه أن يفهم ويستوعب أنه اختار أن يكون من قبائل الضحايا، قربانًا على مذبح مبادئه. فليس لامرئ أن يعترض على مصير اختاره عن وعي وقصد... قالت بعداب: يعني حضرتك تقصد إن مفيش مودّة ورحمة وتراحم بين الأخوة، إשמعني انت وعائلة حضرتك؟

في طريق الغواية الطويل، مدّ أنامله يمسح دموعها برقةً، مُنتهزًا تلك اللحظة المخترنة بمشاعر وأحاسيس مُرجفة، وقبّل جبينها، استسلمت لحضنه بنعومة أنثى في حالة ضعف، استطرد وهو سعيد بظهور بشائر توحى بنجاح خطّطه، وقال بأسى وصوتٍ شجيّ يزيد البلاء بلاءً، إن المغزى من الحكاية التي سوف أرويها

لك ليس توضيح الفارق بين نُبلِ عائلتي وخبثِ عائلتك. قاطعته بغضب: لا بقی... تقصد إيه حضرتك؟

قال إنه يريد أن يوضّح كيف يتمكّن كاتبٌ عبقرى مثل إميل زولا من كتابة مشهد يعلّق في ذاكرة قارئٍ مُراهقٍ طيلة حياته، كيف يتمكّن الروائي القدير أن يُعبّر عن تحوّل مشاعر وأحاسيس أصيلة مثل الأبوة والأمومة والأخوة إلى كراهية وحقد وغيره واستحلال، كيف يتحوّل مرفأ الأمان إلى طاقة بغیضة تدفع أشقاء وأصحاباً إلى اغتصاب وقتلٍ بالمناجل؛ إزهاق روح بريئة لم تر النور بعد... قال إن الشرور ليست جكراً على أسرة تعيش في القرن التاسع عشر، بل هو تاريخ من الإثم، وعلى شخص ما لعب دور الضحية، وعلى آخرين لعب دور الذئاب... وأضاف أن الكراهية بين الأخوة موجودة ومنتشرة على سطح الكرة الأرضية...

قاطعته موضحاً أن جريمة والدها أنه أراد أن يحب الجميع فخانه الجميع، خدعوه... مات في عذاب، كان يقول لي إن جريمة الأولى والأخيرة أنه أحبهم، وأراد أن تكون له عائلة مُحبّة مترابطة... "منهم لله، عملت كل اللي عملته مقابل كلمة شكر واعتراف بالجميل"، لكن إجابتهم كانت الإنكار. والنتيجة أنه كره العالم، كره الأهل والأقارب واعتزل الحياة إلى أن مات بالحسرة...

قال يخفّف عنها: أبوك فعلاً رواية! ممكن تدخّليه في الرسالة. قالت بغضب: إزاي يعني حضرتك؟  
- نص سردي من الحياة الواقعية. لو قدرتي تكوني عبقرية.

- يا سلام! استطردت بسخرية: طب ما ناخذ أسرة حضرتك، على الأقل تُضفي على مفهوم الواقعية الأوروبية طابع وردي في الرسالة المهيِّبة بنيلة دي. قال بحماسة: طبعا... مُمكن جداً، حاكي لك حكاية لا يمكن أن أنساها.

- بخصوص إيه حضرتك؟ قال بتجهّم: عائلتي. كَشَرْت وجهها غضباً وقالت: إنت عاوز تذلّني بقى... ابتسم، ثم انخرط في الضحك، وعندما استعاد أنفاسه، قال بزهو وافتخار إن ما يدعو لإثارة حسدها لا يساوي شيئاً أمام معدن أسرته الحقيقي، وأنه سيحكي لها موقفاً مُتعلّقاً بزواجه من الفتاة التي عشقها، لا يمكن أن ينساها. قالت برقةٍ وضعفٍ أمام مصطلح العشق الذي تفوّه به: مين هي، مُمكن أعرف؟ قال إنها المرحومة زوجتي، أم الأولاد.

تساءلت بإعجاب إذا كان قد تزوّج من الفتاة التي أحبّها؟ أجاب بالإيجاب... همست: لا بقى... اسمح لي يا دكتور إنني أقول إنك إنسان محظوظ. تنفّس سيجارته، خطفها بغتة من بين شفّتيه، فجذب أخرى وأشعلها وهو يتّمّيم... إنت محتاجاها أكثر مني، في النهاية إحنا بنتعرّف على العالم، واستطرد أنه لا يمكن أن ينسى موقفاً أصيلاً ونزيهاً ينمُّ عن الشرف ورجاحة العقل وسلامة النية والطويّة، والذي لولاه لتحوّلت حياته لعالم من الكآبة والتعاسة والوحدة.

- موقف إيه حضرتك، لو سمحت ممكن تحكي لي؟ والأدي مسألة شخصية؟

\* \* \* \*

قال مُتفاخراً إنه كان يقضي عملاً بدولة نفطية، وكانت قد حَدَّثت مشاكل كثيرة بينه وبين عائلة فتاته، مرَّةً مع والدها، وأخرى مع والدتها، ثالثة مع عمَّها وأبناء عمَّها، وأخيراً مع خالها، وبصورة غير متوقعة أرسل أخوها يسأله أن يتقدَّم لخطبتها، فقام بإرسال خطاب إلى والدها يشبه ما جاء في رواية سرفانتس على لسان دون كيشوت، من نوع: سيدي الدوق... وحضرة اللورد دي سانشو بانثا كونت دي باراتاريا... وأنه لِيُشَرِّفني أن تكون ابنتكم الأنسة النبيلة أميرة القلوب ” الكونتيسة فتونينا دي دولثينيا أوف التوبوسو“... وإنه من الشرف الرفيع لي التقدُّم لطلب يدها... إلخ... وطبعاً لم يستطع التاجر الصغير أن يقاوم ذلك الأسلوب الفخم، وربما قال لنفسه أن مستقبلاً هاماً ينتظر صاحب تلك العبارات الفاخرة، والحمد لله أنه لم يُدرك الجانب الأسوأ؛ أن أصحاب هذا الأسلوب يمكن أن يكونوا أيضاً أسوأ من باعة جائلين يحملون في حقائبهم كتباً يروِّجون بها للشرائع الدينية أو فلسفة التنوير الزائف؛ ولهذا فُزت بالموافقة، وقُمت بالنزول إلى سوق الذهب، لشراء شبكة تليق بأميرة القلوب، من ذهبٍ صافٍ مشغول بالياقوت والزمرد، تحفة فنية مُشبعة بعطر العشق...

وأضاف أنه قام على إرساله في علبة من المخمل الفاخر مع أخته الكبرى، والتي ذهبت مباشرة من المطار لمنزل أسرة محبوبته، وقدّمت لهم الشبكة، وفجأة تلخبطت الدنيا؛ إذ جاء الرفض هذه المرة من الكونتيسة نفسها التي كانت تحلم بالطيران فوق الربع الخالي. وكان عمُّها الأكبر قرّر أن تكون من نصيب ابنه، وانفضّت الخطبة قبل أن تبدأ.

قبل عودة أخته بيومين جمعت الأسرة، وعرضت عليهم نيّتها في بيع ذهب الشبكة، وإعطائهم ثمنها لإنفاقه في احتياجاتهم الشخصية، سألتها الأم التي كانت بطلة رواية مكسيم چوركي هل هذا رأي أخيك أم رأيك أنت؟ ارتبكت الأخت، أعادت الأم سؤالها بغضب، ردّت الأخت قائلة إنه رأيي أنا، وأضافت أنها واثقة أن أباها الغائب لن يعترض. قال إن أخته كانت تحكي كيف أن أخواتها "بهدلوهما"، وتساءلوا إذا ما كانت تؤدّ أن نأكل لحم أخينا حياً؟ قالت متعجّبة ألا ينفق عليكم منذ تخرّج من الجامعة وحتى الآن، ما الفارق؟ وأضاف أن أحد الأخوة الذي عمل فيما بعد في السلك الدبلوماسي في سلطنة عُمان، خطف الحقيبة التي تحتوي ذهب الشبكة وهو يردّد: أخونا حيتجوّز خطيبته يعني حيتجوّز خطيبته، والشبكة لن يمد أحد يده عليها ولو سنموت من الجوع. وقال لأخوته يا إمّا نكون رجّالة نحافظ على عرض بعضنا يا إمّا نكون سفلة معندناش كرامة. وأضاف أن الأم التي خرجت من بين صفحات رواية مكسيم چوركي سألتها: إزاي يا بنتي تكسري قلب أخوك، هم أخواتك دول مش رجّالة، بالسّم الهاري للي يرضى على نفسه فلوس ذهب شبكة أخوك، وبعدين مستعجلة

ليه على الهمم، عارفة لو وصلهم خبر بيع الشبكة، الجوازة عمرها ما جيتم، أسمعيني كويس ولا حد يقرب من الشبكة، اتجوزها. متجوزهاش، تروح لواحد من اتتين: إمّا ترجع له، يا إمّا يهدىها بنفسه لخطيبته... وبالفعل الشبكة راحت للإنسانة اللي حبتها.

- والله...

- إيه المشكلة؟

عقبت بسخط: عادي يعني... أضافت أن والدها كتب لأخواتها الذكور نصيينا نحن البنات، لكن بعد ما مات، رفض أخوتي هذا الجور وأعادوه لنا.

- يا سلام على الحياة مع أخوة عظام. أعطني قبلة.

- بمناسبة إيه؟

- الأخوة العظام.

رفضت وأدارت رأسها يمنيةً ويسرةً تبحث عنهم، وقالت  
مُتسائلةً: هم فين دول؟

وقف يفرد جسده وقال بصوت خافت دعينا نأخذ قسطًا من الراحة ونعمل هارموني، أخذ قليلا من تعاستك، وأعطيك شوية من سعادتي...

رفعت رأسها تنظر إلى وجهه، وقالت: تقصد (نشير)... هو احنا على الفيس بوك؟

قال: عارفة المرحومة قالت إيه؟

- قالت إليه؟ قال إن أمها أخبرتها أن أخوته ينون بيع شبكتها،  
وأنها أجابتها بغضب: مستحيل يا ماما، هو ييحب اخواته ويستحيل  
يخونوه، قالت إن أمها فعلت فعلاً قبيحاً (مش حاقول عليه)،  
وهتفت بتحدّ: وإن باعوها؟ قالت في هذه الحالة "يغور" بأخواته.  
أمها هزّت رأسها سعيدة وقامت تنشر الغسيل، بعد ساعة خطر  
على بالها أن تراهن عليه، سألت أمها: طب لو لم يبيعوا الشبكة؟  
ردّت وقالت: دول عالم معفّنة وحيبيعوها. أصرّت: لو مبعوهاش؟

قالت إن أمها نظرت إليها وفي عينيها نظرة تشعّ بالشماتة،  
وكانت على يقين بأنهم سيبيعونها و"يلغّون" في ثمنها، قالت إنه لو  
حدث سوف توافق على زواجنا. سألتها يعني إليه؟ أجابت ساكون  
من نصيبك.

قال إنه يذكر جيداً كيف أن فاتن توسّدت كتفه، وقالت بسعادة:  
وادي انت بقيت يا حبيبي من نصيبي، وأضاف في اعتراف نادر:  
وعلى فكرة أخواتك بيحبّوك جدّاً، رفضوا يحضروا خطبتي على  
خطيبي الثاني من مؤسسات الدولة السيادية. سألتها عن أي  
مؤسسة؟ قالت وكيل النيابة، واعترضوا وعملوا اعتصام قُدام  
البيت. واحدة منهم مش حاقول مين قالت لي ما تنسيش تنتحري،  
سألتها: ازأي يا أبله؟ قالت ممكن تستخدمى الجاز، أو تشنقى  
نفسك من نجفة الصالة، أو تحطّي صوابعك في فيشة الكهرباء،  
وهوما فعلته، وضعت أصابعي في فيشة الكهرباء، والآن يا حبيبي  
أنا لك على طول.

اغرورقت عينا سوزي بالدموع وهي تسرد عذاب والدها، قالت  
إنها كانت تسمع أبها يقول لعمّتها وهو يتساءل بعذاب: يا نصرّة  
ليه تعملوا فيّ كده، ليه تقلّوا من احترام وقيمة أخوكم الكبير...  
تهزّئيني قدّام الناس، هو أنا عملت لكم إيه؟

\* \* \* \*





الفصل السابع عشر  
خطاب التعاطف

فتح جهازه اللوحي؛ الوجه: (جبهة، عينان، أنف، أذنان، وجنتان، فك، ذقن، فم، شفتان، أسنان، لسان، عنق، كتف...)، توقّف واستدار ناحيتها، تلمس وجهها برفق، مسّد جبهتها، وجنتيها، عبر بأنامله يلاطف الفكّين، قبّل ذؤابة الأنف، لثم الأذنين، عركهما بأسنانه، انتفضت تتلوّى، تراجع كي يلثم عينيها مرّة تلو أخرى، كان يتعبّد في معبد مهجور لا يمتُّ لها بصلة، كلّما توغّل فيه أضيئت مشاعله، قمر على جبينها، نجوم في عيونها، وهج من الحُمْرة الشفيفة في حدودها. تابع رحلة اكتشاف تلك الغابة الفريدة من السعادة واللذّة والشّبَق المسمّى جسد امرأة، وهي لا تتوقّف عن متابعة القراءة... عاد يُمسّد جبينها يطوي بأنامله وجنتيها، يعرك ذقتها، يلمس شففتيها، يزنّ الحجم الثقيل لثغرها الملوّن بالروچ الأحمر الداكن، يسارع بالابتعاد عن ثغرها مُتتبعًا استراتيجيات ”التقرب غير المباشر“، يعود لأعلى، يتخلّل بأنامله جدائل شعرها... انتفض جذعها وانثنى فحذيها لأعلى، فصار جهاز اللاب توب قبالتها، وعادت تسرد بصوتٍ ناعسٍ مُقدّمتهَا عن الفصل الثالث:

”بلغني أيها الفارس الوسيم، ذو الرأي الشجاع، المقدم الصنديد، أن الفيلسوف الفرنسي المدعو ”رولان ابن بارتية“، زعم في كتابه ”خطاب العشق“ أن من حق الناقد أن يقدم لقرّائه ما أسماه بالنقد المتعاطف، والذي أسّس من خلاله انهيار الرواية وضعفها المتمثّل في تبرير كلّ نصّ روائي خارج نطاق الأيديولوجية الإنسانية... وقد زعم مُبرّرًا فيما قاله أن الكاتب أصبح يعاني الوحدة بعد أن هجرته الطبقات العتيقة والجديدة؛ ما يجعله في وضعٍ عسيرٍ يدفعه إلى الانهيار المُهلِك، لقد صار يعيش في مجتمع تُعدُّ فيه العزلة غلظةً بحدّ ”ذاتها““.

أعاد النظر إلى "ipad" خاصته، شهد مكُونات الأذن: الصوان، الحافة الخارجية، الحلمة، الأذن الخارجية، الوسطى، الداخلية، القناة السمعية، قناة استاكيوس، جهاز الاتزان، حلَّ به سخطٌ، عَنَّف نفسه، ما له ومال كل هذا الهراء. انتبه على نقدها لمقولة رولان بارت المتعلقة بانفضاض الجمهور عن الكاتب:

والغريب يا مولاي أن من الإفك تجاهل أن الوحدة كانت قدر  
عُظماء الكُتَّاب والفنانين، فالحقيقة المُحزِنة تقرُّر أن المبدع  
الخالق حتى ولو كان مُحاطًا بالجموع أو الشُّهرة أو تعاطف الملوك  
وكراهيتهم هو مثل الرِّبِّ يظلُّ وحيدًا.

توقَّف مشدوهاً وفكَّر: إنَّك لعبقرية، من أين جيئت بكل هذه  
الألمعية؟! ... كتم دهشته، وغاص في بحر الجسد الذي شرع في  
السباحة في عبابه، بدأ في لوك الصوان بأنامله، الحافة الخارجية،  
تابع حديثها عمَّا تسرده عن صاحب كتاب "لذة النص"، تقول:

"وظئني أيُّها العاشق العظيم الذي فقد حبيبته وشغفه وغرامه  
على تخوم صحراء الربع الخالي، ولكنه أصبح الآن له المكان المفضَّل  
على عرش قلبي المبتهج- أن السيِّد رولان وطغمته كانوا يؤسِّسون  
لفساد العالم، وشيوع مبدأ المنفعة على حساب الفضيلة والحكمة".

تَجَهَّم ... لمح إلى أيِّ حدِّ كانت حلمة الأذن قريبة منه، مال  
واقترب بصعوبة، يلمسها بذؤابة لسانه، يلعقُها، يتذوَّق حلاوة  
الأيس كريم، تتنفض مثل زنبرك أطلق من عقاله، وتصرخ عليه  
وهي تضحك، مُطلِّقة سوناتا من ضربات بيانو غليظ يصعد في  
الفضاء مُمتزجاً بأريج الفيولينة، تأتي على إثره دُماه مُندفَعاتٍ  
من المخزن المجاور يستطلعن هذا الفضاء الثقيل بالشَّبَق الذي

انتشر في الطابق الأخير وحمله التراس إلى البحر، تطلعن من خلف زجاج التراس، شوّح لهنّ بالرحيل، فتوازين غاضبات.

على مائدة الطعام تساءل عمّا فعلته مع الدكتور المشرف في لقائهما به الأخير؟ قالت إنه أتى كثيرًا على الجزء الذي قدّمته عن فلسفة الحكاية، وقال إن أحدًا لم يتناول هذا الموضوع بهذه الكيفية من قبل. قال وهو يزدرد المكرونة السباجيتي: تستحقين الكثير. ضحكت وقالت إنها كادت أن ترتكب جريمة عمرها عندما ودّت أن أخبره بصاحب الفضل، بالدور العظيم الذي تقوم به معي، لكنه أنقذني من

غبائي وأسرع يُقاطِعني ويقول إنه يعلم أن الفضل يعود إليه، ولولاه ما بلغت تلك الذرى الأدبية والفلسفية في علم نقد النقد. ضحكا سويًا. قال إنها لو فعلت لكان سيحرقها كساحرات العصور الوسطى... ممكن بجد؟ ... طبعًا بجد... شُفتي بقى... الحمد لله إني منطقتش.

قال إنه ليس لأحد فضلٌ عليك، وأن الفضل الأول والأخير يعود إلى نباهتك وذكائك ونزاهتك العلمية وثقافتك الموسوعية. هزّ رأسه مُعبّرًا عن سعادته، وأضاف أنه سعيد لأن القدر ألقى بتلك الحورية في طريقه.

ينتقله إلى المقعد المواجه  
يضع كفه السمينة  
على مقدمة فخذي  
يفركه بقوة  
يقول إنه يرغب  
في أن يجتمعنا عشقًا  
في الحلال...  
مخالبه الحديدية قفصه  
يجنق عصفوزًا  
ألقى به سوء الحظ  
إلى مخالب ذئب



غَرَّدَتْ بصوت البيانو المشغول بلوعة الكمان، طلب منها أن تحضر معها سوتيانها الأسود، كانت توشك على القيام فجلست من فورها وقد أمسك بتلابيبها ذُهول، نظرت إليه بغرابة وخيرة، فاستطرد موضحاً أن الأمر عادي وطبيعي، سوف تحضرين من دولاب ملابسك مشدّد صدر أسود، وممكن وردي، أريده مختلطاً بعرقك. يحمل رائحة جسدك.

مسّت جبهته وقالت يبدو أنك مريض، ما هذا الجنون؟ قال هذه ثقافة برجوازية. قالت بكبرياء أنها تنتمي إلى الوسط الأكاديمي الذي يضم الطبقة الوسطى، "زبدة الطبقات" فكرياً وثقافياً. وهي لم ترَ أمراً مماثلاً لما يطلبه. قاطعها ساخراً، وسألها إن كانت تعني ما تقول؟ انخرطت في ضحك هيس تري، ولما تماسكت سألته ودموع الضحك تنثال من عينيها:

- وده اسمه إيه يا أستاذ؟

قال موضحاً: "فيتيش"، وأضاف أنه سبق وشرحه لها، وتساءل إذا كان لديها اعتراض؟ حدّقت فيه طويلاً ثم هزّت رأسها نفياً، مالت عليه وهي تغمغم أنها لا ترى مثل هذا الجنون إلا معه، واستطردت: أنت فريد من نوعك. دارت حول نفسها مرّة واثنين، ووقفت ثم جلست وهي مستغرقة في التفكير، رفعت رأسها وقالت: حاضر. وأضاف أن عليها أن تأتي به مغلّفاً، مصحوباً بوردة حمراء. اعترضت وقالت: لا بقى.

- إيه اللي لا بقی؟ قالت بغضب: وکمان وردة هدية! مثل هذه من المفروض أن تقدّمها أنت. جذبها جانبہ، وطوّفها بساعديه وهمس في أذنها قائلاً إن عليها أن تتخيل الأمر على هذه الشاكلة الممتعة، عندما تُقدّم التلميذة لأستاذها وردة، أو تستبق الأنثى بفعل ما على الرجل أن يقدمه لها... هذا سحر... دفعته برفق وقامت ترجو الرحيل.

\* \* \* \*

## الفصل الثامن عشر

# نَوَّالٌ قَاسِمٌ

الشتاء  
القارص



الأسبوع  
الأول من

توالّت الأيام، وحلّ شتاءٌ قارصٌ مُدمجاً برياح جنوبية غربية وعواصف شديدة تكتسح شوارع الإسكندرية الغارقة في سيول أمطارها، وصوت الأمواج العالية يتكسّر على الشاطئ الصخري. تركّا غرفة النوم الثلجية واستبدلا فراش زوجته التي عشقها طوال عمره، بغرفة الاستقبال، تهوي على منتصف أريكة الغواية مثل موجة تهبط على شاطئ صخري، تسكن بظهرها صدره، وبين يديها اللاب توب تسرد منه حكاياتها، ويعود يلقي لمحة على "ipad" خاصته، ثم يبدأ من أعلى جسدها المسترخي بين أحضانه، يدفس أنفه بين خصلات شعرها الليلكي، يتنفسه بوله، ينشره على صدره، يدلك فروة رأسها بأنامله بهدوء وروية، يلثم مؤخرّة عنقها، يلثم كتفيها العاريتين... يتابع عمودها الفقري المنوط بإبقاء الجزء العلوي مستقيماً سهل الحركة مرناً... سبع فقرات عنقية ترتكز عليها الجمجمة... اثنتا عشرة فقرة صدرية تُبَت عليها وارتكز القفص الصدري، يحوي داخله القلب والرئتين... ثلاث وثلاثون فقرة، يفصل بين كل منها وسادة صغيرة. يحفظ في تجويفه الحبل والنخاع الشوكيين، خمّس فُطْنِيَّة في منطقة البطن، خمّس مُلتَحِمة في منطقة العَجْز، وأربَع عُصْعِصِيَّة، في نهاية العمود الفقري. يسمعها تستطرد:

”وظنّني أيها الملك العظيم الذي أصبح سلطاناً على عرش قلبي المسكين الذي صار يستمدُّ قوته منك ويستبين، أن السيد رولان بن بارتية، وطُعْمَتَه كانوا يؤسسون لفساد فن الرواية لصالح النظام الرأسمالي العالمي وأنظمة الاستبداد، وهو الذي دعا من طرفٍ خَفِيٍّ، وبأسلوب خبيث، بتأكيد مقولته عن بزوغ اتجاه حديث بين الفلاسفة



الشُّبَّان نحو الترويح لعبادة ديانة الموت، وذلك في سياق التبشير  
 بفلسفة الموت، بدأ بموت مبدأ التقدُّميَّة،  
 وما قيل لاحقًا عن موت المؤلف، وموت  
 القارئ وموت الناقد، وموت النَّصِّ،  
 وموت العالم وأهته، ومن نَمَّ موت  
 الجميع...

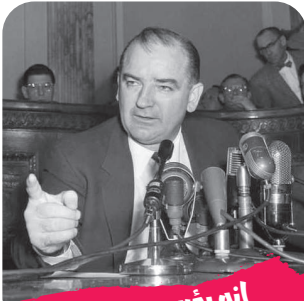
**كتاب هذه الأيام  
 لا توارزهم  
 آية طبقة،  
 الكاتب هامشي،  
 يعاني من وحدة  
 اجتماعية قاتلة**

تمنَّى على قُرَّائه وتلامذته  
 كفيلسوف يُرَوِّج بحُبِّهِ إلى مبدأ  
 العَدَميَّة، لو أمكن لهم تطوير تلك  
 النظرية كي تكون تُربَّة صالحة للحُبِّ والتعاطف، وأن تكون قوَّة  
 دافعة للنقد؛ وذلك لتفادي التَّصوُّرات التي تُبقي النقدَ فعاليةً أسيرة  
 المناهج التحليلية، تتسم بالعقلانية الخاضعة لنوعٍ من الأنا العليا  
 التي تتصف بِسمات النَّزاهة والتجرُّد والموضوعية...”

تنهَّدت وقالت: أي تجديف علنِّي بالخير والجمال! لو كنَّا في  
 الأيام الزاهرة من حُكم أثينا لعلُّق من بيوضه الثخينة...

ضحك للمفارقة، وأزاح الشَّعر الحالك عن عنقها جانبًا، ظهر  
 بياض بشرتها اللبني، برزت نتوءات السبع فقرات العنقية في  
 لون الشفق، يدلُّكم بقوة فقرة فقرة، تنحني برأسها إلى الأمام،  
 تستقبل أصابعه بارتياح، تُندُّ عنها آهة، يتوسَّد صدره حزام  
 كتفيها الخلفي؛ يتطلَّع من فوقه، تبرز الترقوة أمامه: عَظْمُ أَمَامِي  
 ضيق، رفيع، مُقوَّسٌ إلى الخلف، يمتدُّ خارجًا إلى الكتفين،  
 ينسدل الجِلْدُ من حوله كستارةٍ مخمليَّة بلون اللبن المتوهِّج  
 بالحُمْرة الشفيفة.

يلثمها... سيل من القُبل يبذرهما في سهول البراح الشبقي... يمدُّ أصابع كفيَّه العشر على اتساعهما، يغوص برقّة بين لوح كتفها الخلفي وعظمة الترقوة الأمامي، يمسّد عنقها مُقترَبًا من الربع الخالي لنهديها بين سفح العنق وحافة المشدّ الأسود... اللعنة... باتت حافة المشدّ الأسود الممتد على لحمها النهدي الشهى كابوسًا حلواً يخائِله نحو السعادة والبهجة والغضب والفقد والكآبة وتفاقم الشعور بالنقص...



إنه يؤسس بوقاعة  
لظهور المثقف المراوغ،  
الانتهازي التابع للسلطة،  
أي سلطة.

”فأمّا السيد رولان بن بارتيه فهو يفسّر ذلك بأنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهزيمة الفاشية، وصعود الشيوعية والاتجاهات الاشتراكية، برز تحرُّر رهيبٌ سياسيُّ الطابع من سحر الطبقة المثقفة، نجم عن أحداث عالمية مثل أحداث كوبا والصين وثورة الكولاج في روسيا، في ذلك السياق أصبحت التقدُّمية تُمثّل للكاتب موقفًا صعبًا، في ظلّ تبلور الصراع بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي.

كل مثقف تلوح في لُغته نغمة اليسار سوف تتولّى المكارثية التنكيل به، وإذا كانت الولايات المتحدة موطن السيناتور الأمريكي ”جوزيف مكارثي“، ففي كل دولة أوروبية مكارثية خاصّة بها، حتى الدولة الاشتراكية، يوجد بها مكارثية من نوع سوفيتي.

هذا يوضح سبب ظهور ”الفلاسفة الجدد“ الذين عاجوا هذا

التشاؤم التاريخي، وأسَّسوا لموت التقدُّميَّة في الوقت الراهن... وفي ظل تلك الأوضاع المأساوية يتعيَّن على الطبقة المثقفة إمَّا أن تتَّخذ موقفَ طبقة مقاتلة أو تتحوَّل إلى فئة مُتكلِّفة تعني بالأسلوب والتأنُّق فيه“.

أفاق من صبوته على ما تقوله، هتف بها أن تتوقَّف، وسألها مستفسراً عن المصادر التي جاءت منها بهذه المقولات. قالت من مراجع طبعاً.

هتف بها أن هذا كلام خطير جداً، وعليها أن تذكر المصادر بدقة تامة. سألته: هوانت كنت سرحان فين؟ ما أنا سبق وقلت، من كتاب ”حوارات مع عدد من النقاد“. طلب منها أن تستكمل،.. قالت: يؤسس السيد ابن بارتية فلسفة الانتهازيين الجُدِّ، اللذين انتشروا في الأوساط الثقافية وأصبحوا كالنار يأكلون الأخضر واليابس، يدمرون مستقبل شعوبهم، ويلتهمون في جوفهم حياة زملاء لهم يفوقونهم في الجدارة والنزاهة بتبجح ودونما ذرة خجل:

”في اللحظة التي تكفُّ فيها التقدُّميَّة عن أن تكون بسيطةً وممكنة، فإن على المثقف أن يتراجع إلى مواقف مراوغة أو متحايلة؛ إذ إن العدوَّ الحقيقي هو ما يدعوه نيتشه ”ظاهرة القطيع“، في هذه الحالة سوف نصادف بالضرورة حالاتٍ من العزلة لم نألّفها في أنفسنا من قبل. وأضاف إن وسائل الإعلام وصناعة النشر تساهم في إحكام العزلة حول فعاليات الإبداع العظيمة“...

”إنه حصار يجعل من الكاتب وحيداً تماماً“...

فريسة سهلة للمؤسسات التي تتبع السلطة، أي سلطة محلية أو دولية أو كونية...

لذلك علينا أن نتفهم أن كُتَّاب هذه الأيام لا تؤازرهم أيَّة طبقة اجتماعية، لا البرجوازية أو البرجوازية الصغيرة، أو حتى البروليتاريا. لقد أصبح الكاتب هامشيًّا، لا يمكنه الاستفادة من التضامن الذي يتوفَّر للأقليات أو الهامشيين، هو الآن يعاني من وحدة قاتلة، وخاصة مع تصاعد النزعة المعادية للثقافة“...

مدَّ كَفَّهُ اليمنى لتستقر عند كشحها الأيمن، هناك ما بين الضُّلوع والخاصرة، حيث ”الجزء الجانبي من جذعها“، وكفه الأيسر يهبط فوق الربيع الخالي لنهدها الأيسر بين سفح العنق، وحافة سوتيانها الأسود، ليطفو لهب وِردِي رقيق بين الكفين، يُطفئ مُحَرِّكات عقله، وينصت للوجيب القادم من بعيد، يتابعها:

”بدعوي فصل العقل عن القلب يتحوَّل المثقَّف إلى ضحية؛ لأنَّ المثقَّف يستعمل لغةً تجعل الناس يشعرون أنهم منقطعون عنها، إنها دومًا اللغة، فمن الصعب على المجتمع أن يُنتج لغةً موحَّدة، هكذا يتحوَّل التنامي المتزايد لنزعة معاداة الثقافة حول مشكلات التعبير؛ ما يدفع المثقَّف أن ينحو بصورة متزايدة نحو الذاتية والفردانية المتوحَّشة، مُنذِرًا بما ذكره السيد رولان ابن بارتية في كتابه عن المؤرِّخ الفرنسي ميشليه“.

نظرت ساعتها، كانت قد جاوزت الحادية عشرة والنصف مساءً، قالت وفي صوتها لوعة لواحدة من إماء بغداد:  
وقد أدرك شهرزاد الصباح، فكفَّت عن الكلام المباح... سمع صوت الديكة تؤدِّن الفجر، والغانية تهتف... مولاي...

قامت تجري، تطاير ثوبها المصنوع من الحرير الدمشقي  
الذي هبط عليها من بغداد، وبدا خصرها العاري، خلعت  
عمامتها فنثرت في الفضاء شعرها للرياح والظلمة، وحلَّ محلَّهما  
بلوزتها وبنطالها الجينزي، وافته بعددٍ من القبلات على وجنتيه  
وأسرعت تغادره عائدة إلى منزلها.

عندما خلا المنزل عليه ظهرت واحدة من دُماه ترتدي عباءة  
عارية من عباءات جواري هارون الرشيد، لكنه تغاضى عنها،  
وأخرج سيجارة أخذ ينفث دخانها في الفضاء.

\* \* \* \*





الفصل التاسع عشر  
تأتات فلسفيّة

بلغني ياسلطان البَرِّين والبحرين، أن الفيلسوف الفرنسي المدعو

”چاك بن دريديه“، الابن المدلل للمؤسسة

الفكرية الغربية، والذي رُوِّج له كبديل

مُلتبَسٍ للثقافة الماركسية، وقد تلقَّفته

المؤسسات الثقافية المحلية، لتجعل منه

فيلسوفها المفضَّل، الغامض، العسير على الفهم،

وكان قد انقضَّ بمعوله بضربة عملاقٍ ”قتل سبع“ ”ذبابات“ بضربة

واحدة“، بنقد فكرة ”البنية“ فسي الأثروبولوجيا لدى كلود ليثي

شتراوس، ومُعلنًا أنها اللحظة الأخيرة ضمن سلسلة من البنيويّات

لفلسفية.

بدأ رحلته بالتهجُّد في محرابها، فكَّ جديدة شَعرها المعقوف على

هيئة كعكة، نشره على صدره فارتفع كما تحلَّق السُحُب في سماء

شتوية، وهبط على جسده كما يتساقط الندى على زهور الغابات،

تشمَّم عطره بهوَسٍ، فلا هو يكتفي ولا أريجه الفواح يتلاشى، أمسك

جمجمة رأسها يدلكها وهي تتلوما جاء به ”چاك بن دريديه“:

”...وبما أن البنيوية هي الحلقة الأخيرة من نوعها فأستطيع أن أقرر

بأنها سوف تعمل راضيةً على ”اختزال“ نفسها وتحبيدها، بردٌ بنيتيها

إلى نقطة مُحدَّدة من نقاط الحضور، أو إلى أصل ثابت، أو إلى مركز؛

”لم تكن وظيفة هذا المركز أن يوجِّه ويوازن وينظم هذه البنية“... ولا

يستطيع المرء في الحقيقة أن يفكر في بنية غير مُنظمة، ولكن وظيفته

التأكيد على أن المبدأ المنظم للبنية يكون قادرًا على الحد من ”لعبة

البنية“؛ إذ إن مركز البنية بتوجيه تلاحُم النظام وتنظيمه وعَضُونته،

يسمح بلعب عناصر معيَّنة ضمن الشكل العام الكامل، هذه اللحظة

تُمثِّل فكرة البنية التي لا مركز لها، الشيء غير المفكر به“،<sup>(24)</sup>

(24) چاك دريدا: الكتابة والاختلاف. ص(249-278).



قالت بنفاد صبر إنها عاجزة عن استيعاب ما يُقال. طلب منها

الانتظار، قالت إن ما يقوله تدليسٌ مثل الذي  
تفنن فيه سُوفسطاِيُّو الإغريق... سألتها  
إذا ما كان الدكتور المشرف قد اطلَّع على  
الفصل السابق الخاص برولان بارت،  
قالت إنه سافر إلى تركيا وسيعود الأسبوع  
القادم. وأضافت بأسى أنها تتمنى لو لم  
تقع في حبال الدكتور حاتم.

قال ساخرًا: قريب جوزي، واضح  
أنهما اتفقا عليك.

هتفت: شُفت بقى!... هذه  
المرّة لم تُثر عبارتها الضحك؛  
فقد نطقت بها بحزن.

قال يواسيها إنه التقى الدكتور  
حاتم في مكتب رئيس الجامعة،  
وأتى على سيرتك بالخير.

تطلَّعت إليه وعلى وجهها شعور بالمفاجأة مُدْمَج بالخوف،  
سألته منزعة عمَّا قاله عنها، أجابها أنه قال إنك مجتهدة،  
وإن كنتِ في حاجة إلى مجهود كبير، طأطأت رأسها واعتصمت  
بالصمت، عدلت من جسدها وقالت إنه يضيف:

صديقك تجاوز كل معقول  
كلما ازداد قناعته  
بالرسالة كلما توخَّش  
بالأمس مديده يلمس  
نهدي، أصابني الهلع.  
تراجعت وجسدي يرتعش  
سألته متى أنتهي من  
الرسالة؟  
قال عندما تتعلمين  
الامتنان وتردي الجميل

”والقول بأننا لا نستطيع تفسير ما تعنيه علامة ما أو أي نص، دون إنتاج نص آخر، أي إنتاج مجموعة موازية من الدوال، وهي لا تختلف عن بعضها فقط بل عن نفسها أيضًا، وهو ما ينجم عنه نوع من الانزياح أو الأثر الذي تتركه سلسلة غير محدودة وغير ثابتة من إعادة التدليل، ورسم فكرة الأثر حضور العلامة بالغياب المتحقق على شكل اختلاف أو إرجاء داخلين، إرجاء لا نهاية له، لأي معنى نهائي“.

أمسك بفقرات رقبتها العنقية، استجابت كطفل بانتظار مداعبات أمه، مسدها، تقبلت زيادة ضغط أصابعه عن الأمس بارتياح، وأخذت تزوم وتتأوه... ها هي تتجرف في إبراز علامات الرضى والقبول...

حوّطها بجسده وسألها عن السوتيان، قالت إنها نسيت، كان عليه أن يذكّرها في مساء الليلة الماضية، وتعلّلت بأنها صارت تنسى كثيرًا، لم يجادلها، واكتفى بأنها لم ترفض الأمر بكليته. باغتنته بالسؤال: يا أستاذ فاهم حاجة من اللي بيقوله الحاج بن دريديه؟ سألها بصلافة وقد تمكّن منه زهوه، عن الأسباب التي دفعتها لمثل هذا السؤال، قالت: حضرتك مركز في السوتيان وأنا لا حاصّل دكتوراه ولا ”بزرميطة“.

- ليه؟ ممكن المشكلة تبقى عيب في الترجمة.

- أبدأ... أنا راجعت النص الإنجليزي.

- طيب كمّلي، وبعدين نشوف.

”چاك بن دريديه“ كان رجل النظام الرأسمالي بامتياز، كان ضمن جماعة أسَّست لمشروع إقامة معهد عالمي للفلسفة ووضعت مقرَّه الدراسي، وافقَّت عليه وموَّلته الحكومة الفرنسية.

دفعها مُتسائلاً عن سبب تحاملها على دريدا، وقال يكفيها ”رولان بارت“، لن يقبل أحدٌ موقِّفك من دريدا، سينشبون مخالِبهم في جسدك. قالت ساخِرةً: شُفت بقي! وأضافت وهي تضحك: يا أستاذ إنَّت مش مركز.

- يعني حاكون فين؟

- اسأل نفسك... أنا حامشي.

- طيب يا أرسطو...

قاطعته غاضبة: ماله أرسطو والأ أفلاطون والأ حتى هيجل أو سارتر، جميعهم كانت فلسفتهم (سواء مادية أو مثالية) تدور حول جوهر محدد؛ الخير والشر، الجمال والقبح، الحق والباطل، الكون والفساد، الوجود والعدم، الفضيلة والأخلاق، الصدق والزيغ، الرُّشد والضلال. لكن هؤلاء يوجِّهون العقل بظُرُق ملتبسة وغامضة نحو اللا غاية، نحو المركز واللا مركز.

طلب منها أن تتوقف وتكتفي، لكنها استدارت نحوه وأضافت تشرح ما تظنه عصي على الفهم:

- طيب الطبلية اللي بناكل عليها كيف تستقيم إذا كانت تقف على ثلاث أرجل، فما البال برجلين اثنتين، لكن هؤلاء يريدون طبلية بساق واحدة تتعثر في الفراغ.

سألها بنبرة غاضبة يمثّل دُور الحائق وهو في قرارة نفسه سعيدٌ بها. لماذا تزجّين بالفلسفة في رسالةٍ موضوعها الأدب، أجابته بدهشة: لأنّ الأدب مُرتبَط ارتباطًا وثيقًا مباشرًا أو غير مباشر بالأيديولوجيا. وبعدين ألا تعتقد أنّ الترويج لفلسفات اللا أدرية، وضياع المركز والأطراف، وتفضيل الذات على العالم واستخدام الجموع لصالح بيوت المال والصناعات العسكرية، وغزو العراق، وتربية الإسلام السياسي وظهور القاعدة وداعش، وتدمير العراق وسوريا وليبيا واليمن وأفغانستان وروسيا وأوكرانيا، وضم الضفة والجولان وتدمير غزة، وتبوء أعلام الفاشية والمثلية سماء بلدان أوربية، أليس نتاجًا لتلك الفلسفة، وأولئك الفلاسفة. وأضافت: وبعدين انت زعلان ليه؟ ألم تطردني لأنني اعتمدت على كتب ومقولات سمير سرحان. إذا مش عاوز، أرجع ثاني لفلسفة التنوير.

دفع بجسدها إلى الأمام، استسلمت له وثنت جذعها، رفع بلوزتها فكشف عن ظهرها العاري مُعطىً بسيور سوتيان وردي، ولوح الكتف الخلفي، فقرات ضلوعها التي شفت أسفل جلدتها الوردية، قال بأنه لا عودة، لكنها لن تحصل على الدكتوراه بهذه الوقاحة، عمومًا كملي وسوف نجد حلًا.

قالت: أيُّها الملك المُتوجّج على عرش الحقيقة: "إنّ الفيلسوف ابن دريديه نزع عن النظام الرأسمالي أهم شروطه، وهو حرية الفكر، المتمثّل في استقلال الجامعات، وهو أكّد على استراتيجيته تبدأ وتنتهي بسيطرة النظام الرأسمالي العالمي وحكومتيه العليا والسفلى، وباع على إثر ذلك الاستقلالية الذاتية للجامعة، مُعتبرًا أنّ



الرحمن الرحيم“ قبل أن يشرعوا في السرقة، أو القول ”اللهم صلّ على سيدنا محمد“، وذلك بعد فتح خزائن الدولة وسرقتها، وذهاب ضَبَّاطِ الأَمْنِ قبل وبعد تعذيب الضحايا للوضوء والصلاة، وفرقة إعدام داعشية قبل ذبح القبط أو رجال من عشيرة اليزيديين وبيع فتياتهم في مزادٍ عامٍ سبائيا...

أضافت وهي تنخرط في الضحك، لا يدري بسبب أنامله وهي تقترب من جلدها الرقيق، أو ما ذكرته لتوها:

”وهو يتحدث عن صيغ أخرى مثل ”كيفية النظر في النظر وكيفية الاستماع الى السمع“، ويزعم أنها مجرد صيغة معزولة عن سياقها“...

ضحكت واستدارت تمام على صدره وهي تغغم أن هذا رجلٌ مَخْبُولٌ... إننا نستمع إلى سيمفونية مشروخة لفلاسفة ومُفكِّرين يعملون بجديّة الفئران وعزيمة النمل الأبيض على تقويض العالم، نحن نقف أمام قاتِلٍ مُتَسلسِلٍ يمارس الاستمناء بعد أن أجبر ضحاياه على اغتصاب كلّ منهم للأخر قبل إلقاءهم في المجاري طعاماً للفئران...

ربت على كتفيها وقال إن عليها أن تترتّب قبل أن تطلق أحكامها على فيلسوفٍ بقدر ومقام چاك دريدا. وأضاف: عندما تقفين أمام لجنة المداولة لا تحاولي أن تظهري ذكاءك اللامع؛ فهم يكرهون ذلك، ويغتالون ذاك النوع من الطُّلاب كوأد البدو لبناتهم...

- يا مولاي، أطال الله عمرك، لديّ استراتيجية هدفها أن أنجو من رغبتك في قتلي عندما تنال مني، وقد يكون ما أقوله حقيقة، وقد لا يكون، "تلك فلسفة الحكاية". المهم أن أتلو عليك حكاية لا تنتهي بقدوم الصباح، فأنجو الليلة، ويكون للحديث في الغد بقية. قال غاضباً: وهكذا بلغنا مربط الفرس. سألته: وما هو مربط الفرس سيدي ومولاي؟ قال بالإنجليزية:

- To kill you I have to Fuck you...
- To make love to me you have to listen to my stories first
- Your stories are a series of Mysteries.
- And you have to solve it, can you?
- Help me.

- وأنا مالي.

- إيه؟

لم تأبه به، وقالت: مسمعتيش... بقول لك وأنا مالي.

قالت "سوزي زاد": دعني يا سيدي وتاج رأسي أروي لك عمّا أسماه ابن دريديه "حرية الجامعة"، "الحرية النفسية التي تمتلكها بالقدرة على اللعب". ماذا تعني "حرية اللعب"، إنهارؤية فضفاضة... ألا توافقين الرأي؟

تجادلاً طويلاً، ومضت الظهيرة والعصر، قامت تُصَلِّي قبل حلول الشفق الشمسي... حلَّ الليل وهي تشعر بالابتهاج وتتفتق عن منحى صوفيٍّ، اعتلت الطاولة وشرعت ترقص وهي تغني أناشيد مولانا جلال الدين الرومي في العشق:

**”تقول ليه لمن أنت؟ أقول وما أدرا نبي أنا...“**

**ولم هذا الجنون؟ وما أدرا نبي أنا...“**

ارتفعت طبول العشق لمولانا جلال الدين الرومي في المكان، رفعت ساعديها مرَّتين، ودارت تتمايل بجذعها، وتدور حول نفسها تغني:

تقول لي ما كل هذا الأئين ... أقول وما أدرا نبي أنا...“

تقول كيف تقوى على عشقي؟

أقول أنا في أمواج بحر عشقك محبوس في قفص

تسألني ماذا تفعل في القفص... أقول وما أدرا نبي أنا

تقول إذا أنت طائد الأعالي... أقول وما أدرا نبي أنا

ينهار من الضحك، يتابعها ترقص بقدميها، تميل بجذعها يميناً ويساراً، سقطت مغشياً عليها، تلقأها تتوسد صدره وتروح في نوم عميق ملتفةً حول نفسها، مثل طفل ينام في رَجَم أمه. بعد وقت من الزمن الكوني أفاقت من غفوتها دون أن يتحرك قيد أنملة، لملمت شتات روحها، تجاوزت الحادية عشرة مساءً، قفزت من بين أحضانه وقامت تجري تنضو عنها ثوبها المصنوع من حرير بلدة كاواماتا من محافظة فوكوشيما اليابانية، وتخلع عمامتها التي هبطت عليها من طشقند، تنثر جدائل شعرها للرياح والظلمة وتعود مرتديةً بلوزتها وبنطالها الجينزي، همست



وفي صوتها لوعةً لواحدة من أشهر إماء بغداد في الغناء والشعر  
والرقص والصب:

”قد أدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح“...  
سمع صوت الديكة تؤذّن الفجر، والغانية تهتف: ”مولاي...“.

غمرت قبلاّتها وجنتيه، وأسرعت تغادر عائدة الي منزلها،  
عندما خلا المنزل عليه خرجت دُماه يرتدين عبااء مكشوفةً  
من عبااءات جوارى سمرقند، لكنه تفاضى عنهنّ، وشرع يراجع  
مخطوطاته.

\* \* \* \*





## الفصل العشرون أذنة الرواية

بلغني أيها الملك الجميل، ذو الرأي الحليم أن تيري إيجيلتون يقول: "إن الأدب هو أقرب صيغ المقاربة التجريبية للأيدولوجيا أكثر من أي حقل آخر، حيث نلاحظ بشكل مميّز ومُعقّد ومترابط ومركّز وفوري- عمل الأيدولوجيا على أنسنة التجربة الحية للمجتمعات الطبقيّة". وأن موضوع الرواية هو النظر في واقع الحياة. تيري إيجيلتون مهتمٌّ بإبراز منهج نقدي ينزع الغموض ويزيل الحيرة عن مثالب المدارس النقدية المعادية لفن الرواية، وهو على العكس من "ابن دريديه"؛ يسعى لمواجهة العلاقات المعقّدة بين علم الجمال وعلم الأخلاق والسياسة.

موضوع الرواية  
هو النظر  
في الحياة

للمرة التي لم يُعد يهتمُّ بتعدادها،  
وبعد أن حلّت اللذّة والتلذذ بماهيّة  
الجسد الأنثوي محلّ آليات بلوغ "الذروة"،  
والتي هي نهايات معلومة سلفاً، وأصبح التمتع بالسباحة في بحار  
الجسد الذي رسمه رينوار لوحته المسمّاة "the large bathere"،  
وبهمّة لا تقتر بدأ رحلة التعبّد في محرابها...

ولتسمح لي يا سيدي، بأن أذكر الأهمية التي بلغها فن الرواية،  
فيما جاء على لسان السيد "مالكوم بن برادبيريه" الذي يعلو بهذا  
الفن شأنًا ساميًا، يقول في كتابه المدعو "الرواية اليوم":

"إن رواية ما بعد الحرب العالمية الثانية صارت هي كتاب الحياة،  
وجوهر التجربة، لكن ما أن بدأت الآمال التاريخية والتحرّريّة تنتعش  
مع عقد الخمسينيات والستينيات. بدأ المزاج يتغيّر ثانية، وبدأ التساؤل  
المعرفي والشكلي يفرضان نفسيهما على الرواية، وعادت بعض  
سمات الحداثة تفرض نفسها ثانية، مثل العودة إلى السخرية، والإصرار  
على أن الفن تزيّف، والتركيز على الأبعاد السريالية والأسطورية".

وهنا انتقل إلى السيد "تيري إيجلتون"، الذي ينتمي إلى تيار الفلسفة والنقد الماركسيين، المنفتح على التيارات الموازية مثل التفكيكية وما بعد البنوية والنسوية، المدافع الصلب والعنيد عن إنسانية فن الرواية وهو ما تجلّى في كتابه "نحو نقدٍ ثوري".

اهتمَّ السيد "إيجلتون" بالجمع بين نظريات التحليل النفسي والماركسية والتفكيكية والنسوية، بصورة رحيبة، بعيدة عن التشدّد، والمغالاة في تقديس الماركسية، هو يرى أن التعدّدية ينبغي أن تسود على مستوى المنهج، فليس من المناسب التعامل مع منهج بعينه بوصفه صنمًا، التعدّدية تساهم في الخطاب التحرّري الإنعتاقى، وإذا كان ينبغي البحث عن غايات سياسية تحدّد أسئلة المنهج، أيضًا يجب إقصاء وحذف بعض الخطابات النقدية عندما لا تتضمن مهمّة تحرّرية.

وهو ما يكشف طبيعة الخطاب العدمي لدى "ابن بارتية" و"ابن دريديه" الذي هو ليس تحرّريًا، فمن تأتأتهما تخرج أشدّ التّصوّرات يمينيّة تطرّفًا، وفي هذا الصّدديا مولاي يقول السيد "تيري إيجلتون":  
"إن النظرية النقدية أو الأدب يكونان في خطر عندما يتحوّلان إلى مشروع ضد التوجّهات الإنسانية... وهما يكونان بخير طالما كانا قادرين على إضاءة النصوص".

"أي أن على النظرية ومن ثم المنهج النقدي أن يُسخر في خدمة العمل الأدبي الذي يتمتع بكافة الامتيازات، ويحتل مركز الاهتمام... وأن على النقاد -ماركسيين أو ليبراليين- أن يهتموا بالموضوعات المعقّدة، وعلى رأس الأولويات قضايا الصراع الطبقي، والأبعاد الاجتماعية".

ومن المدهش يا مولاي أن المدعو إيجلتون ذاك الجني الذي ينتمي إلى عشائر الجن الأحمر المؤمن، يتحدث عن المؤسسة الأكاديمية للإمبراطورية البريطانية في سبعينيات القرن الماضي، وكأنه يتحدث عن المؤسسة الأكاديمية المصرية، فيقول: "إن المؤسسة الأكاديمية وجدت أن عليها أمام التيارات الجديدة إما أن تستوعبها أو تعارضها وتفتح معركة معها، وهي لا تمتلك التصورات النظرية اللازمة لذلك".

ولهذا يمكن القول إن المؤسسة الثقافية يزداد إفلاسها الثقافي، ولا تملك وسيلةً مُقنعةً لمواجهة تلك التيارات سوى الحديث عن البهامة والحسد والتقليد، ورغم ذلك لا يمكن التقليل من قوتها، ويضيف مشيراً إلى موطن الأزمة: "إن الوضع الراهن مُعقّد، فبينما يملك اليمين القوة، فهو مُفلس، لا يملك الأفكار، وفي المقابل يملك اليسار الأفكار، ولكنه ضعيفٌ لا يملك القوة".

لكن الوضع في مصر يختلف، فالنفط الثقافي يمسك بخناق المثقفين، وقوى المعارضة التي تطاردها أجهزة الأمن بلا هوادة، تفصل بينها تناقضات عميقة، وهي تفتقد الثقة بالنفس، وتميل إلى الدفاع والبحث عن حلّ تناقضات تعتقد أنها سببها، قبل أن تكتشف مأزق وأسباب الخصومة.

أزاح جدائل شعرها جانبا، مال يلثم نتوءات الفقرات العنقية، انحنت برأسها إلى الأمام، يلثم عنقها، تستقبل أصابعه بارتياح، تندُّ عنها آهة، تعود برأسها للخلف، يتوسّد لوح كتفها الخفي العريض صدره، يلثمه بشفتيه، يعبر الوهدة الواقعة بينه وعظمة الترقوة الرفيع المقوَّس إلى الخلف، ينتابه الانتعاش لملمس جلدها المخملي، تبدو نحيفةً شفيفةً رقيقةً بلون اللبن المتوهج

بِحُمْرَةِ الشَّفَقِ، يُخَلِّفُ كَتْفَهَا نَحْوَ الرَّبْعِ الْخَالِي مِنْ نَهْدَيْهَا الْوَاقِعِ  
بَيْنَ سَفْحِ الْعُنُقِ وَحَافَةِ الْمَشَدِّ الزَّهْرِيِّ، يَحْظُ عَلَيْهِ بِكَامِلِ كَفِّهِ  
الْيَسْرَى، وَيَهْبِطُ بِكَفِّهِ الْيُمْنَى عَلَى جَنْبِهَا لِيَقِفَ أَعْلَى الْحَوْضِ،  
وَكَأَنَّ سَفِينَةً أَبْحَرَتْ فِي بَحَارِ اللَّهِ السَّبْعَةِ وَعَادَتْ تَرْسُو عَلَى  
مَرْفَأِهَا حَيْثُ السَّحْرَةُ طَيِّبُونَ، وَالْجِنُّ مَنْشِدُونَ لِأَهَازِيجِ الْحَيَاةِ.  
سَمِعَهَا تَقُولُ:

وَيُرَى إِيْجَلْتُونَ أَنَّ الْمُتَقَفَّ يُجِبُّ أَنْ يَحْوِزَ أَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَلَّا يَكُونَ  
مَجْرَدَ شَخْصٍ يَمْتَنُّ الْفِكْرَ وَكَأَنَّهُ مَوْظَّفٌ فِي وظيفَةٍ، إِنْ مَنَّ  
يَتَصَرَّفُونَ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ، لَنْ أَدْعُوهُمْ بِالْمُتَقَفِّينَ. الْمُتَقَفُّ هُوَ  
شَخْصٌ يَتَعَامَلُ بِالْأَفْكَارِ، وَلَكِنَّهُ يَعْمَلُ عَلَى تَخْطِيِ الْحُدُودِ الثَّقَافِيَّةِ،  
وَيَقُومُ عَلَى انْتِهَاكِهَا لِأَنَّهُ يَرَى ضَرُورَةَ ذَلِكَ...

بصعوبة شديدة تقبَّلتْ سكُونُ إصْبَعِهِ بَيْنَ شَفَتَيْهَا، كَانَ يَرْنُو  
بِشَغْفٍ نَحْوَ شَفَتَيْهَا الثَّقِيلَتَيْنِ، دَائِمًا مَا تَجْعَلُهُ يَنْتَظِرُ وَهُوَ يَحْلُمُ  
بِاللَّيْلَةِ الَّتِي سَوْفَ يَعْرِكُهُمَا مَخْلُوطَةٌ بِكَؤُوسِ النَّبِيدِ، كَانَ لَدَيْهِ صَبْرٌ  
لَا يَنْفِذُ بِانْتِظَارِ الْمَتْعَةِ الَّتِي سَوْفَ يَرْتَعْشُ لَهَا جَسَدُهُ مِثْلَ مَرْكَبٍ  
عَمَلِقٍ يَتَمَرَّجُ بَيْنَ أَمْوَاجِ بَحْرِ تَعْصَفُ بِهِ الرِّيَّاحُ وَالْعَوَاصِفُ...  
كَانَ مَهْوُوسًا بِاللَّحْظَةِ الَّتِي يَبْدَأُ فِي تَنَاوُلِهَا مَخْبُوزَتَيْنِ بِالْقُودِ كَمَا  
وَفَقَاعَاتِ الشَّامْبَانِيَا الذَّهَبِيَّةِ، بِانْتِظَارِ الْوَلُوجِ إِلَى الْجُرْفِ  
الِدَاخِلِيِّ الْقَلِيلِ الْعَمِيقِ، اللَّيْنِ مِثْلَ جِرْحٍ مَكْشُوفٍ، مَحَلِّي بِالرُّضَابِ  
مِثْلَ سُكَّرِ مُرٍّ، هَكَذَا يَدُوحُ الْعَقْلُ، تَسْكُرُ الْمَشَاعِرُ، بِانْتِظَارِ الْعُبُورِ  
الْبَعِيدِ جَدًّا، الْقَرِيبِ كَعَرَقِ النَّحْرِ، وَذَكَرَى لِبُؤَةِ تَلَوَّتْ مِنَ النَّشْوَةِ  
وَهِيَ تَصَارِعُ رَغْبَتَهَا بَيْنَ الْاسْتِسْلَامِ لِلْغَوَايَةِ وَالتَّمَدُّدِ فِي رِحَابِ  
اللَّذَّةِ وَبَيْنَ مَقَاوِمَتِهَا لِلنَّهْشِ، يُشْعُّ الْجَسَدُ بِقَطْرَاتِ عَرَقِ غَزِيرِ

مُضْمَخٌ بِرَائِحَةِ الْعَسَلِ... تَصْرُخُ بِجَنُونٍ، تَعْوِي عَوَاءً يَأْتِي مِنْ أَعْمَاقِ  
الْأَرْضِ، مِنْ حَيْثُ اللِّاقَا الْمَشْتَعَلَةُ بِالْجَمْرِ، قَبْلَ أَنْ تَتَهَارَ وَتَقْبِضَ  
بِأُظْفَارِهَا كَتَفِيهِ وَتَفْرَزَ أُنْيَابَهَا عَمِيقًا فِي اللَّحْمِ.

كَانَ يَسْتَسْلِمُ لِعَقْرِهَا مُؤَكِّدًا لَهَا أَنَّ الْأَلَمَ الَّذِي تَصْنَعُهُ أَنْثَى  
مَلْتَهِيَةٌ هُوَ ذُرُوعُ اللَّذَّةِ، لَكِنْ رَجَاءٌ لَا تَقْطَعِي الشَّرِيَانَ السَّبَاتِي  
النَّافِرَ فِي الْعِنَقِ؛ فَهَذَا يَجْعَلُهَا حَيَوَانًا مَتَوْحِشًا، وَهُوَ فَرِيسَةٌ فِي  
غَايَاتِ اللَّذَّةِ، فَلَا أَنْتِ حَيَوَانٌ -إِلَّا قَلِيلًا- وَلَا أَنَا فَرِيسَةٌ بِانْتِظَارِ  
مُطَارِدٍ أَوْ صَيَّادٍ...

...مَنْ الْفَرِيسَةُ وَمَنْ الصَّيَّادُ؟ هَذَا "جِيمٌ" مَشْتَرِكٌ، وَسَجَالٌ أَبَدِي لَا  
يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَدِّدَ قَوَاعِدَهُ، فَقَطِّ أَوْلَيْكَ الزَّاهِدُونَ فِي الْحَيَاةِ...

قَالَتْ مُسْتَتَكِرَةٌ وَصَوْتُ ضَرِبَاتِ الْبِيَانُو عَلَى وَتْرِيَاتِ الْقِيُولِينَةِ  
يَقْهَقُهُ فِي الْفَضَاءِ: أَنَا الصَّيَّادُ! أَنَا! أَنَا بَرِيئَةٌ وَاللَّهِ. قَالَ بِصَوْتِ  
غَلِيظٍ وَهُوَ يَنْحَنِي عَلَى أَرْنَبَةٍ أَنْفَهَا يَعْقُرُهَا: هَذَا مَا يَقُولُهُ الدِّينُ،  
وَهَذَا مَا فَعَلْتَهُ حَوَاءٌ بِأَدَمٍ... تَنْقَلِبُ عَلَى صَدْرِهِ فِي حَرَكَةِ مَفَاجِئَةٍ،  
يَجِدُ وَجْهَهَا قَرِيبًا مِنْهُ قَرَبِ حَبْلِ الْوَرِيدِ، تَهْمَسُ بِخَلَاةٍ:

- Marry me.

- What?

- Marry me.

- نَصَّابَةٌ. هَزَتْ رَأْسَهَا مُسْتَفْسِرَةً: إِيه؟

- مَشِ اتكَلَّمْنَا فِي الْمَوْضُوعِ قَبْلَ كَدِهِ، وَأَنْتِ رَفَضْتِيهِ؟

- Marry me. Marry me. Marry me.



- مَقْدَرش.

- ليه؟

- روبرت رد فورد ليس قدرتي.

- قصدك إيه؟

- إنتِ إختَلَسْتِ المشهد منه هو وميشيل فايفر

- إيه ده؟

- لا... لا... متستعبطيش... إنتِ سَلَبْتِيه.

- سَلَبْتِه من فيلم إيه؟

- Up Close & Personal (1996).

- والله ما اعرف... والله العظيم ما اعرف...

- أنا مش ناقص روبرت رد فورد يدَمَّر حياتي.

- إزَّاي بقي حضرتك؟

- المطارِد، غاتسبي العظيم، كل رجال الرئيس، عرض غير

مشروع، Personal & Close Up، The Horse Whisperer، القلعة

الأخيرة، لعبة الجاسوسية... مقدرش. لا استطيع.

- طب إيه المشكلة؟

- لا فرعون من الفراعنة ولا ملوك الهند والسند ولا أباطرة

روما، ولا سلطان المسلمين، يقدر أي واحد منهم يرفض طلب

ميشيل فايفر بالطريقة التي عرضت عليها الزواج من روبرت رد

فورد في فيلم Personal & Close Up...

- مش فاهمة حاجة.

- وانا مقدرش استحمل الهوت شورت بتاع فاتن ولا عرضك  
علِّي بالجواز على طريقة ميشيل فايفر...

- إنت إيه حكايته مع روبرت رد فوردي؟

- روبرت رد فوردي فنان يسير ضد التيار، صنع مهرجاناً من  
أجل سينما قليلة التكلفة وفن راق، إنه النموذج الذي بشر به  
صديقك تيري إيجلتون... إنه الرجل الذي ليس فقط يحترم المرأة  
بل يعطيها كل ما تحتاجه من الاحترام كي تتربّع على القمة...

- كما تفعل معي. سألتها إذا ما كان؟ قاطعته وهي تسأله أن  
يتزوَّجها، ومتى سوف يلتقي بأُمِّها؟... تزوَّجني أم لا تريد؟ قال  
ومن يمكنه أن يرفض طلباً بمثل هذا الشرف الرفيع. قالت متى  
ستلتقي بأُمِّي؟ قال ليس قبل انفصالك التام عن زوجك. قالت أنا  
بالفعل منفصلة. أضاف وليس قبل اجتيازك الرسالة... عندها  
سيتصل بأُمِّها، ليس قبل.

- أوكي.

نظرت في ساعتها، كانت قد جاوَزت الحادية عشرة مساءً،  
قالت وفي صوتها لوعةً لواحدة من أجمل إماء بغداد سحرًا  
وجاذبيةً:

”وقد أدرك شهر زاد الصباح، فكفّنت عن الكلام المباح“...  
سمع صوت الدبّكة تؤذّن الفجر، والغانية تهتف... مولاي...

قفزت من جانبه وقامت تجري تنضو عن ثوبها المصنوع

من حرير طشقند وتخلع عما متها التي هبطت عليها من مكة، أمسك بقبضتها وجذبها لتعود إلى الجلوس جواره، سألته بحنق: عاوز إيه؟ أجابها أن عليها أن تعدّه بأنها سوف تستجيب لما يطلبه منها، أجابته أن عليها أن تعرف أوّلاً ما الذي يطلبه. قال عندما تعرف لن تعطيه ما يريد. أوكي دعني أرحل. عندما بلغت الباب عادت ثانية تسأله أن يخبرها عمّا يريده. قال إنه طلب منها أن تحضر سوتيان من مشدّات صدرها، قفزت من جواره وهي تبتسم وتقول إنها سوف تفعل، قال متصنّعاً اللأ مبالاة: والسروال التحتي... ضحكت... أنت طمّاع... تابعها ترحل وهو ينظر إليها بانبهار يُردّد ما قيل عن الفيلسوف الإنجليزي توماس مور الذي لم يشفع له كتابه عن المدينة الفاضلة، من أن يُضرب عنقه بعد حكم بالإعدام:

**”هذه سيدة لكل العصور، ستكتب يوماً مدينتها الفاضلة، وتموت يوماً آخر تحت مقاصل الأغبياء والدّهماء، ومحترفيهم أكل الموتى.“**

\* \* \* \*





## الفصل الحادي والعشرون

### القابضة لميالا الشُّرب والصَّرْف

في التاسعة صباحاً طرّق الباب جازهُ السيد محمود متولي، كي يذهباً إلى مقر الشركة القابضة لمياه الشرب والصرف، لتقديم شكوى إلى مدير إدارة الاشتراكات، أو الشبكات -لا يعرف- للتظلم من الغرامة المؤقّعة على طوابق مخالفة سبق التصالح عليها مع الدولة منذ ثلاثين عاماً، في المرات السابقة كان جاره يأتي بضجة حفيدته صاحبة الوجه المشرق بضجكتها الطفولية، يستفسر إذا كان قد انتهى من كتابة الشكوى، والتي قرّر أن يأخذ على عاتقه كتابتها، وكان يعتذر له بأدب ولطف شديد، مطبوخ في "حساء الشعور بالذنب"، أمام رجل طيب بصورة مطلقة، لا يفوته أداء فروض الصلاة في الجامع، ولا يرفض لأحد من الجيران طلباً، ويكُنُّ عداءً شديداً للإسلام السياسي، وخاصة الإخوان المسلمين، بصورة يصعب فهمها علي رجل أمضى حياته مُتقلّباً بين الوجودية، والعلمانية، والقومية، ثم استقرّ بين ضفتيّ التيارات اليسارية والماركسية الديمقراطية، تحوّل في أواخر العمر إلي التحلّي بروح صوفية، تحمل في ثناياها فضيلة الاستغناء عن عالم فاجر، واستغاثة موجهة إلى الله بأن يُنعم عليه بسلام أبدي...

كان أحد أسباب صبر جاره وقبوله اعتذاراته، فضيلته الشخصية بالقبول بكل ما يأتي به العالم من مثالب، حيث إن هذه الأمور إنما هي "أمرٌ كان مفعولاً". الأمر الثاني: علمه بأن الأستاذ الذي يظهر في القنوات الخلفية للمحطات الفضائية التي تملكها الدول بوصفه مثقفاً مستقلاً، أو ظهور مقالات في صحف أو حلقات لمسلسلات درامية في القنوات الحكومية،

يملك القدرة على كتابة العرائض، أمّا الأستاذ فقد كان يعرف أنه إذا كان طريق السيد محمود متولي إلى الجنة مُمهّداً، وموقعه لا يزال شاغراً بانتظاره، فالأستاذ لديه طريقة ومنهج مميّز لكتابة تقاريره الخاصة بالأعمال الفنية، وله بُونٌ شاسع في كتابة عرائض وتظلمات فاقت كفاءة عرائض المحامين أنفسهم، لموظفين وسائقين وعمّال يلجؤون إليه. كان يركز في العرائض والتظلمات على تقديم تصوّر عام وشامل ومقتضب للحالة، ثم يسرد بدقّة ودون ملل مجموعة الوقائع المتعلقة بالموضوع، مشمولة بتاريخ حدوثها وموثّقة بالوثائق الخاصة بها، ثم عرض باقتدار ما يثبت كفاءة الموظف، واهتمامه بعمله والدلائل المقرونة على ذلك، وينتهي بالأخطاء المنهجية التي وقعت فيها الإدارة العليا أو المسؤول تجاه العامل أو الموظف، ويطلب، طبقاً للقانون، والذي لا يبخل بذكر بنوده، التراجع عن توقيع العقوبة على الموظف، وربما على الأغلب يطلب له مكافأة، ينتهي الأمر بتراجع الإدارة وقبولها التظلم المُقدّم من العامل أو الموظف، وإضمار عقوبة للشخص الذي تحدّى سلطتها، وتجراً على إشعال شمعة تضيء سُرّ الظلام التي يعكفون بروح وكفاءة شياطين العالم السفلي على نشرها في فضاءات المحروسة.

الآن يعلم جيّداً أنه لم تُعد لعرائضه قيمة، فقد تضاعف مقدار السماحية القديم في كثافة الظلام المنتشر، وخاصةً أن الأنماط الجديدة التي اخترعت لنهب الأموال وتسهيل الاستيلاء عليها، مثل الشركات القابضة، بيع الأراضي بقروض مُيسّرة من البنوك، وتسقيعها، وقانون رقم (5) الخاص بتدمير قواعد

الترقية المؤسّسة على الأقدمية، إلى إطلاق يد الإدارة العليا في اختيار سدنة الفساد والجهلة والمنافقين.

يعلم الآن أن الأمور تغيّرت كثيرًا، ومهما أحسن الصياغة فلن يفت هذا في عضد أيّ من المسؤولين الجُدُد في الدولة، والمسلّحون بكونهم ينتمون إلى الجيش الذي انتصر في أكتوبر 73، هؤلاء لديهم شعور بالقوّة والصلاحيّة، ينتمي إلى حُرّاس المعبد وفرسان الحملات الصليبيّة؛ شعور طاع بالتفوّق الإنساني، وعقول مُصمّتة على شعور يولد الأحقية المطلقة بالتفوّق. إنهم رُسلُ العسكرية المصرية الأكتوبرية، فالرحمة علينا؛ فلم يُعد للمواطنين المدنيين قيمة...

يعلم أن العلاقة بين الدولة وبين المواطن المصري التائه في الحياة كالفرخة الذبيحة هو عقْد إذعان، وأن عقودها التي تُؤسّسها مع المواطنين هي ليست عقود إذعان مُشينة، بل هي عقود عبودية؛ لهذا عندما صاغ شكوى العمارة وقام مع جاره الطيب على تصويرها، وتوجّه بها سويًا إلى إدارة حي "غيط العنب"، كان كلاهما غير واثق في نجاح المهمة، رغم أن عدالة قضيتهما واضحة ناجزة في مواجهة الشركة القابضة للمياه والصرف الصحي، وأن قضية حقوق سُكّان العمارة مؤسّسة على أكثر القواعد عرّافة في تاريخ القوانين، والمتعلّقة بعدم جواز توقيع عقوبة بتاريخ لاحق على صدور القانون، وأن خسارتها واقعة لا محالة؛ فالسلطة التنفيذية غول يأكل ما يجاوره من سلطات.



في مكاتب الشركة القابضة لم يقرأ مدير إدارة الشبكات خطاب التظلم، وإنما قام وقعد على مكتبه فبدأ عملاقاً، ربعة، مثل حيوان غاضب من فضيلة الديناصورات، ولَفَّ ذيله العملاق حول نفسه يميناً ويساراً، وهو ينظر برأسه الأفغواني بسخط إلى صفتين مُمتدّين من المكاتب النظيفة التي تتجاوز بحداتها فقر وقدم المكاتب الحكومية، يجلس عليها عُصبة من موظفين، كلٌّ منهم مُستعدٌّ لارتكاب جريمة قتل عمداً رغماً عن كونه غير مقتنع بضرورتها، وهم الذين أصابهم الملل من المواطنين وشكاواهم، يشاهدون بلدة السيد المحترم المدير (من فضيلة الديناصورات) يعبث ويمسح البلاط بهم، ثم يسحقهم سحقاً، مستخدماً حذاءه "الأجلاسيه" الذي يُخفي مخالب، ووزن كل منها نصف طن، وطولها ثلاثة أمتار...

طلب من أحد موظفيه الذين يتلمظون شوقاً بلعق بقايا الضحية، ولعق مخلفات دماؤها المسفوكة، إحضار ملف العمارة المخالفة، وهو يستمع إليه مُفسراً الشكوى المقدمة، والتي يطلب فيها سُكَّان العقار توضيح بنود المخالفات الموقَّعة من قِبَل الشركة القابضة، مثل تحديد سعر قيمة تغيير العداد، والذي سيتم دفعه من قِبَل بعض سُكَّان العقار، وخاصة أن ثلثي السكان قد تعاقدوا منذ حوالي عشرين عاماً على عِدَّات خاصة بكل منهم، وهل ضُمَّت المخالفة تكاليف إصلاح الوصلة بين الشبكة والعمارة، وتوضيح إذا ما كان ينطبق عليها كونها وصلة منزلية يتم إصلاحها على نفقة سُكَّان العمارة، أم أنها جزء من الشبكة العمومية يتم إصلاحها على نفقة الشركة القابضة، وطلب ذكر

النَّصُّ القانوني الذي استندت عليه الشركة القابضة للمياه والصرف في توقيع عقوبة مخالفة الطوابق لتصريح البناء.

لم يحاول الديناصور القابع على رأس المكتب قراءة الشكوى، وبدا مثل وحش هائل تخنقه جرأة الضحية على مواجهته، انتفخ جسده الهائل وأثناء تحرُّكه يُمنّنة ويُسرة كان العالمُ ينهار على رأس الحضور، تطايرت الأشلاء في المكان، وتحوّلت العصابة التي تتبعه إلى ديناصورات قاتلة، وقبل أن يجلس تساءل عمّن أثار موضوع سعر العدّاد الذي تمّ تغييره، أو تكلفة إصلاح الوصلة، والتي لم تتضمّنْها قيمة المخالفة، وهُدّد بالثأر من جرأة ضحاياه الذين تجرّؤوا على الهمس بمطالبهم، وأضاف أن عليهم الصمت والأسيوِّق عليهم بالإضافة إلى الغرامات الموقّعة، قيمة العداد الذي تمّ تغييره، وتكلفة الوصلة اللتين لم يُسجّلَا بسبب سهو موظّف عام كان يُفكّر في "دكرين بط" أهداهما إليه صاحب عقار مُخالف.

لمح جاره الطيب السيد متولي يجلس في مواجهته وعلى وجهه ابتسامة تشفّ، وفي آخر الحجرة موظفة شابّة تنظر نحوهما، وهي لا تحاول إخفاء ضحكة تقطر بالسخرية منه، مُضمّنة تحيةً للسيد المدير الديناصور في براعته في تهديد المواطنين والبطش بهم وإفحماهم بسلاح القوة للسيطرة المطلقة التي أصبحت تملكها السلطة التنفيذية تجاه ما عداها، وبالأخص المواطنين، وما يتبعه من امتلاك مُدَى وخناجر وسكاكين وسموم الاحتقار.

قام من فوره واعتذر للسيد المدير المندھش لسرعة استسلامه، وهو يسأله سؤالاً أخيراً: ألا يُعدُّ توقيع غرامة على الطوابق المخالفة التي تمَّ إنشاؤها منذ ثمانينيات القرن الماضي عقوبة بأثر رجعي أمراً غير دستوري؟ غادر وخلفه وحشٌ يخوض معركة دموية نافيا اتهام الضحية المسكينة التي لا حول لها ولا قوة سوى حرية القول، ولا شيء غيرها، فلا حق ولا قانون ولا أمن تملكه.

في السيارة جرت مشادة بينه وبين جاره الطيب، عاتبه على طرح موضوع العداد والوصلة، وأنه فعل ذلك حتى لا يضطر لتحمل قيمة المخالفة كاملة، والتي ستُوقَّع على طابقيين فقط دون بقية العمارة. حاول جاره أن يُبَرِّر ما فعله وتحذاه بالقول عمّا يمكن له أن يفعل حتى لو كان يعلم ماذا كان سيحدث، قال له إن المدير هدّده بتضمين قيمة تغيير العداد، وتكلفة صيانة الوصلة وإصلاحها، وهو لا يستطيع تحمُّل توقيع غرامات أخرى على السُّكَّان بفعل جهله، كما أن المخالفة يجب أن توقع فقط على سُّكَّان الطابقيين الأخيرين، وليس جميع السُّكَّان، كما تحاول أن تفعل. ساد الصمت قبل أن يتحوَّل جاره إلى ذبيحة في معبد السلطة التنفيذية، وكهنتها الملوثة أياديهم بدماء غزيرة.

قال: الآن الأمر الواضح. إن الغرامة تخضُّنا نحن سُّكَّان الطابقيين الأخيرين فقط. فأجاب نعم. قال جاره وقد نضطرُّ لدفعها. قال: نستطيع أن نكتب تظلماً إلى رئيس الشركة القابضة للمياه والصَّرف، يستند على أنهم يوقَّعون مخالفة بأثر رجعي، وهو مُخالفٌ للدستور.

كان كلاهما يعلمان علم اليقين أن ما يفعلانه محض هراء، لن يأتي بنتيجة، لكن جاره المتدين بصورة تضارع العابدين، والذي شارك في أحداث 25 يناير، وطلب من ابنه المشاركة والنزول إلى ميادين التظاهر- وافق من قبيل قاعدته الوجودية، وهو أن يفعل ما يتعين عليه فعله، ويترك النتيجة للمشئة الإلهية. وبناء عليه عاد وقد عزم على كتابة تظلم آخر إلى رئيس الشركة القابضة.

\* \* \* \*

عندما التقاها دار الحديث بينهما حول الشركات القابضة والجرائم التي يرتكبها بعض رؤساء مجالس إدارتها، وأن القرار المتعلق بإطلاق يدهم في تمويل أو استرداد ميزانية إنفاقهم على الخدمات أو غيرها من المواطن دون حساب أو قانون أو رقابة من مجلس النواب وتشريعات سابقة هو شطط ما بعده شطط.

تابعها ترشف بتمهّل كوب النسكافية بشفتيها الغليظتين، تسأله إذا كان للجامعة أن تسمح لها بالحصول على درجة الدكتوراه؟ ردّد لنفسه أن هذا يشبه القبض على الماء، أضافت أن نموذج الشركات القابضة هو المثال الأكبر على رأسمالية دولة، تُكرّس البنية الاقتصادية وتُتميّها لصالح الطبقة التي تحيط بالسلطة التنفيذية والأفراد التابعين لها؛ كي تستطيع كبح نموّ وقوّة الطبقة الرأسمالية التقليدية، وتسيطر عليها بقوة تجعل منها طبقة ضعيفة، تابعة، عميلة، لا تجرؤ على الارتقاء لمطلب الرأسمالية الوحيد المرهون به وجودها الوطني العام، وهو الحرية والديمقراطية وتحرير أسواقها المحلية وغزو الأسواق

الإقليمية والعالمية ... لهذا سَلِّم لي على البطاطا .

سألها وهو يتابعها في غاية الاندهاش:

- أسَلِّم لك على البطاطا أو البطاطس؟

- وإيه الفرق؟ قالتها وهي تضحك برعونة وتعود برأسها إلى الورا، فيقفز نهداها إلى الأمام.

مُتسلِّقا طبقات العابدين. همس البطاطا حلوة. عكفت عيناها وحواجبها مؤكِّدة: تبقى البطاطا، ما أنا قلت البطاطا. هزَّ رأسه وهو يقترب من صدرها ويهمس: حاضر اسمحي لي أسلم على البطاطا. توسَّد برأسه نهدبها وتمرَّغ بينهما، وهي تقول مؤكِّدة: شُفَّت بقي، ما أنا قلت لك.

- أيوه... ما انتِ قُلْتِ لي. أشار لها كي تنتقل إلى الجلوس أمامه وبين أحضانه، مسَّد رأسها وحرَّر جدائل شعرها لتحطَّ بنعومة على صدره، بعد وقتٍ مُقتطعٍ من المتعة، حرَّر أثناء حصرها وبطنها من البلوز المصنوعة من السَّتان العاجي، ضحك وهو يُمسَّد ظهرها وقال بلُطف: إيه رأيك نبدأ؟ هزَّت رأسها وغمغمت لنبدأ. تصاعد في صوتها دفء وقوَّة البيانو ونعومة القيولينة... بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد...

تستطرد في سردها للرسالة، ويعود يدفع فِرْق خيالته الخفيفة للهجوم على أنحاء مُتفرقة من جسدها، لتعود كتابته كما استهلَّت رحلة استكشافها خائبة، يستقرُّ بكفَّيه المفرودتين على سعتيهما على جانبيها العاريين، هناك على كشحها الهضيم حيث ينسى العالم وجوده... لا يدري كيف حدث ما حدث، سوى

أنه من فرط شعوره بالشبع والرضا، وعدم القدرة على نزع يديه  
عن الملامسة، التحم لحم كَفَّهُ بلحم كشحها الناعم اللدن، كيف  
نسي كَفَّهُ هناك... على رنين صوتها غَطَّ في نوم عميق ولديه شعور  
طيب بأنها هي الأخرى كانت تستمتع بارتياح بالغ.

\* \* \* \*



الجزء الخامس  
تَجَلِّيَاتُ الْحَقِيقَةِ



موتي وأحياء....



# الفصل الثاني والعشرون

## الأصول



الأيام  
الأخيرة من

أثناء الاستعداد لدعوة أصدقائه للاحتفال برأس السنة، سأل ابنه أن يدعو أصدقاءه وصدقائه للحضور كعادتهم، مشفوعاً بمسؤوليته عن شراء "الحبشي" وتجهيزه في النوادي التابعة للقوات المسلحة المنتشرة في المدينة، وقبل أن يستكمل حديثه حول تلك اللائحة الطويلة من تفصيلات (كزرها ابنه)، من نوع: الحد الأقصى للوزن، والسعر، والموعد المناسب، والنادي الذي سيقوم بإعداده مع الأرز البسمتي والمكسرات، وأهمية الاتفاق على السعر؛ احترازاً من الوقوع في ورطة مائيّة، وخاصّة بعد الدمار الذي سبّبه الارتفاع الجنوني الأخير في أسعار الوقود والخدمات، وكان ابنه يكره أن يلقي بالألتك التفاصيل الحمقاء، وبانتظار واحدة من مفاجاته غير المتوقّعة، وحفاظاً على تطبيع العلاقات بينهما، والتي قرّر أن يتلقاها بهدوء، أجابه بأنه ينوي قضاء أسبوع رأس السنة في بيروت، فأسقط في يده، وأثناء مهاتفة ابنته ربما تقبل القيام بالمهمّة بدلاً من السيد الشاب الذي اعتذر لارتباطه بأصدقائه، حضرت الأسرة دون موعد سابق، جلسوا في غرفة الاستقبال، بدأت أخته الكبرى بالحديث، أشارت إلى أنهم قادمون لتوهم من بيت المرحومة الوالدة، حيث قاموا في حضور الجميع بفتح دولابها، وحقائبها وخزنتها. وأضافت الصغرى: "إن زوجة المرحوم أخيك كانت حاضرة". أكّدت الكبرى: "أيوه صحيح، الوحيد الذي لم يكن موجوداً هو أنت". هزّ رأسه وقال متفهّماً إنه يعلم السبب، أخوك مضطر للسفر، لا توجد مشكلة، المهم المبدأ.

قالت إن هذا هو الطبيعي، فمثل هذه الأمور يجب أن تتم في حضور الجميع، وأضافت أنها أصرت على القدوم إليه وإحضار كافة المتعلقات الخاصة بالمرحومة ووضعها أمامه.

قال إنه لم يكن هناك داعٍ للتعجب. وأشار إلى أخيه واستطرد: وما ذنب المسافر؟ قال الأخ الأوسط والذي كان في منتصف الأربعين إنه أخبرهم بضرورة وجوده. قال طبعاً، الأصول أصول، ونحن تربينا على الالتزام بالأصول وحفظ الحقوق، وسألهم عمّا اتفقوا عليه. أشارت الكبرى إلى الطاولة حيث صُفِّ عِدَدٌ من الملفات وصندوق متوسط الحجم، أخذت أحد الملفات وفتحته قائلة إن تلك هي عقود الأرض، سواء التملك أو الإيجار، سنتركها لديك، تحتفظ بها، وإذا ما احتاجها أحدٌ هي معك. وضعت ملف العقود أمامه، وأخرجت ملفاً آخر وقالت: وهذه مسودة لتقسيم الأرض، أطلع عليها وقل لنا رأيك.

- حاضر.

ثم جذبت صندوقاً من الخشب المشغول بالصِّدْف والعاج، وفتحته وقالت هذا ذهب المرحومة ماما. بكت الأختان، الوسطى والصغرى، ضمَّهما وربت على ظهريهما يواسيهما. وأضافت الكبرى أنهم ذهبوا إلى دار الفتوى، وسألنا بخصوص الذهب، قالوا إنه طالما لا توجد وصية من الأم، فالذهب يُقسَّم طبقاً للشَّرْع. وقالت إنهم سوف يذهبون إلى صائغ الأسرة كي يبيعه. وأضافت: "أنا خلصت". أوضحت كل شيء، وطلبت من الجميع المغادرة. رفع يده وقال بابتسامة هادئة: لا.. انتظروا لحظة.

دعاهم للجلوس، وقال: أوّلاً عقود الأرض يُصوّر منها نسخة لكل واحد، وتترك الأصول عندي.

- عدّاك العيب يا أخويا.

- أشكرك. وبعدين بالنسبة للذهب، أنا عاوز الذهب اللي جبّته لأمي، عاوز أهديه لابنتي ديدى، حدّ عنده مانع؟ بسرعة مدّت أخته الكبرى يدها في الصندوق تخرج عدداً من الأساور الذهبية، وعقدًا يتدلّى منه مصحف ثقيل، وثعبانان من الذهب. وضعتها جانباً وهي تقول: اتفضّل يا حبيبي اللي انت عاوزه كله. مدّ يده وبابتسامه صافية جمع الذهب وأعاده إلى الصندوق وقال: اصبري علىّ، أنا لم أقصد أخده ببلاش، الدّهب كله معكم، ثمّنتوه عند الحاج حمدي، وكيفما يكون الثمن سوف أدفعه لكم، تمام زي ما حكم الشّرّع. إذا جاب عشر قروش حادف عشر قروش، عشرين حادف عشرين. وأنا لا أريد سوى الذهب الذي أهديته لأمي. نظر إليهم جميعاً وأضاف: هل هناك مشكلة في الكلام ده؟ صاحوا جميعاً بعدم الاعتراض، استطرد أنه يرى أن يُتمنّ الذهب وقبل أن يُباع اسألوا أنفسكم، إذا كان أحدكم يرغب في الاحتفاظ بقطعة منه لزوجته أو بنته من ريحة ست الحبايب، يدفع ثمنها ويأخذها.

- عدّاك العيب يا أخويا. قال الأخ المسافر (موجّهاً حديثه للأخت الكبرى)، وقد افتّر ثغره عن ابتسامه واسعة: شفّتي، قلت لك هو حيكون عنده وجهة نظر ثانية، واستدار نحو أخيه الأكبر:

كلام تمام. استطرد: يبقى احنا متفقين على مبدأين: الأول: تامين الذهب في حضور الجميع، والثاني: اللي عاوز يأخذ قطعة منه أو حتى كله، يدفع قيمتها ويتم التوزيع طبقاً للشرع...

دار الحديث حول العزاء، من جاء ومن لم يأت، ورغبة أخته الصغرى في الاحتفاظ بطاقتي الصيني الذي يخصُ المرحومة، وكان تحفة في الجمال، مرسومًا بزهور وفواكه ملونة بارزة، وعندما لم يُبدِ أحد اعتراضه، قرّرت الأخوات الثلاثة اقتسامه فيما بينهن، وعندما سألهن أن يضيفوا ابنته ديدي للقسمة، وافقن من فورهن، وعندما تهيأت أخته الكبرى لدعوتهم للرحيل، سألهن أن تصبر قليلاً، وأضاف أنهن قدّما طريقتين للتقسيم، إمّا الشرع أو العلاقة القائمة على المسؤولية والمحبة والحاجة الضرورية التي يحتاجها الأخوة بعضهم البعض، وأضاف يُذكرهم أنه تنازل عن ميراثه في المرحوم أخيه لبناته، تنازل عن نصيبه في شقة المرحوم (أخوهم) كي يتزوج أخوهم الأوسط بها، وقد تنازل الجميع عن حقوقه بها، والآن والحمد لله تزوج، وفتح الله عليه من وسع. لكنه لا يزال يحتفظ بالشقة، القسمة هنا لم تكن طبقاً للشرع، ولكن طبقاً للاحتياجات الضرورية، والتي تضع في المقدمة تلبية حاجة من تتعثر ظروفه من الأخوة عن استكمال حياته الطبيعية لحين ميسرة، وكيف للأخوة أن يكونوا أخوة إذا لم يساندوا بعضهم البعض... وأشار للأخ الأصغر وقال نفس الشيء ينطبق على الأصغر، تزوج وخلف في الشقة التي اشتريتها للوالدة، إذ لم يتوفّر معه المال الكافي لشراء شقة

الزوجية، لكن روح الأخوة والمسؤولية والتكاتف جعلت الأكبر يضحي للأصغر، وأشار لأخته الكبرى وقال لها إنها ضحّت، وكذلك أختك، وفضلنا جميعاً الاحتياج والضرورة على الشرع والحقوق، ولولا هذا لكان البعض منّا "مخلّل" من غير زواج، كان زمانهم عوانس (ضحكوا)، مُتفقين؟ هزُّوا رؤوسهم، استطرد قائلاً:

إذا لو أردتم توزيع الذهب طبقاً للشرع، يتم تثمينه، وأنا أخذ الذهب الذي أعطيته لأمي، وأدفع قيمته، لكن في نفس الوقت أخوك يتّمّن الشقة ويدفع حق ميراثنا وإيجارها طول السنين اللي فاتت، ينطبق الأمر على المرحوم أخوك، وزوجة المرحوم أخوك ترجع ما تركته لها في ميراث المرحوم، وهو كثير، وأنا مش عاوزه، بس يعني احنا مش ح ناكل حق بعض... فكروا. إمّا التقسيم طبقاً للشرع، أو طبقاً للعرف اللي وضعناه، والذي وافق عليه الجميع، واستفاد منه، وقضيتم به شؤون حياتكم، من غير المقبول بعد ثلاثين سنة نغيّر القواعد فجأة ويتم التّحجّج بالشرع، ده رأيي وانتم أحرار... الكيل بميزان واحد هو العرف الذي قبلنا به، أو الالتزام بالشرع.

- لا لا اللي انت بتقوله حيمشي على الجميع. وسامحني إذا كان فات عليّ حاجة يا أخويا.

- يا حبيبتي ولا يهملك... فكّروا في اللي انتم عاوزينه ونفّذوا اللي انتم شايفينه صح، وأنا تحت أمركم.

قبل أن يقوم مُغادِرًا، قالت أخته الكبرى مُوجَّهةً حديثها  
لأخوته: إنتم حتعملوا مسوِّدة العقود وتورُّوها لآخوكم الأوَّل، يقول  
رأيه واللي يقول عليه حنعمله. أجاابوا بالإيجاب: طبعا.  
ودَّعوه بحرارة، وقالت الأخت الصغيرة: خُليكَ انت براحتك،  
واحنا حنروح الصَّاغة.

\* \* \* \*







## الفصل الثالث والعشرون طاقة من الكراهية

هاتف ابنته ليوكل لها أعداد الاحتفال برأس السنة، فاجأه صوتها يحمل خليطاً من الاكتئاب والتعاسة، وقبل أن يتحوّل الحوار إلى مناخ، أخبرها بأنه يودُّ لو تأتي من فورها، قالت ببؤس إن عليه أن يفتح الباب. أصيب بالدهشة وتوجّه من فوره حيث وجدها أمامه في حالة انهيار.

ارتمت في أحضانه تكي، ضمّها بحنان وأخذها إلى الداخل، أجلسها، أحضر كوباً من الماء، وجلس جوارها يحتضنها ويمسح دمعها، وهي لا تكفُّ عن القول: عاوزه مامي... فينيك يا مامي. أمطر رأسها وجبينها بقبلاته، هدأت قليلاً وتحوّل البكاء إلى انتحاب، استفسر عن صحّة طفلها، أجابت بأنهما عفاريت... سألتها: صحتك أنت؟ ... أنا كويسة... محسن؟ ... تردّدت ثم قالت... زي الحصان... حماتك؟ مش بطالة... طيب حالتكم المالية، لوفيه مشكلة ممكن أساعدكم؟ قبّلتها وهي تقول: متشكرة يا بابا... طول عمرك واقف جنبنا...

- أمال فيه إيه يا بنتي؟

مسحت دموعها وتراجعت مُبتعدة، وقالت: مفيش حاجة يا بابا، تعبانة شوية. اكتفى بإجابتها وحلّ به الارتياح: ماشي يا بنتي. قام يحضر عصير برتقال، تذكّر امتناع سوزي عن تقبيله،

فاستدار يسألها أن تَشْمَمَ فمه وتخبره إذا ما كانت رائحة فمه عَطِئَةً. فعلت بطريقة آليّة، ثم تراجعت غاضبة تسأله لماذا يهتمُّ برائحة فمه، رجاها أن تفعل، ففعلت وأخبرته بغضب إذا كان هذا من أجل صديقتة ليطمئن.

- مالك فيه إيه، زعلانة ليه؟

- زعلانة... إنت شايفني زعلانة؟

- أنا عارف! أنا سألتك تشمّي بّقي، مطلبتش منك مليون دولار.

- يا بابا عيب عليك.

- ليه، عملت إيه غلط؟

- المشكلة إنك متخيل إنك مبتعملش حاجة غلط...

- طب زعلانة ليه، قولي لي؟

- يهّمك يعني. قال بعتاب: يهمني! دا سؤال يا بنتي! قالت وهي

تنهار باكية: محسن عاوز يسيبني.

- مين قال كده... هو قال كده؟ انفجرت في بكاء حار...

احتضنها: حبيبتي... قولي فيه إيه؟ بعد لأي طويل نطقت: محسن بيتعلم منك.

- يتعلم مني!

- محسن بيخونني. فهم ما تعنيه، تجاهل تعريضها له وسألها

بهدهوء: يخونك؟ هزّت رأسها بالإيجاب.

- ولا يهّمك. تساءلت: أزاى يعني؟ قال يا صرار: يعني ولا يهّمك...

وأضاف يسألها إذا كانت تحبه؟ أجابت إنها تكرهه؟

- يعني بتحبيه. قالت بحزن إنها بتموت فيه. أمسك بيدها وقال إن عليها أن تضع عواطفها جانباً، وأن يكون لديها استراتيجية تؤمن بها خارج نطاق الحب والمشاعر. سألته: استراتيجية إيه؟ قال: استراتيجية الاستغناء. واستطرد قائلاً بوضوح وهو ينقل لها شعورٍ عارماً بالثقة: طُظَّ... في ستين داهية. قالت: والولاد؟ قال: مش ح يشوفهم، وبعدين شُفْتِي فيلم ”عرض غير مشروع“.

- يا دي النيلة؟ إيه العلاقة؟

- اصبري يا بنتي... عيب.

- حبيبي يا بابا... أنا آسفة... سامعاك.

- تقول ديمي مور في المشهد الافتتاحي للفيلم وهي عائدة لحبيبها بعد علاقة عابرة مع الملياردير الذي قام ببطولته روبرت رد فوردي، ”إذا كان لديك عصفور تحبه، وتريد حرته، أطلقه من أسرهم، وإذا رجع لك مرةً فلن يتركك أبداً“. أَلقت نفسها في أحضانه... مسد شعورها وهو غاضب حزين وهمس يقول لها: تمالكي أعصابك... خُشِّي خدي حمّام، واعملي لنا ولأولادك غداً، وأنا حاروح أجيبهم.

على الباب وقف يفكر، أخرج هاتفه يطلب تلميذته سوزي، اليوم هيهيئان لمراجعة الفصل الأخير من الرسالة... ينبغي أن يلغي مواعده، تراجع وعاد الي ابنته وكانت تلملم أشلاءها وهي تفرغ حقائبها في غرفتها القديمة، رفعت رأسها، كان يقف في باب الغرفة وعلى وجهه ملامح الحيرة، سألته إذا كان يريد شيئاً؟ هل يريد منها أن تذهب لاستعادة أطفالها، هز رأسه نفيًا، قالت: صديقتك قادمة؟ قال: أريد

أن أطلب منها ألا تأتي، قالت بلا مبالاة تصرّف على راحتك، لا أريد أن أكون عبئاً عليك. نهزّها وقال إن عليها ألا تعيد هذه الكلمات مرة ثانية، وأضاف إن المشكلة تكمن في أن غداً موعد تقديم الفصل الثالث ويجب مراجعته، نظرت إليه بطريقة ملتوية، وقالت بسخرية: يا بابا ممكن أعرف مين اللي بيكتب الرسالة، أنت ولا هي؟... والأما تشغش بالك... خليها تيجي يا بابا.

- مش حتضايك؟

- خالص، أنا بس أول ما باشوفها، تحضرني ماما فوراً.

أخذها في أحضانه، أوشكت أن تعود إلى البكاء وهي تقول: أنا محتاجة ماما قوي يا بابا. أجلسها على الفراش، فجلست منكّسة الرأس، رفع ذقتها بيده، وطلب منها أن تنظر في عينيه، فلما فعلت، قال: محدش فينا يقدر يستغني عن ماما، ثم سألها بجدية: ديانا... ممكن تقولي لي إذا أنا خذلتك في يوم من الأيام، أو تخلّيت عنك لحظة. هزّت رأسها نفيًا، قبّل رأسها، وأضاف: وأنا عمري ما حاخذلك، وحتشوفي حاعمل إيه مع ابن الكلب حبيبك محسن ده، أنا ماشي. وأضاف: لو جت سوزي خُطّيتها في المكان اللي يعجبك لحد ما آجي.

ابتسمت وهي تقول: حاخُطّها في المطبخ، والأ أقولك... في مخزن المانيكان، مش حتزعل. قال أن تضعها في المكان اللي يريّحها، وأن منزله لها فقط، فهمتي؟ قامت تحتضنه وهي تُردّد: حبيبي يا بابا.

\* \* \* \*

عندما فُتح الباب فوجئت سوزي بديانا تسدُّ المدخل، وقفت المرأتان كلُّ منهما قبالة الأخرى، سألت بارتباك: هو الأستاذ موجود؟ تراجع ديانا تدعوها للدخول، وقالت بأدبٍ جَمَّ أدهشها: اتفضلي... هو راح مشوار وجاي. ترددت سوزي في الدخول وقالت إنها تفضّل أن تعود في وقت مناسب، لكن ديدي أصرت على بقائها وأخبرتها أن والدها في انتظارها، وسيعود خلال وقت قصير.

دخلت المرأة الشابة الي غرفة الاستقبال متوجّسة، وخاصةً أنها لمحت عيون الشابة الصغيرة محترقة من البكاء. بعد دقائق جمعت شجاعتها وجلست جوارها، وضعت ساعدها حول كتفها بألفةٍ وسألتها عمّا بها. انفجرت ديدي في بكاء حار، سمعتها تقول إن زوجها تصرف على نهج أبيها، فاختار امرأة في مثل عمر سوزي، وأنها في حيرة لمن توجه الاتهام: لأبيها المتصابي، أم لزوجها المنافق! إن جميع الرجال أوغاد، وإنها تنوي الانتحار والرحيل عن دنيا غدارة. حاولت سوزي أن تشرح لها أن هناك بوناً شاسعاً بين سلوك أبيها الذي لا يوجد ما يلزمه بعدم إقامة علاقات نسائية، طالما كان أرمل وزوجته متوفاة، قاطعتها ديدي قبل أن تستكمل حديثها بسؤال عن سبب طلاقها، وإذا ما كانت تحب زوجها كما تفعل هي، أجابت بأن ظروفهما مختلفة، فزواج ديدي كان عن حبٍّ، كما أخبرها الأستاذ، بينما زواجها كان تقليدياً مدبراً، لم يُثمر عن حب أو أطفال. فلما سألت ديدي عن سبب طلاقها، قالت بأنه رجلٌ صعب العشرة.

- بيهينك؟

- كثير، وبالرغم من كده كنت أقوم بدوري كزوجة.

- ضربك.

- مرّة أو اتنين.

نظرت الشابة الأصغر سنًا مستفهمة وتساءلت إذا كانت تقصد القيام بدورها في الفراش، أجابتها بضمّة من شفاهها وعلى وجهها نظرة ضائعة، طبعا، كانت تقوم بواجبات الزوجة كما علّمتها أمها: الطبخ والغسيل والكي وتنظيف البيت، وبلا شكوى، لكن في الشهور الأخيرة لم تعد تطيقه، تُسلم نفسها جُتّة، والغريب أنه لم يشعر لمرّة أنه يضاجع جُتّة؛ وهذا ما دفعها لأخذ قرار الانفصال، لقد فهمت لأول مرة منذ زواجها الذي مرّ عليه سنوات، أنها لم تكن لديه سوى جُتّة، جُتّة.

تلقت ديدي فضفضة المرأة الشابة وشرعت تُبادِلها مشاعرها، بصعوبة فهمت سوزي ما تحاول ديانا قوله، وهو أن زوجها يخونها مع سيدة أعمال مُطلّقة، وأن مكتبهما الاستشاري يدير أعمالها للتسويق العقاري، وعندما استفسرت منها عن أشياء مثل: وهل محسن يحبها أيضا؟ أو من المؤكّد أن غريمتهما سيدة الأعمال تلك، سوف تخسر أمام جمال ديدي وثقافتها، وأن تلك المرأة الحيزيون لن تتمكّن من مجاراتها، لو أن ديدي تصرّفت بحكمة وذكاء. وكثيرا من تلك الجمل والعبارات التي تُطَيّب من خاطر المرأة الصغيرة وتريحها، لكن هذا لم يؤتِ أكله، بل جعلها تنفجر في بكاء حار، ومن خلال نحيبها علمت

أن غريمتها الحيزبون هي امرأة جميلة للغاية، وأنها صغيرة في السن. سألتها عن عمر غريمتها، فأجابتها بأنها في منتصف الثلاثينات. ساد الصمت لفترة، وحلّ بالمرأة الأكبر إجاباً؛ خشية أن تخسر ابنة الأستاذ معركتها وتصبح مُطلّقة وهي لم تتجاوز الثالثة والعشرين، ومعها طفلان، هذا مصير سوداويّ مُبكر لمن في عمرها. لكن ابنة الأستاذ فاجأتها بسؤال عمّا إذا ما كان انفصالها بسبب خيانة زوجها؟ فأجابت بالنفي، شعرت بالدهشة... لماذا انفصلتم؟ ضحكت سوزي وانحنت ناحيتها وقالت بتواطؤ: يا ماما مش قادرة أستحمل شخيره، صوته وهو نائم يجيب العمارة اللي جنبنا. ضحكتنا سوياً بصخب حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وأضافت سوزي: السُّكَّان اشتكوا، كنت صعبانة عليهم... قهقهت سوزي وأضافت: يا ماما سواقين الترام اشتكوا وعملوا إضراب بسبب شخير المزعج. ماما قالت "لا بقی يا بنتي مش حنعمل أزمه اجتماعية، طلقيه وأمرك لله". بعد أن هدأتنا بدا وكأن ديدي توشك على البكاء ثانية وهي تغمغم: بس أنا باحبه. ضمّتها سوزي وقالت بصوت خفيض: عشان كده لازم تحافظي عليه، الأستاذ رأيه إيه؟

- بابا؟ هزّت رأسها مؤكّدة: أيوه... الأستاذ. قالت بنبرة استنكار: عاوزني أستغني عنه، بيقول استخدمني استراتيجية الاستغناء. ابتسمت سوزي وقالت: أبوكي مهووس بالاستراتيجيات. هزّت ديدي رأسها وقالت كمن يعرف المستور: طبعا أكيد الأستاذ مستخدم معاكي استراتيجية الغواية، وجع دماغنا بيها. نظرت المرأة الصغيرة وأضافت بإشفاق: نفعت معاك؟ قالت سوزي



إنها لا تعلم. سألتها ديدي: بتحبيه؟ قالت إن كل الناس بتحب الأستاذ. طرقت الابنة رأسها بأصبعها، قالت تحذرنا إن عليها أن تفيق، هذا هو المسرح الذي يبني على خشبته الدراما التي بيرع في تأليفها. تجاهلتها وسألتها عمًا تتوي فعله؟ قالت إنها لا تعلم. سألت عن الساعة؟ نظرت سوزي ساعتها وهتفت: ياه بقالنا ساعتين بنتكلم. قفزت ديدي وهتفت: زمانهم جايبين، يلاً حاقوم أعمل الغدا.

- وأنا جايئة معاكي، خَلّيني أساعدك. في الطريق إلى المطبخ مالت ديدي على المرأة الأخرى وهمست:

- طلقتيه عشان بيشخر؟ قالت سوزي بصخب: شوفتي بقي، بيشخر وهو نايم، وصوت شخيره غَطَّى على كل شيء، ازأي تعيشي مع واحد شخيره ملك عقلك، خَلّي حياتي أسيرة سحابة من الشخير، واحد حطّك في سجن للحياة، شخيره فيها البطل، بيشخر وهو بياكل، وهو بيشتغل، وهو بيضحك معاكي، وهو بيعكنن عليك، وهو بيسخر منك، من حضورك، من وجودك، وهو يدعوك للفراش، وهو نايم جنبك، وهو نايم فوقك. قاطعتها ديدي وقالت: حياة شخير في شخير. انخرطنا ثانية في ضحك صاخب، عندما أوشكتنا على الانتهاء من عمل الطعام، لم تستطع ديدي أن تمنع نفسها عن القول بأن أباها سألتها اليوم إذا ما كان رائحة فمه غير طيبة. نظرت سوزي إليها بدهشة، وتوقّفت عمًا تفعله، وقالت: شفتي بقي، بجد عمل كده؟ أبوكي مجنون. فاجأتها المرأة الصغيرة: بيكي؟ هزّت سوزي رأسها نفياً وقالت بحسم: أبوكي مجنون بنفسه، مهووس بالأنسا بتاعته. قالت وهي تغمز لها

بتواطؤ: لم تُقبليهِ بعد؟ هزّت رأسها نفيًا، غمغمت الابنة: هذا ما خَمَّنتُهُ. انتهتَا من الطعام، خرجتا تَعْتَسِلان. في غرفة ديدي لمحتها تجلس على الفراش منهارَةً، اقتربت تسألها عمًا بها، قالت بصعوبة إنها أصبحت الآن تعتقد أن مشكلتي انفصالهما مختلفتان، فسواء شخّر محسن أو لم يشخّر فهي لا تستطيع الافتراق عنه. قالت سوزي تبرّئ نفسها إن لأحد يدعوها للافتراق عن زوجها، أضافت وبصوتها رنة حَسِدٍ للمرأة الصغيرة: يا بختك... كل ده بسبب الحب. هزّت ديدي رأسها كالْمُنَوِّمة، وقالت بصوت خافت: شُفتي "براد بَت" في فيلم "أساطير الخريف"<sup>(25)</sup>. تجمّد وجه سوزي وكأنها تشهد قبلة نووية صغيرة تنفجر في وجهها... غمغمت:

... عَيْلة مجنونة...



عائلة مجنونة  
أيّ المفرّ؟

الفرار... الفرار

\* \* \* \*

حلت اللحظة التي انتظرتها طويلاً، وها هي تجتمع على مائدة طعام واحدة مع عائلة الأستاذ النموذجية، ولكن بعد أن وشت ابنته بمجموعة من الحقائق أذهلتها، وجعلتها توقن أنها تعرّفت على شخص مختل عقلياً، وأن مصحّة الأمراض النفسية التي هربت منها إلى رسالة الدكتوراة أوقعتها في براثن معتوه... جوارها جلس ابنه حليق الرأس مثل زلط الإسكندرية، وابنته تحتضن ابنتها الصغيرة، وهما يتصدّراها من الناحيتين... الآن تكتشف أنها تجلس على مائدة تحتلها عائلة مُختلّة من الخرق، حتى هي المطلقة من زوجها صاحب الشخير الأوركستراي، المتهمة في الوسط الأكاديمي في شرفها العلمي، المضطهدة من أخوتها وعائلة أبيها، أكثرُ سواءً ممّا يجري أمامها...

أعادها من شرودها ورعبها صوتُ الابن يُدلي بدلوه في مأساة أخته، تندفع الكلمات من فمه بيقينٍ مُطلقٍ مثل مدفع رشاش، وهو يشنُّ هجوماً ضارياً على أبيه، ويدافع عن سلوك زوج أخته: يا بابا انت عايش في القرن الماضي، الصدق والشفافية، العلاقة الأحادية بين الرجل والمرأة، اعتراف بحق المثليين في الإعلان عن وجودهم، ليس بسبب حقوقهم ولكن بهدف حماية الأطفال، الاعتراف بحقوق المرأة وحق الأطفال في الحماية من الاستغلال، شكراً، الكلام ده قديم، دلوقت كل واحد أو واحدة

من حقه يحب واحد اثنين ثلاثة، اثنين يحبوا اثنين، ثلاثة يحبوا أربعة، كل واحد حر، عشان كده أنا معنديش موقف من محسن، يحب ديدي جميل، عمل علاقة مع رئيسه في للعمل هو حر، ديدي حتموت نفسها عليه، مشكلتها، أنانية وعاوزه يكون لها وحدها هي حرّة، لكن متعرضش عليه إلا بإرادته.

كاد يغشى على ديدي وهي تسمع أهاها يتدفق بالحديث مثل راديو مونت كارلو، صوت طليّ جميل عن الحرية المطلقة التي لم يشهدا الشرق المسكين من قبل... أتهم الأستاذ ابنه بأن مشكلته هي مشكلة كل جيله. شاهدت الابن يفتح ذراعيه متسائلاً بسخرية، إيه بقى مشكلة جلينا. قال الأب: ببساطة متعلّموش معنى الحب... وُلِدْتُمْ ونشأتُمْ في عالم استهلاكي مُتَشَطِّي. انخرط أدهم في الضحك، شاهدت أخته تضحك هي الأخرى، وأخوها يقول مُعَقَّباً، إن مشكلة الكبار تكمن في اعتقادهم بأنهم يفهمون كل شيء. صرخ الأب: ولد. ابتسم ابنه متراجعاً وهو يقول مش قصدي يا (بوس) "boss"، عفواً يا زعيم، انت علّمتنا الحرية. انت علّمتنا الصراحة. عقبته ديدي: اشرب يا بابا يا حبيبي... شاهدتهم سوزي جميعاً ينخرطون في ضحك متواصل، بدا وكأنه الجنون نفسه.

- أنا ماشي يا بوس، خَلِينِي انسَحِبْ دلوقت بدل ما العلاقة ترجع تسوء.

- استنّى شوية.

- حاضر، بس ما تزعلش.

- انت مش حتزعلني؟

فَكَرَّتْ سوزي كيف تتجو من هذه الورطة... يجب أن أرحل، كيف أستطيع الانسحاب من هذا الجنون... لا... يجب أن يمرَّ خروجي من هذا البيت بهدوء مطلق... لا فضيحة جديدة... كيف أستطيع البقاء وأنا أموت من الخوف... مائدة تعجُّ بثلة من المجانين، شقة تكتظُّ بالدمى، أوشك على الاختناق... تماسكي... تماسكي... ساعات قليلة وينتهي كل هذا الخبل... كل هذا الهراء... ساعات قليلة وتتجبن بجلدك من هذه الطائفة المنسلخة من الجحيم... الغريب أنني كتبتُ "الشَّابتر" الذي سنقرؤه سوياً من أجله هو... رحمتك يا إلهي...

توجَّه الأستاذ بجديته إلى ابنه: محسن جاي كمان ساعة، أنا وسوزي حناخذ الأطفال ونخرج نعمل شغلنا، وانت حتقعد هنا مع أختك. اعترضه بدهشة ساخظاً: ليه يا بابا؟

- مش حتخلي محسن يقرب منها. اعترض ابنه ووجهه يتحوَّل إلى ابتسامته الساحرة، وقال إنه لن يقوم بدور الحارس الخائب، عنَّفه أبوه لكنه استطرد باستياء أنه علَّمهم ألا يفعلوا شيئاً غير مقتنعين به، وأنه غير مقتنع. سمعت ابنه يقول وهي تراه يشير لأبيه وإليها: بقالكم سنتين على مسرح الغواية، ما ينفعش يا بوس، خلص بسرعة وشوف غيرها، يجب أن تتجاوز الوقوف عند محطة لذَّة التذوُّق، فيه محطات تالية كتير. اشتعل الأب بالغضب، لكن في وجود سوزي تمكَّن من كبح جماح نفسه، وهو يتابع حديث ابنه المُحرج، ينظر ناحيتها ويقول إن عليه ألا يكسر بخاطر البنيَّة. ويطول عليها الطريق الصعب أصلاً، بسبب صبرك الأيوبي. قاطعه وقال مستسلماً لو أن أخاه الأصغر موجودٌ لكان

سمع كلامه بدون نقاش. أجابه غاضباً هذا طبيعي لأنه يحبُّه أكثر منه. استنكر ما يقوله، مؤكِّداً أنه لا يفرق في حبه لأحد من أبنائه. قال الأستاذ مستسلماً للصرامة التي تعوِّد ابنه على معاملته بها منذ قرَّر أن ينضج بعيداً عن سطوة ما سماه بحب الأب الغامر، إن لديه الحق في أن يفعل ما يقتنع به، فعقَّب الابن أنه على يقين من أن ديدي قوية وتستطيع أن تواجه حرب البسوس والغبراء معاً، هذا غير حرب السويس 56. كما أنه يعلم يقيناً أن محسن لن يمسَّ أنملة منها، هو محترم ويحترمها، وأنا ماشي...

حيّاً الجميع، واختصَّ سوزي بإيماءة لم تفهمها، وبينما كان يغادر المشهد لم تستطع أن تمنع نفسها من تقدير وجهة نظره، وفكَّرت وهو يصافحها مُودِّعاً أن عليها أن تتأكَّد إذا ما كان هو الآخر كائنًا حيًّا أم دمية من البلاستيك الأكلريك، أو من البلاستيك. تابعته غير مُصدِّقة، وفكَّرت إذا كانت تعيش في بيت من الدُّمى الناطقة، وأن جميعهم دُمى، وبلا استثناء... أمسكت برأسها تمنعها من الانفجار...

\* \* \* \*



الفصل الرابع والعشرون

فلوكة

على سطح البحر

سَكَنَ البحر، تتأرجح أمواجه بهدوء حتى الأفق، زُرْقَةٌ داكِئَةٌ تلتقي باللون الفاتح لسمااء تتراعى بين جوانحها كُتْلٌ من سُحْبٍ بيضاء بلون الثلوج القطبية، وعلى امتداد البصر سَكَنَتْ لوحة هادئة من قوارب الصيد، وقليل من يخوت، وسفن، وناقلات وقفت بانتظار دخول الميناء.

جلس أربعتهم في الفلوكة، والذي جهَّزها الحاج مصطفى بوسائد تُمكن ضيوفه من الجلوس بارتياح، وأرسل صبياً يمدُّ يد العون. وبينما تُعدُّ أوراقها، عكف يُعدُّ للصغيرة زجاجة من لبن الأطفال، تابعته وهو يتأكد باحترافية من دفء قطرات اللبن قبل



ارحميني...  
أيها الكاذب العبير  
...على ماذا  
أطمئنك؟

أن يُرضع حفيده بما يُشبع جوعها، وسرعان ما استسلمت لخفقات النسيم البارد وراحت في نوم عميق، في الجهة المقابلة جلس حفيده يمارس الصيد بصنارة، وقد قيّد كتفيه وخصره سيرٌ جلديٌّ صنَّع لحماية الأطفال أثناء حركتهم على الطُرقات، أوثقه الأستاذ بخاصرته. لاحظ أنها تعيش في عالم آخر، سألتها إذا ما كان هناك ما يضايقها، تعلَّت بما كبحته ولم تأت على ذكره وقالت: صاحبك مطلعٌ عيني.

-مين؟ حاتم! قالت وعيناها ترتعشان إن صديقه تجاوز المعقول، أشعر بالخوف وأنا أعبّر ردهات الجامعة ليلاً. سأل متوجِّساً عن السكرتير. صمتت ثم قالت بعد وهلة: نعم، ولكنه يستدعيه ويطلب منه الرحيل متحجِّجاً بأنه متعاطفٌ معه بسبب



استمراره في العمل طيلة اليوم، يتطَّلَع الرجل العجوز نحوي وعيناه تحملان بحراً من الإشفاق. قال منزعاً وفي صوته نبرة تعاطف وغضب: المنحط ضايقك؟ كيف له أن يفعل؟ اعتصمت بالصمت، ورحلت بعينيها نحو الأفق حيث السماء الذهبية الناعمة المشرقة تلتقي زُرقة البحر الساكنة... هي المرة الأولى التي تخبره عن تحرُّش الأستاذ المشرف بها، فلماذا فعلت؟ وهي المرة الأخيرة التي سوف تراه فيها، لم تتوقَّف عن اختلاس النظر إليه وهو عاكف على الاهتمام بحفيذه... منذ ساعة طرَّق محسن زوج ابنته باب الشقة، دعاه الأستاذ للدخول، وأخبره أن ديدني بالداخل تنتظره، وأنه سيتركهما وحدهما كي يحلَّأ أمورهما بنفسيهما، مُحدِّراً إيَّاه من الإساءة إليها بأي صورة من الصور، لحظتها سيكون حسابه معه هو شخصياً، وعندما أغلق الباب خلفه وصارا على البسطة الخارجية، عزمت سوزي على الفرار، وطوال المسافة الواقعة بين البسطة الأمامية للشقة والمدخل الأمامي للعمارة طلبت منه أن ترحل، سوف تطلب تأجيل المقابلة مع الدكتور المشرف وتُحدِّد موعداً آخر بعد مراجعة الفصل معه، لكنه لم يقبل، معتقداً أنها تريد الرحيل حتى لا تشغله عن ابنته ديانا... قال بحزم الأغبياء حينما يظنُّون أنهم يعلمون كل شيء، وصوابية استبصارهم لما يجهلونه، إنه وعدها بالانتهاء من هذا الفصل اليوم، وعليها أن تطمئن...

ودَّت لو تسألته، تطمئنُّ على ماذا؟ كتلة الأكاذيب التي لَفَّ خيوطها بإحكام حولها... عن العالم الخيالي الذي بناه حتى صنع قلعة من الأوهام، متاهة أكاذيب.

لاحظت أن الطفلين في حاجة للمساعدة، وأنه قد لا يتمكن من السيطرة عليهما، حدثت نفسها وهي مستلقية على ظهر القارب، مُذعنة لبرودة تلبية مستسلمة لهدوء يخفي ما يعتمل داخلها... حسناً أيها الأستاذ المحتال، طريقة تعاملك مع أحفادك مُلهمة... سأمضي بقية اليوم معك... ولكنه الأخير... ولن تراني بعد اليوم...  
نام الطفلان على مهاد من نسائم البحر، وكأنهما معتادان على ذلك، سوف يطاردك كعادته، كي تُخرجي جهازك اللوحي وتشري في العمل، لو لم يكن يفعل لكنت لا تزالين في الفصل الأول من الرسالة، الآن تنهين الفصل الثالث، ولم يبق سوى الأخير، لم تعودني بحاجة إلى ذلك المخادع الذي علّمك كل شيء، وعلمت لتوّك أنه مجنونٌ صرف، تستطيعين أن تنهي الرسالة وحدك، أو بمعرفة الدكتور المشرف على الرسالة، الذي لم يتوقّف عن التحرّش بك يوماً، الفارق بين الماضي والحاضر أنه يُسفر عن قُبْحه بصورة مخيفة، صار يقايضك صراحة بين زواج عُرفي (كرجل مُتدين لا يفعل الحرام) في شقّةٍ وضيعة في محطة الرمل والافلن تكون هناك مناقشة ولا دكتوراه ولا يحزنون...

... يا لله ها هو يفعل... سمعته يقول: استخدمي جهازك اللوحي، واحتفظي بأوراق البحث حتى لا يُطيرها الهواء فتدمي، أجابته بأن لديها نسختين؛ هارد وسوفت كوبي، وأنها لا تأبه لو ابتلع البحر كل شيء، وفكّرت أن هذا البروفسير مريض بالإتقان، لكنه دجّال. كيف يجتمع الاحتيال بمرض الإخكام والإجادة... أنت غبية؛ فظالما كان الإتقان سمة أصيلة لعظماء المجانين والدجّالين... هذه حالة فريدة من العُصاب المخفي بمهارة

وبراعة وحذق خلف نوازع الطيبة...

بدأت تلاوتها شاردة، تأهية بين رسالتها، وبين حديثها مع ابنته الذي دار في الساعات القليلة الماضية... طلب منها الاقتراب، لكنها تجاهلته متعلقة بالصبي الذي يعمل على اليخت، بدأت تلاوتها وباشرت بالقول:

## الفصل الثالث

### سمات رواية الثورة

#### مقدمة: مذهب الحرية الفردية

يُعدُّ كتاب لوكاتش "نظرية الرواية" من أهم الكتب التي مهَّدت الطريق نحو فلسفة الرواية، ألفه في مطلع الحرب العالمية الأولى، والتي وششت ضراوتها خلال حرب الخنادق المهلِكة بأن الحضارة الإنسانية تتَّجه نحو الدمار.

وقد اعتمد في كتابه على التصورات الماركسية وأفكار أستاذه هيجل لفهم المجتمع الرأسمالي والقيم البرجوازية. ويرى أن الرواية برجوازية الأصل، استُخدمت كأداة تعبير وإفصاح عن التناقضات الموجودة داخل المجتمع البرجوازي.

في عقلها الموازي استعدت ما جرى وهي تجلس في غرفة ديانا ابنة الأستاذ تمسح دموعها وهي تسمعها تقول إنها تريد أن تهاتف أمها، فهي الوحيدة التي يمكن أن تُخفِّف آلامها. تُذكر أنها احتضنتها وهمست أن أمها

معها بلا شك، لكن ابنة الأستاذ تَلَقَّت حولها وهي تسأل  
أين؟

أجابتها بتبُّلٍ قَدِيْسَة أو راهبة إن روح الأمهات تحوم  
دائمًا حول أطفالهن حينما يحتاجوهن، لكن ابنة الأستاذ  
دفعتها بهدوء وقامت تبحث عن الهاتف وأدارت رقمًا  
عدَّة مدَّات دون أن تتلقَّى إجابة، ثم ألقت الهاتف جانبًا  
وهي تهتف: يا ماما انتي فين، مبتدديش عليًا ليه؟  
فكَّرت أن المدرأة الصغيرة جُنَّت من الصدمة، وغمغمت  
ساحِطَةً على الرجال وما يفعلونه بنا. قالت سوزي  
بعفوية تسألها كيف يمكن لها أن تردَّ. فاجأها بالقول  
إنها كانت معها قبل أن تأتي مياشدة... سألتها سوزي  
بدهشةٍ عمَّن يذهب إلى المقابر في الصباح الباكر؟ نظرت  
إليها وقالت ومَن قال إنني ذهبت إلى المقابر؟  
التشوُّش الذي حلَّ بها جعلها تتجاهل الأمد...

عادت لرسالتها حول موضوع الملحمة والرواية:

يذكر لوكاتش قول هيجل: إن الرواية هي ملحمة برجوازية؛ إذ عدَّ  
الرواية-في إطار التطوُّر البرجوازي-بديلاً للملحمة في العصور التي  
سبقت ظهور العالم الرأسمالي، وهو يعرض تحت عنوان "الرواية  
في فصل التكوين" عوامل ولادة الرواية الحديثة، ومنها: الصراعات  
الأيديولوجية للبرجوازية على أنقاض الطبقة الإقطاعية المنهارة،  
والحكم الملكي المطلق، وفساد وتَحُلُّ الكنيسة ومحاولة مقارنة  
الواقع، كما هو الحال في الملحمة.

وهو يختم كتابه بالحديث عن الأوضاع العامّة في مرحلة التدهور الأيديولوجي للبرجوازية، وإدراكها للمشكلات جديدة وهامة في مجال الرواية، فالمجتمع ليس عالمًا مكتملًا، وأنّ الصراع بين الطبقات يعمل على تطوير عالم ينتشر فيه النشاط العفوي الإنساني. بينما تتمثّل مهمة الرواية الجديدة في تجسيد الثراء الإنساني بشكل مُحدّد، والتعبير عن الصراع من أجل الإنسان، والكفاح من أجل استئصال الاستغلال، والقمع المسلط على الشعوب.

وقد بيّن أهم خصائص الرواية في المرحلة التالية للرأسمالية، حيث إنها تحذو حذو الملحمة، وتقاربها، مع المحافظة على الخصوصية التي تتميز بها الرواية، وهي أن تكون مُفعمّة بالمادة الإنسانية، قادرة على استخلاص الوحدة الجدلية بين ما هو فردي وما هو اجتماعي.

تهاجم سوزي أحداث مضي عليها ساعات قليلة... تراقب طيفها وهي تراجع أوراق الرسالة، تحاول تجاهل الحوار الغامض الذي دار بينها وبين ابنته، تسمع بكاءها مع آخر على التليفون.

تترك مقعدها وتسرع إليها، تسمعها تُحادث شخصًا تدعوه بمامي، وعندها يستقدّ عقلها المشغول بأن للأستاذ زوجتين: إحداهما ماتت، والأخرى لا تزال على قيد الحياة، يئابها غضبٌ شديد؛ كيف أخفى عنها زوجته الثانية، ولماذا أوهمها أن ابنته ديانا تشعر بالغيرة منها على زوجته المتوفاة... تراجعت... ربما تكون خالتها... عمّتها... صديقةً لأمها المتوفاة... ولما استقدّ بها الفكر وتناولت كوبًا من النسكافية تذكّرت أن عائلة الأستاذ قوية

متدابطة عائلة نموذجية، وأنها ولا شك تُهازي خالتها،  
وربما عمَّتها- وتدعوها بمامي... أثبتت نفسها كثيرًا،  
وأنهمتها بأنها كثيرة الشكوك، وأن الأستاذ عابد للأخطاء  
البشرية... معصوم منها...

عادت لرسالتها تسردها على مسمع أستاذها التي صارت على  
يقين من أنه هارب من مستشفى المجانين:

ترتبط الملحمة تاريخياً بالمرحلة البدائية من التطور الإنساني  
وهي مرحلة "عصر الملاحم البطولية الكبرى"، والتي كانت الملاحم  
الهوميروسية إحدى إبداعاته، حيث الفرد البطل بديل عن القوى  
الاجتماعية، وحيث لا ينفصل عن عالمه الأخلاقي، لكنه لا يملك وعياً  
بـ "ذاته"، إلا ضمن وحدة جوهرية مع هذا الشكل. طبقاً للمبادرة  
العفوية للأفراد.

في العصر البرجوازي الحديث تتغيّر طبيعة عمل الفرد، فيرى  
هيجل أن النثر يقوم على ضرورة إلغاء النشاط العفوي للفرد البطل،  
والذي كان تعبيراً في العصور المبكرة عن الجماعة متمثلاً في ذلك  
وحده الجوهرية مع المجتمع، على حين في المجتمع البرجوازي  
الحديث، ينفصل الإنسان الحديث بغاياته وظروفه الشخصية عن  
غايات الكل، ويفعل الفرد ما يفعله لـ "ذاته" فقط من حيث هو  
إنسان؛ لهذا فهو مسؤول عن فعله وليس عن أفعال ذلك المجموع  
(الكل) الذي ينتمي إليه. وفي هذا تحديداً يبرز الطابع الخاص لمعنى  
ومفهوم الحرية الفردية للإنسان البرجوازي في العصر الحديث.

ويرى هيجل أن هذا التطور يُعتبر تقدماً مطلقاً بالقياس إلى  
بدائية العصر البطولي، وهو في نفس الوقت لا ينفصل عن مفهوم  
تدهور العالم الذي أصبح يعيش فيه الإنسان. عند بلزك أو هيجل ليس

نَمَّة شَكًّا عَدَمِيًّا، لَدِيهِمَا الْعَزْمُ عَلَى تَصْوِيرِ أَعْمَقِ تَنَاقُضَاتِ الْمَجْتَمَعِ  
الْبَرْجَوَازِيِّ، لَدِيهِمَا الصِّدْقُ فِي التَّصْوِيرِ لِإِبْرَازِ التَّدَاخُلِ الدِّيْنَامِيِّ لِهَذَا  
التَّنَاقُضَاتِ، الَّتِي هِيَ الْقُوَّةُ الْمَحْرُكَةُ لِلْمَجْتَمَعِ الْبَرْجَوَازِيِّ. يَقُولُ  
مَارْكْسُ:

”إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَهُ وَلَكِنْهُمْ يَعْمَلُونَهُ“.

إِنَّ خِيَالَ الرَّوَائِيِّ يَتَلَخَّصُ فِي ابْتِكَارِ حِكَايَةٍ وَمَوْقِفِ إِبْرَازِ هَذَا  
الْجَوْهَرِ لَدَى الْإِنْسَانِ. هُنَا تَبْزُغُ مَقُولَةٌ ”أَنَّ التَّنَاقُضَ بَيْنَ الْفَرْدِ  
وَالْمَجْتَمَعِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَحْوَرُ الرَّئِيسِيَّ فِي الرَّوَايَةِ، وَخَاصَّةً  
الْبَرْجَوَازِيَّةَ“.

سَبَحَ عَقْلُهَا كَسَيَارَةَ مُسْرِعَةٍ عَلَى طَرِيقِ مِنَ الشُّكُوكِ  
وَالنِّسَاوَلَاتِ... تَتَابَعُ تِلْكَ الْحَوَارَاتِ التَّلِيفُونِيَّةِ بَيْنَ ابْنِهِ الْأَسْتَاذِ وَمَنْ  
تَدْعُوهَا "مَامِي"، حَتَّى جَاءَتْ لِحِظَةٍ تَشْعُرَتْ مَعَهَا يَقِينًا أَنَّ  
الْمَدْرَأَةَ الصَّغِيرَةَ الْمَكْلُومَةَ لَا شَكَّ وَأَنَّهَا تَحَدَّثُ أُمَهَا...

\* \* \* \*

يَقُولُ مَارْكْسُ ”عِنْدَمَا تَغْرُبُ الشَّمْسُ تَبْحَثُ فَرَاشَةُ اللَّيْلِ عَنِ  
النُّورِ الَّذِي يَأْتِيهَا مِنْ أَحَدِ الْمَصَابِيحِ الْخَاصَةِ“.

وَقَدْ اكْتَشَفَ كِبَارُ الرَّوَائِيِّينَ الْوَاقِعِيِّينَ أَنَّ ”الْخَاصَّ“ هُوَ مَادَّةُ  
الرَّوَايَةِ. هَكَذَا يُعَدُّ بِلْزَاكُ وَفِيلْدِينْجُ. كَمَا يَشِيرُ لُوكَاتَشُ إِلَى أَنَّهُ ”كِي  
يَتَجَاوَزُ الْوَصْفَ التَّارِيخِيَّ لِلْحَيَاةِ الْخَاصَةِ لِلْفَرْدِ السَّقُوطِ فِي  
دَرْكِ الْأَحْدَاثِ التَّافَهَةِ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ حُضُورٌ قَوِيٌّ لِلْقَوَى  
الاجْتِمَاعِيَّةِ الْكَبْرَى فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَرْجَوَازِيِّ“. يُوَضِّحُ هَايْنِي الْأَمْرَ  
بِبْرَاعَةٍ: ”خَلَقَ سَرْفَانْتَسُ الرَّوَايَةَ الْحَدِيثَةَ بِإِدْخَالِهِ الْوَصْفَ الصَّادِقَ  
لِلطَّبَقَاتِ الدُّنْيَا فِي رَوَايَةِ الْفَرُوسِيَّةِ، وَضَمَّنَهَا حَيَاةَ الشَّعْبِ“.

ويقول لوكاتش: "ونلاحظ أن عَظْمَة هذه الفترة تتَّضح عبر هذا التجسيد الثنائي "ذاته" الذي ينطوي على الصراع والاحتجاج، كما أن كبار الروائيين في هذه الفترة من التطوُّر كانوا يخوضون صراعاً على جبهتين في الروايات التي تُجسِّد طابع الاحتجاج الذاتي والعاطفي، حيث كانت الطبقة البرجوازية تخوض صراعاً تقدُّمياً باسم المجتمع كله؛ فهناك نقدٌ للركام المتعفن من المجتمع القديم، وهناك نقدٌ ذاتي لطبقتهم التي بدأت تعمل على بناء مجتمع جديد"...

\* \* \* \*

... ولما لم تتمكَّن من كبح جماح حبِّ استطلاعٍ قبِصَّ على خناقتها، استجمعت شجاعتها وهتفت بها تسألها بصورة مباشرة: انتي بتكلمي مامتك؟ أجابتها بإيماء من رأسها، فاستطلدَّت تتأكَّد: هي مامتك عايشة؟ أعادت هذَّ رأسها، فسألتها: مامتك الحقيقية؟ أجابتها ديانا بنفاد صبر: أيوه... مامتي الحقيقة! أمال حاكِّم شبح؟! لم تلمح ديدي الشحوب الذي حلَّ بتلميذة أبيها النجيبة، والتي نسَّكت أن تكون هي الشبح الذي تتحدَّث عنه...

\* \* \* \*

... يمكن القول إن الرواية المصرية أوفت بالمفاهيم العامَّة للواقعية، وخاصة عند الحديث عن الرواية التي تعكس الصراعات والأزمات الاجتماعية والسياسية، ومن ثمَّ يمكن تبين ثلاث سماتٍ، تُمثِّل الطابع الأغلِب لمحتوى النصوص الروائية:



الرواية الاجتماعية: مثَّلت الاتجاه العام، والغالبة، والتي حقَّقت حضوراً قوياً على الساحة الثقافية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وقد انبثقت من مفهوم العدالة الاجتماعية، وأصبح محور النصوص الهموم والمشاكل والانعكاسات الاجتماعية على الأفراد والجماعات، وهذا يتطابق مع مفهوم لوكاتش حول الرواية.

رواية ما بعد هزيمة يونيو 67، والتي جعلت من البحث في الهوية والعُوص في التاريخ العام للجماعة المصرية (أركيولوجيا الثقافة)، وسيلة ضرورية تتجاوز أن يكون التاريخ هدفاً في حدِّ "ذاته" في محاولة لفكِّ طلاسَم الشخصية المصرية، وتغلغل ثقافة العبودية في اللا وعي العام للجماعة، وهُزَّال مفهوم الحرية الفردية لدى الأفراد، والبحث في التراكمات الثقافية والحضارية في محاولة تجسيد سِمات وملامح الهوية، بما فيها تعدُّد الهويات المُضَمَّرَة داخل الشخصية، والأسباب التي مكَّنتها من البقاء، في الوقت الذي تلاشت فيه العديد من الأمم والجماعات على نطاق الحضارات العالمية.

الأدب المزوَّر: وهو أدب رُوجَّ له عقب سقوط الاتحاد السوفييتي، وانحسار أوار الحرب الباردة، وصعود التيارات الدينية المتشدِّدة، حيث جرى الترويج لعصر العولمة الأمريكية، وإلى أنواع من روايات تجرم تناول القضايا الكبرى، واستلاب الهويات الوطنية، وإنتاج رواية التفاصيل الصغيرة والرواية البوليسية والخيال العلمي، وتجاهل هموم الإنسان المعاصر وقضاياها الاجتماعية والثقافية والسياسية...

\* \* \* \*

... وَقَعَّتْ فِي التَّدَاسِ غِيَدَ مُصَدِّقَةٍ هَوَّلَ الصَّدْمَةَ الَّتِي  
تَوْبُخُكَ أَنْ تَطِيحَ بِهَا... عَبَّتْ مِنْ هَوَاءِ الْبَحْرِ تَحَاوَلُ أَنْ  
تَنْتَقِسَ حَجْمَ الْأَكَاذِيبِ الَّتِي ابْتَلَعَتْهَا فِي هَذَا الْمَنْزِلِ...  
هَذَا الرَّجُلُ هُوَ التَّدْوِيدُ عَيْنُهُ، هَكَذَا هَمَسَتْ لِنَفْسِهَا...  
أَخْرَجَتْ عَلَيْهِ سَجَائِدَهَا الَّتِي لَا تَلْجَأُ إِلَيْهَا إِلَّا فِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ،  
بَحِثْتَ عَنِ الْمَدْرَةِ الْمَكْلُومَةِ فِي خِيَانَةِ زَوْجِهَا، أَتَشْعَلُ  
سِيَّجَارَتَهَا وَعَدَّصْتَ أُخْرَى عَلَى ابْنَةِ الْأَسْتَاذِ فَتَلَقَّفَتْهَا وَأَخَذَتْهَا  
دُونَ اعْتِدَاظٍ. بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتَ لَا تَأْبَهُ بِشَيْءٍ، سَأَلْتَهَا: هُوَ الْأَسْتَاذُ  
مَتَجَوِّزُ الْبَنِينَ، مَا مَمْتِكَ وَوَاحِدَةٌ تَانِيَةٌ؟

- بابا؟ لا!

- قَصْدِي مَتَدَوِّجٌ مِنْ مَامَتِكَ، أَمَّا وَالِدَةُ إِخْوَانِكَ الصَّبِيَّانِ تَوَقَّفَتْ؟

\* \* \* \*

المفارقة المخزية لتنوير تسعينات القرن الماضي كونه تنويراً  
مُرَوَّرًا؛ إذ بينما كان عصر التنوير الفرنسي يعلن عن ظهور عصر  
جديد لحرية الإنسان في مواجهة المَلَكِيَّةِ وطبقة النُبلاء والإقطاعيين  
والكنيسة، ويؤسِّس لحرية المواطن الفردية، ويحمي كرامته، في  
قطيعة نهائية مع ثقافة الإقطاع والاستبداد، كان التنوير المصري  
يعمل باجتهادٍ نحو تأسيس أحد فروع الجمهوريات الوراثية، التي كانت  
أسوأ إنجازات الفكر القومي العربي، تلك التي تسعى إلى دفع الجماعة  
المصرية إلى عبودية جديدة، مستفيدين في ذلك (بصورة غير مسبوقة)  
من تعظيم مصالِحهم المادية والمعنوية، ومنافعهم الشخصية كأفراد  
وطبقة. مثل هذا يعني في علم المنطق "ثالث مرفوع جديد"...

- Stop. Stop. do you mean Law of Excluded Middle?

- Yes!

- منين جبتها؟
- من رواية مشهورة.
- حتكتبي المصدر.
- طبعا.

\* \* \* \*

- أُمّال علاقة أخوكي بمامتك شكلها إيه؟
- أخويا علاقته مع ماما مُعقّدة جدًّا. سألتها إذا كان يحبها؟ قالت بامتعاذ إنه يحبها جدًّا. قالت سوزي: فاتن؟ أجابت ريدي بدهشة: فاتن مين؟ قالت سوزي: ماما؟ أمك؟
- ماما مش اسمها فاتن.
- يعني مامتك مش اسمها فاتن؟
- ... فاتن! ... أبدًا...

\* \* \* \*

نظرت إليه طويلاً وهي لا تصدّق كيف غرّر بها... استطرّدت:

- وقد حتّ التنوير المزورّ من خلال كتبه وآلته الدعائية، وأنماط الجوائز التي تُمنّط طلباً شديداً لدى المبدعين: صغارهم وكبارهم، وتحالف دور النشر الكبرى مع المؤسسة الثقافية، والتحكّم في المعارض من النسخ والطبعات وضعف شركات التوزيع وانحيازات إعلام وصحافة الدولة والرأسمالية المدجّنة؛ بهدف تسييد أيديولوجيتها الخاصة، والمتعلقة بالترويج إلى نمط رواية مُعادٍ لتقاليد الرواية الواقعية العظيمة وتطوّراتها وأشكالها المتعدّدة، بما تحتويه من كشف للنظام الاجتماعي والثقافي والسياسي، والاكتفاء بالذاتي وخاصة الرثّ منه.

\* \* \* \*

- انتي بتسألني عن إيه؟... ماما عايشة... بابا وماما  
انفصلوا من زمان... خمستاشر سنة... محدش فاكر...  
هو بيحب مامتك؟... مين أدهم؟... لا الأستاذ؟... خالص،  
الأثنين يكرهوا بعض كراهية المبصر للعمى... تستعيد  
عقلها من عالمها المشنن، تُقاوم خروج العبدات من  
مآقيها، سوف تفضحها... سيسألها عمًا بها، وعندما  
تنهار وتفصح عن الأسرار التي أفشنتها لها ابنته، سوف  
يدخلها في دائرة هلاوسه مرة ثانية...

\* \* \* \*

تستطرد: يقول لوكاتش في كتابه "دراسات في الواقعية" إن  
الرواية التاريخية الألمانية المعادية للفاشية، سَعَت كي تكشف عن  
فاعلية المُثُل العليا لإنسانية تشارك في تغيير العالم، وهذا يسجّل  
انعطافاً في سلوك المثقفين الألمان، فقد كانت إحدى نقاط ضعفهم  
الأساسية قبل ظهور هتلر أنهم لم يدافعوا أبداً بحزم عن مُثُلهم العليا  
الإنسانية، ثمّة حالات استثنائية مثل هنريش مان، غير أننا نعني  
موقف المثقفين اليساريين بوجه عام.

نفس المشهد التسعيني من القرن الماضي لعدد المثقفين  
المصريين والعرب، يلتحقون بعصابات نخاسة تقود إلى عصر  
عبودية متوّقع، أليس الدمار الشائع للجمهورية الوراثة خير دليل...  
يقول لوكاتش في فلسفة وأدب التنوير إن اصطفاف المثقفين في  
الكفاح كمُثُلين للمصالح التاريخية الكبرى للشعب في الميادين  
السياسية والثقافية هو الهدف الأسمى للمثقف العضوي على شاكلة  
الفيلسوف الإيطالي "جرامشي"...

\* \* \* \*

استجمعت كل شجاعتها كي تسأل ابنة الأستاذ وهي تتمنّى من صميم قلبها وعقلها أن يكون الأمر في مجملها محض سُخرية... ألعوبة تفرضها المدراة الصغيرة عليها... أمتسكت بكتفيها تسألها بجديّة... أمال مين فاتن؟... فاتن؟!... أيوه فاتن... ولا أعرفها... حد جابلك سيده واحدة اسمها فاتن؟...

فاتن التي عملت مضيغة في طيران الخليج، وسقطت بها الطائفة في الريع الخالي.

هدّت رأسها نفيًا، هدرت ناحية التدراس، فتحت الباب الزجاجي الجدار واندفعت إلى

**الهدف الأسمى  
للمثقف العضوي**

الخلا، توشك أن تقيء ما جوفها، وهي تُردّد... الكذاب...

المحتال... المذور... وحيثما

ظنّت أنها سوف تجد مكانًا تهرب

من الاحتناق الذي أمسك بصدرها، اصطدمت بعشدرات الدّم من خليط من السليكون النقي، قاومت كي

تفسح لنفسها مكانًا...

\* \* \* \*

يقول لوكاتش (دراسات في الواقعية)، رغم أن كلاسيكيّ الرواية التاريخية الكبار، أمثال والتر سكوت، بوشكين، تولستوي - لم يكونوا في غالبيتهم ديمقراطيّين بالمعنى السياسي الحالي للكلمة، لكن ما صنعوه فنّيًا هو التمجيد الأدبي للديمقراطية الحقيقية والشعبية الفعلية. إن روايتهم تُبيّن كيف أن القيم الإنسانية العظيمة تصدر عضوياً عن حياة الشعب، وتبلغ ذروتها دون أن تنفصل عنه، وليس من المهم في موقف الكاتب أن يكون نصيراً للديمقراطية، أو حتى خصماً لها (عن وعي)، فالأهم أن صياغاتهم الأدبية تُبيّن كيف أن

الأزمات الكبرى في حياة الشعوب والثورات تفتح طاقات وقدرات الناس المختزنة والغافلة وتُنمِّيها. إن جوهر الرواية التاريخية يكمن في التعبير عن عظمة الشعب وعظمة الإنسان البازغ من قلبه أثناء أزمات التاريخ الكبرى.

\* \* \* \*

طَبَّبتِ المِردُءُ الصغيدة من روعها، وقالت لها إنها شاهدهتها وهي تقياً جوفها، وتوشك على السقوط منهاراً، أسرعت تحمل سلة المهملات حيث استكملت فيها قيئها، وعادت تحمل ممسحةً ومنشفةً، وأزالت عن المكان ما تقيأته، وأنها كانت تشعر بالنعيب الشديد والحجل المهين، وعندما جلست، أعادت عليها السؤال إذا ما كان الأستاذ متزوجاً بسيدة أخرى خلاف أمها، سيدة تُدعى فاتن، فأجابتها للمرة العاشرة بالنفي... تستعيد حديث ابنته وهي تنفجر في الضحك... فإااااا... مش ممكن... قصدك ليلى؟ قالت: إنها لا تعرف أحداً في حياة بابا يدعى فاتن، لكني أعرف ليلى، فعلاً كانت مضيقة وماتت في حادث طائفة... سألتها: مين ليلى؟ قالت حُبُّه الأول، وكل من لا قاهم من نساء مجرّد نُسخ منها.. إصحي ليكون ورّطك في نفس الحكاية... تسألت وهل يمكن للمدعوة ليلى أن يكون لها مثل هذا التأيد؟

- والله معرفش.

أمسكت سوزي برأسها بكلتا يديها تحرك جذعها للأمام والخلف، ثم انفجرت في عويل هستيري...

لاحظت المدرة الصغيرة الحالة التي حلت على المدرة التي تكبدها، قالت ببراءة وهي تدغب في أن تكيد لها الكيد مكياي... تحبّي تعديني حكاية ليدي؟ قالت لها باهتمام لوسمحتي.

\* \* \* \*

ورغم أن التنوير المزور سعى لمحو تلك الحقائق التاريخية العميقة التي فضلها نستطيع أن يساهم فن الرواية في تجاوز الأزمة الوطنية الاجتماعية العامة، وعلى العكس دفعت السلطة الثقافية بفن الرواية دفعًا، كي يكون أسير روح الفردانية الرخيصة والأناية المبتذلة، والسعي الدؤوب إلى حماية السلطة السياسية بتفكيك جوهر وإشكاليات الصراعات الاجتماعية والسياسية والثقافية إلى العديد من الصراعات المجزأة، مثل: "ذكر- أنثى"، "مسلم- مسيحي"، "أبيض-أسود"، "تيارات إسلامية/ ليبرالية/ يسارية"، إلى آخره...

سمعت صوته يدعوها لتناول الطعام، كان الصبي قد انتهى من عمل القريديس وأرز بالطماطم وصينية من السمك البوري، رفضت أن تمد يدها، واكتفت بإطعام الصغير، وانهمك هوفي تناول القريديس والبوري بشهية مفتوحة... كانت ترمقه وهو يقول لها بخصوص (Law of Excluded Middle).

- هناك ثلاثة (ثالث مرفوع Law of Excluded Middle).  
معروفين في التاريخ المصري، وليس ثالثًا مرفوعًا واحدًا، عليك أن تذكرني ذلك في الرسالة.

- أعرّفهم: عبادة الكهنة المصريين للأباطرة الرومان في مطلع القرون الأولى من الميلاد، ودعم المؤسسة الكهنوتية الوثنية لعبادتهم في المعابد المصرية كآلهة... والثاني ظاهرة (المماليك/ العبيد) الذين حكموا مصر ستّ قرون، دعم رجال الدين لهم، والحالة الثالثة تنوير التسعينات المزور من القرن العشرين، والتأسيس لظهور الجمهوريات الوراثية، كل حالة من هذه الحالات ساهمت في تحويل الفلاحين إلى جماعة من العبيد... هي ظاهرة أنتجت في الماضي، ويُعاد إنتاجها بصورة تكرارية.

قالت وهي تحاول التركيز: لكن ثورة 25 يناير كانت إحدى حالات كسر الحلقة الجهنمية لتاريخ العبودية في مصر.

نظر إليها بإعجاب، وقال إنها عبقرية، قال إنه يندر أن يلتقي بشأبة تتسم بهذه العقلية النادرة، قال إنه بعد أن أمضيا معا أكثر من ثلاث أعوام في هذه الرسالة أصبح لديه يقين بأنها سيدة نادرة، لديها ذكاء نادر، وسلامة طويّة، ونفسية لا تعاني من اضطراب نساء منافقات، مغرورات، سيكوباتك مستفحل، فضلاً عن جمال أخاذ.

حاول التوقّف، كان يعلم أن عاقبة مديح النساء سيئة؛ فالأفراط فيه يجعلهن مشبعات بما يبحثن عنه، يكتفين بالبقاء آمناتٍ على البرّ عن المغامرة بركوب الأمواج... - شُفت بقي.

\* \* \* \*



قالتا وحديث ابنته يطفو على سطح البحر، يحلّف في الفضاء، يتحوّل إلى سحابات متفدّقة لا تلبث أن تتوحّد لتتحوّل إلى غيوم وعواصف تجتمع لتتوجّه ناحيتها، وناحيتها فقط...

قالت ديدي إن والدها عاد من رحلة سفد طويلة ليجد حبيبته قد عُقدَ قرانها على ضابط التّقته أثناء رحلاتها الجوية، وهو الذي حلّ عليه سهم الله حينما لاحظ الشحوب الذي حلّ على وجه الفتاة التي سيبدوّجها عندما بلغها نبأ عودة بابا من الخارج. سألتها إذا كان هذا بسببه... لم تُجب.

كان ينبغي أن يدخل في ذلك اليوم ويندك مصير المحبّين لأقدارهم، المضيفة التي تعمل في شركة طيران خليجية أنّحذت الخطوة الأولى وطلّبت لقاء بابا، تلاقياً كثيراً، واشتعلت شرارة الحب الذي كان بينهما، والتي لم تخدم يوماً، بابا كان مشغولاً في حاجات كثيرة، عندما كانا يتفقان على فسح عقد قرانها من الضابط قالت له عالمك مؤرّع على ثلاثة: ثلث للسياسية وثلث للمسرح والأدب، وأنت لن توقّدي سوى الثلث المتبقّي من عالمك.

لم ينف، بل انهال عليها بالسباب، وهو يتساءل أين ذهبت مظاهرات الجامعة؟ أين ذهبت أحلام الثورة والعدالة والحرية، عندما أنّحذت ذلك القرار؟

كيف لها أن تربط مصيدها من بين جميع العالم بضابط  
في الداخلية وهو المثقف اليساري المطارد، وددت لو تقول  
إن تلك الأوهام كانت أحلامه، وأن الضابط الذي سوف  
يصبح والد أبنائها المتوقِّد على أرض الواقع كان يمثل  
الحصن والأمان.

في مقابلتهما الأخيرة قالت إن حيدةً تتنازعا بينهما،  
اعتبدها إهانة وهرب... طبعًا عمتي الكبيرة طلَّعت  
إشاعة إن بابا على علاقة بالعديد من النساء، تعقَّدت  
الأمور. قاطعتها سوزي موضحةً أن الأستاذ كثيرًا ما  
تحدَّث عن أخته الكبرى باعتزاز بالغ، وأنها تحترمها  
وتقدِّره، ومن المستحيل أن تشيع عنه إشاعة بمثل  
هذه الخنسة والدِّناعة.

هدَّت المرأة الصغيرة رأسها وهي تقول بابتسامة  
استنكار: إخوان بابا البنات قبل الصُّبيان يكرهه كراهية  
مُطلَّقة... وهو دائما ما يقول إنهم الذين أصابوه بمرض  
السكر، واتفقوا شبكية عينيه.

- غريبة! عمره ما قال لي كده.

- بابا يبدو قوي، وكأنه يعيش وحده على قمة الجبل،  
لكن هذا مجرد فقاعة يخفي فيها ضعفه.

- معقولة؟ الأستاذ شخصية قوية جدًّا، الجامعة كلها  
تقدِّره، ويمكن تخشاه... لم تأبه ديدي بنهر الدموع  
الذي انثال من عيني المرأة بحجم الخديعة والامتهان  
الذي عانته من أبيها، بل استطردت ولديها رغبة في أن  
تغوص في جرح المرأة المفتوح... بابا لم يدافع عن  
حبِّه نهائيًّا، كان يجب أن يقول لها إن حياتي يا حياتي  
كلها ملكك، ولكنه مثقَّف يساري من النوع الخائب لا

يعرف الكذب. قالت ديدي بتشفُّ، هل تدغبين في سماء بقية الحكاية، أم اكتفيت؟  
من وراء دموعها سألتها المردأة المكلومة أن تستكمل ما لديها. قالت ديدي بعد سنوات قابلها صدفة في محطَّة الدمى ومعها ابنتها الصغيِّدة، كانت جميلة جدًّا، بالضبط كما كان يحلم بها... عادت قصة الحب من جديد.. ماما كانت عدَّافة... تشمُّ الأمور الخفية، حَوَّلت حياته حميم، في النهاية انتهى الأمر بطلاق الأثنين، هذه المدة اختار بابا (الذي دمر مرض السكر حالته الصحية) تربية أولاده، وتصدَّف بجُبنٍ، ولم يحاول الاتصال بها، وتولَّت أخته الصُّغرى استكمال المهمة القذرة التي بدأتها الكبرى، ذهبت من نفسها لزيارة أسدة الضحية وتشفَّت فيها كما ينبغي أن تفعل المردأة بالمردأة، رغم أنها كان يمكن أن تكون رسول محبه وتجمع بينهما، الحب في عائلتنا مفقود، الكراهية لها النصيب الوافر.

\* \* \* \*

قبل غروب الشمس نزل أربعتهم إلى البرِّ، أصرَّ على أن يقوم بتوصيلها، في الطريق كان حديثها مقتضبًا، وبينما كان يتوقع منها أن تهاتفه بعد مقابلة الدكتور المشرف على الرسالة، لكنها راوغت متحجَّجة بأن والدتها ستكون في حاجة ماسَّة إليها، وهكذا كانت تغلق مسارب كل حديث؛ فاكتفى بالصمت بقية الطريق. ركز ناظريه على عجلة القيادة ورحلت هي إلى الساعات الماضية تستمع لابنته تستكمل غرز سكاكينها في جروحها:

... الكارثة يا حبيبتي بقي لو كان قائك إن أسدتنا أسرة سعيدة، أو إن محسن ابن عمي... لا يا أستاذة هو وأخواته البنات يكرهوا بعض كره العمي... بيكره أخواته الصبيان كُره قابيل لهايبل... خدعوه... كان يحبهم... صحيح حظ كل فلوسه في مشاريع خسرانة... بعدين قالوا "عفوًا يا أخ"... انت معمليتش حاجة...

قامت ديدي تحضد لسوزي كويًا من الماء... معلش... هدئي من روعك... المهم ألا يكون قد أخبرك أنهم اجتمعوا ورفضوا بيع شبكة حبيبته ليلي، رأها تهذُّ رأسها... انخرطت ديانا في الضحك... وسوزي تنظر إليها... أبدا استحلوها جميعا وباعوها من غير ما يسألوه وأنفقوها على أنفسهم ببجاجة... أكيد كمان عمك قصيدة عن المصاريف اللي دفعها عمي وأنا في آخر سنة في الكلية... أمال عمل إيه؟... عمي خد العربية وباع له الوهم... يا أختي يا حبيبتي هذه عائلة بشعة مزورة...

لاحظت سوزي أو حيل لها أن ابنة الأستاذة تتحول الي دمية، وجهها، يداها، مُقدّمة عنقها تتشمع وتتحول إلى صفائح مُفكّكة بيضاء من البلاستيك، وصوتها مشدوخ وكأنه يخرج من جهاز تسجيل رديء، سمعتها تستنرد: ولكن بابا كعادته تصدّف بجبنٍ ولم يبحث عنها، رغم إنها سألته في إحدى رحلاتهم إذا ما كان سيتخلّى عنها يومًا، فنفي بالقطر، وقد فعل، هذه المدة. كان مريضًا. وقرّر أن يهَب نفسه لتربية أولاده رغم إنه دمّر حياتها. قالت على الأقل كسب أولاده... ضحكت الدُمية بصخب، وقالت بابا هو الملك ليد بعينه، أنفق ما يملكه على

أخوته وألاده، الفرق أن الملك لير وجد في ابنته الصغرى  
 من تُوويه في شيخوخته، بابا الكل تحلّى عنه.  
 سمعت سوزي نفسها تتساءل طيب وانتى رحتي  
 فين؟... لم تجد من يُجيبها... كانت وحدها في الغرفة  
 تحدّث نفسها، تحيط بها دُمى من كل جانب بينما ابنة  
 الأستاذ في التّراس منشغلة في ريّ الزهور والنباتات،  
 وطفلاها مُتعلّقان بها. أصابها الخبل والرعب وهي  
 تحاول أن تعرف عمّن كانت تخوض معها هذا الجدل  
 الطويل، خرجت تدرجو الهرب، لكنها وجدته يظهر فجأة  
 من الفناء حاملاً حفيذته... نظرت ناحية التّراس لم  
 تجد أحدًا... بينما هو كان يتسمم ابتساماً الشيطان  
 ويأمرها بالبقاء، فسواء أرادت أو لم تُرد فسوف ينتهيان  
 اليوم من الفصل الثالث.

\* \* \* \*

أمام منزلها غمّرت الطفلين بالقبلات وهي تخفي دموعها،  
 بكت الصغيرة تريد اصطحابها، وعندما ودعته قبّلتها من وجنتيه،  
 وقالت:

-Do you know? You seem to me like the Law of Excluded  
 Middle.<sup>(26)</sup>

- أنا... قصدك أنا؟

- Yes. In the land of the Law of Excluded Middle. you are  
 the forth.<sup>(27)</sup>

(26) ( أتعلم؟ تبدو لي مثل قانون الثالث المرفوع.

(27) ( نعم، في بلاد الثالث المرفوع أنت المظهر الرابع له

- ذم والأمدح؟ قالت راحلة: الأمر يعود إليك... سلام. تابعها  
تبتعد إلى مدخل العمارة، قبل أن تختفي نادها فالتفتت تنظرة، كان يحاول  
مغادرة السيارة، أسرعت عائدة تستفسر عما يريد، قال هناك أمر مهم  
للغاية، اكتبني هذه الفكرة قبل أن أنساها، ثم صيغها بالطريقة التي  
تناسبك. تابعته يقول: "إن قيمة الحرية الفردية للمواطن تكمن في تفكيك  
علاقة القطيع برأس الاستبداد، تهشيم العلاقة المستقرة بين جماعة  
العبيد والسيد، هذا التفكيك من أجل إعادة بناء وحدة اجتماعية قائمة  
على الاختيار الحر لمواطنين جميعهم أحرار... هذه ليست رؤية مثالية،  
إنه ما حدث خلال الثمانية عشر يوماً من الثورة... مواطنون أحرار يمتلكون  
الأهلية على كتابة عقد اجتماعي فيما بينهم، جماعة تجمعها وحدة صلبة  
تستند على ديمقراطية تهدف إلى صالح المجموع... وأضاف ما رأيك...  
مهمة؟ أجابت بقبول تام... جداً يا أستاذ.

\* \* \* \*



# الجزء السادس الجميع







## الفصل الخامس والعشرون للضحك أم للبكاء؟

هوذا الليل يُضمِرُ لي مستنقعات تنه  
تطفو على سطحها جثث نافقة وأسماك موتى  
هوذا الليل يدخر لي بركاً تفيض بمياه أسنة  
يعيش فيها بأمر حجة بشر فسدت أرواحهم



لقد اختفت، لم تُعد تهاتفه... لم تُعد تردُّ على رسائله... تركته دون سابق إنذار، ودونما سبب يحاسب نفسه عليه... أيام مرَّت، يراجع الأيام الأخيرة التي أمضيها سويًا بحثًا عن خطأ ما، أو إساءة ارتكبها دون قصد، لا يجد ما يُؤخذ عليه، ليس ثمة أحداث تجعلها تختفي مثل شمس احتجبت عن الأرض وتركتها لظلام دامس، لتُخلف وراءها ليلاً يحوي مسرحاً مترامي الأطراف، يعرض على خشبته كوايسه، نعم... رحلت السيدة الثلاثينية وتركته لوحده الخربة... رحلت دونما إشارة أو علامة، رحلت بوحشية من ينحرن رقاب ضحاياهن ببرودٍ قاتل...

**وهَبْتَنِي إِلَى لَيْلِ دَامَسٍ، يَاخُذْنِي مُكْرَهًا إِلَى كَوَايِسِي...**

... ابنته يبحث لها عن شقَّة تُربِّي فيها أطفالها على نفقة زوجها، والتي اقترب انفصالهما بصورة فظيعة، لا يمنعها سوى محاولاته المستميتة لحمايتها من مصير الطلاق المؤلم... كمُ العتب الذي يحمله لابنه الذي توقَّف عن الاستجابة للرد على رسائل هاتفه النصِّية، متحجِّجًا بأنه قدَّم كل مخزون الحب بينما تخلَّى هو عنه...

يا إلهي الرحمة، بيني وبين أبنائي صدعٌ لا نهائي، فلق يصعب على الأحياء والموتى عبوره... فلج لا يتوقَّر إلا حيثما تكون الهوة بين الحياة والموت... أعطيت وأخذوا بقسوة وتركوني أتعثر وحيداً... أليس هذا دليلاً على كونكما تعيشان عالمين منفصلين؟ تلك البثور التي تنتشر مثل طاعون في أنحاء جلدك، تشهر عُفونة وفساد الجسد... إنك لميِّتِ إذن، إذا بينما أبنائك يعيشون عالم

الأحياء، تغوص أنت رويداً رويداً في برزخ موتك... فاعلم وتيقن  
أنك تعيش لحظات احتضارك المؤلمة...

تناول إفطاره في التراس، تقترب منه دُماه، يجلسن جواره  
يثرثن فيما بينهما حول حالة الجنون والعصبية التي صارت تعصف  
به، أثناء عمل الشاي يتأكد من شحن هاتفه، يمسح ذاك السيل  
الجارف من رسائل شركة المحمول تُنبئه بقرب انتهاء الرصيد، وأن  
عليه أن يشحن هاتفه قبل الثامن والعشرين من الشهر، وساعتها  
سوف تنعم عليه الأمُّ الرَّؤوم من حنانها بإضافة رصيده السابق  
الذي سبق ودفع قيمته مُسبقاً لها إلى رصيده المستقبل، فأين هو  
الإنعام؟ إنها أموالها اللصوص، تُواصل الأمُّ الحنون ألعابها  
مُعَلِّنة عمّا تنوي نضحه من الهدايا إذا ما اتصل بالرقم المرفق  
الذي يحوي دائماً نجمة وشباكاً، أحابيل كاذبة للشركات العابرة  
للحدود ينعم بفتاتها موظفون محلّيون، سوف تستنزفه بعد أن تُوقع  
به في شراكها اللئيمة، وهي عندما ينفذ صبرها عليه سوف تعاقبه  
على كسله وعدم اهتمامه وتجاهله لعشرات العروض التي تُنعم  
بها عليه الشركة الكونية من دقائق إضافية وقطعتين من كنتاكي  
وملء قبضة من أرز تسدُّ الرمق، أو أن يشحن بعشرة جنيهاً  
و(يتشَبِّق) بحلم أن يربح "جنيه ذهب" أو كيس إريال لتتظف عقله  
الذي يحتاج لحمض السلفونيك كي تجلخ عنه الطبقات العميقة  
من العبودية؛ وسخ، عفن، زئج، تغسل كل ما هو فاسد وتبن، فإذا  
لم تكسب يمكنك الحصول (فقط بثلاثين جنيهاً) على اثنين ميجا  
نت مجاناً أو ألعاب غبية تشغل بها عن الدمار الذي يدور حولك  
قبل أن يعصف بك وأنت مستغرق في لهوك.

تعلم الأمُّ الشَّفوقُ المُرهفةُ الأحاسيس إن عميلها رجلٌ مَخْبُولٌ  
أخرقٌ مريضٌ، تسيطر على عقله مصطلحاتٌ مثل الإمبريالية  
والشركات العابرة للجنسيات، والتحالف الوثيق بين مصالحها  
والعديد من قادة العالم الثالث، ينساق لخياله السَّقِيم الذي  
يُصوِّر له هذه الهدايا فِخاخًا وكمائنٍ لِنُهْبِ عشرات المليارات  
من الجنيهات من عُمَلائِها الغلابة والمحتاجين، والذين تعتزُّ  
بهم، معزَّةُ الذُّباب بالحملان، وبنى البشر بالحمير، وهو أمرٌ  
سوف يضطرهم بوافر الأسف في حال عدم استجابته لكل هذا  
الإحسان والخُلوان إلى رفع سعر الدقيقَة إلى ستة أضعافها. ينتبه  
على موعده في البنك لسحب ما يحتاجه من نقود قبل السفر  
لحضور مهرجان المسرح في تونس.

في البنك لاحظ أن غالبية العاملين في البنك أنسات ونساء  
شابَّات، أعمارهن بين منتصف العشرينات والثلاثينات، يرتدين  
زيًا موحدًا من بدلة رمادية، ويغطين رؤوسهن بحجاب من قماش  
مصنوع من مادة صناعية لونه أحمر، يُسبغ عليهن سِمَة الدَّمامة،  
فكيف؟

نحن في مطلع العام السابع والثلاثين من القرن الحادي  
والعشرين، حيث مرَّ ربع قرن على ثورة 25 يناير، صعد تيار الإسلام  
السياسي لِسُدَّةِ الحكم، وتمَّ انتخابه، وتمكَّن من غالبية ساحقة  
بالبرلمان ومنصب الرئاسة وتحكَّم في السُّلْطَتَيْن: التنفيذية  
والتشريعية، ثم تمَّ إقصاؤه وعزله، ارتفع بواسطة الشعب... وتهاوى  
بواسطة الشعب، وبدعم من الجيش الذي كان يعاني مصيرًا وجوديًا  
على المحك، فلو أن تحالف الإخوان المسلمين وتيارات الإسلام

السياسي المدعّم من الغرب الليبرالي العلماني الملحد استمرّ في السيطرة على مقاليد الحكم؛ لقضى على الدولة الوطنية، وأحد أهم أعمدتها، وهو الجيش. هذا ما سبق وفعله عقب الاحتلال البريطاني عام 1882، وفعلته الولايات المتحدة عقب احتلال العراق عام 2003، تدمير الجيوش الوطنية قضية مُعقّدة تصلح كي تكون مبحثاً فلسفياً حول الوجود والعدم، ورغم ذلك الآن ينتشر الحجاب لنساء شابات، بفعل الدولة العميقة الغارقة في إنتاج وتجديد أغلال العبودية وتوظيفها كي تكون لائقاً لسحق كل معنى أو سلوك يفضي لأن يكون المرء حُرّاً.

أولئك الأنسات والسيدات كُنَّ يتصرّفن بصورة تفيض بالأدب والرّفقة، حتى إن إحداهنّ (وعلى غير المتوقّع)، غارزته وهي تطلّع إلى صورته في الكارنيه التي تنتمي لسنوات تخرّجه من الجامعة، وقالت بزقزقة العصافير إنها حلوة. وأضافت مبتسمة وهي تطلّع إليه: وأنت لا تزال... كاد أن يغشى عليه، هو يتعرّض لحالة تحرّش جنسي يفيض بالحلاوة؛ ما رفع معنوياته بصورة هائلة. مضى كل شيء بصورة رائعة حتى ظنّ إنه يعيش في سويسرا، أنهى معاملته البنكية، وقبل أن يغادر البنك مبهتجاً، استدعته موظفة في منتصف الثلاثينيات وسألته إذا كان قد أجرى معاملات على حسابه الدولارى هذا العام، فأجاب بالنفي، ولم يحاول أن يشرح لها أن هذا الحساب لا يستخدمه إلا في حالات الضرورة، أشارت إليه بلطف وهي تمسك بيدها مجموعة من الأوراق، أن يتبعها إلى مكتبها الكائن في غرفة قصيّة، لتحديث بياناته، فتبعها وهو سبّئ تلك الرّفقة والإيماءات المهدّبة. أخذته إلى مكتب تجلس عليه أنسة

في العشرينات، تخبّئ في عينيها جاذبيّةً حزينة هادئة، بطعم حريّف، ترسل دفقات منعشة من أمواج أنثوية حارّة... اللعنة! هل هذا وكر لنساء وحيدات؟ فكّر، ربما يكون في أحد كوابيسه، وأنه سوف يستيقظ بعد لحظات على إحدى كوارثه التي تباشر عملها معه من جهنم...

انتحيثُ جانبًا في ممذّات البنك، وركعتُ على ركبتي، دعوته برجاء ألا يفعل... سيدي أرجوك لا تفعل بي هذا... أرجوك نَدِّ اليوم يمد بلا خديعة، بلا مدارة، بلا قسوة، لقد ضقتُ ذرعا بهذه الحياة، جمجمتي أصبحت شبكةً من شدوخٍ شعريّةٍ دقيقة بسبب مطارق لا تتوقّف عن ضربها... أرجوك سيدي... لو سمحت لم أعد أحتمل.

دعته إلى الجلوس، بحثت قليلاً في أوراقها ثم قدّمت له حزمة من الأوراق وطلبت أن يملأها. كانت الاستثمارات مكتوبة بحروف صغيرة للغاية، (والتي أصبحت ظاهرة عامّة)، ربما بنط (5) أو (6). تمخّص الأوراق بعينين كليتين دون جدوى؛ إذ وجد صعوبة تامّة في القراءة، وكأن أصحاب البنوك والشركات العملاقة؛ شركات الأدوية والشركات الصناعية، والهيئات والمصالح الحكومية- لديهم اتفاقٍ سريٍّ ألا يقرأ العميل أو المواطن الشروط التي تُقيده، وتجعله ضحيّة، رغم أنه ضحية منذ عشرات القرون وأسير علاقة ابتزاز لعقود إذعان.

كان عليه أن يملأ الاستمارات ببياناته؛ الباركود/ بصمة الإبهام/ بصمة العين/ الاسم/ العنوان/ الجوال/ التليفون المنزلي/ الرقم القومي/ الجنسية/ الديانة/ النوع/ إلى آخره... وجميعها بيانات تعوّد على ملئها مئات المرات، لكن أين وكل خانة عبارة عن (نغبشة فراخ) يصعب قراءتها، سألها أن تساعده ففعلت، عند ملء خانة الرقم القومي أخرج حافظته، بحث عن بطاقته دون أن يجدها، أخرج كل ما في جيوبه، بعد زمن تطلّع إليها؛ علّها تكون معها، وقد كانت. فَهَمَّتْ وَقَدَّمَتْهَا له بأدب جم. وعندما أنهى التوقيع وجد استمارةً أخيرة تعذّر قراءتها، كانت الحروف باهتة ومقطّعة وصغيرة، ربما بنط (3) أو (4) ... ندم لكونه لم يحضر عدسة القراءة.

بصعوبة استطاع قراءة العنوان؛ ما جعله ينتفض بغضب شديد... وهو يتساءل كيف تجرؤ على اتهامه بمثل هذه التُّهَم المُفْرِعة، وهو الإنسان الذي عاش حياته بشرف مُطلق، وخسر الكثير... مَنْ هذا الحمار وَمَنْ ذاك الغبي الذي كتب هذه التُّرّهات. قال مستنكراً كيف له أن يُوقَّع على وثيقة تبدأ باتهامه بأنه يدير في حسابه البنكي أموالاً قذرة (Dirty Money)؟ كيف يعطي البنك لنفسه الحقّ في اتهامه بتُّهْمَة شائنة تمسّ الشرف دون أدلّة؟ وهو جهة لا تتمتع بصلاحيّة قانونية وغير معنيّة بأي أنواع من التحقيق معه.

كيف لتلك الدولة البهلاء أن تتيقن بأنها سوف تتمكّن بالتوقيع على هذه الإقرارات من منع المتورّطين والضالعين في هذه الجرائم من فعل ذلك، أو دفع عملاء البنك بالاعتراف بأنهم لصوص مستعدّون لمصادرة أموالهم وملكياتهم ودخول السجن عن طيب خاطر.

تابعها تنظر بجغل إلى أرضية الغرفة، تتحاشى النظر إلى عينيه اللتين "تطقان" بالشّرر، وأضاف أن الدولة تبدأ بإطلاق شبّهات الفساد على مواطنيها الطيّبين بما لم يقترفوه أصلاً، وهذا أسلوب من على رأسه بطحة، دولة تظن أن شعبها ومواطنيها غارقون فيما تفعله من دمار وتخريب وقبح منذ عقود، تنهب وتمارس كل الموبقات وهي تتبوّل على رؤوسنا، يحصلون على تذكرة مجانية إلى نعيم الحياة، وأخرى إلى الجحيم... قال بغضب إن هذا الإقرار ينم عن البلاهة، وهو مخالف للقانون. لاحظ أنها تبكي، سألتها بأدب كاد أن يقطع نياط قلبه: يا فندم هذا بنك الجمهورية. أجابها مندهشاً مؤكّداً: فعلاً هذا بنك الجمهورية. فقالت: لا يمكن أن يخطئ في القانون.

طرق المكتب بيده، حتى إن الأوراق تطايرت، وهو يقول إن هذا تجاوزاً من البنك في الاختصاصات والصلاحيات. والأخطر أن هذا إقرار ينتهك إحدى القواعد القانونية الرئيسية، والتي تمنع سياسة التفتيش في النوايا... هو يتنافى مع صياغة الوثائق القانونية التي تستند على الوقائع المادية، وليس التفتيش في النوايا.



## إقرار

الاسم: ..... المقيم: .....

الرقم القومي: ..... تليفون: .....

رقم الحساب: .....

النوع: عملة محلية ..... عملة أجنبية: دولار .....

أقرُّ أنا ..... بأن هذه الأموال المودعة تحت رقم ..... تمَّ الحصول عليها بطرق شرعية، وهي ليست أموالاً مشبوهة (Dirty Money) لم يتم الحصول عليها من قبل جهات أجنبية، ولم تستخدم قبلاً ولن يتم استخدامها بعدا في أي أغراض مشبوهة، أو غسيل أموال.

أقرُّ بأن هذا الحساب لم يسبق له أن حاز أو تملك أموال مشبوهة (Dirty Money) أو انخرط فيما يضعه تحت طائلة جرائم غسل الأموال (Mony – laundering offences)

ولم أقم بتغيير أو إخفاء مصدر تلك الأموال المشبوهة (Dirty Money)، أو تسترَّت على طبيعتها أو حَجَبَ أو ظَمَرَ أو ظَمَسَ أو كَفَرَ أو كَفَنَ مالِكها أو صاحبها أو تسترَّ عليه، أو تعامل بأموال مشبوهة (Dirty Money) عبر الحدود وكَفَرَ وموَّه هذه المعاملات، لتمويل جرائم خطيرة. وهذا الإقرار يقع تحت طائلة العقوبات المغلظة للقانون

التوقيع: .....

عكف يكتب على الإقرار عبارات تعبر عن موقفه، أعطاه لها،  
انكبت تقرأه وهي تبكي ما قاله:

على البنك تجنّب الحكم على نيات المواطن، وليس لديه الحق في  
تفتيش الضمائر، والأصل هو التعامل مع العملاء من منطلق براءة الذمّة  
والسلامة الظاهرة، حيث "اليقين لا يزول بالشك"، إنما الحكم ينصبّ  
على الظاهر؛ وذلك لأن صلاح نيّة الشخص أو فسادها ليس بحجّة في  
"ذاته"؛ فالناس يُعاملون على ظاهر أقوالهم وأفعالهم.

وأضاف وهو يطرق المكتب للمرة الثانية: إن هذا التفكير  
انتهى مع محاكم التفتيش الإسبانية، وعاد مع الفاشية والنظم  
الاستبدادية.

تحمّلت على نفسها وطبعت إقراراً آخر، وأعطته له، فأمسك به  
ودون أن يتطّلع فيه مزقّه وألقى به إلى صفيحة القمامة بجوار مكتبها.  
تراجعت برعبٍ وقد ظنّت أنه سيلقي به في وجهها. تغصن مَحِيّاتها  
وسالت دموعها وسط مسحة ألم واستسلام جعلته يشعر بأنه ارتكب  
خطأً فظلياً. قامت ودارت في الحجرة وقد ظنّها سوف تستدعي  
الأمن، لكنها جرّت عددًا من دواليب في المكان، ووحدات أدرج  
طويلة، وعكفت تعيد ترتيبها في أنحاء الحجرة. وهو يتابعها مندهشاً،  
فيما بعدُ تبيّن له أنها كانت تخفي المكان عن كاميرات المراقبة.  
تابعها تستدير إلى صفيحة القمامة وتعكف على جمع أجزاء المستند  
الذي مزقّه وهي تحرص ألا تفقد جزءاً منه، ثم قامت بترتيبها بصبر  
ووضعها على حافة ماكينة خاصة في حجم "التابليت"، ابتلعها من  
جهة وأخرجتها من الجهة الأخرى سليمة مثل مستند جديد.

هاتف: مُدهش. قالت بحزن وهي تشير إلى كاميرات مراقبة إن هذه وثائق بنكية ذات تسلسل، وضياعها يجعلها عُرضة للاستجواب، قدّمها له ثانية تراجو أن يُوقّعها. بدت في جمالها الهادئ مستلبة الإرادة. سألتها إذا كانت تقبل التوقيع على مثله. قالت إنها وقّعت بالفعل، فما الذي تستطيع فعله؟ سألتها أن تعطيه نسخة ممّا سيوقّعه، اعتذرت بأنها وثيقة سرّية داخلية. لكنها دسّت بين أوراقه (دون أن ينتبه) صورةً لوثيقة ما.

رحل غاضباً خالي الوفاض، كالعادة قهرته الدولة، في المنزل اكتشف أن الأنسة دسّت في أوراقه وثيقة صادرة عن الأمم المتحدة لمواجهة غسيل الأموال على نطاق العالم، والذي بلغ (2.5٪ من الدخل القومي العالمي) مرفقة به صورة من الإقرار الذي وقّعه، بعد أن تمكّنت من تحاشي كاميرات المراقبة.

في التراس جلس يراجع الشبهات التي تتهمه بها السيدة (الدولة) فوجدها كثيرة، وجاء في تعريف الأموال المشبوهة بأنها الأموال والأوراق المالية والممتلكات والدخل الناجم عن أنشطة غير مشروعة. بينما مصادر الأموال القذرة والمحرّمة هي المخدرات (زراعة، صناعة، تجارة)، الرقيق الأبيض (دعارة، تجارة الرقيق، استغلال الأطفال والقصّر جنسياً في وسائل الميديا)، التهريب من الرسوم والضرائب، الرشوة، العمولات الخفية، التربح من الوظيفة، استغلال المناصب، التجسس والسرقات، الاختلاس والابتزاز، الغش التجاري، الاتجار بالسلع الفاسدة والمحرمة، تزوير النقود والمستندات والوثائق والماركات والعلامات التجارية، المقامرات في أسواق البضاعة والمال العالمية، المعاملات الوهمية. إلخ...

سقط على ظهره منهازاً من ضحكٍ باكٍ... دار برأسه يتابع  
البحر وأمواجه التي لا تتوقّف عن ضرب الشاطئ، وعندما تعدّى  
الليل منتصفه دخل مستسلماً لما يتوقّعه من نوم قلق، وبيئة سوداوية  
مكرسة للكوايبس.

\* \* \* \*



الفصل السادس والعشرون  
مَقْبَرَةُ مُوْغَلَةَ فِي الْقِدَامِ

هوذا اللَّيْلُ يُضْمِرُ لِي مَقْبَرَةً مُوَعَّلَةً فِي الْقَدَمِ بِتَوْسِطِهَا تَابُوتَيْنِ  
مِثْلَ وَطُوطِ لَيْلٍ كَانَتْ . . . اللَّعْنَةُ!  
بَدَايَاتٍ مَوْحِشَةً تُشِيرُ إِلَى نَهَايَاتٍ بَشِيعَةً

نَهَايَاتٍ مُرَوَّعَةٍ تَقْطُنُ عَالَمَ الظُّلْمَةِ  
هُوَ الْيَأْسُ وَالْأَسْءُ وَالْإِحْبَاطُ... تَشْهَدُ "ذَاتُهُ" الْمَعْدَبَةَ انْزِيَاخَ غَطَاءِ  
أَحَدِ التَّابُوتَيْنِ، يَخْرُجُ قَرِينٌ ذَاتَهُ  
يُحَلِّقُ فِيهِ فِضَاءَ الْكُهْفِ بِطَاقَةٍ وَسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ  
رُوحٌ طَائِرَةٌ تَتَلَمَّسُ طَرِيقَ الْخُرُوجِ مِنْ بَرَزَخٍ مَوْتِهَا

تَسْأَلُ "ذَاتُهُ" بِاسْتِسْلَامٍ مُتَعَبٍ، عَنْ أَيِّ حَيَاةٍ تَبْحَثُ؟  
أَمْ هُوَ عَالَمُ الْمَوْتِ الْأَبَدِيِّ؟

\* \* \* \*

يغفو ويستيقظ داخل كوابيسه، يجد نفسه كل مرة مُمدداً في فراشه... يحاول مغادرة الفراش، تدفعه حاجة مؤلمة للتبول، وشعور بوخز موحز موجه منتشر في أنحاء جلده... رغبة جارفة في الحكّ يقاومها دون جدوى، يجبره الوخز على النهوض... يدفع جسده مرتكزاً على ساعده الأيمن، يتمكّن من مغادرة كابوسه، يجلس على الفراش، يقوم، يتحرّك باتجاه الصالة وهو يتخبّط في العتمة... تقوده عيناه الكليلتان نحو الاتجاهات الخطأ، يتعثّر في ظهر الأرائك، تصطدم ركبته بأحد المقاعد، يشعر بالألم شديد... قبل أن يخفّ ألم ركبته، تصطدم رأسه بجدار صالة الاستقبال المصنوع من الجرانيت الخشن، يتألّم... يشهد جمجمته وقد انشقت، ينثال على وجهه خيط أحمر رفيع...

يضاء الفضاء بلمعان البدر، يغمره ضوء للحظة خاطفة، يكشف عن رضيع يثغو، وطفل يحبو، وغلام تطارده أشباح بشرية، تحلّ العتمة ثانية... لحظة تنويد تزيح عن روحه المغدورة المعدّبة بالسكّ وانعدام اليقين... يستسلم بصورة قهربية لحكّ كتفيه ومقدّمة ركبتيه وسمانة ساقه اليمنى بأظافره... يقشّر قمم بثوره، براكين تنفجر بحمم من دماغ... يمضي ليلابه غافلاً عن حقيقة كون جسده يتفكّ عن قروح وجروح تنتشر على سطح الجلد... يستسلم لما هو مُقدّر، يخلع ملابسه الداخلية بحثاً عن جروحه... تتعدّد أصابعه في بثور دمويّة، يحكّها، يذبل قشورها، تحلّ راحة لا تلبث أن ترحل وتترك وراءها رغبة دموية في الهدرش...

اللجنة... ما الذي يجري؟ يزهّد عن الشكوى، يحاول السيطرة على وطأة الرغبة في الحكّ كي تتوقّف ألامه... ينظف مناطق البثور بمطهّرات طبيّة... تتضاءل الجروح يوماً بعد يوم، تخفي غالبيتها، ثم لا تلبث أن تزول كليّة قبل أن تعاود الظهور من جديد... في الصباح الباكر حمل إفطاره وتوجّه إلى التراس، جلس على الأريكة الحديدية، تستقبل خياشيمه رائحة يود البحر المنعشة، يشهد سطح البحر ممتداً حتى نهايات الأفق، تراوحه أمواج تتزرى بلا نهاية، وسفن بضائع تمخر العباب، ومراكب صيد صغيرة، ويخوت فاخرة وأخرى قضى عليها الزمن، أثناء تناول القهوة، استغرق فيما فعله على مدى الشهرين الماضيين، وهو استعادة يومهما الأخير الذي قضته معه بصحبه أبنائه وحفيديه؛ يحاول البحث عن هفوة أو خطأ صدر عنه أو عن ابنته التي بدا وكأنهما أصبحتا صديقتين، أو ابنه الذي نال أعجابها بجنونه، وهي التي ما فتئت تردّد مقولته الشهيرة:

**"... لم تعد هناك علاقات (exclusive)..."**

فتنتها العبارة... كان يحلو لها ترديدها كلما جاء ذكره، فهل التقت بآخر؟ رغم أنه بنى عقله مع النساء كي يتهيأ لكافة الاحتمالات، لكنه كان واثقاً من استحالة ارتباطها بآخر: بناؤها العقلي، تكوينها الوجداني، شعاب روحها لا تسمح لها بالارتباط بأشخاص عاديين، حدود السماح لديها لا تتجاوز الصفر... أنتما تتمازجان أنتما متشابهان، حدود السماح لديكما صفر.



- Your tolerance limits are zero .

فهل تأخّرت في الاعتراف لها بحُبِّك؟

شرع يسقط في شرك لوم الذات المدمر... هل كان ينبغي أن يخبرها بحبه؟ هل كان ينبغي أن يقبل عرض الزواج؟ عندما يتناقشان في الأمر لاحقًا، سوف تُنكر ذلك بشدّة، سوف تخبره أنه لم يعرض عليها الزواج، سيقول لها إنه فعل ولكن بصورة غير مباشرة، كان كلما تأخّر الوقت بها دعاها كي تمضي الليل معه، لكنها كانت تتحجّج بأمرها المريضة، فيعرض عليها بجديّة أن باستطاعتها هي وأمرها أن يقيما معه، ساعتها كانت تجيبه بضحكة صاخبة. وهو لم يكفّ عن إسداء المديح لشخصها؛ ذكائها المفرط، ثقافتها الراديكالية، استقامتها، نزاهتها العلمية والشخصية، روحها المتوثّبة، عروقها التي تنبض بالنبل، جمالها الشرق متوسطي المأخوذ عن لوحتي رينوار:

”متحمّمة تُرتّب شعرها“ أو ”المسيح الكبير“. fuck... أليس هذا بيان بالحب... إعلان بالافتتان... اعتراف بالولع؟ الأيعدُّ دعوة إلى الارتباط الأبدي... عنّف نفسه... في المرة القادمة سوف يعلن عن عشقه: أحبك، أحبك، أحبك،... ولماذا ينتظر، سوف يخبرها الآن، في التوّ والساعة. صعد على سور التراس مواجهًا البحر، وأمسك بقبضتيه سلاسل الشمس، وفتح ذراعيه مستقبلاً الرياح المعبّأة بالسُحب والأمطار الغزيرة، وأطلق صيحة داوية:

... باحبك... باحبك... باحبك... باحبك... باحبك... باحبك...

ظَلَّ يصرخ ويهزُّ قبضتيه، وهتف ينادي اسمها حتى كاد أن يسقط من حالق... صاحت الدُميمة (K/22) بصديقاتها صيحة تحذير وهي تشير ناحية سور التراس... هذا الإنسان جُنَّ، ويتصرَّف بصببانية. دفعتها الدُميمة (P/33) جانباً، أسرع وخلفها عدُّ من الدُمى وهي ترطن بالإسبانية، أمسكت به بصعوبة، يساعدها البقية.

استعدنه إلى الوراء، حملنه إلى الأريكة الحديدية، وتَرَكْنَ بَقِيَّةَ المَهْمَّةِ هذه المرة للدُميمة (P/33)، ترفقت به وأخذته جانباً تقدِّم نفسها كتعويض عمَّا يفتقده، دفعها بعيداً، فقامت مبتعدة وهي تشوِّح بيديها وترطن بسيل من كلمات تدفع كالسيل، كانت تسبُّه بلغتها ولكنتها الإسبانية، شعر بالندم على تصرُّفه، حاول أن يخفف عنها، أخبرها إنه سوف يطلب من الشركة المصنعة عمل تحديث لهن جميعاً دفعته بعيداً وهي تلغنه، لم يعرف ماذا تقول...

عاد ثانية إلى أحلامه ليجدها في انتظاره ترتدي فستاناً أسود عاري الظهر معلِّقاً من العنق، واسع الذيل، ينتهي منتصف فخذيها... احتضنها، ضمَّها بشغف، وشرع يُقبِّلُ ثَغْرًا ثَقِيلاً، شفيتين مُفْعَمَتَيْنِ باللحم واللحم، أخذته الحمية، وقف بها، تعلقت بعنقه، واحتوت خصره بين فخذيها، رفعها لأعلى، انهال يلثم عنقها.

ضحكة خافتة ساخرة صدرت عن الدُميمة (K/22)، تسللت بنعومة نحوهما، جذبت الفيونكة التي تربط شريط فستان بنلوبي العلوي، فسقط كاشفاً عن جذعها، وقفت خلفه تهمس في أذنيه... ها هي صحراء الرُّبُع الخالي التي عدَّبتك في الولوج إليها، كاملة

غير منقوصة، تكشف عن بحارها اللدنة، روايبها الخضر، وديانها الزلقة... لم يسمعها، كان مُنهمكاً في التوغل في عنقها الأملس، وبلوغ جزيرة "الودج"، تحاملت (K/22) على نفسها متذرةً بالصبر واستطردت... تقدّم حيث نهديها الكاملين... الرُبع الخالي بالإضافة إلى الأرض الساحرة الضائعة... إلى الثلاثة أرباع المفقودة... قُبتان كاملتان لكنيسٍ يهوديّ، أو كاتدرائية روتردام مُحاطة أسوارها بشياطين العالم... قباب كنيسة آيا صوفيا أو جامع السلطان أحمد... لم يسمع شيئاً... لم تعد (K/22) قادرة على التحكم في نفسها... اندفعت نحوهما وعيناها تطلقان بالغیظ، وصرخت بكراهية... "نهداها أيُّها الحمار!"... حانت منه التفاتة نحو العالم الممتنع عليه، اصطدمت عيناه بنهدين عامرين بالشبق، دفن رأسه بين ضفتيهما، دهسهما بوجهه وأنفه وذفته الخشنة، ولثم حلمتيهما بشفتيه و(P/33) الشرق أوسطية الملامح، الشبيهة بلوحتي رينوار، المثيلة أو البديلة بسوزي تصرخ من النشوة.

تابعته دُماه يستدير حاملاً إيَّها ويلقي بها فوق الفراش، ترتفع أمواج النشوة وتتعالى بحارها أجة، تتجمّع براكين داخله وتتوافد بحثاً عن مخرجٍ للانفجار، وقد تحوَّلاً لجبل من نار وتلج... من نعيم وجحيم... يلهث وتلهث ويمضي الوقت وهما يحتشدان بانتظار بلوغ الذروة... ولكن بعد لأيٍ طويل... بعد تلاشي الزمن... بعد أن بلغ به التعب مبلغه- تنهَّد؛ ليس ثمّة خواتيم... ليس ثمّة خطوط للنهايات... ليس ثمّة ذرى... اللعنة على كل شيء... اللعنة...

عندما استيقظت كانت دُماه يجمعن أشلاء صديقتهن الدمية (P/33)، وقد تمرّقت أشلاء، وتناثرت أطرافها في كل مكان،

تجاهلُهُنَّ، كان يعلم أنه سيتم الاستعاضة عنها بأخرى أكثر حداثة، ربما يُصلِحن العيب الخلقى الذي جاء بها دون عضوها الأثوي... وقف واثقا من كل شيء، ابتسامات السخرية التي حملتها له (K/22)، جعلته يتساءل إذا ما كان هناك خطبٌ ما؟ ... نعم هناك خُطبٌ ما... هناك إبتلاء ما في عقلك؟

تاه في غفوته ونام على طرقات أصابع البيانو وهو يقسم ألا يخذل المجد من أحبها... يستيقظ على رنين هاتفه المحمول ليعلم أنه يعيش أوهامه، فبعد حوار طويل مع صديقه المشرف على رسالتها عن الجامعة ومشكلة مسرحياته التي تقدّمها فرقة الجامعة، يعلم أن تلميذته السرية عادت لزوجها السابق... هكذا دون أن تُخبره... صدمة مُروعة؛ إذ إنه وظن نفسه على كونها سيدة آيئة، لا تتال منها الخطوب... ولكن ها هي كل القيم التي أسبغها على شخصيتها تتداعى مثل قلعة رمال بُنيت على شاطئ البحر.

تسللت أشلاء الدُمية (P/33) لتجلس جواره، ربت عليها يواسيها، وانتهزت الدُمية (K/22) الفرصة، وأخذته بابتسامة الثعالب نحو التراس علّه يلقي بنفسه من حائق، ولما لم يفعل همست وعين تضيق وأخرى تتسع، بفحيح الأفعى التي طردت بخبثها ودهاؤها نسل الإنسان من الجنة، أنه رجل أحمق، وأن المرأة المُدلّه في



حُبّها قد أخذت ما احتاجته ورحلت، هتف  
 تُمزّقه تلك الهواجس التي تضجُّ مضاجعه،  
 أن الرسالة لم تكتمل بعد، وأن المرأة  
 المنغمسة في تحضير رسالة الدكتوراه  
 لم تنهي الجزء الأخير، فكيف لها أن  
 تهجره وعملها لم يبلغ نهايته؟ همست  
 (K/22) تتصنّع الشفقة تُذكره بحقيقة  
 مُروّعة أن كلّ النساء اللاتي تقربن منه،  
 وصرن صديقات أو عشيقات- ترُكّنه  
 بعد أن حصلن على مُرادهنّ، ورحلن.



نظر إليها ببغض، حاولت (P/33)  
 أن تشفيه عن الوقوع في حبائل رفيقتها الخبيثة،  
 لكنه تجاهلها واندفع يقول كلاماً كثيراً، شرح أن هذه فكرة ليست  
 دقيقة، فمثلاً هناك زوجته فاتن التي أمضت معه سنوات حياتها  
 وقيّة له، ولولا حادثة الرُبع الخالي لظلّت معه حتى اللحظة الراهنة،  
 وأن هناك سبع سيدات على الأقل ألقين بأنفسهن من أعلى سجادة  
 غرفة الجلوس (رغبة في الانتحار)، وهناك من أدمنّ الهيروين  
 الشعوريّ وأصبن بالاكْتئاب ونوازع الانفصال عن العالم لأنه  
 رفض الأقتران بهن من أجل أبنائه، وأن بعضهن قبلن علاقات  
 دون التزامات سوى المقايضة على كؤوس النبيذ الأحمر، وذكر أن  
 أخواته البنات الثلاث جعلن من أصابعهن الرقيقة مصابيح مُوقّدة  
 له من نوع (Led) حديث.

لم تهتم الدُمية بسَماعه؛ إذ كانت تعلم أنها أمام وصلة "نتش وهُتَش"، وأن البروفسير الجامعي في عالمي النقد والمسرح ينوي أن يقدّم فصلاً من ميكانيزمات الدفاع النفسي الزائفة، لقد فعلت ما تريده، وبذرت بذرة الشكّ في عقله الملتاث، وتركته لأفكاره السوداء تترى عليه طاعوناً يأكل نفسه. نعم، كل النساء اللاتي صيرنَ مُقرّبات رحلن بعد أن حصلن على مرادهن، هي اللعنة التي قُدّرت له... أن يعيش وحيداً...

قرب سور التراس المُطلّ على البحر وقفت (K/22) تنظر إليه من طرف خفي بانتظار انتحاره، تفيض من عينيها ابتسامة نصر مختلطة بمكر الثعالب، لقد أصابت مراميها، وبلغت ما تبتغيه؛ إذ شرع ينهار، وقد تداعت ثقته بنفسه...

حاول النوم، لكنه لا يستطيع، يشاهد فيلم "451 فهرنهايت" الذي قامت ببطولته چولي كريستي؛ ما يثير قلق دُماه، ويحدث ما سبق وتوقّعن حدوثه، في الصباح وأثناء قيامه بشحن هاتفه النقال، تقمّم شخصيات المتمرّدين في الفيلم، وتجاهل كافة العروض التي قدّمتها الشركة الأم عن طيب خاطر، وعقله لا يتوقّف عن السؤال، لماذا تثير الشركة الأم الارتباك بين أطفالها، فتحدّد زمن الباقّة بشهر، ثم لا تلبث أن تسرق يومين من عشرات الملايين من العملاء، يتناقص زمن العرض على الدوام، ودون سابق إنذار... يا سادة ما لكم وما للحكومة؟! للحكومة الحقّ في أن تفعل بمواطنيها ما تشاء، أمّا أنتم فعليكم الالتزام بتعاقداتكم مع ملايين العملاء، لماذا يتلاشى ما تبقى من الباقّة السابقة عندما يستسلم المواطن الطيب الخاضع مثل دولته لتلك الأمهات الطبيبات من الشركات الكونية

العابرة للحدود، المتعددة الجنسيات، ويقوم بتجديد الباقية قبل انتهاء المدة، ثم يكتشف أنه سقط في حفرة ابتلعت الأسبوع المتبقي له، لقد سُرقَت، فلمن تلجأ إذن؟ لديك السيد وزير الاتصالات: لا ينفخ؛ فعادة يكون متورطاً في هدايا الأم الحنون. قدّم شكوى للشرطة: لكن قضايا مثل هذه من نوع العولمة والحوكمة تفوق قدرة أجهزة الأمن المحلية. قدّم شكوى للإعلام: لكن الإعلام مصادر، والسادة الإعلاميون منهمكون في شرح فلسفات وتعليمات السيد الرئيس... حسناً، إذن هو القضاء بكل جلاله: لكن عفواً، القضاء مُستغرق في محاكمة الإرهاب. إذن لديك مجلس النواب: لكن مجلس النواب مُنهمك فيما لا يُنهمك فيه. ليس لديك سوى الامتناع عن الاستجابة لسيل عروض الأم الحنون من تلقاء نفسك؛ حتى لا تضطرّ لابتلاع الطُعم مرة تلو أخرى...

بعد أسبوعين وصلت طلبية جديدة من الدمى، أغلبهن كما عرف فيما بعد ممثلات وعارضات أزياء قادمات من مناطق الصراع السلافي الأرثوذكسي، روسيات وأوكرانيات وبولنديات، فكر إن عليه أن يعيدهن إلى البائع كي يتفادي التورط في الصراع الدائر بين شرق وغرب القارة العجوز بدعم أمريكي، أجابت الشركة بأنهن هدية مجانية باعتباره من العملاء المميزين، واعتذاراً عن العطب غير المتوقع الذي أصاب الدمية (P/33).

تجاهل الطلبية التي استلمها لتوه، وبحث عن النسخة الجديدة للدمية (P/33) التي أرسلتها الشركة تعويضاً عن سابقتها مع اعتذار رقيق عن خطأ فني في الصناعة، شعر بها شديدة الجاذبية تحنني عليه بصدرها العامر، وشعرها الأسود الغزير ينهمر على وجهه،

هتف يسألها متى جاءت وكيف دخلت وانضمت إلى المجموعة؟ جلست على فخذي واحتضنت رأسه في صدرها وهي تعاتبه إذا ما كان هذا الأمر مهمًا؟ قال: وما هو المهم إذن؟ جذبته إلى دفنها وقالت بجديّة: إنهم يسرقون قطع عملات الفكة التي يريد رئيسك من شعبه أن يتنازل له عنها. ابتلاع جنيه واحد من كل عميل نائم على نفسه في اليوم يساوي واحدًا وأربعين مليوناً في اليوم، في الشهر مليار ومائتي ألف جنيه، في العام أربعة عشر مليار جنيه، أبلغ السيد الرئيس بذلك لولديك الشجاعة. قال إن مليار دولار لا تعني شيئاً، ثم تساءل لماذا لا تتبته لنفسها ولا تتدخل في شؤون الآخرين. ضحكت ولم تكف عن الضحك. سألته بخبث إذا ما كان خائفاً، فالزج باسم السيد الرئيس لم يعد مسموحاً به كما كان في الماضي. قاطعها قائلاً: ربما تخشين أنت على نفسك من أمن الشركات العالمية؟ هبّطت عليه بصدرها الرجراج الناعم كالزبد، وهي تلف أصبعها في الهواء، تطالبه بالتوقف عن أسطواناته المشروخة. وضربت صدرها بسببها. فشعر بنصف نهدا يترجرج؛ ما أثار غصّة في الحلق، ودعوة للمناهدة، وأضافت بلكنتها الإسبانية، وشفاتها الواسعتان نتحدّث بإنجليزية مختلطة من التث المعطل لمجلس النواب اللبناني، وتقذف في وجهه عبارة Fuck You. واستطردت: أنا... أخاف! أنت الذي تخاف أوهامك، تخاف موتك. عقّب غاضباً بأنه كيف لها ألا تخاف، وهي مجرد قطعة وهمية من بلاستيكون مُعالج. طرّق هو الآخر رأسه بسبابته، وأضاف باحتقار: والحقيقة أنها وأنهم جميعاً مجرد دُمى صنعها في خياله. صرّخت: سليكون. بلاستيك. أكريلك...

نظرت إليه وهي تكشف عن أنيابها مثل حيوان الراكون، لا تخفي نيّتها في الانقراض عليه ولدغّه لدغة سامّة، نقرت بسبابتها



صدرها وهي تضيف أنها صُنِعَتْ من سَلِيكُونِ مُطْعَمٍ بالبلاستيك  
النقي على طابعة ثلاثية الأبعاد، مِمَّ صُنِعَتْ أَنْتَ يا غبي؟ رماد...  
أنا أرقى منك... قاطعها بغباء أنها لاشيء، وهي مثل إبليس، صُنِعْنَا  
من رَمَادٍ وَصُنِعَ من نار... لَكِنَّ الغلْبة لنا بحُكْمِ الدين والمقولات  
التاريخية، وفي نهاية الأمر سرقتنا مهمته، وأصبح الإنسان أشدَّ  
خُبثًا ولؤمًا وشرًا وتدميرًا من شيطان الرب... هاهاها... هزَّتْ  
نهديها العامرين في وجهه وزأرت، نَمْرَةٌ مَفْتَرَسَةٌ. قال بغباء إنه  
يستطيع أن يحرقها بعود ثقاب، لتعود كُتْلَةً قَبِيحَةً من بلاستيك  
قابل للتدوير للحفاظ على المناخ. وأضاف بجديّة أنه يمكن لها  
أن تصبح عند ذلك جُزءًا من غَسَّالَةِ أطفال، أو حَقَائِبَ للبقالة.  
صرخت بغضب:

- Fukc you. ashes to ashes. (28)

وأضافت أنه هو من ينبغي أن يقتله الخوف؛ لأنه المُرَاقِبُ من  
كل حذب و صوب، الجميع يتابعه بدقّة متناهية. سألها عمّا تقصد،  
أضافت بحسم: "Audio & Video"... طَرَقَتْ رأسه بسبابتها... وُلِدْتُمْ  
وترعرعتم مُرَاقِبِينَ، تذهبون إلى المقابر مُرَاقِبِينَ، عقولكم،  
مشاعركم، عواطفكم، اسأل نفسك لماذا لست حبيس سجن؟ قال  
إنه مواطنٌ صالح. أصابتها نوبة ضحك هستيرية وأشارت إلى أعلى  
وهي تقول: انظر إلى السماء.

حانت منه التفاتة لأعلى فرأى سماءً تعجُّ بِبُقَعِ سُدُوءٍ، تكبر  
وتقترب، عناكب، عقارب سوداء مُعلّقة في الفضاء، أقمار وطاقرات  
تجسّس دون طيار، وقف غاضبًا، دفعها وهو يوشك أن يلقي بها من  
التراس، طلب منها باستعلاءٍ أن تتنحّى جانبًا. تدخّلت عددٌ من

(28) عليك اللعنة... من تراب إلى تراب.

الدُّمى لتهدئته. قالت إحداهنَّ إنها غاضبة، وقالت أخرى: أستاذ، إنها تشعر بالغيرة... غمغمت السيدة (K/22) بعينيها الذَّبْيَيْنِ إنه يجعل منَّا عاهراتٍ في حانات الجنس العبودي، ولكننا أحرار، ألسنُنَّ كذلك؟ غَطَّى أذنيه كي لا يسمع، ودلف غاضباً إلى الداخل. ابتسمت (S/11)، والتي تعلم أنَّها المفضَّلة على عرش أحلام المضاجعة، وقالت وهي مشبعة بارتياح إنه هو الحرُّ بيننا، إننا نعيش في خياله، وهو يفعل بنا ما يريد. تعتقدون أنكم تستطيعون التلاعب بعقله. قالت (K/22) إن هذا طبيعي؛ وجودنا دليلٌ دامغ على أن هناك جهةً ما، في مكان، تمكَّنت من رزغنَا، وهو الشَّقِيُّ التبعس بيننا.

عزم على الانتقام منهن جميعاً، ونفسه الأمانة بالسوء تُحرِّضه عليهنَّ جميعاً، ألا يمكن أن يكونوا هم سبب رحليها؟ يا غباثي... كم أنا أحمق! عندما تكون الحقيقة واضحة أمامك كالشمس، لكن رغباتك الخسيسة تحجبها عنك... سوف أتخلص منكنَّ جميعاً... يجب وضع خطة مُحكمة لذلك... هو الليل إذن.

بعد الغروب استدعى الدُّمى (P/33) وأخبرها أنه قرَّر أن يُلبِّي رغبتها التي سبق وطلبتها منه، سألت عن أي رغبة يقصد، قال نزهة في البحر. ففزَّت من الفرح وتعلَّقت بعنقه وقبَّلته من وجنتيه، وقالت: على يخطك الفاخر سنيور؟ قال: بلَى، شرط أن تلتزِمِ من سلوكٍ راقٍ ومنضبط. صرخت تخبر الدُّمى؛ فاجتمعن حوله وقد توهَّجن بروح المرح. سألته (S/11) بأنها ترغب في ارتداء ثوب سباحة شديد الإغراء، فوافق بإيماءة من رأسه، وعقَّب أن بوسعهنَّ فعل ما بدا لهنَّ؛ وهو ما جعل الشكَّ يدور لدى (K/22)، أعربت عن مخاوفها مع (M/55)، لكن شبيهة مونيكا بيلوتشي، والتي تعاني من مازوشية

مفرطة، نَفَتْ وقالت إن سنيور بروفسيور ليس حُسيَسًا، وأكَّدت أنه أكثر طيبةً من رجال كثيرين قابلتهم في حياتها. غادرت (K/22) غاضبةً، وازدادت شكوكها عندما شاهدته يُحوَّلُهِنَّ واحدةً بعد أخرى على هيئة لوحات (2D) بالحجم الطبيعي، ويصْفُهِنَّ في حافظة بلاستيكية، ويضعهن داخل توابيت من خشب موسكي رخيص، سمع سَكَّانُ العمارة طرقات شواكيش على رؤوس مسامير صُلبٍ تُحكِمُ تثبيت أغطية التوابيت.

طلب شاحنة من مدينة الدُّمى، وقام على تعتيقهم بواسطة حَمَّالين مُتَخَصِّصين، فبلغ الجانب اللَّيْلِيَّ للمدينة قبل منتصف الليل، حيث سمح له رجال أمن مصنوعون من سبائك الصُّلبِ بالدخول، توجه إلى قرية الصَّيادين الواقعة في الجانب الآخر من الليل بمدينة الدُّمى، تلقوه بترحاب، وأخرجوا له فلوكته وحملوها بالتوابيت الخشبية التي ضَمَّتْ دُمى (2D)، جَدَّفَ بكل ما يملك من قُوَّةٍ متوجِّهًا إلى عرض البحر.

كان البحر هادئًا، ومدى الرؤية لا يحده شيء، ثَبَّتَ المجذافين على جانبي القارب، ووقف كي يلقي التوابيت التي تضمُّ دُماه إلى البحر، اشتدَّت الرياح والمطر الغزير. انحنى على التوابيت، ارتفعت الأمواج بالفلوكة، تلاعبت بها ريشة في مهبِّ الريح... ثَمَّةَ جسمٍ معدنيٍّ عملاقٍ يصعد من عمق البحر، وقف مشدوهاً، يراه يرتفع رويدًا رويدًا ليبلغ حافة السماء، هذا هو الجسم العملاق الذي يشاهده من منزله يسدُّ حافة الأفق،





لاحظ أنه يشبه قزم بقف أمام جنّي الغابة، لمح اللوجو الخاص بالبنك الكوني الذي يدير أعمال التمويل والقروض على مستوى العالم والعوالم الأخرى. بجواره كُتِبَ: "الأسطول السادس والأربعون الحربي التابع للبنك الكوني".

## COSMIC BANK

### THE FORTY-SIXTH WAR FLEET

تصاعدت سلسلة من اصوات مكتومة، انزلقت دُرّاعاتها الجانبية أسفل الغاطس، لتقيء من جوفها صفوفاً متراصّة من دُمى آليّة عسكرية، تهبط إلى قاع البحر باتجاه الشاطئ. انقلبت الفلوكة به وقاءت كل ما بها إلى البحر.

غفا ليستيقظ في غرفة نومه وحيداً وقد أعياه التعب والإرهاق، قفز من فراشه يبحث عنهنّ تُورّقه الجريمة التي ارتكبها في ليل الأمس. لم يجدهن في أرجاء الشقة، انتفض يبحث عن مفتاح الشقة الأخرى، وهناك وجد التواييت التي حملها إلى شاحنة الأمس سليمة لم تُمسّ، بتوتّر شديد فتحهم تابوتاً خلف آخر، كُنّ في وضعهنّ (2D) سليمان ليس بهنّ شوائب، تنفّس الصعداء، وعاد لنومه دون أن يفعل المزيد.

\* \* \* \*

## الفصل السابع والعشرون

### تَوَثُّرَاتٌ عَائِلِيَّةٌ

هوذا اللَّيْلُ يُضْمِرُ لِي شَمْسًا هَامِرَةً، وَعَالَمًا مِنَ الْعَتَمَةِ  
كَرَادِيْسٍ مِنْ فَرَسَانِ الْهَيْكَلِ . . . شِرَازِمٍ مِنْ عُرْبَانَ  
مِرْنَازِمِينَ حَجَرِيَّةً . . . هِيََاكِلَ عَظْمِيَّةً . . . لُغَاتٍ مَيْتَةً  
فَإِذْ لَمْ يَكُنْ هَذَا بَرَهَانَ مَوْتِكَ؛  
فَهَلْ أَنْ لَكَ أَنْ تَفْهَمَ شَيْئًا؟

هجرته مثل كل النساء، يطفو في بحار كوابيسه  
 النكلى بالفجعة... يسبح في فداء مدرسة أولية في  
 قرية حَمَن أنها جذوره، تطفو في لونٍ عاجيٍّ، يحمله  
 الـ فضاء مسكون بعشرات من شباب يتجمهون في  
 جمعٍ عَفِيد، مُنكَبِين حول أمرٍ جَلَد لا يدرك كُنْهَهُ، نُهايَفَهُ  
 وساوئُهُ... لو أعملتْ فِكْرَكَ ستعلم أن الأمر يخصُّ  
 انفعالاً وحتفٍ نساء ورجال عائلة تفيض بالمعتوهين ...  
 شجرة عملاقة تورق شياطين، تتفتّح بداعمها عن ورود،  
 وتغلق على حَسَبِكَ، جَفْدٌ وَعَدَاوَةٌ تتغلغل في ثنايا اللُّوح،  
 فالْحَدَّرَ الْحَدَّرَا!...

ينشط ذهنه الساكن في اللا وعي وهو قابع في خِصْمٍ  
 كابوسه... للنساء في تلك العائلة مزايا مُبْهَدَةٌ؛ يبدن  
 الغالي من أجل أرواجهنّ وأبنائهن، ويُفشِن مَهَارَات  
 وبراءة في تقطيع أواصر الأخوة، حيث لا يمكن الصمود  
 أمام الكراهية التي يطلقونها على ذكور العائلة...  
 من حيث لا يحتسب، ظهر شبج يدعوه لأمر يجهره،  
 يلحظ أنه يمسك بذراع خُلِيعَت من أحد لا يعرفه، يعدو  
 نحو مكان ربما حيث بدأ نعاسه... استيقظ وقد نسيت  
 ما احتوته كوابيسي من وحشة، أراني أعدو في طرقة  
 في طابق ثاني هارِباً من قطيع من حيوانات وطيور  
 منزلية: دجاج وديوك، قَطَط مُتوجِّسَة. أعلم أنني أُهْرَب  
 نحو حجرة واسعة يبدو أنني مقيم بها، عند انحناءة  
 الطُّرقة، يُطَلُّ من فرجة الباب وجهُ سيدة تربطني بها  
 أواصر الدم، تنظرني السيدة بلا اهتمام، تغلق الباب...  
 أهتف بلوعة "يا الله يا رحيم... أي جرم ارتكبت كي

تنبذني؟“، بدلاً من الولوج إلى الغرفة التي أُعدو لاحتماها بها، أسقط تحت دفع المطارين من الطابق الثاني، إلى صحن دار كبيدة، ينقضُّ عليّ ذاك القطيع الغريب بلا هواده، تنقرني أسراب طيور، تنهشني حيواناتٌ داجئة، تخمشني مخالبها، تحيل جسدي إلى خربشات تسيل منها الدماء...

كان قد ترسّخ لديه يقيناً بأن قرين رحلاته الكابوسية، قدرته التي لا تستنفد على المقاومة بضراوة. يبادل مهاجميه الضربات والركلات بقبضته وقدميه. يلتمس النظر نحو باب الغرفة بحثاً عن السيدة فلا يظهر أي منهما، حتى الباب تحوّل إلى قطعة مُصمّنة من جدار حجري مشبع بالضفرة... نُهايفه وساوسه وهو منخرط في عراكه الدامي... ليس من جديد في أمر نساء تلك العائلة... وإذا كانت أليكترا أميرة أرجوس ابنة الملك أجا ممنون والملكة كليتمنسترا تأمرت هي وشقيقها أوربستيس لقتل أمهما وزوجها إيجستوس انتقاماً لمقتل أبيهما أجاممنون، فكانت نموذج لكراهية الأم ومحبة الأب والأخ، فعالية نساء العائلة المعنوهة نموذجٌ مُعقّدٌ لمحبة الأم وعشق الزوج والأبناء، وكراهية زكور العائلة، فأَي حَظٍّ هذا؟

### **لعلّ علمه فرويد أن يعيد اكتشاف نظرياته.**

لدى غالبية رجال تلك العائلة نَهْمٌ لاستحلال ما ليس لهم، وشهوة ارتكاب حماقات مدمّرة، تُغلّفهم مسحةٌ تجمّع بين البراءة ومبدئية أخلاقية تُغلّفها سماحية مُنذّعة من كافة المآل والعقائد الدينية

والأيدولوجيات... الطيبون في هذه العائلة نادرون...  
الطيبون هم الخاسرون. فإل من تهذب؟ وإل من تلجأ  
بشكوكا؟ عل أحدهم يكفيك شد كوايبسك التي  
تغلقت داخل روحك، وجعلت منها أرض تنعق بين  
خدايبها الغدبان...

مستترا بعريه يفيق في منتصف الليل من نومه منزعجا،  
تداهمه حاجة ملحة إلى حك جسده وهرشه، يخالطه الحذر  
من تردّي نظافة المنزل، يضيء النور، يتفحص جسده باحثا  
عن مواضع لسع ولدغ يثيران ألمه، يستعين بمطهر يرشّه فوق  
الفراش، يغير ملاءة بأخرى نظيفة، وحمام ساخن، وعندما يلقي  
بجسده على الفراش يغط في نوم عميق...

\*\*\*

هوذا الليل يظفوه في بجامر كوايبسه التكلّي بالفجعة  
يسلمه إلى حيوانات وطبوم داجنة لا تتوقف عن مطاردته  
يهاجمونه بضراوة ينقرونه بمناقيرهم، يخمشونه بأظافرهم، يعقرونه  
بأسنانهم يدافع عن نفسه، يركلهم بعنف، يسقط على ظهره

متى ينتهي هذا الكابوس السمج، عراق مع دواجن وقطط،  
في صحن دار ممتلئة حقدا وكراهية، ولا غالب ولا مغلوب، وإنما  
تكسير أرجل وسواعد، وخلع أظافر ونزع مقلمات، شقاق وكراهية  
وأحقاد ونفور، لا مودة ولا تراحم ولا احترام... يستيقظ والغضب  
بركان يحرقه، يكره كوايبسه الخالية من الحب، ومتى كانت



الجواثيم منفذاً للتعبير عن المودة. ينهض بحثاً عن دِماه، ليهرب إلى فياضي الجنس الذهني الصافي، ويروح في بحار قلقه بانتظار صديقة تطرُقُ بابَه، أو باحثة للدكتوراه تسأله المعونة.

أَسْمَعُنِي أَنَادِي، بعلو صوتي، لكنَّ أَحَدًا لَا يُجِيبُ يُخَامِرُهُ شَعُورٌ  
بَاطِنِي أَنْ أَعْضَاءَ أُسْرَتِهِ يُبْغِضُونَهُ، لَمْ يَهْتَمُوا بِهِ يَوْمًا  
وإنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَنْ يَخْرُجَ كِي يُسَاعِدَهُ . . .

استيقظ على جرس الباب، قام متثاقلاً وفتح الباب، أحجم السيد محمود متولي عن الدخول، واكتفى بسؤاله إذا ما كان أنهى كتابة الشكوى، اعتذر له للمرة الخامسة، وكان قد مضى على اتفاقهما على تقديم الشكوى إلى الإدارة العليا للشركة القابضة أكثر من شهرين، قال جاره بأدب جمٍّ: إنه يخشى أن تقوم الشركة بقطع المياه عن الشُّقِّ التي لا تزال تأخذ مياهاً من عداد مالكة العقار. اعتذر دون أن يشكو هجرة السيدة التي تستعين به في كتابة رسالة الدكتوراه دون أن تعلنه بالأسباب التي جعلتها تختفي من حياته. وهو ما سلّمه أسير كوايبس صارت تقضُّ مضاجعَه بفضاظة لم يُعد يطيقها، واكتفى بالقول (وهو يشعر بالخجل)، بأنه يعلم أن سكان العقار سوف يصبُّون جام غضبهم عليه، لكن ما يؤخِّره هو كثرة مشاغله والأعباء الملقاة على كاهله. قال جاره الطيب إن عليه ألا يؤثِّب نفسه، رغم أنه يخاف قطع المياه عن السكان، إلا أن لديه يقيناً أن الأشياء تحدث طبقاً للمشيئة.

فتح فاه أمام تلك الطيبة الصوفية لجاره الطيب المطهّوة في  
مواقف الفردوس ورضاه بما تقدّره الأقدار خيراً أو شراً، تلبّسه  
شعورٌ بالخجل، فهو كمتقّفٍ ومسرحي علماني لم يكن ليتوارى  
وراء سماحية الرجل الرحبة، ولهذا وعده بجدّيّة تامّة أنه سينتهي  
من الشكوى خلال العطلة، وستكون جاهزةً لتقديمها في مطلع  
الأسبوع، وقد فعل.

في صباح الأحد توجّهت سويًا إلى المقر الرئيسي للشركة  
القابضة لمياه الشرب والصّرف الصحي، في البداية منعهما رجل  
الأمن من الدخول من المدخل الرئيسي، وطلب منهما التوجّه إلى  
صالة استقبال الشكاوى، بعد أن قرأت الموظفة الشكوى التي ذكر  
في حثيّاتها ”المادة التي جاء ذكرها في الدستور، والتي تقضي  
بعدم جواز توقيع عقوبات على مخالفاتٍ بأثر رجعيّ“. أوضحت لهما  
بأدبٍ جمٍّ أن عليهما تقديم هذه الشكوى تحديداً للمكتب السكرتارية  
العامة لرئيس مجلس إدارة الشركة والعضو المنتدب، وأشارت لهما  
بأن عليهما التوجّه من حيث جاء، ويدخلان من الباب الرئيسي.

صعد جاره الطيب جدًّا سلالم المدخل وأصبح في البهو صوت  
أمرٍ غليظ نادى عليه أن يتوقّف ويعود إلى البوابة الخارجية، وسأله  
بفضاضة عن سبب قدومه والغرض من دخول البهو الداخلي للمبنى؟  
كانوا ثلاثة يجلسون على طاولة الاستعلامات، لا تعلم إذا ما كانوا  
موظّفين للاستعلامات أم رجالاً للأمن. تدخّل مدافعاً عن جاره،  
وطلب وهو يبتسم من رجل الأمن أو الاستعلام أن يهدأ ويتصرّف  
بهدوء، موضحاً أن جاره الطيب استأذن من حارس الأمن الجالس  
على المدخل. ثم أضاف ساخراً أنهما لم يدخلاً تكتة عسكرية.

اهتاج الرجل بصورة درامية، وأخذ يُرغي ويُزبد مع زملائه الجالسين جواره على طاولة الاستقبال، وصرخ بالجار الطيب يطلب منه العودة فوراً، عاد السيد متولي بهدوء يخجل أمامه ضباع الغابات الاستوائية. استدعى رَجُل الاستعلامات رَجُل أمن وطلب منه أن يصحبهما إلى مكتب السكرتارية، فتح لهما رجل الأمن أبواب المصعد، وقادهما بأدب إلى مكتب، هناك استقبلهما موظفٌ محترم، تناول الشكوى وقرأها بعناية، ولا شكَّ أنه انتبه إلى ما جاء بالشكوى من نصِّ دستوري يقضي بعدم جواز توقيع عقوباتٍ على مخالفاتٍ بأثر رجعي.

عندما انتهى من قراءته قال كلمة وحيدة حول تاريخ البناء. وأشار لمعاونته أن يقوم بتسجيل الشكوى، حلَّت بينه وبين جاره الطيب حالة ارتياح، فقد قرَّر السيد الموظف قبول الشكوى ووضع تأشيرته للعرض؛ ما اعتبره انتصارًا كبيرًا... جاره الطيب تقدَّم وحاول أن يشرح للسكرتير المشكلة، لكنه تدخل من فوره وأشار عليه بالصمت؛ خوفًا من أن تؤثر ثرثرته سلبًا على الموظف، وعندما وقَّع الموظف المحترم على صورة الشكوى، طلب منه أن يختمها، وقاما راجلين، على الباب توقَّف وعاد يطلب منه أن يعطيه رقم الشكوى حتى يتمكَّنَا من المتابعة، فانصاع الموظف المحترم بترحاب؛ ما أثلجها حقًا، وخرج إلى الشارع العام وهو يشعر بالزهو، لقد قدَّمنا العريضة، ووضعنا أمام رئيس مجلس إدارة الشركة القابضة مَظَلَمَتَنَا، وطوال الطريق تجاوزَ مع جاره الطيب كل حدود السلوك المهذب المعقول، وهو يوضِّح بغرورٍ وصفاقة الكيفية التي يجب أن يتعلَّمها جاره في كتابة العرائض،

فهو أمر يستلزم خبرات كبيرة، وأضاف أهمية ذكر القواعد والأسس التي تستند عليها الحقوق، وهتف بصوتٍ به رنةً من قِلة الذوق، أن مهمته انتهت؛ فهو رجلٌ صاحب مشغوليات كثيرة، وعلى جاره الطيب أن يستكمل بقية مشوار المتابعة.

حدث كل هذا العسف والوقاحة وكلاهما لديه يقين مُطلق، من أن كل ما قاما به سوف يُلقى في صفيحة القمامة، فلا رئيس الشركة سيهتم بتنفيذ القانون، بعد أن أطلق المسؤول الأعلى أوامره، ولا طرق التقاضي الباهظة التكاليف سوف تسعفهما، والتي تمتدُّ لأجيال للحصول على أحكام نهائية، وبالرغم من ذلك لن تكون قابلةً للتنفيذ، وهي لن تُسَعِفَ المظالم في دولة شرعية تعيش عالم الاستبداد منذ بدء الخليقة، وخاصة أن هذه الهيئات والمصالح الحكومية تمتلك محامين لا يعرفون الحق، خبراء في التسويف القانوني والمماطلة، بينما محامو الضحايا يستهلكون المال والوقت؛ ما يتسبب في إفلاس ضحاياهم، وأن رؤية القبور من الداخل، ومقابلة الملاكين الجالسَيْن على الجانب الأيمن والأيسر أقرب من الحصول على حكم نهائي بات ضد الحكومة، وحتى ولو حدثت معجزة، فمن المعلوم سلفاً أن السلطة التنفيذية أقوى من القضاء ولا تهتمُّ بتنفيذ الأحكام، وتتجاهل الامتثال للقضاء، إلا في حالة وحيدة أن يكون الخصوم أتباع لها... أمّا نحن فضحايا عُزْل، تفتك بهم كيفما تشاء، وأبسطها قطع المياه عن سكان العقار، فلا شربة مياه، ولا أطفال يغتسلون قبل الذهاب إلى مدارسهم، أو بعد عودتهم من ملاعبهم، أو رجال يتوضؤون للصلاة، أو نساء تتحمم بعد المضاجعة...

ولا يبقى سوى حقيقة وحيدة قالها له جاره المحترم الطيب:  
”إننا فعل ما علينا، والبقية على الله سبحانه وتعالى“، وكان  
على وشك أن يتلو العبارة التي أصبحت الجملة التي يقولها جميع  
المصريين، بسطاء أم مثقفين، من النخب السياسية الحاكمة،  
أو الإعلاميين، أو أولئك الذين ابتدعوا ترديدها في الصغائر  
والكبائر من التيارات الإسلامية السياسية:

### "حسبي الله ونعم الوكيل" ...

لكنه لم يفعل، فحمد الله في سريره، وعزم على قضاء ليلته على  
الجانب الآخر من ليل الإسكندرية حيث مدينة الدمي. ولكنه قرّر قبل  
ذلك أن يُقدّم اعتذار لجاره، حتى ولو قبل كَتْفِيهِ.

\* \* \* \*

هاتف ابنته يطلب منها الحضور، تخبره أنها سوف تفعل بعد  
إحضار ابنها من الحضانة، استدعى زوجها، وكان وابنته أوشكاً  
على إنهاء مراسم الانفصال، زوج ابنته يرفض أن يطلقها، ويقسم  
أنه يحبها ولا يستطيع الاستغناء عنها، في وقت لم يكن قادراً أن  
يجزم بأنه يستطيع إنهاء علاقته مع ربة عمله، الأمر الذي يثير  
جنون ابنته ويزيد عذابها.

طُرق الباب، قام ليفتحه مُستقبلاً زوج ابنته ببرود. في غرفة  
الجلوس جلس الشاب يتلفت بحثاً عن زوجته، سأل حمّوه عنها،  
قال الأب بجفاء إنها تعدّ طعام الغداء لهم. فبان قدر من الفرح

على وجهه، قال الأب إنه انتهى من الاتفاق على الشقة التي ستقيم بها ابنته وطفلاها، والتي يتعيّن عليه دفع إيجارها، ولو رفض فلدينا طريق المحاكم، وأقسم أنه يستطيع أن يُحوّل حياته لجحيم، لكنه لن يفعل؛ لأن ابنته التي يخونها لا تزال تراهن عليه. تغصّن وجه الشاب، وقال بخجل واعتذار إنه سوف يدفع بالطبع، وأضاف وهو يوشك على الاحتناق، مُتسائلاً عن سبب العجلة. قاطعه بعنف قائلاً إنه وحتى الآن لم يُجب على السؤال الذي سبق وأن وجّهته إليه منذ ثلاثة أشهر، أم تريد أن تسمعه للمرّة العاشرة. خفض الشاب عينيه، فردّد على مسامعه: هل لديك ولاء لمؤسسة الزواج؟ استجمع الشاب ابتساماً وقال ببراءة وصدق: قلت لك يا عمي إن لديّ ولاء لديانا. واستطرد: يا عمي جيلنا ليس مثل جيلكم، وأنا عندما أتعهد لك بالولاء لديانا فهذا يكفي. قاطعه غاضباً: ولماذا تزوّجتها؟ وما كنية أطفالك، أبناء سفاح؟

غمغم الشاب بحزن متسائلاً برجاء عمّا يدفعه ليقسو عليه. استمرّ الحديث بينهما، منذ البداية أوضح أن هذا هو الحديث النهائي بينهما، وهي الفرصة الأخيرة المتاحة، وبعدها طلاق بائن، بلا عودة، وأن عليه أن يوقن بأن هناك فارقاً بين الحب ومؤسسة الزواج، وإذا كان يعلم أنه سوف يكتفي بالحب فلماذا عقد قرانه على ابنته، وما ذنب طفليه إذا كنت لا تحترم ولا تؤمن بالمؤسسة التي جيء بهما في ظلّها إلى الحياة. وأضاف بغضب واستنكار أنه منافق، خدعهم، وما كان يجب أن يتزوج بابنته، وإن كانا قد تزوّجا فما كان ينبغي عليهما أن يرزقا بأطفال، ليس لهما ذنب فيما سيعانونه سوى أن والدهما لا يحترم مؤسسة الزواج، ولا يحمل لها الولاء التام...

استطرد بغضب: لا أعلم ما الذي حدث لكم أيها الشباب؛ ثلاثة أرباعكم يرفضون الزواج، يفرون منه وكأنه طاعون، والرُّبع الأخير ما إن يتزوج حتى يهرع إلى الطلاق، من السذاجة اعتبار الزواج غير ذي قيمة أمام الحب؛ فالزواج تتبع أهميته من ذاك الارتباط القانوني والشرعي للأسرة، وهو العمود الذي يمكن للطرفين الاستناد إليه عندما يخفُّ الحب، وأضاف بقرف وهو يقف كي يغادر الصالون أن عليه أن يعلم أن التمسُّك والإيمان والولاء والوفاء لمؤسَّسة الزواج هو طوق النجاة عندما يذوي الحب، وفضيلتا الاحترام والمودة كفيلتان بأن يكونا الطريق التي يستعيد من خلالها الطرفان حُبَّهما. نظر إليه وقال إن لديه موعداً مع عميد الجامعة، سيتركه لابنته وعليه الاختيار للمرة الأخيرة، أهي زوجته، أم طليقته؟ قال الشاب ببؤس إنه يحبُّها ولا يريد أن يتخلَّى عنها. ردَّ الأب بحق، تحبها في ساحة الجامعة، على كورنيش الإسكندرية، في مقاهي محطة الرمل، وهذا شأنها، عندما أعود سوف تخبرني: هل هي زوجتك، أم طليقتك؟

دخَلت ترتدي بلوز (كْت) يكشف عن كتفيها، ساعديها، جزء يسير من جانبي نهديها الشهيئين، وبنطلوناً قصيراً من قماش حريري ملوَّن بالزهور، يعلو الركبة بقيراطين، على مائدة الغداء عكف محسن على ضمِّ طفليه بين ذراعيه وصدرة، وكان ابنه يستعرض معه ما تعلَّمه من الأرقام والأبجدية العربية والإنجليزية، والفرنسية، فيطيب لأبيه أن يسأله على مسامح أمه عمَّن علَّمه تلك الحروف والأرقام، فيجيبه الطفل بدكاء، مس چانيت، ومامي.

تناوَلَا الطعام والصَّمْت يخيِّم عليهما، وعندما انتهيا حاول القيام كي يساعدها لكنها رفضت وطلبت منه انتظارها في الصالون، عادت تحمل عصيرًا من الموز واللبن لطفليها، وعصيرًا من العنب لزوجها، تبادلًا أحاديث قصيرة عن ظروف العمل، ومصاريف الأولاد التي أشارت أن أباهما يتكفَّل بها لحين تتمكَّن هي من الحصول على عمل، وتحدَّثنا عن الظروف الصحية لوالدته، وعندما أنهيا كل ما يمكن الحديث عنه ساد الصمت، وقبل أن يبادر بالحديث سألته إذا ما كان لا يزال يلتقي السيدة صاحبة الأعمال. أجابها بأنه يفعل بحُكم الضرورة. قاطعته: فقط؟ لم ينبس ببنت شفة. انهالت دموعها واشتعل داخلها غضبًا، شرع طفلاها في البكاء. تُرى، أيُّ مصير أسود ينتظرها! فمن ذاك الذي سيقبل الارتباط بمُطلَّقة تحمل على كاهلها طفلين؟ قالت بعد تردُّد وهي تمسح دموعها إنه شخص محترم، على الأقل لا يكذب. شعر بالدهشة، اعتصما بالصمت، بعد فترة طويلة قال إنه لا يستطيع أن يستغني عنها وعن الأولاد، وقبل أن يستمرَّ قاطعته وقد استعادت من بكاء طفليها قوتها وصرامتها، أن عليه ألا يشغل باله، فقد تخلَّى عنهم جميعًا. وقفت تنظر نحو الباب وسألته أن يغادر الآن. لم ينبس ببنت شفة، لقد قيَّدته بقولها له إنه شخص محترم لصِدِّقه، ولكنه أيضًا يستحقُّ أن يُطرَد من حياة تلك السيدة التي تعبر النصف الأول من العشرينات، وتتمتَّع بذكاء وحضور نبيل، قام وهو يتمنَّى أن يحظى بحضن دافئ بين ثنايا جسدها الشَّهي، لكن هذا يُماثل المستحيل، تركَّته يفتح الباب ويغادر، ورأسه مُنكَّس.



بعد رحيله لم تُصدّق أنها سألته إذا كان يلتقي غريمتها، ثم تُعقّب بأنّه محترم لأنه لا يكذب عليها، من أين واثتها القوة؟ تُعلّم، من أبيها، من قوته الهائلة في مواجهة الخطوب وصبره عليها، من دعمه لها... نظرت نحو البحر... وطفلاها مُتعلّقان بها، فكّرت: اثنتا عشرة خطوة؛ المسافة بين مدخل التراس والسور الحديدي، قليل من الشجاعة... تلو السُور... تحتضن الفضاء... لتسقط من حالق... القفز من الطوابق العليا طريقة مُجرّبة للموت، مفعولها أكيد... مثلها مثل أعشاب التخسيس، وزيادة حجم الثديين، واستعادة القوة الجنسية لدى الذكور بتركيب دعامتين... بكاء طفليها هو الذي أعاد إليها ضرورة التشبُّث بالحياة، ليس من أجلها، ولكن من أجل هذين البريئين... ضمّتهما وهي تبتسم من خلال دموعها... قطرات ندى انهمرت من قبيلات ابنها، شفّتها الرقيقتان تُنبئانها أنه يعلم ما جرى، وأن أباه تخلّى عنه وعن أخته وأمه... احتضنته بشدّة وهي تستلهم منه القوّة وتقسم أنها لن تتخلّى عنهما، وأنها لن تُهزم، ولن تشعر بالتعاسة، وستكون الأمّ والأب، وأن لديها أباً لن يتخلّى عنهم، حتى ولو كان يستمتع في وحدته مع نساء يقارب عمرهنَّ عُمر ابنته.

عاد يتمنّى أن تكون ابنته قد تمكّنت من استعادة زوجها، لكنه فوجئ بها وحيدة والدموع جداول محفورة على وجنتيها، أخذها في أحضانها، ربّت على رأسها، نامت بشغف في الحضن الذي تلجأ إليه في محنتها. همس يرحمها أن تبقى معه، لكنها تعلّلت بمدرسة الأولاد وعملها المؤقّت، وأضافت أنها عموماً سوف ترى. يقرّر النزول برفقتها، لكنها ترجوه ألا يفعل، فلديها سيارتها، حتى لا يضطر للعودة في المواصلات...

\* \* \* \*

ما أن رحلت ابنته حتى داهمته رائحة شيطان، أسرع إلى المطبخ، كان الموقد مطفاً، دار في غرفات الشقة بحثاً بين مقابس الكهرباء عن انبعاث ماس كهربائي أو حريق، كان كل شيء سليم، لكن رائحة احتراق البلاستيك كانت قوية، اندفع إلى التراس حيث وجد الدُمل يتدافع من الشقة المجاورة، ويتعثرن فوق بعضهن البعض، ويسرعن بالاحتماء بالجدران. مد يده يحاول فتح الباب الموصل للشقة الجانبية، صحن عليه بهلع ألا يفعل، في لحظات سمع صوت صفير حاد قادم من الداخل، وبصعوبة بالغة تمكنت الفتيات من دفعه جانبا، شاهد وهو ملقي على الأرض قذيفة مضادة للدروع من نوع جافلن الأمريكية تندفع نحو مجموعات الدُمل التي كانت تحاول الهرب، لتنفجر في دوي انفجار هائل حولتها الي كومة من الرماد.

واو... لقد تحول المشهد إلى فيلم كارتون، إذ اندفع من الداخل خمس دُمل من الكوماندوز؛ كن ثلاثة أوكرانيات وبولنديتان، هرعن الي التراس المحترق واندفعت يقفزن من سور التراس نحو البحر مستخدمين مظلات طائرة تحمل علم كتائب النازية الأوكرانية، حيث كان في انتظارهم عند الأفق زورق حربي حديث، سرعان ما رحل بهم بعيدا نحو أحد الموانئ الإسرائيلية.

كل شيء كان عصي على الفهم، إذ أنه بعد أن تمالك أعصابه دخل الشقة التي كان يعدها لزواج ابنه وجدها محترقة بعد أن شهدت معركة دامية، وقد رشقت حوائطها برشقات غزيرة من رصاص مدافع رشاشة اتوماتيكية، وهناك في ركن قصي



وجد الصناديق التي كانت  
تحوي الدُمى الروسية ممزقة  
وقد نزعت ملابسهن وأخرجت  
أحشائهن وجري التنكيل بها  
بشاعة، حاول الاتصال بالشركة  
لكن صديقاته حذروه، قلن  
إن هذه محاولة اغتيال سبراني  
... اغتيال من؟ لا إجابة...

تذكر أن اليوم كان  
الرابع والعشرين من  
فبراير، الذكرى السنوية  
للعملية الروسية الخاصة

في الدونباس، وان الجماعات

المؤيدة لليمين الأوروبي قد أطلقت

في العالم عشرات العمليات الانتقامية... كان عليه أن يحصي  
الخسائر وكانت باهظة... يا الله ماذا اصبح عليه العالم...

في اليوم التالي قام على عمل حفل تأبين للضحايا من  
الدُمى الروسية التي لم يتسنى له الوقت للتعامل معها. عبرت  
الدُمى الأمريكية عن استنكارها، قال أيها البشريات المؤتمتة  
هذا اقل ما نفعله للشعب الروسي الذي ضحي كثيرا من  
اجل مساندتنا في صراعنا الدامي ضد الإمبرالية والصهيونية،  
بينما انتم سبب بلاءنا... أسرع مونيكا بيلوتشي (m/55)

تكمم فمه وهي تهمس أستاذ انتبه... أنت تعرض نفسك للخطر. قال سنيورة بيلوتشي أنت سيدة محترمة، لكن أنا لا امثل أي خطر على أحد. قالت وهي تشهق كيف وحضرتكم تملكون أخطر سلاح في العالم. فتح عينيه على سعتيهما مندهشا وقال (أنا؟!!!). قالت بإصرار: نعم أنتم تملكون ضمير مثقف حي لا ينطق إلا عن الحقيقة حتي ولو كانت مؤلمة.

اخذها بين أحضانه وهو يربت على رأسها هامسا "اطمئني لا يمثل المرء خطرا طالما لم يكن عضوا في حركة سياسية وأنا شخص وحييد. ليس بيده حيلة. لكزتها (k/33) وأبعدتها جانبا وهي تغمز لها من قناة خفية، دعيه وشأنه أنه أحرق كبير.

\* \* \* \*

## الفصل الثامن والعشرون

# بَوَابُ الْجَحِيمِ

هوذا اللبيل يدخر لي برك غائط  
يسكنها بشر يعبدون الله بأمر وواح تقمصها الشيطان  
حركة دائبة لا تتوقف  
عدواً خلال طرقات وأمر منة  
بين الوجود والعدم  
بين الأشياء والكائنات، الجوهر والحمول  
الحقيقة والزيف والصادق والمكذوب  
الظاهر والباطن، الصريح والملتبس  
الجلي والغامض، المعن والمستور  
الفاعلين، والأفعال، والمفعول بهم  
حيث النهايات محض هراء  
لا بلوغ للمرامي  
لا انتصار، لا هزيمة، لا انكسار  
تبقى الخبيات الكبرى، وعالم الإحباط المأساوي  
سيد التراخيديا والمآسي

هي الوحدة جحيم الإنسان... هو الفراغ الكبير...  
هو الزهد عن التذمر... عقله المنهك المروع بجياته السفلية الغامضة

لما نزع عنها أنها كوابسه...  
تداهمه حاجة ملحة إلى حاك وهرش يخلف دماء

يستعيد عجزه أمام تردّي نظافة المنزل  
مستترًا بعُريه يفيق من نومه منزعجًا، بضياء النور

يتلفت باحثًا عن مواضع وخز ولدغ يثيران وجعه  
مدعنا للقرص الذي ينتشر في مروحه

عبر بمحض الصدفة أمام المرأة  
يرى جسده مكسواً بلون أسود...

يتلألأ في أمواج متلاحقة...  
يُصاب بمنزج من الحيرة والتوجُّس...

ذعر مستطير،  
يمدُّ يده هلعًا، ينزع عنه ذاك النسيج الحمي الذي يكسوه

الرعب... إذ يلتهم جسده جيشٌ عمر مرمر من التمل  
يُسرع إلى الحماة جزعًا... لا ينتظر إشعال السخان

يفتح مياه الدُّوش البارد على أم رأسه  
يرتعد وهو ينظر إلى أرضية البانيو مكسوّة بجحافل النمل

التي سبق لها وأن خاطبت سليمان الحكيم، وحوّلت عصاه سوسًا  
ورمادًا، تهبط إلى البالوعة، وزعيمها ينظر إليه متوعدًا...

**إنك لميِّتٌ مثلك مثل سليمان الحكيم،**

مَيِّتٍ مقيمٍ في البرنخ؛ الواقع بين عالمي الأحياء والموتى

مقيمٍ في عالم الرماد

هو النمل سيد المقابر... سيد البرنخ وربُّ عرشها

تسلسل أفكار مُروَّعة إلى عقله المرهق

هل يعيش موته

يخشى العودة إلى فراشه

أن تأخذه غفلته إلى نومٍ يُلقِي به إلى كوابيسه المغرقة في العتمة

يخرج إلى التراس مُنْهَكًا؛ بحثًا عن يقظة تقوده إلى عالم

النهار... تصطاده عفاريت الليل، وحوريات البحر إلى نوم يقوده

إلى أشرس وأسوأ كوابيسه شَطَطًا...

**إِلَهُ حَيْثُ يَفْرَعُ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ...**

\*\*\*

تلك المرة الأولى التي أدركَ وَعَيْهِ أَنَّهُ يعيش كابوسًا من الفرح

الخالص، لكنه لفرط بهجته نَسِيَهُ... نزل من الفراش، ارتطمت

قدماه بالأرض... على عكس كوابيسه التي تدور في فضاءات

مُعْتَمَةٍ، أفصح كابوسه عن نفسه وتوهَّج فرحًا وهو يتأملُه؛

كان ينهض في صحراء مترامية مُعْطَاةً بشمس الضحى أو هو

الأصيل، (لم يكن ليتأكد) ... يقف على حافة خفرة رملية رطبة

متسعة، عميقة، يتجاوز قُطْرُهَا خمسين مترًا... تتسع الوهدة

ويغوص قاعها في باطن الأرض بعيدًا...



يشاهد ذاته تطرق زراً مُتَبِّتاً في مقدمة جبهته، لا يتجاوز  
فُطْرُه بوصتين... لفرط دهشته يتابع بقلق الوهدة وهي تتسع،  
ويغوص قاعها في باطن الأرض بعيداً... أفسّت له ذاكرته عن رؤية  
أصابته بالرُعب والهلع والهؤل...

ويُحي وقد لحقت البليّة بي وسقطت في قبر التهلكة... يشهد  
رأسه تتضح معالمه، رأس كبش بقرنين معوجين صلبين، بينهما  
ينتصب في مقدّمة الرأس وتدّ قصير... ينقضّ على الزرّ المثبت  
بذاك الوجد ثانية وثالثة... تتخضّ الهوة المرة بعد الأخرى إلى  
قاع سحيق... يفشي كابوسه عن رعب مستطير.

... يا ويلتي... ويحي... وقد لحق الويل بي...

... تلاحقت أنفاسه، يرى نفسه واقفاً على حافة هوة لا قرار لها... جدرانها  
رملية تنتصب رأسياً دون ميل، يلوح بقلق انهيار رقائق منها إلى قاع لم يعد  
يراه... ثلاث مرات... ثلاث مرات وهو لا يزال عاجزاً على ذلك الزرّ المثبت  
برأسه والذي لا يتجاوز فُطْرُه بوصتين، تجلّى لديه يقين أنه ليس رأساً لكبش...  
وانما رأس شيطان يحفر الأرض باتجاه ماذا؟!

... باتجاه ماذا؟!... سوى الجحيم...

تتوارى أشعة شمس كوابيسه... ويرزح الكون أسير عتمة مصحوبة  
بمطر غزير يحمل رائحة البحر... هو المطر إذن... مطر كوابيسه...

يستيقظ وقد أصابه الوجوم، في رأسه صدمة وكأن ساعة ضربته... أزاح قطرات المطر، وشرع يندب حظه، كارثته، بلواه، مصيبتة الكبرى، هذا لم يكن كابوسه الأخير، لكنه الوحيد الذي فسّر نفسه على الفور، لم يتطلب أيّاماً أو أسابيع للنظر، أو أنه مضى وطواه النسيان مثل مئات الكوابيس الملتبسة والغامضة...

هو ذا كابوس لم يستلزم بحثاً أو تفسيراً، بل هبط تأويله عليك مثل رؤية ساحرات "ماكث"، أو عرافات معبد دلفي... أو ساحرات سيف بن ذي اليزن... ربما وحيّ نزل به ملاك من السماء، أو نبوءة حملها شيطان وصعد بها إليك من قلب الجحيم... أن يصير رأسك رأس شيطان فهي علامة على ما أنت عليه، فهل أنت كذلك؟ هو عين المستحيل... حياتي جُلّها كانت صراعاً معه، فكيف بي أن أكون هو... يا إلهي... الرحمة... كفاك عذاباً بي...

يمضي الزمن كالدهر، وسؤال عنيف، شديد القسوة يطرق رأسه... أن تبدو لنفسك رأس بهيمة تدقّ مزلاً جاً لهوة تنحدر نحو أسفل السافلين! هي إشارة لا لبس فيها ولا غموض...

### ... هو الجحيم قدرك؟

لُطفاً، هل تتفأ أمام إنذار سماوي بما يُعدُّ لك... بما ينتظرك... يغمرك عرق غزير، يدهمك بردّ شديد، تتهاوى في أريكة التراس بين الحضور والغياب، تتحامل على نفسك، وأنت تمضي يومك تزحف بصعوبة عائداً إلى غرفة النوم، لكنك تعجز عن فتح البلكون، تنهار غائباً عن الوعي بينما تبقى ضلالاً تك يقظة

ساهرة تحت زخّات المطر الغزير القادم من لُبِّ اتحاد البرق  
وطرقات العواصف الرعدية...

تستيقظ دُماه، لكن المطر الغزير والعواصف الثقيلة، تمنعهن  
من الخروج من المخزن الواقع في الشقة المقابلة... في الظهيرة  
تحاول إحداهن الخروج، لكن زميلاتهما يمنعونها خوفاً من أن  
تطيح وتُطيرها الرياح وتُسقطها من حالق... لِبثٍ مغشياً عليه،  
مُلوّثة ثيابه بالدماء، لا تبارحه كوابيسه، يشهد "ذاته" تسبح  
في فضاء وساوسه، تقف في عربةٍ لنُبلاء العصور الوسطى من  
مصاصي الدماء، تحمل توابيت ومقابر، تجول دون توقّف في  
ليالي القَدَم السحيقة، وخلفهم أتباعهم يسوقون آلاف الفقراء،  
يأمرون أعوانهم بارتكاب المعاصي، يتفنّنون في صناعة الشر  
مثلما يتفنسون الهواء؛ جُلّد بالسياط، قتل دون رحمة، اغتصاب  
قرويات، خوزقة رجال، قطع رؤوس صبيّة وأطفال، بيع البقايا  
رقيق في أسواق النخاسة...

في اليوم التالي تتعرّبه دُماه مُلقى على أرضية التراس، تحيط به  
بركة مياه، صرّخت الدُمية (S/11)، وأسرعت تستدعي صديقاتها،  
استبدلن ملابسها الفارقة بالمياه بأخرى جافّة، استجمعن قواهنّ  
وحملنه إلى غرفة نومه، على الفراش غَطّينه بأغطية ثقيلة، وعندما  
اطمأنن لوضعه، اجتمعن يتشاورن فيما يجب عليهنّ فعله، غمغمت  
(K/22) أنه قد مات، دفعتها (P/33) جانبا وانحنت على صدره  
تستمع لوجيف قلبه، كان هناك خفقان، رفعت رأسها وهتفت مبهتجة  
أنه لا يزال حيا. أسرعت (S/11) إلى الشقة المجاورة وعادت ومعها  
مانيكان ترتدي بالطو أبيض.

كشفت عليه بسماعتها الطيبة، أداروه ليستلقي على بطنه،  
 وأمسكت به من ظهره، ضغطت عليه حتى أطلق فيضاً من الماء  
 مصحوباً بثلاث سمكات ملوَّنة وطيور نورس، وسرطانين وأخطبوط  
 أسود بأربعين ذراعاً، عاد يتنفس بصورة طبيعية، طلبت منهن أن  
 يُقدِّمن له شوربة فراخ ساخنة، ومشروبات دافئة... فعلت ذمأه ما  
 يمكن فعله، وجلسن حوله مضطربات، يتابعن هلوساته وهذيانه.  
 يفيق من نومه ليعود محمومًا، يُحلِّق بهذيانه... يسمعونه يصرخ  
 بخشية...

هو الجحيم... لا... الرحمة يا إلهي... الرحمة... جعلت  
 مني دوماً ضحية، فلا تدعني أن أكون شيطانك... لا... لا  
 تحمل لي هذا العذاب... كل تلك الوحدة ليكون الجحيم  
 مصيدي... غاب الدرع الذي يقيني ظلال الموت فعادت  
 كوابيسي...  
 بكى... انهالت الدموع من عينيه مطراً نارياً وحمماً  
 سوداء...



**الويل الويل**  
 هي بوابات الجحيم

عاد اللهاث يمسك بتلابيب رجلي لا يتوقف  
 عن الجري هرباً من مصيره... العدو بحثاً  
 عن سراب مجهول... توطن لديه يقين  
 أن موته الذي ينتظره عند أقرب ناصية  
 في طريق الحياة مُحتملاً  
 بذاك الظلام المُعتم... أرض  
 موحلة... سماء كابية...  
 وحيثما تنقع طيور سوداء بإيدان  
 الاحيل إلى عالمك الآخذ... تسمعته  
 يهتف بدجاء وتوئيل...

الرَّحمة يا سيدي من ذاك الوجود الضارب في العتمة...  
من ذاك الفضاء المحتشد بالسكون والوحدة... الرحمة  
يا إلهي، أي مصيد سُمِّئته لي... رحلت وغاب جسدها الذي  
كان يدعًا يحميني من أوهامي... حياة امتزج فيها ضوء  
شمسٍ بالنهر العظيم... لكن الحقيقة تنضو أقنعتها،  
حيث الوجود ظلامٌ أبديٌّ ولهائٌ...  
بدء بلا عود...  
وعود بلا غاية...  
فهو جسدها آس الوجود وغايته...

غاب عن الوعي، فشرعت دُمَاه تبيكه... كانت الأولى هي  
الدُّمية (M/55)، تبعثها (S/11)، وحدها تمكَّنت (K/22) من  
مسح دموعها ودمدمت... وقَعْتُما في عشق هذا المخبول. صرَّختَا  
في وجهها غاضبتين، قالت (P/33) إن عليهن أن يجدن حلًا.

لم يَعد يحتاج لليل كي تهاجمه كوابيسه... وطاويط  
العنشيَّة تعنوره، تقنصه، تمتصُّ دماغه، تدرشف روحه،  
تتركه وحيدًا في أرض خراب...

\* \* \* \*

مُمدِّداً في فراشه، غارقاً في كوابيسه، يتفتق جسده بالحُمى والعرق الغزير، تقف فاتن تُطبِّبه، توشك على الانهيار، تجتمع حولها دُمى تمدُّ لها يد العون بكمادات باردة، ثم كمادات ثلجية... تراه يبتسم حيناً، فتبتسم، يغضب حيناً، فتحاول أن تُهدِّئه، ينكمش حول نفسه مذعوراً، والرعب يلتهم وجهه، تقفز جواره إلى الفراش، تحيطه بساعديها، تأخذه في أحضانها، والتي تعلم أنه كان دوماً العُشِّ والملاذ الوجوديَّ لوجودهما معاً في عالمه الصغير.

بين فينيَّةٍ وفينة تصرخ بالدُّمى في غضب، تسألهن إذا ما كنَّ قد تمكَّنَّ من إبلاغ طالبة الدكتوراه بحالته؟ يُجِبْنَ نُعدّاً بالنفي. تعاود السؤال بغضب إذا كُنَّ قد عرفن أين تقيم؟ ينتحِن جانِباً وَهُنَّ يُثيِّرُن بالنفي، تسألها الدُّمية: (22/K) يُحِبُّ ودِناةُ أَنه من السهل دِعوة ابنتها ديانا لِرِعاية أبيها عن دِعوة تلميذته طالبة الدكتوراه... تُواصِل لِوَمَها وَرَدَّأَتها دون أَن تَسْتَطيع أَن تخفي ابتسامتها الماكِرة، وَكُذِّرَ اقتِراحها، تُصليها فاتن نظراتٍ لاهِبَةً تشِعرُ بها ساخنة على أديمها المصنوع من البلاستسليكون، في المِرة الثالثة أَخبرتْها فاتن بغضب أَن العِلاقة بينها وبين ابنته ديانا لا تتجاوز اتِفاقهما على اسمها، بينما أُمُّها شِخص آخِذ. رسمت (22/K) ابتسامه دهشة تجمِعه دِهاء العالم، وَخطر أفاعيه السَّامَّة، دمِمت أَنها لا تفهم شِياً. قفزت فاتن نحوها وهي تقول إنْها تفهم

كل شيء، وأنها حاوَّلت مدارا دفعه للانتحار، ودَعته كي  
يلقي بنفسه من الطابق الأُخيد، وأنها في حاجة كي  
تعود لطبيعتها النفسى السابق، واجَهت الدُّمية فاتن  
بغضب، مُمبيكةً بسكين حادَّ ضربتها به وهى تقول إن  
عالم البشرد هو نفاية تستحقُّ الجحيم...

مرَّ السَّكين من خلال جسدها الشبجى، وكادت أن تسقط من  
النافذة، أمسكت بها، وجذبتها للوراء، ودفعتها جانبا... وفقا سويا  
يلتقطان أنفاسهما، تنظر كلُّ منهما للأخرى بغضب...

\* \* \* \*

في كوايبسه وبين الحُمى والبرودة والعرق الغزير تراءى له أنه يلتقي بها صُدفةً في الحرم الجامعي، طارَدها وحاوَلت الهرب، لكنه تمكَّن من اللحاق بها في الساحة الخارجية، أمسك بمرفقها بشدَّة وهو يحاول ألا يلفِت انتباه الطلاب، قالت له بصوت خفيض: أرجوك... أنت تتصرَّف كالمجنون... الطَّلبة يتابعون ما تفعله، سألهما لماذا تركتني؟ مَنْ هو الذي أساء لك في منزلي؟ قالت لا أحد أساء إليَّ في منزلك، فقط عرفت الحقيقة. أي حقيقة تعنين؟ حقيقة أوهامك. وقف مذهولاً، سألهما عن أي أوهام تتحدَّث؟ ابتسمت بسخرية: حبيبك فاتن، عائلتك المثالية المحترمة، أخوتك العظام. أشاحت في وجهه بمقدِّمة رأسها وقالت: صالح نفسك يا دكتور، على فكرة... ممكِن تشوف دكتور نفساني. سارت بعيداً وتركته يقف كتمثال أصابته لعنة.

قاد سيارته نحو الظلام، وقرب ميدان المنشية افتقرت "ذاته" عنه، واتَّخذ كلُّ منهما مساراً مختلفاً، توجَّه عائداً إلى منزله، تاركاً "ذاته" ترحل في ذات السيارة إلى وجهة أخرى لا يعلم إلى أين... أمام المقابر ركَّنت "ذاته" المتعبية السيَّارة جانباً وترجَّلت، ارتدت معطفاً جليداً وتوجَّهت إلى البوابة الرئيسية، كان البرد قارصاً والبوابة مغلقة بسلاسل حديدية، بحثت بمشقة عن مدخل تتسلَّل من خلاله، صعدت إلى الفضاء وعبرت السور،



وَاتَّخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَى مَقْبَرَةِ الْأَسْرَةِ، اصْطَفَتْ شَوَاهِدَ الْمَقَابِرِ  
وَسَكَانَهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ يَنْحَنُونَ بِتَوْقِيرِ بَرُؤُسِهِمْ، يُقَدِّمُونَ  
تَحِيَّاتٍ غَامِضَةً، وَكَأَنَّهُمْ بَانْتِظَارِ قُدُومِهَا إِلَى عَالَمِ الْمَوْتِ كَيْ  
تَلْتَقِيَ بِمَلَائِكَةِ الثَّوَابِ أَوْ شَيَاطِينِ الْعِقَابِ...

تَحْتَ مَطَرِ غَزِيرٍ خَاضَتْ فِي الْوَحْلِ، وَلَمَّا عَجَزَتْ عَنِ السَّيْرِ  
حَلَّقَتْ قَلِيلًا، تَعْبِرُ الزَّمْنَ وَالذَّهْرَ... مِنْ هُنَا وَهِنَاكَ سَمِعْتَ "ذَاتَهُ"  
الْعَارِفَةَ كَهَنَةً وَثَبِيَّتِينَ يَرْتَلُونَ بِاللُّغَةِ الْهِيروغَلِيفِيَّةِ شُرُوحَ مَتُونِ  
الْأَهْرَامِ، وَأَحْبَارًا وَقِسَاوِسَةً يَتَرْتَمُونَ الْقَبْطِيَّةَ الْقَدِيمَةَ وَالْعَهْدِ  
الْقَدِيمِ، وَمَشَايخَ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ... حَفَّارُ قُبُورٍ يَرْتَدُونَ  
بِدَلًا وَرِبَطَاتٍ عُثْقَ سَوْدَاءٍ، يُخْفُونَ عِيُونَهُمْ خَلْفَ نَظَّارَاتِ سَوْدَاءٍ،  
مُمْسِكِينَ بِأَرْفَاشِهِمُ الْحَدِيدِيَّةِ وَيَحْفَرُونَ مَقَابِرَ قَدِيمَةً، يُفْرِغُونَهَا  
مِنْ جُثَّتِهَا وَيَسْتَبْدِلُونَهَا بِجُثَّةٍ لَدُمَى حَدِيثَةٍ... يَلْقَوْنَ بِهَا عَلَى مَرَاوِحِ  
مُؤْتَمَتَةٍ تُذَرِّيهِمْ إِلَى فِضَاءِ الْبَحْرِ، تَذَكَّرُ أَنْ قَرَّارَاتِ سِرِّيَّةٍ أُمِّيَّةٍ  
عَالِمِيَّةِ النِّطَاقِ قَرَّرَتْ مَنَحَ النِّسْخِ الْحَدِيثَةِ مِنَ الدُّمَى الْفَائِقَةِ  
التَّطَوُّرِ حَقُوقًا تُمَاثِلُ حَقُوقَ الْإِنْسَانِ، وَمِنْهَا أَنْ تُكْرَمَ وَتُدْفَنَ  
بِالْمَقَابِرِ جَنْبًا إِلَى جَنْبِ جَوَارِ الْبَشَرِ... شَعُرْتُ "ذَاتَهُ" بِأَظَافِرِهِمْ  
تُخْمَشُ ظَهْرَهَا، لَكِنَّا تَجَاهَلْتَهُمْ وَتَقَدَّمْتُ إِلَى الْأَمَامِ نَحْوَ مَقْبَرَةِ  
الْأَسْرَةِ...

\* \* \* \*

بِالْقَرْبِ مِنَ الْمَبْنَى الَّذِي يَسْكُنُهُ انْتَحَى جَانِبًا وَوَقَفَ أَمَامَ  
الْبَحْرِ... حُلَّ اللَّيْلِ، وَخِيَمَ الْهُدُوءِ عَلَى طَرِيقِ كُورْنِيَشِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ،  
سَكَنَ الْكُونُ وَاخْتَفَى صَوْتُ مُحَرِّكَاتِ السِّيَّارَاتِ وَالذَّرَّاجَاتِ النَّارِيَّةِ  
وَمَا تُخَلِّفُهُ مِنْ ضَجِيجٍ، عَبَرَ الطَّرِيقَ صَاعِدًا إِلَى شَقَّتِهِ... كُنَّ قَدْ

فعلن ما تَعَوَّدنَ عمله، تحاشى اللقاء بهنَّ حتى يستعيد أشلاءه...  
أخذ حمّامًا ساخنًا وكاد أن يقضي ليلته في البانيو، حملته  
بصعوبة مغشياً عليه، بلَغَ فراشه، حيث غَطَّ في نوم مضطرب،  
استراحت دُماه ورحلن عائدات إلى مخزن إقامتهن...

تمدّد على حواء الأوج، بينما "ذاته" تسعى بين المقابر  
مُحْتَفَةً نحو مقبرة الأسدة، كانوا بانتظارها جميعًا: جُنَّتْ  
لموتى، مَنْ عاصروه ومَنْ ماتوا قبل قدومه للحياة...  
عيون غائرة تطلُّ عليه مُحدّقة من فوّهات جماجم  
عَظْمِيَّة... وقفت أمامهم تسألهم... لماذا؟ ... لماذا  
خذلتهموني؟ وأنا الذي لم يرغب بشيء... أنا الذي آمنتُ  
بكل واحد منكم، وضحيتُ لكل واحد منكم... لماذا  
وأنا الذي لم أسيئ لكم، واحترمكم بالقدر الكبير،  
فلم أَلَفْ سوى البُغض وانعدام التقدير... أخطأت؟ ومَنْ  
لا يخطئ! لكني لم أرتكب الكبائر... فلماذا؟ وأنا الذي لم  
أنتظر سوى عبارة امتنان أو عبارة شكر... جعلتُموني  
أكره الحياة... فشكرًا على أي حال...

دموع في المآقي، أو هكذا ظنّنت، قالت رُوحُه المعدّبة:  
حان وقت قدومي، فهل يطلُّ مصيري مدهونًا بالوحدة  
التي أمضيتها في حياتي الدنيا، فما البال عندما يأتيني  
زائد الموت، زامت الريح، وتصادت زحان المطر، كانت  
نُوء الغطاس تضرب المقابر بقوة... تلاشت أشباحه  
وحلَّ سكونٌ مُقيض... التقت "ذاته" حول نفسها تهذب  
من البدد القارص، والسماء مُعَيّمة عَنّمة الموت،  
والمطر يحجب الرؤية، ضمّت المعطف، وبصعوبة

سارت وسط شواهد القبور على أرضٍ مُوجَّلة زُرقة،  
تسمع عَوِيل نساء ورجال يصرخون ويكفون ما ارتكبه  
من ذنوب وجرائم في حياتهم الدنيا، طاردها مئات  
الأيادي العظيمة تحاول أن تجذبها إلى صُحبَتهم في  
عالم الظلمة المقيتة... وهي تلمُّ ذيل معطفها بعيداً  
عنهم... وبين قَيْئَةٍ وأخرى كانت تراجع الهاتف بحثاً  
عن اتصال منها، شعرت بأنها وحيدة مثل بطل رواية  
ماركيز "ليس لدى الكولونيل من يُكاتبه"، لكن هذه  
المرة: "ليس لديه من يُهايقه".

... الله يعلم...

... الله يعلم علم اليقين... غادرت "ذاته" ساحة  
المقابد من البوابة الرئيسية متوجَّهة إلى السيارة،  
انتبهت إلى أن أحد الإطارات مُمدَّق بمُدَى حادَّة، لم  
تفهم السبب، ووقفت ساعتين في ظلِّ ظروفٍ جوِّية  
سيئة، حتى هبطت سيارة أجرة من السماء، يقودها  
سائقٌ عجوز أشهبُ الوجه، طيب القسَمات، عكف  
على مساعدتها، واستبدل الإطارات الأربعة بأخرى  
جديدة، عقبت "ذاته" ساخطةً بسبب تغيده الإطارات  
جميعها، كان يكفي يا حاج اثنان فقط، وطلبت أن  
يُفكَّ إطارين وبعيدهما إلى المتجر، لكن العجوز ابتسم  
وعكف على تغيير الإطارات الأربعة وهو يتمتم:

... قدر الله وما شاء فعل...

أُخْرِجَتْ "ذاته" (الغاضبة من تلك المساعدات التي يقدمها الطيّبون وتُكثِّفُ الكثيد من حُرِّ مائة) حَافِظَةً النقود كي تعطي للرجل العجوز الطيّب الذي بدا مثل ملاكٍ هبط لنوّه من الفردوس لكنه اختفى وسيارته وتركه وحيداً، انفجرت أسايرد "ذاته" عن ذاك الطيب الغُفل، وصعدت خلف المقود حيث فوجئت بنفاد البنزين... لعنت يومها الحزين، وقفت على قارعة الطريق تنتظر من يشفق عليها من أولاد الحلال ويحملها إلى محطة وقد تقع على بُعد كيلومتين.

افترق عن "ذاته"  
كلُّه إلى طريق...  
رُحله هو إلى شفته  
حيث دُماه بانتظاره  
ورحلت "ذاته"  
إلى المقابر...

ما لبثت أن استسلمت "ذاته" إلى ما يجري، واضطّلت إلى السيد تحت المطر حاملةً (جركن بنزين) نحو إحدى محطات وقودٍ برزت أضواؤها خافتة على الجانب الآخر من الطريق، كان عليها عبور الطريق الدوّليّة، ثم القفز على الوحدات الخرسانية التي تفصل بين الاتجاهين. غامرت نفسه الأمّارة بالسوء بالعبور... خطوات قليلة، وانفجر المكان بنفید أبواق الشاحنات، استدارت "ذاته" في مواجهة الصوت، ثمّرق الضباب عن مقدمة إحدى الناقلات الضخمة على بُعد أمتار قليلة، أصابها السُّلُك وهي تصطدم بها وترتفع عاليًا في السماء، أدارت "ذاته" رأسها لتدري الكون صغيرًا ضئيلاً، وتسقط في

الاتجاه المعاكس بين عجلات سيارة زحفت بها بعيداً  
وسحقت رأسها بين محور السيارة والأسفلت، واخفت  
بلا آثار خلفها...

لم تستوعب "ذاته" المدمرة سبب الظلم الذي حلَّ  
بها، وجئت سيدها مُلقاة في إحدى غرف التفتيش  
الرئيسية لشبكات شركة الاتصالات السلكية واللاسلكية  
ورجال في "الأسود" عاكفون على تدميم الجثة بعملية  
وحرفية ويحيلونها إلى شفرات... شاهدت المخاط الأسود  
للكابلات العملاقة يلتهمها، ولم يمض وقت حتى  
ابتلعنها...

بعد زمنٍ، ربّما سنوات، وفي ظلّ أحد مواسم الأمطار  
الغزيرة لفظت أنفاق الإسكندرية المجهولة جثة  
مُشوّهة مُنتقضة الأطراف، وتوفيراً للمجهود والتعب  
قدّم طبيب مصلحة الطب الشرعيّ تقديره بأنه لم يتم  
التعرّف على الجثة، وقامت الشرطة على إثرها بالتخلّص  
منها، ودُوّنت في مقابر الصدقة، وقد كتب في التقرير  
الفتني: لم يُسَدّد على صاحبها...

\* \* \* \*

بعد ثمان وأربعين ساعة تمكَّنت دُمَيَّة من عشرات النسخ التي تحمل باركود (S/244000111)، والتي تنتشر في واجهات قاترينات المحلات الشهيرة الفخمة الواقعة في الأحياء الراقية بالإسكندرية، من مشاهدة طالبة الدكتوراه و"سيدة المؤانسة" الأشهر بين دُمى الإسكندرية، واللائي ما فتئن يتبادلن حكايتها مع البروفسور والمُخرج المسرحي المعارض، التائه بين من كان مؤلَّها بحبِّها ورحلت إلى عالم الأبدية، وطالبة الدكتوراه التي اتَّهمت بسرقة رسالة بروفسور أغبى من ديك الحبش.

كانت قادمة من الجامعة بضُجة زوجها في طريقهما إلى منزله الكائن في حي الحضرة الذي يُطلُّ على سجنها الشهير، الذي جمع في زنازينه سجناء الحركة السياسية المعارضة بكافة أيديولوجياتها في مواجهة أنظمة مُستبدَّة وتلك الخائبة...

قفزت المانيكان (S/11) تناديها، دَعَتْها لدخول المحل الفاخر، سارعت الدُمى يغوينها بأحدث ملابس نسائية لماركات عالمية، شدَّ انتباهها ذاك الهوت شورت الذي ارتدته خصيصًا (S/11)، والخاص بزوجة البروفسير الغامضة، الذي سمح لها يوماً بارتدائه.

دار حوارٍ خافتٌ بين سوزي وزوجها، هزَّ رأسه موافقاً، لم تخبره عن حقيقة ما تتوي فعله؛ فهو أحد ديوك الحبشي التي يفيض بها ذلك النوع من البشر والمدعو بالرجال، أمسك يدها يحاول أن يصحبها، لكنَّه لآحظن أنها حرَّرت يدها دون مُبالاة، في الداخل انطلقت الموسيقى من جهاز ”HomeTheatre“، ناعمة قوية، تسبقها ضربات آلات النَّفخ التي تأخذ العقل، وقد اجتمعت الدُّمى في كورس بهيِّ يُغنُون لها جميعاً أغنية Joe Dassin ...

لو لم تكوني موهودة... فلا داعي لوجودي...

بدونك أخطب في هذا العالم الموحش...

ساكتشف سد الحياة... ومغذاها... كي أعيِد أبدأك...

في كابينة البروفات، انهمكت مثيلة (S/11) في مُشاغلة زوجها، بينما تولت شبيهات الدمى (M/55) و (K/22) و (P/33) مساعدتها على تبديل ملابسها وهنَّ يشرحن المأساة التي تحدث في المنزل الذي كتبت فيه رسالة الدكتوراه، سألتهن إذا كان بينهنَّ معرفةٌ ما، نفَّين، ورغم ذلك رحلت وشعورٍ يراودها بأن أستاذها يعاني من خُطبٍ ما.

في المرات الأولى لاكتشافها مخزن الدُّمى، وبعد أن تمكَّنت من استيعاب الصدمة الأولى أصبحت صديقة حميمة لغالبيةنَّ، كُنَّ يتوقَّعن أنها ضيفٌ عابرٌ على شقة الأستاذ، وأنها لن تكون خصماً قويًّا. بعدما توَّطدت العلاقة بينها وبين الرجل الذي تسوَّقهن (أونلاين) من أسواق التكنولوجيا فائقة التطوُّر بمدن الدُّمى المنتشرة حول العالم، وأعاد تجميعهنَّ في مُخيلته ليشبع عالم ”الفتازيا“ الذي تخلقه الوحدة... وعندما تحوَّلت الشكوك



إلى يقينٍ اجتمعن على قتلها، لولا ما نيكان شابٌ ثلاثينيٌّ نَبَّها  
للمؤامرة التي تُحاك لها، وساعدها على أن "تفد بجلدها"  
من المجزرة التي هيكت لاستعادة الأستاذ من تلك الدخيلة  
التي تلعب معه أشهر لعبة في تاريخ العلاقة بين الأنثى والرجل:  
الضعف والحاجة... الآن اتخذن موقفاً آخر، صرن يتوددن لها  
من أجل إنقاذ حياة سيدهم، والذي يلبي لهنَّ ويلبُون له الشعور  
بالحياة، الإحساس بالكينونة.

\* \* \* \*

في العاشرة ليلاً غادرت المنزل مُتَجِّجَةً بالذهاب إلى والدتها  
المريضة، حاول زوجها أن يصحبها لكنها رفضت بحزم، أخبرها  
بدناء أنه في حاجة للسيارة، ألقَت بمفاتيحها إلى الطاولة وهي  
تغمغم... أناني... كيف أبى ترك السيارة لها عندما تكون في حاجة  
لها في هذا الوقت من الليل؟ استدعت تاكسي، وهاتفَت أمَّها بأنها  
في الطريق إليها. استقبلت أمُّها الرسالة بقلق بسبب تأخر الوقت،  
لكنها لم تُعلِّق، كانت تعلم أن عودة ابنتها إلى زوجها السابق تحوَّلت  
إلى جحيم. سألتها السائق الروبوت أين تريد الذهاب؟ تعثَّرت في  
الإجابة، بعد هنيهة قالت الكورنيش. قرب عمارته ترجَّلت وسارت  
على قدميها، كان الجوُّ بارداً، ضمَّت الجِياكيت الجلدي على جسدها  
وتقدَّمت ناحية العمارة لا تنوي التوقُّف، تلمحها الدُمي، تسطع  
فاترينة المحل بأضواء باهرة، عددٌ من المانيكان يُشِرْنَ إليها،  
توقَّفت، تخفت الأضواء حتى لا تثير انتباه رجال الأمن المصنوعين  
من خليط البلاستيك المقوَّى بسبائك الصلب.



اقتحمت الأنوار الشاحبة فاترينة منتصف الليل، توالى الضوء الساطع عليهنّ واحدة بعد أخرى، تنظر نحوهنّ دون انتباه، لكنها تعيد النظر، تلاحظ أن إحدى الدُمى تركت موقعها لدمية شابّ وسيم يبتسم لها من عينيه الزجاجيتين، تعود نحوه على مهل، تنظر له بدهشة، تسأله: هل بيننا سابق معرفة؟

تزيحه إحدى المانيكان جانباً، تطلّ عليها بابتسامة واسعة، تهمس لها وهي تبتسم: هل نسينا؟ تتذكّرها، تتذكّر أنها من قالت يوماً إنهنّ أسمينها في تلك الليالي المبهجة التي لبست فيها ثوب شهر زاد "سيدة المؤانسة"، يصرخن بابتهاج، تذكّرنّ جميعاً... تجيبهن، وكيف أنسى؟! كان وقتاً جميلاً.

يبدأ المطر في السقوط، تستعدّ للرحيل وخاطرٌ يودُّ لو تسألهن عنه، لكنها لم تفعل.

في الفضاء يرتفع الصوت القوي الهادر لضربات أحذية البيادة العسكرية. تمدّ لها الدُمية (K/22) يدها من فرجة من فاترينة العرض، وتجذبها إلى الداخل، وهي تؤنّبها: كيف تسمح لنفسها بالخروج في أوقات حظر التجوّل. تجيبها أنها جاءت دون أن تدري كيف. همست الدُمية بصوتٍ دافئٍ به روح الحماية: هيّا ادخلي فاترينة العرض حتى لا تتحرّش بك دوريات العسكر، ساعدتها الدُمى القريبة كي تحشر نفسها لتمرّ بين تلك الفرجة الضيّقة إلى الداخل.

صوت سَرينة مُدوية في الفضاء، يعقبه نداء أحد الضُّباط على الجنود أثار خوف الدُّمى، تتولَّى الدُّمية (P/33) ضبط هندام "سيدة المؤانسة"، ترتفع أصوات هزيم القوات العسكرية القادمة، تهمس سوزي: لم أستطع البقاء في المنزل، صِرتُ وحيدة، كيف هو حال رَجلكم العجوز؟ أجابت بأنه يسأل عنها دائماً، لم يتوقف يوماً عن تبييها بضرورة إبلاغه حال حضورك. صممت، أضافت الدُّمية أنه يعاني من حُمى وهذيان. كيف لقلبها مثل هذه القسوة؟ وشوشتها (K/22) أنها يجب أن تعلم أنَّهنَّ بعد حضورها لم يُعدن يصلحن له، يجب أن تصعدي وتلقي عليه نظرة.

كي لا يلحظ الجنود وجودها شرعت الدُّمى تُغلق أضواء القاترينات الخافت ليحلَّ ظلامٌ مُطبق، تابعوا عبور القوات في الطريق من خلال الظلام وهي تقف مخفية بينهم تنظر كراديس قوات الأمن الآلية التابعة للبنك الكوني، يركضون بالخطوة السريعة من أمام قاترينة العُرض ويطلقون على إيقاع الرُّعب صيحاتهم المدوية. لم يكن من العسير إدراك أن تلك القوات كانت تنتمي للأجيال المتقدِّمة للصناعات العسكرية من دُمى صنعت من سبائك البلاستيك الصلبة المستوردة.

انتهى عبور القوات، وتلاشى وجودهم وأصواتهم، صَحِبَها إلى الداخل حيث عدد من الدُّمى الذكور، طلبن منها الانتظار، بعد غيابهن بلحظات قدَّم لها الدُّمى من الذكور نبذ فاسد، بدا الجميع في حفلة ما جنة، رأت كيف تتطاير أعضاء الجميع يَمَنَّةً ويسرةً، حيث شرعوا في اغتصابها، وقبل أن يُمزقوها بتلك الشظايا الحادة الصُّلبة لمادة البلاستيك المقوى بمادة

السليكون، تمكّنت بطريقة لا تفهمها من الهرب، وهي تتسائل إذا كان اغتصابها حدث بالفعل أم أنه مجرد رغبات مكبوتة. اندفع بها الأسانسير صاعداً إلى الطابق الأخير، كانت الشقّة مفتوحة على مصراعها، والظلام مُخيم في الأرجاء، دخلت مُتوجّسةً، كل شيء مُرتّب نظيف، ليس ثمة غبار، بلكونات التراس مفتوحة تهبّ منها نسائم البحر ورائحة اليود، تُسرّع بشوقٍ إلى غرفة النوم التي أحبّتها حينما كانا يقضيان أوقات المراجعة ومشاهدة الأفلام الرائعة الخاصة بالكبار فقط، وجدته مُمدداً على الأرض، قلبه وعروقه تنبض بخفوت...

بكت وانهاالت دموعها غزيرة، قُلن لها إنه في عالمه الآخر يعدو في مرايا جليديّة... قلن لها إن عليها أن ترحل، فسألت لماذا؟ قُلن لو استيقظ وشاهدك قد تصيبه نوبة جنونٍ لن يُشفى منها، قالت لها (K/22) وهي تمسك بها تفها، إن عليها في البداية أن ترسل له رسائل حلوة، تُهدّ بها حضورها... قُلن إنها لو لم تفعل سيكون حكمها عليه بالموت الروحي... هيا، هناك تاكسي بانتظارك، سيؤمن عودتك للمنزل... تابعتها وهي ترحل بإشفاقٍ، فإذا تأكّدن من ركوبها التاكسي أطفأت أضواء العمارة ثم الثايرينة ليحلّ الظلام ثانية.

\* \* \* \*





الفصل التاسع والعشرون  
على إيقاع التَّانْجُو

نَهْدَاكَ مَلْحَمَتَانِ  
تَحْتَلُّ شَوَاطِئَهُمْ فِي لِقَاكَ الرُّومَانِ  
بِأَرْبَعَةِ آلَافِ فَا رَسَّ يَخْتَلُّ نَهْرَهَا الْخَالِدُ  
ذَاكَ الَّذِي قَاتَصَ آخِرَتَهُ بِالْدُنْيَا  
عَلَى سَفُوحِهَا يَتَقَاتَلُ جِحَافُ التَّيَامِرِ وَالصَّلِيبِيِّينَ وَالتُّرُكْمَانِ  
يَحْتَلُّ عُنُقَ الدَّلْتَا الْمُعْتَمِدِ الْبَرِيطَانِي  
يَكْبَحُ مَجْرَى الدَّمِّ فِي الشَّرَايِينِ وَالْأَوْرِدَةِ

نَهْدَاكَ مَلْحَمَتَانِ  
بَيْنَ وَاوَدِيهِمَا يُنْشَدُ الدَّمْرَ أَوْ يَشِي أَوْ مَرَادُ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ  
يَهْزَمُ ثُورَاتُكَ خَوْتَةَ وَجَهْلَةَ وَمُنَاقُونَ وَنَفْعِيُونَ  
وَأَسَاطِيلُ الْإِمْبْرَاطُورِيَّاتِ الْغَائِرِيَّةِ  
يَتَرَبَّصُ بَعْرُ سِكَ الدَّامِي بِنَاتُ صَهْيُونَ  
عَلَى فِضَاءِ الدَّلْتَا يُنْشَدُنِ  
أَهْبِطْنَ يَا بِنَاتِ أَوْرَشَلِيمَ  
مَرَعَى الْغِزْلَانِ

أَنْرَحِفُ صَاعِدًا مَجْتَاً عَنْ ذُرَاكِ الْمَسْحُورَةِ  
الْمُخْتَفِيَةِ خَلْفِ الضَّبَابِ وَالْغَمَامِ  
وَأَنْحِرَافَاتِ الْفِكْرِ وَتَأْتَاتِ اللُّغَاتِ الْمَلْتَبَسَةِ، وَتِلْكَ الْمُرُومَةِ  
يَصْعَبُ عَلَيَّ الْعُثُورُ عَلَيَّ بَوَابَاتِ مَتَاهَةِ جَسَدِكَ  
مِثْلَ مَتَاهَاتِ أَهْرَامَاتِ مُمْتَبِعَةٍ عَلَيَّ الدُّخُولِ

\*\*\* \*\*

هوذا الليل يُضمر لي عالماً من بين  
عبودية عضوية تحيل أمة إلى التحلل  
تتلاشى الأمراض من تحتي  
تسقط مروحي في طاحون السنين  
وأنت عصفورٌ يحلق في مستقبل العمر ونهاياته المفجعة  
لك الحياة، ولي الذمري حيث الفضاء سدسم  
واللهب مُشتعل من لافا  
وثلوح معبأة باللذة والشهوة تجاور الخطر  
هل لك أن تخبرني كيف لي ألا أحبك

تنطوي صفحة النهار ويأتي الليل  
أسقط في دباجر كوايسبي  
أمرى "ذاتي" التائهة معلقة  
على حافة جرف رملي حاد، شديد الغور  
تهددني الهلاك  
أطفال صغار يمرحون على الشفير  
دون إحساس بالخطر  
تنظره سقوط من حائق إلى الهاوية  
قطاعات رأسية تشقت من الجرف الرملي  
تتهاوى إلى القاع  
مُتَشَبِّهاً بجدار رملي هيش  
يرسل رسالة عاجلة إلى رجال يديرون اللعبة  
احذروا

ثمة قطاعاتٍ مرَّ أسيةٌ تشطّر عن جذرانِ الجُرف الرَّمليّة إلى القاع  
لتصيرَ في الأغوارِ كومة من الرمالِ

احذروا

لا تُرسلوا الأطفال إلى المذبحة  
تجاهدُ "ذاتك" المنشطرة السقوط

امرأتانِ تقفانِ جوارك

لا تُعيرانِ التفاتاً إلى الهاوية التي تقع تحت أقدامهم

تفيض إحداهنّ بالبهجة

تمدُّ لك ثقةً بالمساعدة على الصعود

دفناً جنسياً . . . محبةً ونشوة

حضوراً طاعياً في الفضاء

مُحملاً بأريجِ شبقٍ تحتضن الجيد الأثوي

تجتهد للصعود في عالمٍ توشج فيه اللذة بالفرح

تسيرُ قدماً في تلك الميرآت الصاعدة لقمّة الجرف

تتلاشى الوحدةُ

تمتزجُ ذاتك بحضورِ أثويٍ يضحُّ فيك إكسيرا الحياة

\*\*\*\*

يستيقظ من كابوسه، يقضي أغراضه اليوميّة، يراجع هاتفه

علّه يحمل رسائل منها، فلا نبأ ولا خبر أو إشارة، يأتي الليل تأخذه

سنة النّوم مرّة تلو أخرى، ولا جديد...

\*\*\*\*



الأحد [7/2/2037]

[12:59] سوزي: فينك... أنت مش فاهمني... أنا محتاجك.

[17:14] سوزي: ليه تليفونك مغلق؟

[17:14] سوزي: باكلّمك.

يرى رسائلاها... يلتقط أنفاسه، ورغم ذلك ومثل بغل حزون يتجاهلها.

بعد أربعة أيام:

الخميس [7/6/2037]

[13:04] سوزي: أنا باحب أكلّمك دايمًا، اتّصلت كذا مرة، لكن تليفونك مغلق... ليه مش عاوز ترد عليّ... زعلان إني اتجوّزت... غلّطت...

[18:18] سوزي: ردّ عليّ... أنا عاوزه اطمّن عليك.

[20:19] سوزي: لو سمحت، أنا متفهّمة إنك ممكن تكون متضايق أو زعلان وأكثر بعد عودتي لزوجي، لكن من حقّي اطمّن عليك.

الأربعاء [7/12/2037]

[11:08] سوزي: ممكّن تقول حاجة

اليوم التالي...

[23:08] سوزي: من فضلك رُد عليًا

يومان تاليان...

[20:18] سوزي: أنا عايضة أقبالك...

يُصِرُّ على تجاهلها.



قلت ظله راجله  
ولا ظله خبطة.  
رجعت لطيفة  
على شرط يكلم  
الدكتور قريبه  
ويثق معاه  
أخلصه الرسالة  
في أقرب وقت...

بعد أسبوع

السبت [7/22/2037]

تسأله: أنت فاضي النهارده؟ ... لا

إجابة...

الأحد [7/23/2037]

[02:35] الأستاذ: أسف أنا في البلد...

حضرت لعزاء أحد الأقارب، وسوف أعود  
إلى الإسكندرية الأسبوع القادم.

[09:35] سوزي: البقية في حياتك ... إن شاء الله

تكون آخر الأحران، أشوفك على خير.

بعد أربعة أيام

الخميس [7/27/2037]:

فاض بها الكيل. قالت في رسالتها:

[17:38] سوزي: شيء مُحزن لَمَّا الناس القريبة تصرُّ على إنها تزعل... أنا باعتذر على مكالماتي الكثيرة، وإصرارك بدون أسباب على عدم الرد وتجاهلك لرسائلي وحتى تجاهلك لتعليقاتي على الفيسبوك واهتمامك بالرد على الآخرين دوني.

[17:39] سوزي: باشكُرك إنَّك كنت في يوم أقرب صديق، وباعتذر عن إنى مش حاقدر استحمل معاملتك وتجاهلك ليَّا بدون أسباب، أتمنى لك كل الخير في هذه الحياة البائسة.

اجتمعت دُماه حوله وقد تلبَّستهن الحيرة إزاء رَدِّ فعله الغريب البارد، انفجرت (K/22) غيظًا: هذا السافل، مزقَّته كوايسه بسبب هجرانها له، وجعلنا نُجندُ كلَّ مانيكان محلات ومولات الإسكندرية، كي يوصلن لها رسالة تخبرها بانهيائه النفسي وجنونه العقلي بسبب هجرانها له، وها هو يتصرَّف بعنجهية ذكورية فظَّة.

عقَّبت: (S/11) تروي حكاية في العهد القديم: يُحكى أن حواء بعد أن أوقع الرُّبَّ "يهوه" عليها وعلى آدم والحية عقابه، وطرد ثلاثتهم من الجنة، ظلَّت تبحث عن آدم والفرع والخوف واللهفة والشوق تكاد تقتلها، وعندما لمحتة قادمًا من بعيد، أدارت له ظهرها، وجلست بجوار جدول صغير، تُمشِّط شعرها، وكأنها لا تهتم... يا يسوع، هذا الرجل الخبيث! تساءلت (P/33) بدهشة: يسوع من؟ ألسنت يهودية؟ أجابتها بابتسامتها الأنثوية الفاجرة وهي تلقي بنفسها في أحضانه:

- So what?

وأستطردت تعاتب الدُمية (K/22): لا تقسي عليه، فهناك ما يكفيه من الهموم، ودفنت ثغرها في عنقه. أخرجتها (P/33) من عقله بقسوة، وألقت بها جانباً، فتدحرجت مشدودة الأطراف يَمْنَةً وَيَسْرَةً. جعله هذا يشعر بصداع شديد.

صرخت بها إن كانت جُنَّتْ، فما بذلته ما ينيكان المدينة كي يُحضرن سوزي إلى المدعو بالأستاذ سوف تقسده بسبب حماقتها هي وتدخلاتها الشَّبِقة. رغم كل هذا غامر المدعو بالأستاذ بتجاهل تلميذته للمرة الثالثة التي سقطت تحت سنابك خيلها، وقد حدث ما توقَّعه، فبعد ستة أيام جاءته رسالتها:

الثلاثاء [8/01/2037]:

- أخبارك إيه؟

- أخباري إيه... انتي خلّيتي فيها أخبار؟

- انت اللي مخلّتش فيها أخبار،

توقَّعتك تكون جنبي حتى لو أنا خُدت قرار غلط أو تحت ضغط، متوقَّعتش إنك تتضم لقافلة الغير مُهتمين بيّا.

- يا سلام على البراءة!

- ده اللي اعرفه... أمّا اللي انت

متصوِّره أنا معرفوش، وزعلت جداً.

- من إيه؟



زوجي الكلب  
الذي استنجدت به  
جاءني يقول إنه الدكتور  
قريبه قال له إنه زوجتك  
ضعيفة علمياً وكسولة،  
ومخفا تخين و"مش  
مدرّجة"... وتريد أن  
أكتب لها الرسالة...  
وهذا غير مقبول، كرامة  
الجامعة لا تسمح



صاحبك تخطف  
مدود المعقول

مضت نصف ساعة دون أن تجيب، قال  
غاضباً: مشغولة مع طليقتك السابق،  
وزوجك الحالي؟ والأمش لاقية إجابة؟  
... عموماً لا توجد حاجة للدراما العالية  
مع حدّ (ح يلاً) صديق مُقَرَّب (من بين  
عشرات الأصدقاء، منهم الجار  
وعامل المخبز وزميل عمل) ...

قالت إنها جاوبته ولكن النت

قطع، وأضافت تتهمه بأنه يستخدم نفس

الأسلوب القاسي والحكم المسبق على الأشياء... زعلت من  
طريقتك معايا لأنني مش شايفة لها أي أسباب. أنا معرفش أنت شايف  
الأمور أزي؟ وما توقعيش إنك تحكم علياً من واقع تصوّراتك، اللي أنا  
أعرفه والواضح اني عمري ما قصدت أضايقك، لكن انت قصدت  
تزعّلي، أنا اتصلت تاني وتالت لحد ما انت ردّيت، وبعدها رجعت  
اتصل تاني وبعث لك رسائل وانت لا بتزدّ هنا ولا هنا، وبتشوف  
رسايلي واتصالاتي وتتجاهلها.

بعد ساعتين جاءته رسالة أخرى:

[12:00] سوزي: إذا كان ده عشان جوازي من طليقتي... لازم  
تفتكر للمرة الثانية والثالثة والألف إنك عمرك ما طلبت مني  
الزواج، وبالتالي أنا غير مسؤولة عن الجزء ده تماماً. أمّا ما  
يخص جانب الصداقة فأنا قلت إنني زعلت منك لما عرفت إنك  
أكبر كذاب في تاريخ البشرية.

أجابها: الحقيقة إنني تجاهلت رسائلك وتليفوناتك... بسبب

الإيجوباتاع حضرتك عالي قوي، وكرامتك ”ناقحة“ عليكي بطريقة غير طبيعية. طيب و حضرتك لماذا لا تضعين ”ظروفي“ في الاعتبار.

[12:23] سوزي: أنا أتصلت كثير جداً للاطمئنان عليك فقط، وكنت قلقانة عليك جداً لحد ما لقيتك على الفيسبوك بتعامل مع الناس عادي، أكيد الحكاية عندي مش حكاية الإيجو والالأسف تبقى معرفتيش كويس، أنا أقدر افهم كويس واحلل أفعال الناس حتى لو معرفش دوافعها.

[12:25] الأستاذ: أمّا بخصوص اتخاذ موقف بقطع العلاقة بيننا فانتى حرة.

[12:25] سوزي: لا، متحوّز الكلام، الموضوع هو إصرارك على تجاهل رسائلي، ووجودك على الفيسبوك وردك على كل الناس إلا أنا، كمان وجودك على الفيسبوك معناه إنه كان ممكن تردّ على مكالماتي الكثيرة.

[12:26] سوزي: مشكلتي معاك أصبحت إصرارك على إنك تخليني ازعل.

[12:31] الأستاذ: أولاً أنا مش بادخل فيس بوك.. ثانياً الدخول كان ضرورة ومكانش ترف... ثالثاً أنا لم أرد على تعليقك لأنني أجلت التعليق لحين أجد لغة مناسبة تماثل تقديري لك، وهذا رغم أن تعليقاتك باردة لمّا تعلقني وتقولني ”بالتوفيق“، الإجابة لا تستحق غير شكرًا/ بالتوفيق. ورغم كده، طلعت أنا الغلطان... يعني حضرتك تعليقك لم يكن مثلاً من نوع: الدكتور والمخرج المسرحي الكبير

والصديق العزيز، أو الكاتب القدير ألهمني بتناوله عددًا من القضايا الجوهرية. انتي اكتفيتي بعبارة "بالتوفيق"، وخلص، تعليق بارد ويمكن تجاهله، والاكتفاء بلايك، وكان الله يحب المحسنين، انتي مش شايضة غير نفسك، وبتهربي ولا تريدين الاعتراف بأن الذي من حقه أن يزلع جدًّا وجدًّا، هو أنا.



بصراحة الست حرمكم  
لن تستطيع الحصول على  
الدكتوراه...  
الأفضل والأنسب لك  
ولها هو البيت... مكانها  
الطبيعي والموقر، أنت  
رجل تحتاج ست تخدمك،  
تغسل هدمك، تعمل لك  
لقمة...  
وحضرتك قلت له إيه؟  
حاقول إيه؟  
الأستاذ معه حق

[13:10] سوزي: أنا ردّيت على  
الفيسبوك باقتضاب بعد عشرات  
المكالمات والرسائل اللّي تم  
تجاهلها...كنت تقرأ وتتجاهل  
حتى لهفتي عليك وقلقي، أنا  
معملتش أي شيء يخليك تزعل،  
راجع رسائلي وقلقي عليك.

- أنا سئمت من الجدل معاكي...  
- لأنّي على حق، بس انت  
مفيش أسباب لتجاهلك ليّا.  
- نصّابة.

- حتى لو الظروف صعبة... دا وقت الصداقة، دا وقت الحب  
الحقيقي، انت أول إنسان أشكي له همّي، وعمرك ما تخليت عن  
السؤال عني.  
- أنا عارفك... وانت نصّابة.

- أنت تتصور أشياء وتبني عليها، وأنا حزنت كثير المرة دي  
وصعبت عليًا نفسي.

- عشان افهم، تقصدي أي مرّة؟ وعلى فكرة الفول المدمّس  
اتحرق.

- كويس إن الفول اتحرق، شوف ظلّمت مين؟ ☺☺☺☺  
- خليني أفكّر كده... ظلّمت مين؟ ظلّمت مين؟ ظلّمت مين؟ مش  
فاكر، بس مين يعوّض قِدرة الفول؟ عندك إجابة يا ظالمة؟

بعد ساعتين ونصف سألته: هتصالحني إمتى وازّاي وفين؟

- اختاري الوقت والمكان اللي يناسبك؟

- مليش دعوة... انت زعلتني... اتصرّف ☹☹☹☹

- حاضر، لو سمحت اديني وقت.

- على فكرة... رؤيتك لوحدها كافية لإسعادي.

اليوم التالي

الأربعاء [8/2/2037]:

[08:08] سوزي: صباح الخير، إنت واحشني فوق الوصف،

يناسبك يوم الجمعة الصبح؟ أقضي معاك الجمعة وارجع لماما  
قبل المغرب كده.

[08:50] الأستاذ: صباح النور... عندي ارتباط يوم الجمعة..

اديني فرصة أحاول أتخلّص منه... ابحتي إمكانية السبت إذا كان  
مناسب؟

تجيبه بأنها غير متأكدة بسبب وجود مواعيد عدد من الأطباء

لوالدها.

في الثالثة وثمانية عشرة دقيقة يعتذر لها قائلاً:



[15:18] مغلش سامحيني.

[15:18] سوزي: لا يا حبيبي ولا يهَمَّك، تتعوّض أي يوم ثاني...

- شوفي المناسب ليكي، وسأكون في انتظارك.

[21:18] سوزي: هوانت مشغول الجمعة طول اليوم؟

[21:25] الأستاذ: أيوه... دعوت العائلة لقضاء يوم الجمعة عند

بنات أخويا في سيدي جابر، وأولاد أخويا الثاني في كامب شيزار،

ومش طبيعي إن صاحب الدعوة لا يحضر.

تجييه: إن شاء الله تتعوض ونتقابل قريب.

الجمعة [8/4/2037]:

في المساء جاءته رسالتها:

[20:53] سوزي: يناسبك السبت الساعة 11.

[23:17] الأستاذ: ممكن طبعاً.

[00:17] سوزي: اتفقنا.

\* \* \* \*

بلغ مسامع الدّمي كلمة "اتفقنا"، صرخن من الفرح، وشرعن يرقُصن على موسيقى التانجو، ووقفت بعضهنّ على التراس يُطلِقن الألعاب النارية في سماء الإسكندرية، وهنّ يهتفن: استعاد الأستاذ تلميذته بعد أن أوقعها في شَرَك الغواية، وأصبحت صديقتها الحميمة. السيد الدكتور الناقد (المخرج والكاتب المسرحي الكبير) تمكّن من التغلّب على كوايبسه، وعاد للقاء تلميذته، وربما مستقبلاً تصبح واحدة من عشيقاته اللائي

يخفيهن بمهارة عن العالم. دُعته دُماه للرقص، لكنه أحجم، ارتسمت على وجهه ابتسامة بهجة وثقة تطمر شعور بالنصر.

من بين الزحام تصاعد صوت ضربات لألات موسيقية كشف الحشد عن فرقة تتكوّن من عازف بيانو، وعازف كونتراباص، في المنتصف جلس عازفان يحملان آلتَي الباندونيون التي يصدر عنها أروع الأصوات تميّزًا وحُزنًا وجمالًا، حولهما وقفت عازفتان تحملان آلتَي كمان، شرعوا يعزفون عزفًا خافتًا لموسيقى التانجو...

اقتربت منه (P/33)، وقد أسدلت شعرها الغزير الفاحم السواد حول كتفها، ترتدي فستانًا أسود ضيقًا تنتهي حافتّه عند منتصف الفخذ، يكشف عن نهدين عامرين، يحيط بهما الدانتيل السوداء، يُشيع اللحم الوردي بالولع، بالاشتهاء، بالشغف، بالشهوة. تملأ من فستانها المعلق من الكتفين بحمالتين رفيفتين، تاركة نحرها وكتفيها وعظمة الترقوة تُشعُّ بألق العري، وبفتنة طاغية تدعوه للرقص.

استدارت أمامه أثناء حوارها مع جمهرة من الدُمى، تكشف عن ظهرها الذي بدا عُريه الطاغي على شكل حرف النصر "V" ممتدًا على سعته من حيث الكتف ليضيق عند حافة الكفل. ردفان، فخذان مسبوكتان توذّان لوتنجسان من أسر



الفسطان الأسود الضيق، الذي يكشف عن  
ساقين مصبوبيتين، وربلتين رِيَّانَتَيْنِ.

ارتفع صوت الموسيقى، ضربات منسجمة  
تقودها عازفتا الكمان، انتهى بثلاث ضربات  
(تراتا تم) بعدها انطلق العازفون السُّتَّة يعزفون  
التانجو... تتراجع المانيكان إلى الخلف، يُفْسِحْنَ

طريقاً ينتهي بها إليه، نظر إلى قدميها تطرقان الأرضية لتلاحقاً  
الرِّتْم، تصعد عيناه ترشف من ساقها وفسطانها الأسود القصير  
المشقوق من الجانبين، تتجاوب ساقها مع الموسيقى بحساسية  
مُفْرِطَة، حلَّ به الوجوم، وهو يلمحها تخطر على السجادة نحوه،  
مُهْرَة تصعب مقاومتها، يهاجمه نهداها الممتلئان بعسل الشهد،  
تدور حول نفسها وهي ترفع شعرها بكفيها وساعديها لأعلى، تتناثر  
خُصَلاتها في الفضاء، يظهر وجهها بجاذبيته  
النُّصْرَة مثل قمر بيتسم من وراء غيوم  
شعرها الغزير.



دعني أعلمك  
رقصة التانجو

تخطو ناحيته والابتسامة الحلوة  
لا تفارق وجهها، عيناها المشرقتان  
بالوَهج تنظران نحوه، لا تفارقانه، تُوْرَج  
جسدها وترقص له؛ قدمان، ساقان، ردفان،  
خصر، جذع، نهدان، كتفان، رأس، وجه  
صباح، شعر يطير مع الرياح- جميعها  
يرتجُّ كالزُّبْد في أواني الشهد،  
يحملون رسائل تحوي شقاوة الفتيات،

تماماً مثل حبيبته فاتن تمدُّ ساعدها الأيمن ناحيته تدعوه بإصبع  
السبابة كي يأتي إليها. تقوده في رقصة التانجو ورقصة الإغراء  
والإغواء... عليه أن يتعلمها الليلة؛ كي يدعو صديقتَه غداً لتشاركه  
الرقص. حرَّضته وهي تهمس في أذنه: دعني أعلمك حركات  
بارعة مأكرة، يمتزج فيها العناد العنيف بالجنس. تطفو بكما  
في حميميَّة المُحبِّين، تُحرِّر مشاعركما، رقصة التانجو، رقصة  
التانجو، حينما يصبح الجسدان واحداً...

يعزف الكمان لحناً ناعماً، يقف مُنَوِّماً، يتقدَّم نحوها تأسره  
جاذبية قاهرة، يتلقَّى كنفها اليمنى في كفه اليسرى، يلفُّ خصرها  
العاري من الخلف بساعده الأيمن، يشعر بظهرها ملتهباً،  
نهداها المنتصبان في صدره مُشْتَعِلان، تُقدِّم قدمها اليسرى  
إلى الأمام وتميل بقدمها اليمنى جانباً، يطارد قدمها اليسرى  
بقدمه اليمنى، يطرق البيانو وآلتا الباندونيون طرقاتهما الثلاث،  
يلقي جذعها نحو الأمام، تنثني إلى الخلف، تعود مُنصاعةً وهي  
تضحك، يرتطم جسدها به، يلتصقان، يتشرب كلُّ منهما النشوة  
من الآخر بوهج... موجة تنهار فوق شاطئ صخريٍّ، يتصالبان،  
تعقص ساقها اليسرى ساقه اليمنى، تتراجع إلى الوراء، يتقدَّم  
نحوها، تعقص ساقه اليسرى ساقها اليمنى، يبتعد كلُّ منهما عن  
الأخر، يشدها بعنف ناحيته، يلتصق الجسدان، يصيران واحداً.

\* \* \* \*



الجزء السابع

بَهجَةُ الْغَوَايَةِ



© 2nd  
FLOOR



## الفصل الثلاثون



ذاك اليوم استعاد عاداته القديمة، استيقظ في الثالثة صباحًا، بدأ يومه بنشاط وحيوية، تناول إفطاره وفنجان قهوته في التراس، استقبلت روحه أشعة السحر ونسائم أغسطس المُعَبِّق بصفاء بحر الإسكندرية، وأنعم عقله بأريحية وانتعاش وتوهُّج يبعث الارتياح وجدة الذهن.. تسألن للجلوس على مبعدة يسيرة منه، لا يُفكرن في مخالطته، بعضهن قابعات في زاوية من زوايا مُخّه، وأخريات يتكئن في صفوف منكسرات على جدران التراس خاويات من الطاقة، بانتظار ما سوف يُسفر عنه مجيئها بعد غياب طال قارب نصف عام.

في الصباح الباكر اقتحمت الشقة بحيوية، ترتدي قميص بوي فريند من السَّتان الأبيض اللامع، وبنطلون سكيّني، منخفض الوسط<sup>(29)</sup> يكشف في كل لحظة تلتوي أو تنحني فيها عن قطعة من بطنها الناعم الهضيم، تتوسّطه سرّة ينقصها دلّاية ذهبية تضمُّ فِصًّا من اللؤلؤ، يُطلُّ عليه من ظهرها من حافة البنطال وشمُّ الوردية، ناعمًا، سامًا مثل حيّة آدم وحواء وقصة الغواية الأولى.

تعلّقت به تحضنه، وكعادتها سحقت نهدِها الصلبين في صدره، غمرت وجهه بسيل من القبل، تماهى معها كعادته، القدر بالقدر، والمكان بالمكان، والحرارة بالحرارة، لزيادة ولا نقصان. لاحظ أنها تركت الطريق مفتوحًا إلى شفّتها، لثمت فمه بثغرٍ مفتوحٍ مُخَلَّفَةٌ بعضًا من رُضابها... ريقها... رغوّة عسلها... نديًا، تُرطِّبه حلاوة الورد...

(29) قميص بوي فريند: (Boyfriend shirt) بنطلون سكيّني: (Skinny Pannts) منخفض الوسط: (Waisted Pant Low)



عبّرت باب الشقة دون أن تحلّ ساعديها عن عنقه، واستدارت وهي  
مُعَلّقة برقبتة، وكأنها تدعوه كي يبدأ رقصه التانجو المغوية مُبَكِّراً ...  
يتساءل في سريرته...

- What happened to you my fair Lady?

ألقت حقيبة اليد جانباً، جلس على الأريكة مُصاباً بالحيرة،  
يتابع مراهقةً في الرابعة عشرة من عمرها، تقفز من حوله بخِفّة  
وقوّة ونشاط وحماسة لاعبة كرة سلّة في الفريق الوطني؛ تلعب،  
تعدو، تُحلّق في الفضاء، تشكو المواصلات وصعوبة المرور،  
وانحطاط أخلاق السائقين، وتحرّش ضبّاط الشرطة بها  
على الصبح، وعدم قدرتها على النوم مبكّراً، ومشاكل القولون  
العصبي، ومحاولة زوجها دسّ أنفه في كل شيء كي يخرب  
حياتها، تصبُّ عليه أقذع الشتائم هو وأمه الحيزبون... قال إن  
جسدها ساخن، يبدو أنها وقفت تحت الشمس. ردّد وهو في حالة  
انشدادٍ أغنية عبد الوهاب، يستعيد سَيْلَ القَبْلِ التي مهّرتة بها  
منذ لحظات...

”فَحَرَقْنَا نَفُوسَنَا فِي جَحِيمٍ مِنَ الْقَبْلِ...”

قُلْ لِمَنْ لَامَ فِي الْهَوَى هَكَذَا الْحُسْنُ قَدْ أَمَرَ...

إِنْ عَشَقْنَا فَعُدْرُنَا أَنْ فِي وَجْهِهَا نَظَرٌ...“.

سمعته يرّدّد كلمات بشارة الخوري وكأن شيئاً استيقظ داخلها،  
هدأت وتمتمت وعينيها تومضان بدوائر متلاحقة لبحيرة من  
الصفاء:

- صحيح... انت مالكش حل.

سألها عن أخبار عائلتها؛ والدتها وأخوتها، تدفقت تتحدث عن معاناتها مع شيخوخة والدتها، والتبطل والوقاحة التي يتسبب بها أشقاؤها وزوجاتهم ورجالهن وبناتهم، الجميع يلقي على كتفها حملته، الجميع لا يتوقف عن تذكيرها بأنها امرأة عاقر بلا أبناء، وهو سبب كافٍ كي تخدم الجميع. بدا أنها مُعبأة بالهموم ولن تنتهي من سرد واقع مؤلم، لشخصية من ستان أبيض، لديها حساسية مُفرطة ضد كل ذرة وسخ تطفح على نقائه، سألها إن كانت تؤدُّ شرب الشاي أو النسكافيه.

قفزت من فورها متوجهة ناحية المطبخ، وهي تُنوه أنها أحضرت من أجله نسكافيه بالبندق بدون سكر، وافق مستحسنًا، سألها عن أخبار زوجها المزعوم الذي أعادته إلى حظيرتها مؤخرًا. قالت بسخرية: عند أمه، شحنته في قطر البضاعة إلى أمه. وانطلقت تضحك بصخب وتحكي بسخط عن تصرفات رجال لا يرتقون أن يكونوا أشباه الرجال.

عادت تحمل النسكافيه في "مجين" من الخزف، وسألتها أن يختار ما يُفضله. كان يعلم أن صديقاته السريّات يُفضّلن "مج" النسكافيه الأحمر، يُؤثرن تلك التحف الرخيصة التي ينتقيها لمتعته، يُنعمن بها ويتركنه يتابعهن بحسرة مكتومة... كان يتمنى أن يخبرها بأنه يؤدُّ أن يتنازل عن كل شيء من أجلها، لكنه لم يفعل، وكان قميصه الأسود يكشف عن صدره، لمح نظراتها تتطلّع إلى بشرته، شعر بالخرج، خشي أن تستقبل تصرفه بما يחדش الحياء، أعاد غلقه، لكن عقله أعاد الجسبة، عليه التقدّم إلى الأمام. أعاد حلّ أزراره، وهو يحسب "تون" صوتها... لا تغيّر، لا ميل، لا تبدل، يبقيه مفتوحًا...

لم تحضر معها سوى حقيبة اليد، اليوم لا تهتمُّ سوى ببقائه، والاطمئنان عليه، وأن تخبره وبصورة قاطعة بأن زوجها لن يؤثر بأي صورة على علاقتها به، والتي لن تتغير وستظل على حالها، سواء تزوجت أو لم تتزوج، وسوف تثبت له الأيام ذلك، عليه أن يثق بها، فهو الصديق الأعز، وأعز الأصدقاء طُراً، وهو الوحيد في حياتها بعد أمها، والإنسان الذي لا يمكنها أن تستغني عنه طوال الحياة. وكي تؤكد أن مجيئها خالٍ من الغرض، أوضحت أنها لم تأت باللاب توب، ولا أوراق الرسالة، عجز عن فهم تلك المعادلة المعقّدة التي تطرحها عليه، وذاك السيد الزوج أو العامل المجهول الذي تمطره بكل شتائمها. حاول تقاды هذا الفيض من المحبّة، فلجأ إلى استنكار عدم إحصار عدّة العمل. قالت إنها أحضرت الجزء الرابع والأخير من الرسالة على "فلاشة" على سبيل الاحتياط... قال ولم لا، تستطيعين العمل على جهازي، هيا.

جلس جوارها، وقد عزم على كبح نفسه من الاقتراب من السيدة التي أعادت طليقها إلى سجن الزواج عن إرادة حرّة، وهي لا تأنف من الاستلقاء بين أحضانه... شرعت في تشغيل ملقّاتها على جهازه، تابعتها تتقلّب على الأريكة مثل حورية تلعب بارتياح في بحيرتها، وبينما هي مستغرقة في القراءة. جلس بعيداً متخذاً من ركن أريكة الغواية الأيسر ملاذاً لا يغادره. قانعاً بالاستماع إليها، وعندما مضى الوقت، وبينما هي غارقة في القراءة، وكان لا يزال يحافظ على ابتعادهما، شعر بسيل من الرعشات يسري في جسده، ولدهشته كانت أناملها تعزف على بطنه العاري، لحن من ضربات البيانو... تستكمل قراءتها، ثم تعود أناملها تجري

على المساحات العارية من جسده، لتعود تعرض ما أنجزته من  
الفصل الرابع المعنون:

### "نصوصٌ روائيةٌ تناوكت الثورة"

صنفت النصوص إلى ثلاثة أقسام، الأول: نصوص تنبأت  
بالثورة، ووضعتها تحت عنوان:

### "نصوص النبوءة"

والثاني نصوص تناوكت الأيام والليالي الثمانية عشر، التي  
انتهت برحيل الطاغية، وبعض الأحداث الهامة التي تلتها،  
وصنفتها بعنوان:

### "نصوصٌ من الجنة"

القسم الأخير كان لنصوص ما بعد رحيل الطاغية، وإدارة  
المجلس العسكري ثم حكم الإخوان منفردين، وجعلت نهاية هذا  
القسم والدراسة بثورة "30 يونيو" والتي وصفتها بـ"الانتفاضة  
الشعبية ضد حكم الإسلام السياسي"، تحت عنوان:

### "مراجعات في الأدب"

استغرق في تأمل تصنيفها واختياراتها التي تتميز بالأصالة،  
لم يلحظ صمتها وتطلّعها نحوه، لم يلحظ أنها تنتظر تعليقاً على  
توقفها عند ثورة 30 يونيو، وتفاديها تناول المراحل التالية، لم  
تتمكّن من الصمت، وقالت: أنت مش معايا؟ قال لها: بالطبع،  
وكيف أكون معك وقد مضى على غيابك سبعة أشهر. اعترضت

بأنه لم يَمْضِ على غيابها مثل هذه المدة. قال بسخرية وكيف يمكن لها أن تُقدِّر مدَّة غيابها، وهي مستغرقة في قضاء شهر العسل مع زوجها وطليقها السابق. قاطعته بحدَّة، وقالت: الزوج المزعوم. وأضافت أنه لو كان يردُّ على تليفوناتها ورسائلها النَّصِيَّة، لَعِلِمَ أنها كانت مُعتَلَّة، مُنْهَكَة، تعاني من السَّقم والضعف والإعياء، وأنها أمضت جُلَّ وقتها في فراش المرض، وأنها لم تتمكَّن من الذهاب إلى الجامعة سوى مرتين، لم يكن الدكتور المشرف موجوداً في إحداها، وفي الثانية كان متورِّطاً في شجارٍ ”لربِّ السماء“ مع عميدة الكلية، فرجعت بخُفي حنين. وأغلقت اللاب توب واستطردت قائلةً إنها جاءت اليوم ولم يكن في بيتها المذاكرة...

قال مذهولاً: طب ليه؟ قالت والدموع تترقرق من عيناها: عارفة إنك مش حتركِّز معايا.

- وعرفتي منين؟ على العكس، أنا مبتهج بيكي...

- يا سلام. قال لها بالطبع، فهي شخص مميز، وأن أكثر ما يقدره بها هو أنها دائماً ما تستطيع التمييز بين الثمين من الغث، والعميق من الضحل. وأن لديها حساسية حاسمة تجاه الاختيارات النزيهة والراديكالية. لمعها تعيد جذعها إلى الخلف لتستند بظهرها إلى مسند الأريكة، تساءل وهو يحدِّق في نهدِها اللذين وثبا شامخين إلى الأمام، وأطلاً عليه بوحشية، يدعوانه كي يزدردهما معاً. قال وهو يتلع ريقه إن مشكلتها الوحيدة هي العودة المشؤومة إلى طليقها.

قالت بغضب إن زوجها الكلب ابن الكلب الذي استنجدت به كي يُؤمّنَ علاقتها مع الدكتور المشرف ويحميها من تحرّشه كي تنتهي من الرسالة الزّفت، جاء بعد أيام يقول إن قريبه قال له إن زوجتك ضعيفة علمياً وكسولة، وتريدني أن أكتب لها الرسالة، وهذا يهين شرفي الجامعي... زوجتك مُخّها تخين ومش "مِدردحة"، ونصيحة مني بلّفها إنها بهذا الجمود الفكري والعقلي والاجتماعي لن تستطيع الحصول على الدكتوراه... والأنسب لك ولها أن تَقَعُدها في البيت ... بيت الزوجية هو المكان الموقّر للمرأة، أنتِ راجل محتاج ست بيت تغسل هدموك، وتعمل لك لقمة...

- وجوزك قال له إيه؟

- وافق على كلامه.

قال بتشّف: تستاهلي، حد قال لك تزوّجي؟

قالت إن زواجها (علّك تستريح) تمّ في لمح البرق... بسبب أن الباشا الدكتور المشرف على الرسالة تهجّم عليها في مكتبه بصورة فظيعة، قاومه وتمكّنت بصعوبة من الهرب وصوته يفحّ في أذنها أنها سوف تحصل على الدكتوراه عندما ترى حلمة أذنها... قالت إنها عادت إلى المنزل منهاره، حيث وجدت السيد المحامي طليقها والذي هو قريبه موجوداً في البيت، يطفح طعام عشاء قدّمته له أمي. توقّفت قليلاً قبل أن تستطرد: كلام كثير دار وهي توذّ لو تطرده، أن يتركها لهمومها ويرحل، حتى سمعته يطلب استعادة زواجهما. قالت إنها وافقت من فورها، وهي في

ضميرها إنه سوف يُخلصها من ورطة قريبه، لكن يبدو أن الاثنين كانا مُتفقين عليها، كُلُّ بطريقته. للمرة الثانية قال نكايَةً بها: تستاهلي، حد قال لك تزوّجي؟ انفجرت في وجهه، وقالت إن عليه ألا ينسى أنها نفذت نصيحته لها بالزواج. اعترضها مستغرباً: أنا! قالت: أنت قلت لي تزوّجي وتطلّقي، ما المشكلة إذا فعلت؟ أفضل من عازبة ينهشها الجميع، وأنا نفذت نصيحتك كي أنجو بنفسي من مجتمع ذكوري؛ كلاب سعرانة. قال بحيرة إنه ربما كان يقصد أن تتزوّج به. ولكنها تجاهلت عروضه. هزّت رأسها رفضاً، وقالت بصورة قاطعة: إنه لم يعرض عليها الزواج مطلقاً، وأن عليه أن يتحمّل النتائج. وأضافت مؤكّدة: ورغم ذلك، نعم إنها تزوّجت، لكن عليه أن يكون متأكّداً من أن زواجها هو محض مواجهة للمجتمع، وهرب من المتحرّشين الذين يطاردونها كالذبيحة... وإرضاء للفاشلين والحاquدين... متزوّجة؟ مش متزوّجة؟ عندك أطفال والأ عاقر؟ وهي لم تفعل شيئاً سوى تنفيذ نصيحته، وعليه ألا يتصل من مسؤوليته.

تكذب... هي تكذب، تبحث عن حجة تتوارى خلفها، فهو لم ينصحها بما تدّعيه، ربما حدث في الأيام الأولى لمعرفته بها وكانت مُطلّقة، تذهب أسبوعياً لطبيب نفسي، ربما قاله في معرض حديث ليس بذى قيمة. سمعها تقول بنبرة صادقة، إن عليه أن يثق بها، وأن يتأكّد أن علاقتهما سوف تستمرّ على ما هي عليه، وكما هي، وأن شيئاً لن يتغيّر... أضافت: وبالمناسبة أنها لم تُعد تهتمّ إذا ما كانت زوجته فاتن متوفّاة أو أن طليقته ليلى لا تزال حيّة، سألتها مندهشاً فاتن من؟ قالت فاتن صاحبة الهوت

شورت، اللي أختك حاولت تبيع شبكة الخطوبة، لكن والدتك وبقية أخواتك لقنوها درسًا في احترام الأمانة والتكاتف بين الأخوة... حكاية رويتها في خِصَم حديثك عن عظمة عائلتكم.

أنكر معرفته بما تقوله، قال متعجبًا إنها تخترع قصصًا من عقلها الباطن... أضاف أنه لم يأت على ذكر شخص في حياته يُدعى فاتن... قالت: يعني مراتك لسّه عايشة، وحيّة ترزق؟ وأنتما مُطلقان؟ وليس لديك زوجة لاقّت مصرعها في حادث طائرة فوق صحراء الربع الخالي. تراجع إلى الخلف وهو يقول إنه لا يفهم ممّا تقوله شيئًا، ويبدو أنها "خرّفت". فتحت عينيها على سِعتهما، سألت بصبر: هل يمكن يا أستاذي الفاضل أن تخبرني عن حالتك الاجتماعية؟

- أيوه زوجتي ماتت فعلاً في مارس 2029؟

- فين؟ قال بحسم أثناء حادث طائرة تابعة لشركة طيران خليجية. هدأت وقالت وإن اسمها كان فاتن.

نفى قائلاً: لا، لم يكن اسمها فاتن، مَنْ قال ذلك؟ تنهّدت بغضب وهي تنظر حولها وغمغمت "يا مصبّر الصبر أعني على بلوتي"، واجهته قالت: حضرتك. أنكر ساخطًا: أنا... لا أنا مقولتس.

- طيب خلاص ماشي... أمّال اسمها إيه؟

- ليلي. اسم حبيبتي ومراتي أم أولادي ليلي.

- يا دي النيلة، أمّال مين فاتن؟



- أنا عمري ما جبت سيرة حد اسمه فاتن. مدّ يده يلمس جبينها... قال إنها دافئة شوية.

- بتعمل إيه؟

- عندك حمّى...

- عرفت ازاي؟

- بتخرّفي. أنا مقلتش تخاريف من اللي بتقولها...

- بنتك ديدي قالت.

- وانتي بتسمعي كلامها ليه؟

- أمال فين الحقيقة؟ قول لي...

- تاني؟

قالت: أيوه تاني وتالت ورابع، وأضافت تسأل عمّن كانت زوجته، وهل هي متوفاة أم لا تزال على قيد الحياة؟ وهل هما منفصلان؟ وهل هو متزوِّج بواحدة أم اثنتين؟ صاحت بغضب:

- جنّنتي يا أخي.

قال إنه أخبرها عن كل شيء في حياته ولم يكذب في شيء، لكنها مُصابة باضطراب ذهاني، قالت بغضب: طيب ممكن أعرف فاتن عايشة والأميّة.

قال بغضب عن أي فاتن تتحدّث؟ سبق وقلت لك يوم جئت منذ أربع سنوات إن المرأة التي أحببتها وتزوَّجتُ منها اسمها ليلي، ماتت في حادث طائرة فوق صحراء الربع الخالي.

صرخت: ليلي مين؟

- ليلي مراتي... حبيبتي.

- صاحبة الهوت الشورت الجرسية.

- أيوه الهوت الشورت الجرسية الأسود والميكرو چيب. غمغمت بغضب.. يا نهار اسود... دارت حول نفسها، واتَّخذت مكاناً قصيماً... ساد الصمت لبرهة، كانت غاضبة، حاول أن يصلح الأمر، سألها عن السبب الذي جعلها تخفي عنه تحرُّش الدكتور المشرف بها، قالت إنها لم ترغب في أن تُورَّطه في الأمر. قال عموماً سوف نرى، لكنها قاطعته بحسم مُوضَّحة أنها لا تريد منه التدرُّج، وأن على زوجها أن يحميها، وهو المسؤول عن "جنان" قريبه ووساخته. زَمَّ شفَّتيه دون تعقيب، فكَّرت أن تتأكَّد ثانية، إذا كان متزوَّجاً من امرأتين، إحداهما فاتن التي وافتها المنيَّة في حادث طائرة فوق صحراء الرُّبع الخالي، والثانية ليلي مُطلَّقة وأم ديانا، لكنها قرَّرت ألا تشغل بالها... ليلي أو فاتن، متوفاة أم مُطلَّقة، عاقل أم مجنون... تفرق إيه... أيوه بقى... على العموم هو مؤكَّد راجل مجنون، لكن جناحه حلو.

\*\*\*

كان مشغولاً بمفازات جسدها، يحتلبان اللذة من بعضهما البعض دون بلوغ المرامي، فكّر فيما تعنيه سيدة متزوجة من شخص آخر تعلن بأن شيئاً لن يتغير، وهل يجوز الأمر عندما يكون متعلقاً بتلك الحقول والميادين التي أتاحتها له من جسدها، أصابته الحيرة، تراجع وراء غلالات الصمت. ولم يلبث أن قال (مشيراً إلى نهديها المشرعين بقوة وصلابة في مواجهة العواصف البشرية)، إنه لا يستطيع مقاومتها. ضحكت وهو ينسحب مبتعداً عنها ليستند بظهره على المسند الجانبي للأريكة، تاركاً إياها في المنتصف.

سألها أن تعود للقراءة، قالت إنه لا يركز فيما تقوله، فتح يديه مستكراً، قالت إنه لا يذكر كلمة ممّا قالته، فسرده عليها، تساءلت مندهشة إذا كان يقبل أن تنهي الدراسة بثورة الثلاثين من يونيو، قال إن هذا تحديداً ما أعجبه، وهذا الاختيار يُعبّر عن ذكاء يُقدّرُه، فمثلك لو تَوَرَّط فيما تلاها من أحداث، لن يُسمح له بعبور أسوار الجامعة، وأن التوقّف عند تلك الفترة يمكّنها من تفادي الدخول في المحظور، وهو عين الصواب إذا كانت تريد الحصول على الدكتوراه.

أورقت الدموع كالزهور في عينيها، مدّ ساقه اليمنى بين رديفها ومسند الأريكة الخلفي، وفتح ذراعيه ودعاها هامساً أن تأتيه. مالت على جنبها الأيسر، وزحفت نحوه، مستلقية برأسها وجسدها على صفحة صدره، التفتّ حول نفسها مثل جنين في بطن أمه. أخذها بين ذراعيه، وضّمّها في أحضانه، وعكف يُمسّد شعرها. كان الشقاء يعلو وجهها، لثم دموعها، ترقّب نهديها، كانا

يهجمانه، حدّثهما باستياء أن عليهما أن يخبراه عمّا ينبغي عليه فعله إزاءهما، والأا يتركا في ضلالة الأوهام. ابتسمت وسألته أن يفعل بهما ما يريد.

مثل نشال ماهرٍ نضاً قميصها، وتلاه بمشدّ الصدر، وانحنى يلثمهما، يُمرغ رأسه بين واديهما، تركته قليلاً ثم عادت تضع كراديسها، تراجع وهو ينظر في عينيها الغائبتين، وقام باحترام بالغ بإعادة مشدّ صدرها إلى النهدين، وهو يربّت عليها وهما لا يزالان عارئين، وأمسك ساعديها يدخل كلاً منهما، واحداً بعد الآخر في قميصها الناعم المصنوع من الستان إلى حيثما كانا، واكتفى بإسدال جانبي القميص وتسويتها، تاركاً صدرها ونهديها وبطنها مكشوفة، وهمس لوسمحت هكذا سيكون أفضل. دمدمت تحدّث نفسها...

... فعلاً مالکش حل...

ارتفعت درجة حرارة الطقس عندما سألته أن يُشغلّ جهاز التكيف، قال إن به عطلاً، وأنه طلب الصيانة، أبلغوه بضرورة تغيير الموتور وإعادة شحن الفريون، وهي تكلفة مرتفعة، وأنه يفكر في شراء جهاز جديد. اكتفت بنظرة خالية من المعنى، شاهد إحدى دُماه (K/22) تُنبّه مُشيرةً إلى أن الجهاز يعمل، حتى إنها حاولت أن تذهب لتشغيله، لكنه أصلى الدُمية بنظرة نارية ونهرها، فتراجعت إلى التراس واختفت بين الدُمي الذين تجمّعوا يتلصّصون عليهما. عادت تلميذته تقرأ رسائلها، وهو غارق في متابعتها، أو هكذا كان يبدو، بعد فترة سألتها إذا كانت

تشعر بالحرّ، هزّت رأسها مؤكّدة، وأضافت رحل يوليو، وإنهما سوف يُشوَّيان على قلاية أغسطس... بدا أنه يفكر للحظات قبل أن يقترح عليها الانتقال إلى غرفة النوم كي يتمكّن من تشغيل جهاز التكييف بها... لاحظ بدهشة أنها ومن فورها، ودون مناقشة انكبّت تلملم أغراضها وهي تهتف: "يلاً". وقامت تحملها مُتقبلة إلى غرفة النوم.

شهقت (K/22)، وهمست:

- The deceitful takes her to bed.

أجابتها (P/33) وهي تبتسم بلؤم:

- But she also liked it.

قالت (S/11) وهي تخفي غيرتها بغضب:

- The bitch was waiting for his invitation.<sup>(30)</sup>

أغلق شرفات البلكونة كي يشعل التكييف، أخذت الجانب الأيسر من الفراش، وجلست مربّعة الساقين، وضعت اللابتوب أمامها، ذهب يعدُّ فنجان قهوة سوداء، واتّخذ الجانب الأيمن من الفراش، تاركاً مسافة تُمكنها من التصرّف بحرية.

\*\*\*

---

(30) - المخادع يأخذها إلى الفراش.

- لكنها أيضا أعجبتها ذلك.

- العاهرة كانت بانتظار دعوته.

ثلاثة أشهر متواصلة عملاً سويًا، تعرض رسالتها وهي بين ساعديه، تتوسّد صدره، ويواصل محاولاته الدؤوبة لسبر أغوار جسدها النائي عنه مثل مسبار أُطلق لاكتشاف أعماق الكون.

\* \* \* \*



في المرة التالية عندما فتح الباب وجدها تقف تحمل حقائبها الثقيلة الضخمة التي تضم لوازمها الخاصة والدراسية، واللاب توب وهي تتكى على سور السُّلّم وسط عدد من كراسي الصالونات بعيداً عن أشعة الشمس، سألها إذا كان قد تأخر عليها، أجابت بالإيجاب، واستطردت قائلة إن جيرانه من الدُمي أخبرنها أن الأستاذ يستيقظ متأخراً، ويكون نائماً في هذا الوقت، وعرض عليها أن يستقبلنها بالداخل لحين أن تصحو، وقد شكرتهن.

- هو إيه اللي عرّفهم؟

- شُفت بقى... اسأل نفسك، علاقتك بهم مش طبيعية.

- طبيعي... وأضاف أنه أصبح من الصعب التفرقة بين دُمية في فاتريته وإنسان يقف أمام واجهة العرض. والحقيقة، واستطرد (وهو يشير بزهو إلى رأسه) إنه صنعهم في ذهنه قبل أن يهبطن من سحابات الخيال إلى الواقع المادي، وإنه صمّمهم من المثلث الذهبي لجمال المرأة؛ الحُسن والجاذبية، الذكاء وثقافة يسارية تتسم بالمصادقية، وأخيراً جمال وسلامة النفس، ومن لا تتطوي على ذاك يُلقي بهنّ في أفران تدوير السيلكون والفيبر جلاس، أو في صفيحة القمامة. غمغمت في سريرتها: بالطبع رجل مختل!

الأيام التالية لم تكن مثل أي أيام سبقتها، في رحلته لاكتشاف جسدها، يستكمل بصبر وروية التَّعْرُف على تكوينها الذي بدأه قبل هجرانها الأخير له، مستعينا من (iPad) بالموسوعة البريطانية لتشريح جسد الإنسان... انكبَّ يستوعب هيكلها العظمي: الطرفين العلويين... يلثم لوح كتفها من جهة الظهر، يتحرَّك بأنامله على ذاك المثلث العظمي المنبسط، ينقره نقرات عصفور يبني عشه، يبسط كفه على الداخل العريض، متوجِّهاً إلى طرفاه الخارجيين المدبَّين، يعجن بأنامله عظم الترقوة. ذاك البروز الصغير الطويل المتَّصل بالكتف من الجهتين بأعلى القفص الصدري... تعود بكتفها إلى الوراء، تختلس النظر إليه بامتنان... مرَّ بكفَّيه على العضدين المتدليين من لوح الكتف، يتلمَّس الجزء الأعلى من ساعدها، يروح جيئةً وذهاباً في المسافة بين مفصلي الكتف ومفصلي المرفق، تقاوم حركة كفيته في صمت؛ إذ إنه يعوقها عن متابعة عملها على اللاب توب... تتوقَّف عن القراءة، تتوقَّف عن الكتابة... يضمُّها من خصرها إلى صدره، يحتضنها بقوة... ثم يطلقها لتعود إلى عملها...

فَرَّتْ من مجلسها، ووقفت أمامه وهي في حالة من التوتر، سألتها إذا كان يضايقها ما يفعله، هزَّت رأسها نفياً، وعادت تجلس أقرب ممَّا كانت عليه، التصقت به، يأخذ ساعدها المجاور له مثل هبة ملكيَّة، يغوص برقَّة يلثم إبطها، تضحك... يُقبِّله... يتصاعد رنين ضحكاتها... يفرز أسنانه بين ثناياه... تصرخ... وبدلاً من أن ترحل مُبتعدة عنه، تعيده إليه وفي نظراتها امتناناً غاضباً.. يُعيد الكرة قبل أن يرحل إلى الجرف الكائن بين عظمتي الزند والكعبرة، تسلب ساعدها من بين يديه وهي تصرخ من الألم...

تنظر نحوه وفي عينيها عتاب وشكوى ممّا يفعلها بها، وقبل أن يعتذر تعيد ساعدها إليه، يتلقّاه مثل قربان مُقدّس...

تكبح الألم الذي تُسبّبه أظافره التي تنغرز في ساعدها، تحضره مثل مجرى للمياه، يعرك هيكل كفّها المسترخي بين كفّيه، يفرك عظام الرسغ: ثمانى عظام صغيرة مُرتّبة في صَفَيْن، يُعدهم واحدة بعد أخرى، يختلّ العُدّ فيعيده مرّة ثانية، حتى يتمكّن من بلوغ الرقم ثمانية... يتحرّك بروية ناحية الأمشاط، يعدُّ أربع عظام يتمفصل بعضها مع بعض مع عظام مشط اليد الخمس... يقبلها جميعاً بامتنان، يوشك على الانتهاء من اكتشاف الهيكل العظمي الطرفي العلوي، تتبقّى السُّلّاميات... ثلاث بكل إصبع، عدا الإبهام؛ اثنان فقط، يدلّكهم جيداً... وهي منصاعة في صمت... يلعقهما ولا يكتفي إذ وجدت إصبعها الخنصر في فمه... صمتت، يتلوه البنصر والأوسط والسبابة، توقّف عند الإبهام... كان يريد أن يتمم المهمة بعناية، جُلّ اهتمامه ينصبُّ على الأتقوته بؤابة تمكّنه من الولوج إلى جسدها الملعز، مدخل سحري لقلعتها أخفته بمهارة...

يتناول الوسطى، هذه المرة عضّها عضّاً خفيفاً، ندت عنها آهة، فتركها إلى السبابة... لثمها، نقرها بأسنانه نقرات خفيفة... تتناوب الآهات واحدة بعد الأخرى، أصبح الإبهام في فمه، لم يتنازل عنه، أطبق عليه شفّتيه بقوة، وأخذ يقبله... زفرت تهدة عميقة من صدرها، تركها ولديه شعورٌ بأنه لم يعثر على مداخها السريّة بعد... غمغم مغتاضاً... جميع مداخك بوابات زائفة... جسّدك أهرامات أخفيت بمهارة مداخها السريّة برُقيات سحرية عن لصوص الكنوز.

\*\*\*



يمضي الزمن وتتعاقب الأيام، يتابعها تتناول "رواية النبوءة"، تسرد كيف تمكّن عددٌ نادر من روائيين المؤمنين بمسؤولية فنّ الرواية، يمتلكون طاقة تخيلية وإبداعية خلّاقة، مُدْمَجَة بعشق الوطن، بالمغامرة في البحث في مفايزات المجهول المتعلّق بالمستقبل، والتواتر المتنامي بين رغبة السُلطة الحاكمة ومَن يشايعها من مثقّفين على تحويل المجتمع المصري إلى صورة من عبودية حديثة وسيادة حكم الفرد الذي قاد المصريين في مطلع القرن الحادي العشرين إلى مشارف الجمهوريات الوراثة، وقُدرة الشعب المصري على تجاوزها. يستمتع عقله بشغف، وهي ترتل صلاة في محراب الوطن، وحواسه تتأمّل كيف تنهاه عن لوك لسانها، وتلمس اللثة والأسنان، يفكّر مُتسلّحًا بالصبر... حسنًا سيدتي، سوف أتناولك عُضواً عُضواً... إربًا إربًا...

يتناقل العشاق أحاسيسهم برغبات تشعلها مساحات التلامس، توترات صراع الأنامل، وطيس انقباض الكفوف على الكفوف، يكتشفون حلاوة الجسد من ارتطام النهود بالسواعد، اتكائها على الصدور، وسكونها هناك، لحين ولوج الشفاه إلى الشفاه؛ بوابة الحياة الأولى، وأنا أسبح إليك من الطريق المعاكس، من نهايات الجسد، من أطرافه قبل أن أصل إلى ثغرك الثمّل بشهد رُضابك، إلى قبلة النّهدين المغموسين في غسل الشهد، لتعبيد الطريق إلى بلوغ الذُروة، فما لك لا تكشفين عن مسالكك ودروبك السرية في محراب التلاقي.

قالت هناك ثورة على الميديا ضد الختان، يُشيعون أنها عادة فرعونية قبيحة، ولكن كيف لامرأة أزيلت أنوثتها أن تتحوّل إلى كتلة من لهب، قلت لها إن الفلاح المصري القديم تعلّم الختان من تقليم أشجاره وبساتينه، هذا يتسبّب في زيادة قوة الجذع وانتشار الغصون إلى مساحات واسعة، كذا يكون تقليم الأنثى، كي يتحوّل جسدها كله الى مبعث لِدَّة. أيتها المرأة الشابة، سوف أقوم على سبر أغوارك المجهولة من الداخل إلى الخارج. فدعيني أتلّمس مفاتك ...

\* \* \* \*

بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أن الفيلسوف الفرنسي المدعو "چاك بن دريديه"، والسني صار أعجوبة الأعاجيب، والولد المدلل لدى الفكر الغربي، ورأى البعض أنه يُمثّل القول الفصل في التطوّر التاريخي للفلسفة، بعد أن أضفى عليه نكهةً ماركسية، وهو الطعم الحلو الذي يساعد الأطفال على ابتلاع السّم وإدمان الهيروين، (ورغم أنه أصرّ بأن يبرئ نفسه منها). سيتولى تنفيذ ما ذكره بارت بالإجهاز على التّفدّميّة، كان يروج لوسائل تُمكن الجماعات البشرية من أن تفضي بوجودها الى حروب إبادة تنتهي إلى مقابر جماعية.

الليلة الرابعة والثمانون  
بعد الثمانمائة

تتري الأيام تستكمل سرد رسالتها، ويرحل هو في مفازات الجسد، وقد أصابه الملل؛ إذ لم يُعد الصعود إلى حواف الذرى أو بلوغ قمة النشوة مُمكنًا، ولحظة بلحظة، وصفحة بصفحة، بين امتشاق التلازم، والبحث عن إجابات في قاموس الأسئلة النقدية الحديثة، من قراءة مُلهمة في شعر لوركا... يطوف العقل بمتاريس مدريد، والساقين الملتحمتين بالفض الجليل... إذ حينما يجري التساؤل عن زمرة الشباب الذين شكّلوا كتيبة الإعدام في رواية "حفلة التيس" لماريو بارغاس يوسا، التي خلّصت البلد من الطاغية: أنطونيو دي لامثا، أنطونيو إمبرت، أماديتو غارثيا، سلفادور استريا سعد الله (التروكو اللبناني) الذي يتمنى مشاهدة قريته (سكنتا) اللبنانية قبل موته. أو ذاك الجمال الملهم الذي رسم به أورهان باموق شخصية نجيب، الفتى المؤمن في رواية "تلج"، الذي يموت بعد ساعة بطلق ناري في العين من سؤاله الوجودي إلى السيد "كا" الملحد، هل أنا ملحد؟ أخاف -حاشا لله- أن أكون ملحدًا...

تغزو الأنامل مشتهية ثنايا الأديم الناعم أسفل البلوز الرقيق وترسو على جانبي جسد أنثويّ مصنوع من نارٍ وتلج... يحاول عقلها فكّ متاهات وألغاز رُسل الثقافة الغربية: رولان بارت، وچاك دريدا وميشيل فوكو... يدور هو في مدارات الحسّ، امتشاق رحيق التواتر بين لمس أطراف الأذنين الأيمن بأطراف اللسان، وغلائل جدائل الشعر المنسدلة بين جماليات اللغة الرومانتيكية والانفعالات الحسية... ينتفض الجسد وهو يحاول الفصل بين التفكيكية والماركسية، والدور الخلاق الذي لعبته البنيوية التوليدية في مدّ

الماركسية بإكسير الحياة، ودراسة أوجه التباين والاختلاف بين فلسفة الأنوار التي دكَّت الطريق لصعود الثورة الفرنسية، وسحق التحالف بين الطبقات الرجعية والكنيسة، والتمهيد لسيطرة الطبقات الثورية، وبين التنوير المصري المزيف المدعَّم من اليسار الرسمي لقيادة المصريين إلى مراعي العبودية وسيطرة الجمهوريات الوراثية.

في نَقْدِ جواهر الموجودات الثمينة . . .  
في فهم أشياء يصعب التعبير عنها باللغات المنطوقة . . .  
تتلاشى الذرورة تلو الذرورة . . .  
توجَّل إلى مخزن الذررى المقموعة  
كبح على نهر من مستعاد  
حيث اللذة سديم مُطلق  
لأن بظالك سيدتي لم يكن من قماش الجينز السميك  
تعود برأسها إلى الوراء ترتكن بخدِّها على صدره تسأله وسط  
الذهول والارتخاء اللذيذ عن الفارق فيما وصفه بين التخينة  
والكثيفة، أم الثقيلة، قال التَّخِين هو لشفَتاك الغليظتين، والكثيف  
لشعرك الليلكي عندما يتحوَّل لوسادة على صدري تتوسَّد بثقل رأسك  
الرهيف. أمَّا الثقيلة فهما أردافك وفخذك المجرمان...

في أحد الليالي تجيئه رسالتها على الواتساب، بأنها تعتذر  
عن القدوم غدًا بسبب ضرورة ذهابها مع والدتها إلى طبيبها  
المعالج، وهي تودُّ لو توجَّل قدومها إليه إلى ما بعد الغد، في اليوم  
التالي هاتفا وقد تذكَّر أن بينهما وعدًا لم توفِّه، سألتها:

الأحد [3/12/2037]

(16:29) الأستاذ: موعدنا غداً أم جدّ جديد؟

(16:29) سوزي: أيوه إن شاء الله.

(16:30) الأستاذ: تمام... أفكرك بشيء مهم؟ وألا انتي فاكرة؟

- اتفضّل، أعتقد... طيب ممكن تكتب لي بالليل لما أكون في البيت لأن ذاكرتي سيئة جداً...

- حتكوني في البيت إمتى، وبعدين مفيش داعي للحجج.

- بعد دكتور ماما. يعني اكتبلي 10 أو 11.

- اتفقنا... بس باين عليك لن توفّي بما وعدت، واضح جداً؛ لأن هذه أشياء لا تنسى.

- لنفترض حُسن النّيّة يا صديقي الأعز... أنا دائماً أوفي بوعودي.

الأحد [3/12/2037] / الحادية عشرة مساء

(22:17) الأستاذ: أفكرك إنك وعدتيني بأن تعطيني سوتيان أسود أو أحمر، وتعلّلتِ بياني لم أذكرك... ها أنا أفعل...

(23:20) الأستاذ: إذ لم تفعلي فأنا لن أسألك ولن أغضب... لكنك على الأقل تكونين قد حنّتِ بوعدك.

(23:23) الأستاذ: بالمناسبة إذ ارجعت عن وعدك فتأكّدي لا توجد مشكلة إطلاقاً. لكن إذا وافقت...

(23:46) الأستاذ: بالمناسبة إذا وافقتِ أتمنى ألا يكون مغسولاً، أتمنى أن يكون مُضمَّحاً بعطر جسدك، مخلوطاً بعرقك... كذا أكملت طلبتي. وأنت لن توفي بوعدك...

(23:56) سوزي: أنا أوفي بوعدتي دائماً. بس لازم تعرف اللي أنا عادة باللبسه لونه أبيض، وباروح بيه الجامعة... وبعدين اطمئن... السوتيان اللي حاجيبه سيكون اللي استخدمته بالليل. -  
ليه؟ بتشتغلي شغلانة تانية في أمن أورا قصة في ملهى.  
- متستعبطش بقى. إلا والله العظيم لو اتريقت علياً أرجع في كلامي.

- لديّ رغبة أن يكون مُعطّراً برائحة جسدك...  
تتنهّد... أعمل إيه في الإيروتিকা اللي انت غرقان فيها دي؟ يا سيدي أوعدك، حيكون مُعطّراً برائحة جسدي اللي إن شاء الله حيحنّك.

- يعني إيه؟  
- ملبوس النهارده بالليل... يلاً تصبح على خير.

\* \* \* \*

## الفصل الحادي والثلاثون

في بكور اليوم التالي هبطت عليه من السماء، أنثى تُشعُّ  
بالبهجة، "آتينا" إلهة الحكمة والحرب وابنة زيوس المفضّلة،  
تعلّقت به، احتضنته، وكعادتها سحقت نهديهما الصليبين في  
صدره، قبّلته، أباحت له أن يلثم شفّتيها، تضرّور جوعاً بفتات  
المِسك، وقطع السُكَّر، حلاوة النّدى عندما يقطر بعطرها  
الوردى...

كانت ترتدي في أشد أوقات الصيف حرّاً معطفاً خفيفاً، خلعت  
المعطف فانخلع قلبه، وتهاوت أنفاسه، السيدة الشابة ترتدي بلوز  
يغطي الكتف اليمنى ويترك اليسرى عاريةً إلّا من حمالة المشدّ  
السوداء، وتثورة من نوع "بانديج"<sup>(31)</sup>. قال وهو يدعوها للدخول:

- Lady in boandage skirt and one shoulder blouse.<sup>(32)</sup>

وأضاف: سيدتي، أخبريني من فضلك، والآن: من يغوي الآخر؟  
قالت إنها تريد أن تعرض مفاتها على أهل الإسكندرية.  
قال: أهّي دعوة للخروج... لنذهب الى شاطئ المنتزه، حيث  
المصطافون قليلون والنساء ترتدي البكيني بارتياح، سيكون  
لجيبتك البونداج السوداء والبلوز السّمني القصير، وشريط  
السوتيان الأسود الظاهر على الكتف تقديرٍ كبيرٍ.

قالت: ألا تريد أن تراني في المايوه؟

على طريق الكورنيش بدت مُشرقة، تحبس أنفاسه بابتسامتها  
الدافئة... جلس على شاطئ المنتزه وعيناه تبلعانها، همس إن

(31) بانديج سكيرت: Bandage skirt

(32) السيدة في ثنورة بانديج وبلوزة قصيرة ذات كتف واحدة.



تُورثها البونداچ ساحرة، تلتف حول نصفها الأسفل فتجعل منه ثمرة كُمثرى شهية... رحم الآلهة... الأنتى الكونية المقدسة... تلك الكأس المقدسة التي أعطاها الله إلى آدم قبل طرده من جنته، برزخ التقاء العالمين المادي والروحي الذي لا يراه إلا من أوغل في طبقات التصوف الروحي. ولكن كيف به أن يرى شيئاً من الروح وهو أسير كوابيسه الملعونة بعالم مُعتم لا يحميه منه سوى حضورك العياني.

يجلسان قبالة الآخر، والرياح ليّنة حنون، يتحدثان عن الهنا والهناك، وهوتائه في محاولته لإدراك ما لا يدرك، يدعوها لتناول الإفطار، لا تجيب، تترك الأمر فيما بين البينين، يتناولان سانديوتشات جبن رومي وركفور دوبيض بشهية، لا يستطيع كبح نفسه من القول إنها شديدة الأناقة، قالت أنت السبب، تساءل كيف وهو لم يشتر أو يختر لها قطعة ملابس واحدة ولا بيجامة نوم، ولا طاقما من ملابس داخلية؟ قالت: لست في حاجة لشراء بيجامة نوم ولا ملابس داخلية، يكفيني حكاياتك عن معبودتك فاتن... يقاطعها فاتن من؟ قالت إنها تقصد ليلى وطريقتها المغوية في ارتداء الملابس، قال بجديّة: تقصدين زوجتي. اعترضت بهزة من رأسها وسألته باستخفاف إذا ما كان متأكداً أنه كان لديه زوجة "من أصله" تُدعى ليلى، أو عشيقة تُدعى فاتن أو نشوى أو سلمى؟ سألتها عمّا تعنيه. لكنها تجاهلته وأضافت، إصراره على خلعها النقاب ثم الحجاب... قال في سريره من النقاب إلى بلوز بلا أكتاف يكشف عن سُرة البطن... يا سيدتي هذا تطور سريع عاصف...

اختفت لدقائق قبل أن تخرج عليه بما يوه بكيني يكشف عن اكتمال جسدها، وانطلقت تسبح في مياه البحر بحرية... تنبثق

ساقاها من بين الأمواج المترامية كما ينبغي عليهما أن تكونا:  
ربلتان رِيَّانَتان، مدموجتان، دائريَّتان.

يا الله سبحانه... ومن جودت علينا من نسائك  
المصديات... طالبة الدكتوراة من النقاب إلى البكيني..  
يتناولان الغذاء، تجمع بقاياها جانبا، تقف، تندفع إلى البحر،  
تدعوه كي يتبعها، يتبادلان رشقات المياه، يغوص إلى أسفل،  
يحملها عاليا، تصرخ قبل أن تسقط في أحضانه وهي تغرد من  
الضحك، بشرتها المبللة بمياه البحر حديقة من الورود..

هبط فُرس الشَّمس كهف الغروب، غادزا الشاطئ وفي  
الطريق قال إنها سبق وأن أخبرته أن الدكتور المشرف يتحرش  
بها، ويقايضها على الرسالة، أجابت بالصمت، استطرده وأنت  
تنوين الحصول على الدكتوراة... قالت وإلا سوف أبحث عن  
مصحة نفسية وأنتحر. قال إنها لن تنتحروا ولن تدخل مصحة  
نفسية ولن تقايض، لقد انتهى الأمر، سألته كيف؟ قال لقد تمَّ  
عرض الأمر عليه بوضوح، إمَّا الترقِّي أو الطرد. ولكن عليهما  
الانتهاء من الرسالة أوَّلًا، ثم يؤتي الله أمرًا كان مفعولًا... على باب  
المنزل قبَّلتها بامتنان، قال إلى الغد إذن.

\* \* \* \*

في اليوم التالي جاءت مبكرة على موعدها، جلست تقرأ وهو  
بعيد عنها يدخن سجائره ويرشف قهوته السوداء، تقفز أنامل  
يدها بصورة غير إرادية نحوه، تنقر بطنه العارية، تسبح فوق  
صدره بنعومة معزوفة ضوء القمر لبيتهاوفن...

ها جمه فيضان من السخط، ما حطّب النساء: بهربن إذا ما طاردتهنّ، ويُقبلن إذا ما تجاهلتهنّ! شدّت يدها على كفه، وتعلقت به مثل غريق... فكّر أن عليه أن يتلمّس ظهرها، كان شعرها معقوصاً، وهو يعيش ظهرها وهو مغطى بشلالات شعرها، يصير سهوباً مغطّاة بالعشب والزهور والندى... يفكّ جدائلها، يسألها لماذا تجمععه؟ دون أن تبس بكلمة، وفي جلال الصمت تساعده في فكّه ثم تعاود عملها... يعاود محاولته الدؤوب والفاشلة العزف على هيكل جسدها الخلاب... يستعيد طريقه لحل لغز متاهات الجسد والولوج إلى محرابه المقدّس... تتخلّل أنامله جداولها، يدلكّ فروة رأسها... يزيح جداول شعرها الحالك عن عنقها جانباً... تتورّد بشرتها بحمزة بلون اللبن... النتوءات السبع للفقرات العنقية، يدلّكهم، واحدة تلو أخرى... تحني برأسها إلى الأمام... يشعر بها تستقبل أصابعه باستسلام مهزّبة لسائسها... تصدر عنها آهة، تتلوها آهات تطلب المزيد... يشعر بجوع عنقها إلى التدليك...

غمغم: سيدتي، ينبغي توزيع القوت على الجميع... يلثمها فقرة فقرة... يتوسّد حزام صدرها الكتفي المفلطح لتنام على صدره... يتطلع من فوق كتفيها ليرى عظمة الترقوة أمامه، ضيقة رفيعة مقوّسة إلى الوراء... يتصل طرفاه الخارجيّان بالكتفين، يرتبطان مفصلياً بالذراعين... يمدّ أصابع كفيه العشر على اتساعها يمسح جانبي ساعديها جيئةً وذهاباً... يغوص برقّة بين لوح كتفها الخلفي وعظمة الترقوة الأمامية... تتخلّى له عن كل ما يناله بارتياح واحتياج... تتراجع بجذعها لتتوسّد صدره... ينتابه إحساس بأن

عليه واجباً بأن يمدّ أنامله إلى ما أسفل السُّرَّة، إلى حيث ينبغي عليه أن يفعل... تتركه قليلاً ثم تهمس مُخدَّرة: بتعمل إيه؟

\* \* \* \*

بلغنا حدَّ انتصاف النهار، استوت الشمس في كبد السماء وتعامدت على الأرض... تراجع يمَسِّد عنقها المكشوف من خلال رقبة العنق الواسعة التي تكشف عن كتفها الأيمن، مقترباً حثيثاً من عالمه الحميمي؛ الربع الخالي لنهديها الناصعين بحمرة الشفق، الواقع أبداً بين سفح العنق وحافة المشدِّ العلوية... توقفه قواتها التي لا تزال هناك، تخضر قُبَّتَيْهِمَا المقدَّستين بقوة السلاح، ومعاهدات غير مُعلنة...

**لا عنف... لا عافية... لا فرض إرادة... لا مغنم ممَّا تشتهيهِ  
إلا بالرُّضى الإلهي لرَبَّات السماء...**

يتجوَّل بكفِّهِ في أنحاء ظهرها وصدرها، وجانبيها المتسعين كضيافي التُّدرا، يتجاذبه الترحال بين مرتفعاته وهضابه ووديانه، وتلك الجاذبية المفرطة التي تدفعه دفعا كي يرسوفي نهاية كل رحلة يجوب فيها أنحاء جسدها بكفِّه اليمنى على كشحها الهُضيم<sup>(33)</sup> يحلُّ بهما رضى وانسجامٌ حلُّو لذيد.

النهم والجشع والعجلة يدفعونه إلى مغادرة مرافئه مبتعداً عنها وعن جسدها بسخط مكتوم، يُحمِّلها شقاءه الذي عاناه طوال

---

(33) كَشَحُ الْإِنْسَانِ: الْجُرْءُ الْجَانِبِيُّ مِنْ جِسْمِهِ، الْوَاقِعُ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَالْخَاصِرَةِ. الْهُضِيمُ مِنَ النِّسَاءِ: اللَّطِيفَةُ الْكَشْحِينَ.

غيابها، والذي اقترن بالعودة غير المفهومة إلى السيد طليقها...  
قالت بسخرية إنه لم يُعد لديه نبيذ. بحثت عنه حيث تحتفظ به  
دُمَاه، وجدت بقايا زجاجة ويسكي شيفاز.

قام يحضر زجاجة نبيذ أحمر، وخرجا يتناولانها في التراس،  
قال إن لديه أنواعاً من النبيذ لا تفيد في الشرب العادي. فتحت  
عينيهما ورفعت حاجبيها لأعلى مثل قوسين يتواتران على سهمين  
من أشعة نظرات عينيهما القاتلتين تسائلته تحت تهديدهما، فيما  
يمكن أن يفيد النبيذ سوى في تجرُّع كأسٍ بعد وجبة طعام فاخرة  
كالتي طهوتها لك بالأمس.

هزَّ رأسه أن هذا هو عين أزمتهما في الحياة؛ كونها تعتقد أنها  
تفهم في كل شيء، حتى أنواع النبيذ؛ لهذا سيخبرها كي تستفيد  
وتتسع معرفتها بالحياة، وعلى سبيل المثال، لدى مدينة بودابست  
خمسون نوعاً من النبيذ، يبدأ من السوفت إلى الهارد في أنواعه  
الرئيسية الثلاث: الأبيض والروز والأحمر، أمّا الفرنسيون  
فحدّثي ولا حرج، قال إن لديهم نبيذاً يتمُّ تناوله أثناء لوك شفاهٍ  
مُكْتَبَرَة، وهناك نوعٌ يتمُّ سكبُه على قُبَّتي النهدين ودعهما جيِّداً كي  
تتشرَّبهما مسام البشرية، قبل ارتشافه ثانيةً بصبر وأناةٍ وعلى مهل،  
ومنه نوعٌ خاص للتناول مع الحلمتين، وله طُرُقٌ خاصَّة، مثل أن تقوم  
ذوابة اللسان المشرَّبة بالنبيذ بهدِّدة حلمتي النهدين بتمهل، وكأنما  
المرء يتوضأ في محراب، وسألها إذا كان هذا يكفيها، أم ترغب في  
المزيد؟

لم يكن لديها حيلة، لقد بدأت الخيول شوط السباق، وركضت

حواضرها تدك جسدھا المنفرط على أريكة الغواية، وتضعضت أعضاؤها، وتجمع الدم ينبض في شفرتي قاربها، وكلماته تغوص في عقلاها، تشعل خيالها، تضرم النار في أحاسيسها، سألتها مُنومةً إذا ما هناك لديه أنواع أخرى؟ قال بلى، هناك فودكا يتم سكبها في سُرّة البطن، مع توصية بوجود إضافة قدر من عصير البرتقال؛ حتى يخفف من تأثيرها العنيف على الضدين المتجددين في آن.

لم تفهم ما يقال، وفضلت أن تستوعبه بأحاسيسها، سمعته يضيف، هناك الكونياك المدعو بنبيذ الآلهة، يقطر عدة مرّات ويضاف إليه أسانس الجلادايوس. وأفضله ما يُصنع في إقليم بوردو الفرنسي... ويجب أن يكون معلوماً أنه محرّم تناوله على من يعاني الوحدة، فلمثل هؤلاء هناك الويسكي، وأفضله الأيرلندي والسكوتش والشيغاز.

نظر في عينيها وأضاف: والكونياك يتم تناوله في حضرة نساء من جنس الآلهة، (مثلك طبعاً). إمّا معبأ على جرعات وبكميات قليلة في كعب حذاء السيدة التي ترتديه، وسيكون قطعاً من نوع الكعب العالي، ثم بعد وقت، وعندما يحين الأوان يتم تناوله بعد صبّه في الكأس المقدّسة. وأضاف بصوت بارد، وهناك أنواع أخرى، وسألها إذا ما كانت ترغب في المزيد، ضحكت ضحكتها التي تتكوّن من لحنين، وكانا هذه المرة مُدمجّين بلحن خافت من الفيلولينة والبيانو يفيض بالشّبِق، وقالت كفاية... وحدثت نفسها، صحيح مالوش حل.

قامت وأعطته ظهرها ، سألتها إلى أين تذهب؟ قالت إلى الحمام ، انتظرها ، وعندما عادت كانت استعدادات هيئتها لحظة قدومها في الصباح ، هتفت به: يلاً قوم ... قوم نراجع؛ موعد المناقشة قرب.

- حاضر... سؤال واحد بس.

ابتسم وأمسك بيديها وجذبها كي تجلس جواره. حدّق في قرص الشمس وهو يستقرُّ في الربع الثالث من سماء زرقاء ، تمتد بلا حدود ، يبعث بسلاسله الذهبية ، يحاول أن يُقيّد أمواج البحر ، وهمس: شمس الأصيل...

- أيوه...

- جميلة؟ فاجأته بالقول: مش أجمل منك.

وقف بغتة ثم همس: ليه كده؟

- أنت تفتن النساء.

حل به الوجوم ، ثم قال لها إن مديحها لن يثنيه عن سؤاله الأخير ، موافقة؟

- اسأل؟ قال وهو يلمس السوتيان السوداء الذي كشف عن نفسه المعلق من كتفها العارية من البلوزة القصيرة التي تنتهي حافتها السفلى عند سُرة البطن ، عمّا إذا كان يحقُّ لها أن ترتدي سوتيان أسفل بلوزة قصيرة ذات الكتف الواحد الذي ترتديه.

انتفضت من حيث كانت تجلس وهي تبتسم بغضبٍ ، وعادت تطلب منه الدخول في الموضوع مباشرة. لكنه طلب منها أن

تنتظر، وأضاف يسألها عمًا يعنيه ارتداؤها سوتيان أسود أسفل بلوز ذي كتف واحدة. تذكّرت حديثه عن البلوزة القصيرة المعروفة بالكروب توب التي تصل بين الكتف وتنتهي أعلى سُرّة البطن، تاركة مساحة حلوة تلمع كالبرق من البطن، والذي كانت ترتديه معشوقته ليلي، كانت، أو فاتن، قالت إنه يشير إلى أن الطريق إلى النهدين مفتوح لصاحب الحظ. أشار بإصبعه علامة النفي، وقال إن "التي شيرت" ذا الكتف الواحدة لا يسمح لك بارتداء سوتيان أسفله.

تساءلت: بسبب ظهور حمالة السوتيان؟ قال: لا، هو لا يشير فقط إلى أن الطريق إلى النهدين مفتوح، أنت مُخطئة؛ فهناك وظيفة أهم. قالت تستفزه إذا ما كان في نيته أن يخترع أشياء وهمية من بنات أفكاره الأيروتيك؟ وأضافت كيف له أن يعلم؟ أجابها بسخرية كيف تلبس بلوزة وهي لا تعرف أصول ارتدائها؟ اكتفت بالصمت بانتظار أن يجيب بنفسه على الغازه.

وضع قدمًا على أخرى، وتراجع إلى الخلف، وقال مثل المُعلّم يفصح عن حقيقة أهم وأكثر أيروتيكية، إن عدم ارتداء السوتيان أسفل بلوز ذي كتف واحدة يُعد إعلانًا فصيحًا عن كونه يخفي أسفله نهدين صلبين، ليسا في حاجة إلى مشدّ للصدر، ليسا في حاجة إلى سوتيان مثل الذي ترتديه؛ لأنهما صلدان، متماسكان... كلاهما ثمرتا تفاح في الجنة، ثمرتان وليستا واحدة،





هما دعوة كاملة الأركان إلى ارتكاب الإثم وفعل الخطيئة، إثم آدم سببه ثمرة تفاح واحدة، بينما (البادي) ذو الكتف الواحدة هو إثم مُزدوج، مثله مثل فُبلّة طويلة في العنق، أو أخرى في مؤخّرة الرقبة، مثل عقصة في الودج، مثل انزلاق لسان في ثغر من الفراولة. أمسك بحمالة سوتيانها: هذا يعني أن نهديك مُترهّلان، مُتهدّلان، أصابهما الهزم، وأضاف في برودٍ -يُناكِدها-: أصبحا مُسبّين.

صرخت في وجهه:

- Fuck you.

- بتقولي إيه؟ أعادت بإصرار:

- Fuck you.

ضحك وهو يهمس بأنه نال منها، اقتربت منه يتقدّمها نهداها، وكان لا يزال جالساً، احتار لوهلة قبل أن يحيط خصرها بساعديه وينقضّ ينقرهما بأسنانه. دفعته مُتخلّصة من ساعديه، وتراجعت الى الورا، وانخرط في ضحك بلا نهاية. استعادها وأحاط خصرها بساعديه، كان وجهه يقع قبالة نهديهما، ضمّها ودفن وجهه فيهما، ورفع رأسه إليها وقال وهو ينظر في عينيها ببهجة إنها ليست في حاجة كي تؤكّد فتوة نهديهما، وقد أمضى زمنًا يحاول أن تسمح له بالولوج إليهما كي يحتويهما، فهي الطريقة الصحيحة للإبقاء عليهما فتيتين مُورّدين يفيضان بالدماء مثل رمّانيتين. لست في حاجة كي تثبتي شيئاً؛ فأنا أدرك أنه لا يماثلهما نظير...

فتحت فاهها وهي لا تعلم عن أي شيء يتحدث، وإذا كان حديثه يدور حول نهديها، لاحظ وجومها، لاحظ دموعها، قال لها قد لا تعلم إنه كتب فيهما شعراً... هتفت: أنا؟! قال: لا لست أنت. سألته بصمتٍ مُكْتَفِيَةٍ بعينيها؟ قال هما نهداك. صرخت بفرح: أَكْتَبْتِ شِعْرًا فِي نَهْدِيَّ أَنَا؟ قال: ولماذا كل هذه الدهشة؟ ألسنا نتحدث حولهما منذ الصباح، اخلي السوتيان الآن وسيكون كل شيء طيبًا. قالت بتحد:

- Never Ever...

... لقد ارتديته خصيصاً لحمايته من تسلُّل أناملك إليه مثل الأفعى. قال مثل الأفاعي، تراجعت مُعْتَذِرَةً، وقالت إن حديثه يجعلها تتقلب رأساً على عقب. لم تشأ أن تسأله أن يُنْشِدَ شِعْرَهُ لَهَا (وإن كانت تتحرَّق شوقاً لسماعه)، قال بعد وهلة: هل توذِّين سماعه؟ هزَّتْ رأسها وهي تقول: سأجنُّ لو لم تفعل. فقال وهو يلمس نهديها قبل أن يُنْشِدَ:

نهداك ملحمتان على ضفافهما تتنازع جحافل الوجع والمسرة

هيجاء يعرش بين واديهما الجوع والألم

نهداك مُفْعَمَانِ بِالْمُودَةِ

يفيضان بالحبة

من ذا الذي يتاح له أن يصعد على قبتيهما

وأنا الضحية: في محرابهما يجثو ويتهل

ضحكت سعيدة وقالت إنه يساري فُحَّ، يستطيع أن يخلط التاريخ

بالجسد، وعشق الوطن بالأنثى، والنضال بالجنس، وأضافت وهي تسعى للنبيل منه، وأنه لا يتورّع عن أن يخونهم جميعاً إذا ما عنت له مصلحته أن يفعل. فحَقّه وقال: ليس جميعهم.

قالت: 80%.

- مش قوي كده.

- 60%.

- ممكن 10%، واحد من كل عشرة

- قليل...

- خليكي متفائلة.

\* \* \* \*

حلّ الأصيل، وخيّم بشمسه الباردة على سطح البحر حيث ثمة عالم شفيف يُثري في فضاء هنيء لا يعرف كنهه، صمت وتطلّع نحو البحر الفسيح، تترى أمواجه دون أن ينفد صبره، رياحه متقلّبة المزاج، سماؤه تغطي جميع سُكّان المعمورة: الأبخار والأشجار، الظالمين والمظلومين. سألته إذا ما كان منهمكاً في كتابة مسرحية، لم ينف، سألته إذا ما كان سيذكرها في المسرحية، قال: أنتِ بطلتها الوحيدة.

- بجد.

- بجد.

لكنها فاجأته، ليس فقط بسبب استقبالها للأمر بهذا الهدوء، ولكنها سألته إذا ما كان ينوي أن يهديها إليها،

قال: نعم. وهو غير مصدّق جرأتها؛ لهذا أعاد سؤالها كي

يَتَيَقَّنُ مِنْ جَدِّيَّةِ رَغْبَتِهَا: هل تريدان أن أهديهما لك؟ قالت: نعم.  
قال: وهل أذكر اسمك في الإهداء؟ أجابت بالطبع. قال والشكُّ  
يُخَامِرُه: أهديهما إلى د. سوزي محمد كامل. قالت كفاية: سوزي  
محمد. قال بحيرة: لكنك لم تقرئي النَّصَّ! وربما تغيّران رأيك.  
قالت وهي تهزُّ رأسها: انتِ شَرَدْتِ بَقِيَّ! تساءل عمًّا يمكن أن يشرد  
فيه، قالت وهي مستغرقة في النقر على صدره: في الجنس طبعاً ...

- مُصِرَّةٌ؟

- طبعاً مُصِرَّةٌ.

- والجامعة؟

- حتعمل إيه الجامعة؟

- مش مِكْفِيكِ فضيحة الماچستير، عاوزه تضيّعي الدكتوراه؟

- على الأقل إهداءك ليّ حقيقي، وبعدين حتعمل لي إيه

الدكتوراه؟

قال إن المسرحية لا تحظى بنهاية سعيدة. قالت إنه لو أهديتها  
لي ستجعل مني خالدة. شعر أنها تتحدّث بجديّة، وأنها تضرب  
عرض الحائط بكل الأعراف التقليدية، قال وهو غارق في سديم  
من اللذّة والبهجة: سوف أهديهما لك، والآن... يلاً قومي... قومي  
نراجع، دعينا نحصل لك على الدكتوراه، موعد المناقشة اقترب.

\* \* \* \*



الفصل الثاني الثلاثون  
طُقوسُ التَّذوُّقِ

في لقاءاتهما التالية كانت تسبقه إلى الجانب الأيسر من الفراش، تضع جهازها اللوحي على مقدمة فخذيها، يصعد جوارها، يتكئ بجذعه على عدد من الوسادات، ينصت إلى ما تسرده من صفحات الرسالة، يتبادلان الحوار بين فينة وأخرى، تدقق النظر في الفراش، تجمع شرائح ملونة من مادة البلاستيك التي تُصنع منها الدُمى. تتحدّث عن نواياها المستقبلية في الشروع في كتابة رواية حالما تنتهي من رسالة الدكتوراه. غمغم في سيره... يا إلهي إن شعبك المسكين اكتظّ وجدائه بسبيل لا يتوقّف من كافّة أنواع الروايات، أغلبها يُلقى في صفائح القمامة ومزابل النسيان. تابع الكلمات تتدفّق من فمها بسرعة وحماسة، تدعمها بطرقات لا إرادية من أناملها على صدره العاري. أو تقبض بكفّها على كفه وتعركه.

تتمدّد مرتدية طاقمًا رياضيًا ماركة "أديداس": بلوز سماوي بأكامم قصيرة، وسروال رياضي برتقالي، أكثر ليونة، أكثر نعومة، يضيق بارتياح حول رديفها، يتلمّس ظاهر قدميها، يتقدّم ببطء، يدفس أنامله لتستقرّ حول ربلّة ساقها بين كفّه، يتحدثان باستفاضة عن القدرات الإبداعية لفن الرواية، يمضي محلّقًا وقد ملأ باطن كفه باللحم الأنثوي الذي خصّ به الله آدم، وأمره بأن ينكر وجوده، وإلا أوقع عليه لعنته... فيضّ من لاقا باردة دافئة تجتمع في ذراتها اللذة والمتعة، غير قادر على وصف حلاوتهما، إلا بالاعتراف بأن مفاهيم مثل التوق والشهوة والرغبة، الاشتها، والشوق، والغريزة، والمحبة، والمتعة، والهوى والشغف والولع والوله، لم تعد مفاهيم متعلّقة بالمعنى، أو تدرج في مدارج الحسّ، وإنما حقيقة واقعية،

حقيقة مادية تشغل حيزاً في مكان وتدفع بزمان يتسع الوجود ويخلو  
إلا من ربله ساقها... من كشحها الأيمن أعلى الردف...

بلوفر أسود بأكمام الطويلة يلفُ خصرها وينسدل حول  
أردافها، ظنَّ أنها تريد لمظهرها أن تبدو كاجوال، جذبه، لكنها  
كانت تجلس عليه، فسألها بسخرية عن سبب وجود بلوفر ونحن  
في ذروة الصيف، أجابته وهي تساعده على نزعِهِ عن خصرها  
أنها تحمي خصرها وبطنها العاريين من تطفلُ العيون. أضافت  
أنها لولاه لَنهَشَت في الشارع. جذبته، تاركةً ظهرها مكشوفاً له،  
سبح بكفِّه، دون تركيز، وذهنه مُعلِّقٌ بتلك اللافا التي ساخ فيها  
باطنه، فكَّر أن من الصعب أن يكون مصدرُ مُتَعَبِهِ قاصراً على  
طبقةٍ جلدٍ رقيقة لا تتجاوز مليمترات، كفَّاه تحترقان بنارٍ قادمةٍ  
من طبقةٍ أكثر سُمكاً وعمقاً تتجاوز السطح الرقيق إلى ما أسفله.

جذب من الكومدينو المجاور الـ"iPad"، يستدعي الموسوعة  
البريطانية، تترى أمامه قطاعات الجلد يبحث عن مصدر النشوة،  
ربما تكون "الأدمة"، سُمكُها البالغُ عشرة أضعاف سُمكِ البشرة، ما  
تحتويه من نهايات عصبية وليمفاويات وأوعية دموية وغُدَد عَرَقِيَّة،  
ما يحملها سطحها من حليمات تحوي نهايات أعصاب حساسة  
للمس، مال ناحيتها، سألها أن تزيح اللاب توب جانباً، قالت: لا  
توجد مساحة، لكنه فعل، ثم دفع بلُطفِ قدمه اليمنى أسفل قدمها  
اليسرى، رفعها عالياً ليهبط بها لتتبخ على ساقه اليسرى، دفع ساقه  
اليسرى فوق ساقها اليمنى، وخاض بها عميقاً بين فخذيهما، مرَّةً  
تلو المرة، وهي تقاوم باستسلام، لتنام أخيراً، جذبها فاستجابت  
وهي تدفن نهديهما في صدره.

همس وهو ينظر الى أصابعها تطرق جلدُه أن لأناملها قوة  
 تمكَّنها من عزف معزوفة "ضوء القمر" للفرنسي كلود ديبوسي،  
 أو معزوفة "الخريف" لشوبان، وأنها لو استمرَّت على هذا المنوال  
 فإن مشاعره سوف تنفجر داخله، ولن تجد بين يدها سوى أشلائه.  
 التفتت إليه بابتسامة عريضة وسألته أيهما أكثر تأثيراً عليه: قوة  
 الطرقات أم تتابعها؟ قال إن معزوفتها على صدره تتراوح بين  
 الاثنتين، بين القوة والرقة، التمهُّل والبطء، سرعة التتابع. نظرت  
 إليه وهي تبتسم ابتسامة تنمُّ عن أنها تشعر بأنه يبالح، وقالت إنه  
 كائنٌ يصعب إرضاءه. أجابها باستعلاءٍ أن عليها أن تستمر في  
 التدريب على العزف؛ فهو مهمٌّ للغاية. عارضته بسخرية: ومتى  
 تظنُّ أنني سأحصل على الدكتوراه؟ دفعها بعيداً عنه، وانخرطا  
 يضحكان، استطرد يقول بصورة باردة إن لديه حلاً سحرياً،  
 استقامت بجذعها والتفتت نحوه تنتظر ذاك الحلَّ السحري، قال  
 إنه يمكنها أن تستبدل الآلة التي تترنمُّ بها بالعزف على جسده،  
 وتستعيض بثغرها التخين عن أناملها الرقيقة. ضحكت، سمعها  
 تسأل "ولكن كيف؟ قال بجديّة بالغة إن إلتقان العزف مُتعلِّق بتتبُّع  
 مسارات اللحن، واستدار يشرح: لثم متتابع من ثغرها لصدره  
 كضربات القدر. تتخلَّلها عقصات وعضّات بأسنانها، أنيابها،  
 فتح يده مُنهياً الأمر، واستطرد: كما ترين... حلٌّ عبقريٌّ، ومُجربٌ  
 لدى القلَّة والمحترفين من عازفي البيانو، في الحانات والفنادق  
 الشعبية الرخيصة. يا سيدتي دعيني أقل:

- هي طقوس التدوُّق.



استطرد: تعالي، حاول أن ينضو عنها البلوز، قاومت قليلاً قبل أن يخبرها أنه سوف يعطيها الدرس أثناء قيامه بعمل مساج لظهرها، هي في أمس الحاجة له، قبلت بعد لأي، تمددت مستلقية على بطنها.

أطل أمامه ظهرها العاري، شريط سوتيانها، مطلع بنطالها يلفُ خصرها، وشمُ الوردة المحفور أعلى الردفين، شرع في تدليك كتفيها وهو يقول إن مدارج التذوق سبعة، الأول: يبدأ بالأنامل تستكشف تخوم الميدان وحدوده، المدرج الثاني: اللثم، حيث تلتئم الشفاهُ الظهْر ثم الأرداف، ثم الساقين، القدمين، كل قطعة من جسد المحبوب، الثالث: شهد الرضاب، يروي به المحبوب جسدَ محبوبه، الرابع: وهو عددٌ من العمليات تبدأ من تذوق الشفتين بشرة المحبوب، لوك الجلد، مضغ الجسد، الخامس: النهش بالأسنان، هكذا والله أعلم تفتح مدارك الهوى، يختلط الألم مع اللذة، يتداخلان معاً، لا يعلم أيُّ من العاشق والمعشوق من أين يتولّد الألم... من أين تتفجّر ينابيع المتعة... من أين تنفجر سيول اللذة... وأيُّ منهما يتألم، وأيُّ منهما المسبّب للآلام، وأيُّهما الخالق للذة... صمت وطال صمته. تساءلت: فقط؟ قال فقط. قالت بتعجب: والسادس والسابع. قال كلاهما متروك لك..

دفعته بعيداً عنها واستدارت لتميل عليه وشرعت تتلمّس صدره، وراحت تهوي في مدارج التذوق الساحرة... أعاد مقولته: بالترتيب ولا يفوتك مليمتر. لم تجادله وانكبت تلتشه بصبر وروية، صعد بجسده لأعلى وهمس وهو يأخذ رأسها بين يديه، يُمسّد

شَعَرَهَا بَرَقَّةً، إِذَا مَا كَانَتْ قَدْ قَرَأَتْ قَوَاعِدَ الْعَشْقِ الْأَرْبَعِينَ، هَزَّتْ رَأْسَهَا بِالْإِيجَابِ، فَقَالَ إِذْنُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ عِلْمٌ بِقَوَاعِدِ اللَّثْمِ الْأَرْبَعِينَ.

رَفَعَتْ رَأْسَهَا وَهِيَ فِي حَالَةِ ضِيَاعٍ مِنَ اللَّذَّةِ، هَزَّتْ رَأْسَهَا نَفِيًّا، فَقَالَ فِي التَّاسِعَةِ يَزُمُّ الْأَطْفَالُ شَفَاهِمَ عِنْدَمَا يُقْبَلُونَ الْأَهْلَ وَالْأَقَارِبَ، مِنَ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَحَتَّى السَّادِسَةِ عَشْرَةَ تُقْبَلُ الْمَرَاهِقَاتُ بِشَفْرَةٍ مَرْتَخِيَّةٍ، عِنْدَمَا تَنْضِجُ النِّسَاءُ تَشْرَعُ فِي الْاسْتِمْتَاعِ بِاللَّثْمِ، وَأَكْثَرُهُ مُتَعَّةٌ، مَدَّ خَنْصَرَهُ بَيْنَ شَفْتَيْهَا الْمَضْمُومَتَيْنِ، يَتَلَمَّسُ بَاطِنَ الشَّفَتَيْنِ، تَأَوَّهَتْ بِالْأَلَمِ، وَكَادَتْ أَنْ تَعْقِصَ إِصْبَعَهُ، اسْتَعَادَهَا وَهُوَ يَهْمِسُ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَبْدَأَ فِي رِحْلَةِ التَّدْوُقِ الْمَلْهَمَةِ بِقَصِيدَةِ شِعْرِ عَنِ الْعَشْقِ وَالْغَرَامِ وَاللَّذَّةِ وَلِثْمِ الْمُحِبِّ بِظَاهِرِ الشَّفَاهِ وَبِاطْنِهَا الْمَلُوثِ بِرَحِيقِ الرِّضَابِ...

انْتَفَضَتْ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ وَقَبِعَتْ أَمَامَهُ عَلَى أَرْبَعٍ، كَهَرَّةٍ وَحَشِيَّةٍ تَكْشُرُ عَنْ أَنْبِيَاسِهَا، يَنَاوِشُهُ نَهْدَاهَا، يَطْلَانُ مِنْ دَاخِلِ الْمَشْدِ، يَعْضَانُ مَذَاقَ حَلْوٍ.

سَأَلَهَا مِنْدَهْشًا عَمَّا يَزْعَمُهَا، هَتَفَتْ إِنَّهُ لَمْ يُقَلِّ لَهَا إِنَّهُ يَحِبُّهَا، وَأَضَافَتْ أَيْنَ هُوَ الْحُبُّ مِمَّا نَفَعَلَهُ؟ قَالَ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

رَمَقَتْهُ بِغَضَبٍ تَسْأَلُهُ عَمَّا يَعْنِيهِ؟ قَالَ يُمْكِنُ أَنْ تَصْفِيَهُ بِالْعَشْقِ، وَجَدَ، غَرَامٌ وَلَكِنْ؟ هَزَّتْ فِيهِ كَنْمَرَةً: وَلَكِنْ مَاذَا؟

قال متجهماً الوجه: الحب I am afraid.

- Of what?

- I can't say it.

- Why?

قال بارتباك شعرتة بغريزتها:

- I am an old man and you are young.

- So what?

قفزت من الفراش وهي مستغرقة في الضحك، زارت في  
عُريها المُشعّ، يتلألاً بألوان قزح، وقالت بسخرية:

- واوووو... الأستاذ يخاف أن أرفضه... معلم الكونغ فويخاف  
تلميذه... ناسك الغابة يخشى حورياتها... راعي الصحراء يخاف  
جنّياتها... أنت رجل أمين... همست في أذنه وقالت إنها كانت  
تخشى أن يتحجج عليها بفاتن...

-Don't worry... I love you... I love you sir... I really really  
love you..

قفزت عائدة الى أحضانه حيث استقرت عارية مثل جنين في  
بطن أمه وهي تهمس:

-You are my feather, you are my mother, you are my  
brother.

تمطت وأخذت رأسه بين نهديهما وهمست في أذنه:

- You are my son.

جذبت فمه تقبله واستطردت:

- You are my lover. You are my god. You are my every  
thing

\* \* \* \*

## الفصل الثالث والثلاثون



خلال انهماكها في القراءة لا يحاول الاقتراب منها، تترك كَفَّها يطير في الفضاء ليهبط على صدره ينقره، انتبه عليها تلقي باللاب توب ودفاترها وكراستها جانباً، تركز رأسها على كتفه، تحيطه بساعديها، تدفن نهديها في أحضانها، مضت ثواني يحاول أن يفهم ما تفعله، مدَّ بصره حيث كان اللاب توب ملقَى بين ساقيهما، وقد مالت بجسدها ناحيته... للمرة الأولى كانت تحتضن جسده، الذي سبق وأن تفادت عناقه الصريح لشهور عديدة... احتضنها بلطفٍ ورقة، هبة ثمينة تنام بين يديه، ومال يُقبَل رأسها المرة تلو المرة، وهي غائبة عن الوجود.

- ممكن أقول كلمة. مضى وقت قبل أن تهمس: أيوه قول.

انهمر يُقبِّلها وهو يُردِّد: بحبِّك... بحبِّك... بحبِّك...

ضمَّته بساعديها وهي تغرز نهديها حيث يجب لهما أن يسكنا. دفنت رأسها بين كتفه وذقنه، أنشبت أنيابها في عنقه، كان تكرار عملية اللدغ تدعوها ألا تتوقَّف، تجمَّعت الدُمى حولهما يهتفن بهما... عقر... عقر... لدغ... لدغ... عقر... عقر... لدغ... لدغ...

تلوَّى من الألم حتى بدأ ينثال الدم من رقبتة... سألها بلطف أن تتوقَّف، لكنها لم تتمكن من كبح جماح شغفها بالعقر، دفعها برفق، فاستلقت جواره تلهث، وهي تتساءل عن سبب دفعه لها، همس وهو يدفن رأسها في صدره، أنه لو تركها لكانت تمضي وقتها الآن في سجن الحضرة بتهمة القتل العمد. ضحكت وانقلبت على جانبها الآخر، تلهو بشعرها في الفضاء وتتبادل الحديث مع الدُمى إذا كُنَّ يرغبن في قتله، صرخن جميعاً بالإيجاب... قتل... قتل... قتل...

راحا في نوم عميق، وفي الثالثة أيقظته تسأله أن يُلقنْها الدرس الثاني، قال إن هذا يستدعي منها أن تقدّم له فنجاناً من قهوة، قفزت من جواره كغزال، وذهبت مُسرعة، وعادت تحمل صينيّة القهوة بين يديها، وأمامه وقفت تهتف: مولاي...

رشف قهوته ببطء وأشعل لكليهما سيجارة، التفت جسدها لتتمدّد فوقه، قال إن الدرس الثاني يُدعى "تمشيط"، رفعت رأسها تنظر إليه بمودّة مُستفسرة عمّا يعنيه مصطلح "تمشيط"، فأشار أنه مصطلح مُتعدّد المصادر، مُصطلح أنثويّ، حينما تمشط الأنثى شعرها، وعسكريّ، عندما تعطي الأوامر لكل أنواع المدفعية الثقيلة والمتوسطة والخفيفة بتمشيط ميدان العدو ومواقع قواته العسكرية، مراكز قيادته، مخازن تشويناته؛ تمهيداً لبدء هجوم كاسح. هزّت رأسها متفهّمة، فأضاف قائلاً:



وعندما يتم تناوله في دروس العشق والبحث في ارتفاع توثرات الليبدو وسطوع الشبق، فإن تمشيط الجسد يتمّ بسيل من اللثم والقُبَل، يعني إِمطار جسد الآخر بساتر نيراني يضعض كل أشكال المقاومة، ويفتح بوابات الحصون إلى ذاك الغزو اللذيذ؛ تمهيداً لاتحاد كليهما بالآخر، أو بالأحرى: سيطرة الليبدو على أرض المعركة، في الطريق إلى صعود قمة التل،

وبلوغ ذروة الشبق، يحل هدوء ساحر، يفوح الفضاء بعطر سلام صوفي من محبّة غامرة وعشق الآخر للآخر... اعترضته

وقالت إنه يُعقد الدنيا، والموضوع بسيط، يكفي القول: سئِل من القبلات. قاطعها بلا النافية... لا لا لا، يا أستاذة "شيء غريب والله، كيف ستمكّنين من الحصول على دكتوراه في الأدب والبلاغة؟"، أضاف بترؤ أن معنى التمشيط، هو القيام بلثم الجسد، تقبيله مليمتراً وراء مليمتراً، سنتيمتراً تلو سنتيمتر، بوصة إثر بوصة، قطعة بعد قطعة، التمشيط يعني مسح أرض المعركة بالترتيب، وبالكامل، سيدتي دعيني أقل...

تخلّت عن رغبتها في الجدل، وانطلقت في بستان جسده تقطف ثماره الشهية... انكبّت تلثم صدره، لكنه أوقفها، ورفع رأسها إليه وقال يُبكتها: انتم جيل "تيك آوي"، مستعجل على رزقه... أولاً يجب تحديد جوهر عملية التمشيط، الأمر يتعلق بطقوس التدوُق... أمسك برأسها بين كفيه، وحدّق بعينها، قال مثل فلاحه ترمّلت وخرجت وحدها إلى حقل زوجها الراحل كي تقوم بزراعته، أول شيء تفعله، أن تجوس أرضها، أن تعرف حدودها أين تبدأ وأين تنتهي، وأين تقع الأراضي المتاخمة التي عزمت أن تشتريها لحسابها ممّا ستجمعه من حرّ مالها، حتى لو اضطرت للزواج من صاحبها العجوز، حتى ولو اضطرت أن تدسّ السّم لزوجته الشابة الجميلة... حتى لو اضطرت أن تقتله... هكذا سوف تبدئين رحلتك مع صدري... ضحكت وتوسّدت برأسها كتفه تمسح صدره بكفها... قال اعزفي بأطراف أناملك كل قطعة منه... عليك أن تحريثها مثلما يحرث فلاح أرضه بمحراثه... همست مبتسمة: ألن يؤلمك؟... وهل تبكي الأرض محراثها أم تتهجّد لمن شقّ داخلها كي يهبها نور الحياة...



تمدّدت على طول ذراعه، شهقت ثم دفنت فمها في رقبته حيث  
 الودج، سكنت فسكن وهمس... هل تعبت... هزّت رأسها نفيًا...  
 استطرده: عليكِ تودّين التوقّف... فهزّت رأسها نفيًا... قال: هل تودّين  
 إعادة الكرّة... أوأمأت بالموافقة... مدّ كفه بين أسنانها وهمس أن  
 تعضّه، ففعلت وكأنها تلتمه، همس: انهشّيه... اجعلي أسنانك أنياب  
 ذئبة، ففعلت... أوشكت أن تقطعه، تراجعت مبتعدة، فتركها هنيهة،  
 جذبها ثانية وهمس مثل جنرال يمشط ميدان المعركة بنيران  
 مدفعيّته، وقدائف دباباته الثقيلة مثل ذئبة تنهش لحم فريستها...  
 همس: هل تعلمين ما أقصد... أوأمأت بالموافقة عقب هولك ...

\* \* \* \*




كابوس آخر (وليس بالأخيد). قوّة  
 غاشمة دفعته إلى الأمام. ارتقى  
 الفضاء ليسقط على أرض طينية  
 رطبة زرقاء، تزلح على ظهره  
 لمسافات بعيدة قبل أن يرتطم  
 بأرض حجرية... قام لا يعلم أين  
 وجهته... شعّر بقوّة قاهرة غير  
 منظورة تمسك به وتدفعه عاليًا،  
 وصوت غير بشديّ يأمره بالعدو... ركض  
 وسط الحشود كما لم يدكض من قبل... تلك  
 أراضي ذات نزوعات حجرية... فكّر أن يغامر ويتوقّف عن  
 العدو... أن يغادر اللعبة... صرخ بكل ما أوتي من قوّة...  
 سيدي أرجوك فكّ وثاقي... لكن قوّة غير منظورة جرّته  
 على أرض عُشبيّة...

صاح ... ماذا فعلتُ؟ ... أخبرني ما هي تهمتي؟ ...  
فعلت يداه المستحيل للقبض على عشب الأرض، حَرَّتْ  
جسده جذوع الأشجار ورؤوس الأحجار الناتئة ...  
صرخ برجاء: سيدي ... كفى!  
قوة قاهرة قذفته إلى سماء ... سحب مظلمة ... صحراء  
جليدية، تَمَكَّن منه البرد ... تلك لعنة الركن بلا نهايات ...  
ذلكم هو الموت ...  
ولكن سيدي لماذا لا تنتهي المفازات التي قَدَّرتها لي  
بمعاناة الهزيمة؟ ... سيدي أنا لم أُهْزَم في متاهتك  
اللعيونة ... سيدي، وإني لَمُكْتَفٍ بكل ما عوقِبْتُ به من  
حياة واقعية تمتزج بكوابيس قُدِّرَتْ لي ... الرحمة، كفى  
إذن ... حُذني إلى جَنَّتِكَ لو سمحت ... خذني إلى حقول  
الأيارو ... هَبْني فردوس عدن أو احملني إلى ملكوتك ...  
لدي سبع حيوات ... امنحني إِيَّاهم ...  
أُنَيْتُكَ سيدي، أنا كواحد من المصيرين لا نؤمن بالموت  
بعد الموت ... لدينا إيمان بأن هناك حياة أخرى للأبدار ...  
وأنا أريد حياتي، فحُذني من كوابيسي وافتح لي بَدْزَجًا  
يوصلني لفردوسك السماوي ... هل سبق لك سيدي وأن  
حَاكَمْتَ إنسيًّا مُقْتَنِعًا ببراءته ... حسناً، ها هو ذا أنا ...  
... أنا ذاك البريء ...

عفوًا سيدي، إذا أردت أن تقول لي إن الحياة ليست بذات  
معنى، فاسمح لي بالاعتراض، وإذا أردت أن تكون رسالتك  
بأن الحياة التي نحيها كانت خواءً مُطلقًا، فاسمح  
لعبك الضئيل أن يخالفك الرأي... وإذا كان عليّ أن أتقبل  
مصيدي في مناهات العدو الا نهائية... أو الموت رهين  
الوحدة الثلجية، فأنا راضي عمّا فعلت...

\* \* \* \*





الفصل الرابع والثلاثون  
حينما تَدَاعَتْ دُرُوعُهَا

## — 1 —

بَدَأَ يَوْمَهُمَا فِي الْبُكُورِ، وَقَدْ تَوَسَّدَ كَفُّهُ كَشْحَهَا الْأَيْمَنَ، بَعْدَ مُضِيِّ قَرَابَةِ النِّصْفِ سَاعَةً، أَمْسَكَتْ بِتَلَابِيهِهِ «النَّفْسُ الْأُمَّارَةُ بِالسُّوءِ»، عَزَمَ أَنْ يَتَطَرَّقَ لِلْحَدِيثِ عَمَّا دَارَ بَيْنَهُمَا بِالْأَمْسِ، وَلَكُونَهُ مَتِيقًا أَنَّهَا لَنْ تُوْفِي بِوَعْدِهَا، قَرَّ فِي نَفْسِهِ بَنِيَّةَ مُبَيِّتَةِ أَنْ يُبَكِّتَهَا لِحِنْثِهَا وَنَكْثِهَا الْوَعْدِ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ حَثَّتَهُ «ذَاتُهُ» الْوَضِيعَةَ بِأَنْ يَمِطْرَهَا بِسَخَطِهِ، فَكَّرَ أَنْ يَسْحَقَهَا، يَهِينُهَا بِتَصْرُفَاتِهَا الْمَخْبُولَةَ الْمَتَنَاقِضَةَ، سَوْفَ يَخْرُجُ الْعَوَاصِفُ الْمَكْبُوتَةَ دَاخِلَهُ، يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ مَتَى سَتَتَوَقَّفُ عَنِ هَذَا الْعِبْثِ الْمَاسِخِ، أَيْنَ تَقِفُ بِدِقَّةٍ؟ هَلْ هِيَ الْفِتَاةُ الْمَغْلُوبَةُ عَلَى أَمْرِهَا، أَمْ إِحْدَى عَاهِرَاتِ حَيِّ تَقْسِيمِ بِإِسْطَنْبُولَ، أَوْ مَوْمَسَ مِنْ مَوْمَسَاتِ خَرْطُومِ خَمْسِينَاتِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، هَلْ هِيَ الْفِتَاةُ الْمُتَقَفَّةُ الذَّكِيَّةُ، الَّتِي تُجَلِّلُ رَأْسَهَا رِيشَةَ الْمَاعِثِ، تَعْبِرُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، أَمْ مَجْرَدُ فِتَاةٍ مِنْ فِتَايَاتِ الْجَيْشِا بَحِي «يُوشِيوارا» الْوَاقِعِ عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ «سُومِيدَا»، هَلْ هِيَ طَالِبَةُ الدُّكْتُورَاهِ الَّتِي تَتَوَقَّعُ لِبُلُوغِ ذُرَى عِلْمِيَّةٍ وَثِقَافِيَّةٍ، وَالْمَمْرُوقَةَ بَيْنَ مَنَاهِجِ التَّلْقِينِ وَالْحَفْظِ وَبَيْنَ الْإِبْدَاعِ الْعِلْمِيِّ الْحَرِّ، أَوْ بَائِعَةُ هَوَى تَعْمَلُ فِي كِبَارِيهِ «مَوْلَانِ رُوجِ» بِبَارِيْسِ... بَلِغْ

احتدام غَيْظه ذروته، وتحوَّل الغضب إلى بُغْضٍ وِضْفِيَّةٍ، لحظتها تساءل مُحَبِّبًا: مَنْ يملك قواعد اللعبة؟ ضرب رأسه معترفًا بغبائه، متسائلًا: والآن مَنْ الذي يغوي الآخر؟... كان منغمسًا في إزاحة الاكتئاب الذي داهمها بسبب اعتراضه على موقفها من الفيلسوف الفرنسي رولان بارت، وخاصة أنه ذكر لها بأنها حمقاء، ولن تحصل على الدكتوراه بسبب تهوُّرها في مواجهة موظفين أكاديميين محافظين، يفتقدون الروح العلمية، ومُعادين لحرية الفكر...

سمعها تهمس... أرجوك لا تفعل بي هذا... لا تكسر مجاديفي، أنا مركب تائهة في عرض البحر... أُمِّي تعاني عناء شديدًا، وزوجي طفل مُدَلِّلٌ لدى أُمِّه الحيزبون، وكلاهما مثل نيتشه؛ من أعداء البشر... شَعِرَ بالأسى دون أن يفطن أن كَفَّهُ تنصهر فوق كشحها كغيمة تسبح بين شمس مُلتَهَبَةٍ وبحار تُعِشُّها كُتَلُ الثلج القطبية... في الضُّحَى، وأمام استسلامها الناعم، أشرق عليه الطُّورُ الثاني من النفس اللُّوامة، استيقظ ضميره، وشرع يَنحُو باللائمة على نفسه، يحتقر تَضَخُّمَ "ذاته"، حَلَّ به ازدراء حادٍّ يكاد يمحو "ذاته".

في الرواح حَلٌّ سكونُ الزاهد، تملَّكته روح الصبر والحكمة والتواضع، والرغبة في معرفة المعنى الحقيقي للأشياء... لتبلغ روحه الطُّور الثالث "لنفس المُلَهَّمة".



على امتداد ساعات شَرَدَ عن كَفِّهِ التي تَوَسَّدت كشحها الأيمن،  
كان لحم وبشرة كَفِّهِ ينصهران مع طبقات جلدها دون أن يشعرا  
بشيء من ذلك الاندماج سوى ذاك اللهب الأسطوري الذي توَعَّلَ  
في رويهما معاً، أوار ناري أو صقيع ثلجي يسريان في الجسد،  
يشعَّان في الشرايين والأوردة... تحلُّ بهما الطمأنينة، يتوسَّدان  
عالم السكينة...

هي "النفس المطمئنَّة"... يا الله... سبحانك... ما هذا الجمال  
المطلق! ها هو جسدها ممدَّد أمامك يفيض بالكرم والرضا  
المهيمن على النفس... آه يا مولانا جلال الدين الرومي... هيت  
لك... رضيتُ بمصيري وقبِلتُ بما قُدِّر لي...

حلَّ العصر، ومال قرص الشمس إلى الربع الثالث من كبد  
السماء، قامت مُخَدَّرَةٌ للوضوء واللحاق بصلاة الظُّهر، فلما انتهت  
صاحت تخبره أنها شرَعَتْ في عمل الغداء الذي أحضرته معها، لم  
يحاول الإعلان عن نيَّته لتقديم يد المساعدة، كان لديه يقين بأنه  
طعام لن يتجاوز طبقاً شحيح مصنوع من اللازانيا مصحوباً بطبق  
كبدة بانيه أو إسكندراني؛ ما جعله يشعر بالغضب.

عندما دعتَه لتناول الطعام قرر للمرة الثانية في هذا اليوم  
أن يتصرَّف كطفل ويعتذر عن تناول الطعام... طلبت منه أن  
يتوقف عن العناد، ويأتي إلى غرفة الطعام. فوجئ بمائدة عامرة  
تتصدَّرها بطة محمَّرة محشُوَّة بالفستق والزبيب وجوز الهند،  
ومزينة بشرائح البرتقال، وحلَّة ساخنة من محشي ورق العنب



المصنوع من مرق البطل، ملوخية خضراء يفوح منها البخار،  
وصينية رقاق محشوة باللحم المفروم والسمن البلدي، لكن  
المفاجأة كانت في طبق الكشك...

جلس مذهولاً وقد أصابه العمى عن كل ما هو على المائدة،  
ليبقى شعور بانحطاطه. ارتكست روحه وحلت به ثانية "النفس  
الأمارة بالسوء"، تخلّى عن أن ينحو باللائمة عليها كما كان يودُّ  
لوفعل منذ دقائق، متحوّلاً إلى تعنيف "ذاته"، يتهمها بالدناءة  
والخبث، أمسك بسكين من أدوات المائدة، ومرّره على كفه، كان  
يعلم أن السكين لن يكون حامياً، تراجع واصفاً "ذاته" بالجبن  
والخسة، كيف له أن يتهمها بمثل هذه السفالة، ولماذا لا يعترف  
بأنه المتسبب في كل ما جرى في حياته من تعاسة.

أحكمت "النفس اللوامة" قبضتها عليه، أطاحت به رياح  
الغضب من "نفسه"، ودّ لويمحو "ذاته"، لو يتضاءل حتى يختفي  
من الوجود، عاد ثانية واختار هذه المرة سكيناً ذا شفرة حامية،  
وعندما مرّره سال خطّ رفيع من الدماء، ظهرت فجأة وأطلقت  
صرخة دُعر، سقط الطبق من يديها، تقدّمت ملتاعة وهي تسأله  
عمّا يفعله بنفسه، أجابها وعيناه تنظران إليها باعتذار، بأنه  
يتدرب على عقاب النفس الأمارة بالفجور. أسرعته تحضر أدوات  
الإسعاف وعكفت تُطهر يده اليسرى بالبيتادين ثم تربطها،  
وانثنت تجمع بقايا الصيني المكسور، وعندما انتهت عادت  
بطبقين آخرين.

جلست تُطعمه؛ إصبع من ورق العنب، ملعقة من الملوخية، قطعة من صينية الرقاق، شريحة من لحم البط، اغتتم فرصة قُربها والتصاقها به، ومد ساعده يحيط به خصرها العاري، اشتدَّ عليه تأنيب الضمير، قرَّر أن يتقدم لها باعتذاره، قرَّر أن يركع على إحدى قدميه ويضمُّ كفيه أمام صدره وينحني لها في تواضع طالبا الصفح، كان العالم يخنقه والطعام الذي تواليه به يُحرِّره، وعندما تمكَّن من النطق أخيراً سمع نفسه ينطق متسائلاً عمَّن سيقوم بغسيل الأطباق. ضحكت وقالت إن البطة سوف تصيبه بالجنون. وأضافت برقة أن عليه أن ينتهي من الطعام ثم يفكر في غسل الصحون والملاعق والذي منه...

أثناء تناولهما الطعام كان جسدها يتحرَّك حوله، وبالقرب منه، وساقها العاريتان تخاتلان عينه مثل حورية عصية على اللمس، وكل قطعة من جسدها ترتطم به وترحل، تتركه على صفيح ساخن. ورغم تلك الحالة من العذوبة اللذيذة، ضبط نفسه يفكر في طعامها الشهوي. كيف له أن يكون مؤزَّعاً بين متعة الجنس، وطعام شهوي... عندما انتهيا (وكان الأصيل) سألته وهي تحمل الأطباق في طريقها إلى المطبخ إن كان سيتناول الشاي. لم يُجب وانكبَّ يلوم نفسه...

لهبَّ شفيف، وأوار دافئ أسرَّ خُلاب يستحوذ عليه، وحيثما كان ينوي أن ينال منها ومن مصداقيتها ويتَّهمها بالبُهتان والنَّصب وإلى آخر ما تحتويه جعبة الإهانات من مصطلحات، تخلَّى عن هذا كله، مستسلماً لعالم شفيف يسري في فضاء هنيء ينمو داخله "بالقبول والرضا" بما قسمه القدر، يتحوَّل الصبر والمثابرة إلى شموخ تُتوجَّه شمساً: الحكمة والتواضع...

في العشيَّة ألقَت الشمس تحيات الوداع وحلَّت حُمْرَةُ الشَّفَقِ في الأفق، مُفسِحاً لِلَّيْلِ احتلال الكون. اِكْتَسَى جانبي الإسكندرية؛ مدينة الواقع ومدينة الدُّمى بأضوائهما الباهرة، وتحول الفضاء إلى عالم يخصهما وحدهما، وكانت روحاهما قد كابدتا من أطوار مولانا جلال الدين الرومي السبعة على طريق بلوغ الحقيقة سِتَّة مقامات، وهما يصعدان مراتب النَّفْس الراضية والمرضية، يحتلَّان أريكة الغواية، تجلس بين أحضانه، أمامها اللاب توب، وظهرها يتوسَّد صدره، يحتويها بساعديه، تسافر كَفُّه اليسرى في أنحاء مدنها وفيافيها، تواصل قراءتها



**مغامرة**  
في نهر  
الفرديوس

للمقدِّمة الخاصة بالجزء الرابع والأخير من الرسالة، وقد اختلج صوتها برعشة تحوي خليطاً غامضاً حلواً لذيذاً... ترسو اليمنى على كشحها الهضيم، يشتعل رويداً رويداً، فلا هي قَطَّة على صفيح ساخن، ولا هي أصابع قُصِفَتْ بفعل بقائها في درجة حرارة أذنى من الصفر بخمسين درجة مئوية.

غَطَّ في نوم عميق... كل شيء يتلاشى:

اسمها، وجهها المتوسطي، شعْرُها ذو الرائحة العَطِرة المستحيلة على الوصف، أقداح القهوة، السجائر، صحائف الطعام، الكمبيوتر، عمَّال الترسانة البحرية الذاهبون إلى عملهم سيراً على الأقدام، الصبية الذين يلعبون الكرة، نساء الإسكندرية المغويات، التاريخ القديم والحديث المثقل بأغلال العبودية، قسوة

الأهل، خداع الأقربين واستحلالهم لحياتك والإصرار على نيلهم منك، تلك الأريكة التي استلقيا عليها لساعات وأيام طوال... تتلاشى الموجودات ليبقى البحر: أمواجه، رياحه، أفقه اللازورد، سماؤه اللاهية عن ذلك الوجود البشري الدنيء.

استيقظ في عالم آخر... رأى ساعده ينفصل عنه، كفه على اتساعها ترتفع عاليًا، شهد أنامله تسبح لوحات رُسِمَت من الجنة؛ لوحات كلود مانيه "الشروق / عمود الضوء"، ولوحته "Pouville". يغادر لوحات كلود مونييه إلى لوحات فان جوخ المعلقة على جدران منزله، (أشجار البرقوق / ليلة النجوم / الحصاد الذهبي).

التحمت كفه بكشحها، باتا معًا مفتاحًا سحريًا لبوابات قلعتها السرية... من غور بعيد يأتي أنين رتاج عتيق، تروس تئن، بوابات عملاقة بعمق الزمن بامتداد الأبدية، تتر وتتحرك وتبدأ، على سطح بشرتها الرهيفة تطفو من داخل جسدها حروف سحرية للغات قديمة، رموز غامضة، لا تزال كفه تعالج مزاليج جسدها الذهبي العصي، متواليية من صرير يُزلزل وجوده الحي؛ زلازل، براكين، سماء كونية، بحار متلاطمة، مذايح لربّات مُخصّبة بدماء ضحاياها... ساحرات تبكي انهيار التوازن الكوني...

يتحوّل جسد المرأة الشابة إلى سديم فضائي... تنقش البوابة السحرية عن جنة من جنان السماء...

قلاع تحرسها كتائب من ورود وزهور، يخطون في الفردوس المقدّس يستقبله حرس شرف من ألوية فراشات شاكة السلاح،

حوريات تصطفُ على جانبي العشب الواصل بين بواباتها والكأس المقدسة، جنّيات يُحييْنه، ملائكة يتقدمونه، حدائق مزهرة، بسط من زهور ملوّنة بقوس قزح، يرتحل في جنادها، تفيض كؤوسها بسيل من ماء عذب زلال، عسل يفرش بسطاً حريرية فاتحة النعومة، يبدع نسيجاً من الجنة: جبينها، وجنتيها، عنقها المزهِف، ظهرها، جنبها، بطنها الهضيم، نهدتها. عنقها، فخذها، ردفها، ساقها الرخاميتين، الحاناً يعزفها نايّ سحري... جسدها اللذيذ يتفتق عن شجرة عملاقة اسمها الحياة... يحتوي كلُّ منهما الآخر... هو غبش الليل... هو سحر الفجر... هي "النفس النقيّة"، هي الطور السابع للنفس البشرية... هي جنّة الحياة الدنيا ونعيمها...



شموخ تَوَجُّه شمسان:  
الحكمة والتواضع

ما فوق مبدأ اللذة... إنه الجسد، لأنثى بدوية كانت أو ابنة فلاح ثري أو أميرة أو ملكة، لأنثى كانت أو آلهة... هو جسد الأنثى، أغنية الوجود الأولى. يا إلهي، تنعم على عبدك المسكين الذي صنّع من رماد بهديتك له التي استحقّها عن جدارة.. يا إلهي، تنعم على عبدك المسكين بكل هذه البهاء الحي...

في التاسعة مساءً، وكان الليل قد أسرف، وكفّه على اتساعها ساكنة مستقرّة على كشحها الأيمن، عندما شعر به يحترق. انسلت من بين أحضانه وقامت تصنع فنجاناً من القهوة، كانت تقف خلفه عندما أمسك بساعدها، وسألها كيف علمت أنه في حاجة للقهوة،

قالت إنها تعتقد أن الرجال يحتاجون القهوة في أوقات مُعيّنة. استدارت برأسها تُخفي نوعاً من الحرج، وحاولت أن تبتعد، قبض على كفّها، تشبّبت به بقوة، همّ أن يسألها إذا ما كانت قد شعرت بما شعر به، هزّت رأسها، استطرد يحاول التأكّد ممّا تعنيه قائلاً إن كفّه ذابت بين ثنايا كشحها مثل لافا تصعد من كورها الملتهب. هزّت رأسها، تساءل كيف تحوّل كفيّ وكشحك إلى حالة من جنس مُطلق؟

خفضت رأسها في الأرض، يتسلّل سؤاله إلى الوجدان... هل بلّغت الذرورة؟... حدث نفسه، كيف يمكن؟

رفع عينيه إليها يسأل إذا ما كانت قد اختبرت هذا الشعور من قبل؟ نفّت بصوتٍ خجول خافت، استمرّ، زوجك؟ همست بصوت خافت: لم يحدث طيلة حياتي أن واجهت هذا الشعور.

توجّهت إلى الحمام، رشف قهوته وأنهى سيجارته، ثم تسلّلت مثل أفعى من الجنّة إلى أحضانه، ترجّرت هنا وهناك، تيقناً من اكتمال توحدٍ جسديهما على ما ينبغي، ومضى وقت طويل حتى حلّ العشاء، سألته بصوت رقيق به رنةً حياء، وبعض من خجل: مُمكن بقي نبتدي؟ المناقشة قرّبت...

\* \* \* \*

في الحادية عشرة، وكان الليل قد اشتدّ سواده، شعرت به ساكناً لا تصدر عنه حركة، استدارت إلى الخلف، وهي تشعر بالخجل من فرط المجهود الذي بذله من أجلها، كانت قد عزمت على أن تُعرب له عن عرفانها، لكنها وجدته يغط في نوم مُبهج أخاذ.

لاحظت السرور والراحة يشعّان من عيون ووجوه دُماه، قلن لها إن تأثيرها عليه غير محدود، وهذه هي المرة الأولى منذ هجرته التي يغطّ في نوم بهيج بعيداً عن كوايسه الشريرة، وعدتهن أنها لن تهجره، رغم أكاذيبه المتقنة...

قالت (P/33) إنها الحقيقة الوحيدة في عالمه، والباقي قبض الريح. هزّت رأسها متفهّمة، قامت دون أن تحاول إيقافه، كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل، لملمت أغراضها وهي تعتذر: أمضينا خمس عشرة ساعة ونصف متواصلة دون توقّف، أنا إنسانة أنانية...

شعّ وجهه بسحر باطني، غمغمت: أين أنت يا أستاذ؟ لم يبدُ عليه أنه يسمعاها. مالت تُقبّله من وجنتيه، بحثت في حقيبة الظهر وأخرجت علبةً مغلّفة بورق فضي ملوّن، وضعتها جواره.

ارتفع صوت الباب الخارجي، عاد إلى نوم ساحر لم يألفه قبلاً، تمدّدت داخل عقله، سافر على المدى وبين السحاب وجسدها مُعلّق من كشحها بكفّه، طار وارتفع في السماء، حقول قمح، بسط ذهبية وخضراء، تختلط بموج البحر، والنهار أوازٍ يلتمع بألسنة حريق دموي ينبعث من النشوة، وفراشات من أجساد نساء يحلّقن عاريات حوله بألوان قزح، والسهول تطوي فيافيها، والمروج تركض فوقها الخيول.

ثمة عدالة في الوجود، ثمة حرية في الكون، كان يتبتَّل وهو  
يتقلَّب في فضاء لا يتوقف عن الامتداد، يرشف من نبع رقرق،  
وماء زلال:

... يا إلهي، أرجوك، العالم قُدَّ من جحيم... لا أريد الخروج من هنا...  
أرجوك لا تطردني من نعميك المقيم... لا تُلقِ بي إلى السَّعير...

\* \* \* \*



الثالثة صباحاً، صالة الاستقبال غارقة في الأضواء، دُماه عاريات الصدور يلهين بسوتيان من الساتان والدانتيل الحالك السواد. لعب به عقله، نظر حوله والشكوك تأكله، بجواره غُلافٌ من ورق مُفضَّض مُرَّع بقلوب حمراء صغيرة وخيوطٍ ذهبي تمَّ فكُّ رباطه عن علبة فاخرة، داخلها ورقٌ تغليفٍ، قام غاضباً وهو يسألهن كيف حصلن عليه؟ اكتفين بالضحك، وعندما حاول أن يأخذهُ عنوة تبادلن قذفه، تحوّل سخطه إلى غضب صرخت فيهن (P/33) بلكنتها الإسبانية



بالكف عن العابهن الصبانية، خطفته من بين يدي (S/11)، أعطته له قائلة إن صديقتة تركته له قبل رحيلها، سألها كيف؟ استطردت أنه كان نائمًا يحلم، وغمزت بعينيها تسائله عمّن كانت تشاركه أحلامه؟

سبيدي  
هل تداعى درعك؟  
Has your shield  
collapsed?

اقتربت منه (K/22)، وعلى وجهها ابتسامة تتحوّل بين لحظة وضحاها من ذئبة قاتلة تهتم بالانقراض على فريستها، إلى ثعلب يقود قطيعاً من الذئاب إلى

مثواهم الأخير، سألته لمن هو؟ لك أم لها؟ قال يدافع عن هديته: لي بالطبع. رفعت حاجبيها وابتسامتها تتضاءل على ركن فمها:  
- مستر، هل أنت ممّن يهوون ارتداء ملابس نسائية.

صرخ نافياً بصورة جازمة أن يكون لديه مثل هذه الميول. هو طلبه منها. همست (S/11) بابتسامتها الشهوانية، أنه فتى شقي. وأضافت: مستر، ما تفعله غير طبيعي. سألها لماذا؟ قالت إن الرجال هم من يُقدّمون لنسائهن هدايا من ملابس داخلية، لِم جعلتها هي التي تهديها لك؟ دعاهن للجلوس حوله، فاندفعن في عُريهنَّ يحاولن الالتصاق به، قال يشرح لهن إنَّ الأمر يختلف بين عالمين، وأنهن لن يفهمن شيئاً. رأهنَّ يتبادلن ضحكات السخرية منه. قال إن الشرقيات مسكينات، تمنعهن طُرُقُ التريبة المتخلّفة

عن التعرّف على أجسادهن، وهو لوقدّم هدية من طاقم حريري أو من اللانچيري، لن يفهمن قيمته، الله وحده يعلم ماذا سوف يفعلن به، سوف يلقيين به إلى غسالة أتوماتيك بمسحوق غسيل محليّ رخيص؛ ولهذا عكس الأمر، فتقديم أنثى سوتيانها الذي احتوى نهدها، والتصق بأديمه، وشرب من عرقها، وتنسّم عطر بشرتها واختلط بأرجها- أمرٌ مختلف، يدفع الأنثى كي تتفتّح مثل وردة على مفاهيم جسّية جديدة، تفتح آفاقاً من الوجد اللذيذ.



صرخت فيه (K/22) ، واتَّهَمته بأنه منافق. قال إن هذا جزء من استراتيجيات الغواية، فقبول صديقتَه تقديم سوتيانها يتركها تتساءل وهي في حِصَمِ الشَّبَقِ الليلي، لماذا يهتَمُّ بجسدي؟ الجسد يا صديقتي هو الرأية التي تحلِّق حولها الحياة. دعاهنَّ لتركه والرحيل.

سألته (S/11) ، وابتسامتها لحمٌ أنثويٌّ مكشوف، ولماذا طلب السوتيان فقط، أين سروالها التحتي؟ التفت ناحيتها، وجذب السوتيان من أناملها وأعادَه إلى عليته، وهمس ساخرًا أن عليه أوَّلًا الحصول على نهديها، قبل أن يبحث عن شيءٍ آخر، وأضاف وهو يشكوها إيَّاهُنَّ، كيف أن

أعوامًا مضت وهو يتقدَّم في ساحاتها مليمترا مليمترا... قاطعته الدُمية الفاتنة وأصرت وثغرها يفوح شهوةً: كيف طلب السوتيان دون سروالها التحتي؟ عكف على غلق العلبه وهو يعترف بخجل أن حياءه منعه. جلجل فضاء الصالة بضحكاتهن، لاحظ أنهن يتغامزن عليه، ويدعين (M/55) كي تتقدَّم نحوه، وقد فعلت،



مالت عليه وهي تخفي شيئاً ما خلف ظهرها:

- il professore .

- إيه، فيه إيه؟ قالت وهي تُخرج له من راء ظهرها قطعة صغيرة ملوَّنة: لكن صديقتك لم تخجل. وأضافت وهي تشير إلى رأسها ”إنها فهمية عنه، وأكثر ممَّا يعتقد“... جلجل صوته وهو ينظر لما بين يديها:

- مستحيل، أنا لم أطلبه!

فرَدته إمامه، كان سروالاً ”Thong“<sup>(34)</sup>، من السَّاتان القرمزيّ يتناوب فيه الأسود والأحمر، أمسك به مشدوهاً وهو يهتف:  
- يا إلهي... ما أعظم قدرتك، عندما تخلق نساءك على شاكلتها.

\* \* \* \*

---

(34) سروال (Thong): على هيئة حرف (T)، يتكوّن من كنارين متعامدَيْن بسمك أربعة سنتيمترات، أحدهما يحيط بالخصر، والآخر عموديّ بنفس العرض لما بين الفخذين.



الفصل الخامس والثلاثون

إِنَّكَ لَمَيِّتٌ

تمدّدت أمامه، تتوسد صفحة ظهرها صفحة صدره، أحاط بجسده جسدها، تخلّل بأنامله خُصلات شعرها الحالك، جذبت ساعده تحيط به صدرها، سلمت نهديها إلى كفه ثم غطت في نوم هادئ، وجسديهما يستويان على نار حلوة تبث في كينونتيهما البهجة. مضي زمنًا قبل أن تستدير لتنام على ظهرها، تابع ملامح مشاعر السعادة على وجهها الذي يفوح برائحة العسل، غنق أسيل، نهدان جبّان يتفجّران بالبراكين، بطن كشيخ، وادٍ يهوي بين البقاع، وفخذان مرمريتان من نار، تحرسان واديهما المقدّس الغائر المحاط ضفّته بغابة كثيفة من شجيرات الغار، نفث على سطح جسدها رياحه، فاختلجت أنامل كفيّ قدميها وتناثرت بتلات زهور تسبح بين هبّات النسيم.

مدّت ساعديها ليتعلّقًا به، دفنت رأسها في عنقه، احتضنها بين ساعديه، غرزت أنيابها في حبل وريده، لتتفجر الدماء على البسيطة مطرًا غزيرًا وحممًا بركانية.

حدّق في جسدها مبهورًا بالوجود الحي لبهاء خلق الله. الآن جاء أوان مناقشة الرسالة، امتياز مع مرتبة الشرف... همس لنفسه... الآن أريد أن أعانق موتي... سمعها تهمس هي الأخرى:

- وأنا كذلك...

همس... لم تُعدْ لديَّ رغبة في الحياة، وهبني الله كل ما أريد،  
وأنعم عليّ بتعيينه فيك... ليس في الوجود نساء أفضل منك...

- سيكون لديك مئات الحوريات...

- ولكن ليس على الأرض... ربما في النعيم.

استغرقها النوم...

كان خُلماً وليس كابوساً، صار متيقناً من ذلك عندما اكتشف  
أن الأحداث تترى بدقة عالية وكأنه فيلم (HD) ...

رأى "ذاته" تَنزى بِصُحْبَةِ سيدة أنيقة وأشخاص آخرين،  
ينشدون وسط مظاهرات تفيض بها الشوارع، لم يَدُرْ  
بينهما حديث بل شعور بالاضاء، كانت "ذاته" تعلم  
أنهم في طريقهم إلى اجتماع ما، ثمّة بهو كبير  
يغصُّ بالجلوس؛ فتيات وشباب ونساء ورجال ينتمون  
إلى جماعة (على ما يظن) من المناضلين، بينهم (ليس  
متأكِّداً) تونسيُّون أو جزائريون... للمدة الأولى لم يكن  
يكابد الركض، بل وجد في القاعة مقاعد كثيرة، تمكَّن  
من الجلوس على أحدها بسهولة، وهذا ما جعل "ذاته"  
على يقين، أنه لا يعيش أحد كوابيسه...

جلس والسيدة الجميلة التي ترافقه في معطفها  
الأنيق، يتبادلان العناق وشعوراً جارفاً بالحب... شاهد ذاته

تحدّث على المنصّة، تفيض بالدعوة إلى الدفاع عن الفقراء واستعادة العلم والتعليم لمكانتهما الرفيعة في حياتنا، وصعود يسار يؤمن بالديمقراطية والحرية والعدالة والتضامن، لديه قيادات تؤمن بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، يملكون خبرات ومن النزاهة والشرف ما يمكنهم من قيادة البلاد إلى نهايات سعيدة... ما أثار دهشته أنه وجد نفسه شابًا وسيماً جميلاً يفيض بدوح الرجولة والفروسية... حدّ به زهول، ليس هذا كابوسًا بالمدرة؛ إذ وجد "ذاته" في الردة الخلفية للبهو الذي بدا عريضاً... تضاجر السيدة التي بصحبتة، هي تلك السيدة التي يعشيقها، هي تلك الأندى الجميلة التي التقاها وسط متظاهرين يهتفون بالحرية...

الليلة الأخيرة  
من ليالي ألف ليلة

\* \* \* \*

حكى لها حلمه الجميل، قفزت كهرة نافرة تضربه بقبضتها وتخمشه بأظافرها، كيف يصطحب في أحلامه امرأة سواها؟ انها لتلقي عليه بكل ما يقع بين يديها؛ وسائد وكتب ومذكّرات، يقول إنه يختبرها... تقول... تضحك عليّ... أنت تضحك عليّ... تهبط عليه فيزيح بلوزتها، تهبط ثانية يزيح قميصها الداخلي، في الثالثة كان الضحية سوتيانها، يضرب لوز نهدتها صدره، يهبط جسدها على جسده يحتضنها، يستقر نهداها على صفحته النوبيّة، تلهث... يمدُّ أصابعه تتخلل جدائل شعرها الأسود، ويربت على رأسها وهو يهمس: فودكا أو نبيذ؟



تلهث وهي تطلب النبيذ كي تستطيع القيادة. سألتها عن موعد المناقشة، قالت السبت القادم، السادسة مساءً. سألتها إذا كان سيأتي؟

- طبعاً.

- وتحضر المناقشة؟

- اطّمني سأكون جنبك. ضمّته بعشق وشرعاً في النوم، بعد هنيهة سمعها تسأله: تفتكر صاحبك حاتم حيرحمني؟ قال بجدية: أكلّمه؟

افتّر فمها عن ابتسامة دافئة مطمئنة وهمست:

- أيوه... عشان الماچستير كان فضيحة، الدكتوراه تبقى فضيحة مشعللة.

- منطقي. اطّمني... موضوع حاتم انتهى. ولن يفكر للحظة في التّنمر عليك. قالت وهي منومة: نفسي أعرف انتهى ازأي؟ أنت كلمّته؟ قال ليس بصورة مباشرة، الجامعة بها ناس محترمين تولّوا الأمر. قال وهو يتنفس أنفاسها، ويلثم جفنيها المطبقين: حتماً هنا النهارده.

- من غير ما أقول لماما. قال إنها سألت عنها وكانت نائمة، أخبرتها أنك ستمضين الليل عندي، وسأوصلك في الصباح إلى الجامعة.

- من غير ما تاخذ رأيي؟ ... ماشي. استدارت نحوه وضمّته بامتنان وهي تهمس: عارف، من غيرك كان مصيري مستشفى المجانين.

- بظلي تخريف، بكرة حتعملي إيه؟

قالت إنها ستذهب إلى الجامعة كي تطمئن على الدكتورة المناقشين، وتتأكد من كل شيء، تعود بعدها إلى المنزل، كي تُهدئ من قلق والدتها الشديد عليها، تمضي الليلة مع أمها، وسوف تحضر صباح اليوم التالي لتمضي بقية أيامها معه حتى موعد المناقشة. عقب:

- نعم أيامك الأخيرة معي.

غَطَّت في نوم بهيج، توسدت برأسها صدره، وثقلها الريان يشقُّ الطريق كي يتخلل كلاهما مسامَّ الآخر...

هو التكوين الأبهى الذي قد يُبقي الرَّجُلَ ساكناً دون حراك، حتى لا يوقظ سيدهته الجميلة وهي تتوسد جسده، يستمتع بنيران اللذة الدقيقة التي تلهيها دونما ألمٍ، عَطَّ هو الآخر في النوم ورحل إلى عالم نُحِبُّه كوابيسه.

عادت "ذاته" للعدو في فيافي قطبية لا نهائية، تتخللها متاهات متعاقبة من ممرات

ثلجية، تتبدل بين فينة وأخرى إلى بادية صحراوية، متاهات حجرية، يلهث بلا توقُّف داخل رموز وحروف وطلاسم سحرية، أحاجٍ غامضة.

تغادره روحه، يعلم أنه يعدو كما لم يعد من قبل... تتحوَّل العتمة إلى ظلام مطبق، تطارده صدخات جموع تشبه الهنّاف، يعدو، تنجلي الظلمة عن ضوء باهد يصيبه بالعمى المؤقت، يشاهد "ذاته" تجري في حلبة سباق

طويل، هو المتسابق الوحيد، مضمار بلا نهاية، على جانبه تحتشد جمهدةٌ بشريةٌ من دُهَمَاءِ، رعاء، نساء ورجال مصابون بالجدام، حمى الجنون، هستيديا القتل الجماعي، يطالبونه ألا يتوقف، يسرع، يشهد كأنات وحشية تنساب من فمها الدماء تطارد "ذاته"، تسرع، يبحث في جنبات المضمار عن حواجز السلامة (٣٥) كي يحتمي بها... يبصر يُبْرِزِمَةً من شياطين يطاردون "ذاته" المُقَدَّر لها ما لا يفهم، وما لا يُعَدُّ من قبيل المنطق والحق، يتابعها تسرع، تعدو بكل ما أُوتيت من طاقة بحثًا عن نهايات ظافدة...

يرى في البعيد خطَّ النهاية يبدغ من العدم، تُسرع "ذاته" مُبْتَهِجَةً، يعلو التصفيق... يلمح جثث لموتى تحرس النهايات، تطلُّ من عيونهم نظرات زجاجية وأنياب بانتظار لحم تنهشه...

... تخاطبه روحه أن يتوقَّف...

كما لم يفعل من قبل، قَاوَمَ بكل ما يملك من إرادة أن يفرمل أقدامه، تصاعَدَ السُّرْدُ من بين كعبيه وأرض المضمار الحجرية، تمكَّن من الوقوف أخيرًا وانحنى يلهث من شدَّة العدو، كَفَّه اليسرى على قلبه، وصدرة يعلو ويهبط مع أنفاسه، ويده اليمنى مدفوعة إلى أعلى، متوجَّهَةً نحو السماء، عندما تمالك نفسه هتف برنةٍ رجاءٍ وهو لا يزال منحنياً:



أرجوك  
الرحمة

(35) حواجز السلامة: (Gravel trap) المنطقة الآمنة الموجودة في حلبة السباق تبطئ من سرعة السيَّارات عندما تخرج عن المسار.

أرجوك الرحمة... كفى... كفى لو سمحت... أريد أن  
أتوقف عن العدو... لقد اكتفيتُ ممّا قدّرتَه لي...  
سوف تتدكّني... الرحمة أيّها السيد... لا تنسى أن  
العالم الذي قُدّم لنا ونحن في مطلع الشباب كان  
مغموسًا بالهزيمة من أشد الجماعات عنصرية في  
العالم، ولا يعيبنا أننا رفضنا...  
سوف تتدكّني... سيدي (وحاشا) لا تنس أن الحياة التي  
قُدّمت لنا كانت عالمًا من خِراء، يستحيل أن يؤخذ علينا  
أننا أبينا الفساد عالمًا لنا... السيدة الشابة سوف تتدكّني  
... سيدي (وحاشا) لا تنس أنه لا يمكن أن يؤخذ علينا أننا  
لم نقبل العبودية زرايب ومعايد لنا...  
سيدي (وحاشا) أرجوك تذكّر أننا منذ تفتّحت أوداجنا  
على عمد الشباب نعيش حتى اللحظة عالم الهزيمة...

استيقظ يرتعد ، كانت لا تزال جواره حقيقة ناصعة تمور  
بالحياة... مرّر بأصبعه على جذعها ، أشرق أمامه نهذاها وعنقها  
الطويل... همس: سو... قاطعته بتأقّل: عاوز إيه... فيه حاجة؟ مدّ  
يديه يكوّر نهذاها بين يديه. وهو يهمس: أبدا  
- يوووووه... اهدى بقى عاوزة أنام... عصره برقّة، أمسكت  
بذراعه وتوسّدته مستاءة، دفنت عريها في صدره، وهمست:  
أرجوك... انت ما بتهمدش... نام... عندي جامعة الصبح.

همس أن لديه سؤالاً مهماً ، غمغمت: سؤال إليه المهم ، كذاب كعادتك . سألها: هل تهملك الدكتوراه؟ هتفت: خالص... ما عادتش تهمني، قفزت في عريها من الفراش، وحملت أوراقها الى التراس، على السور أقت بها إلى الفضاء... سبحت أوراق الرسالة التي عملت عليها معه لأربع سنوات متواصلة تتهادى وسط الضباب في سيمفونية تعزفها طيور النورس لتحط على أرصفة الميناء وناقلات السفن وبحاراتها يلوحون لها وهم يللمونها، ترحل غالبيتها نحو الأفق السماوي حيث البحر وأمواجه الوثيرة يستقبلها مثل أرائك للغواية. لُوِّحَت بالتحية للبحارة وعادت تلقي بجسدها الوردى في أحضانه، وهي تهمس لقد تخلّصت منها، والآن أنا لك ولجنونك وهلوساتك وكوايسك وحدك... أنت فقط.

أخذها في أحضانه وعاد للنوم... يستيقظ... يحاول التحدّك، لكنه لا يستطيع... جُتَّة غامضة تجثم على ظهره، قيّدت حركته بجبروت... جذب ساعده الأيمن الكائن أسفل الوسائد... استدار يواجهها... (ذاك الجسد الغامض الممدّد أمامه داخل غلافي بلاستيكي مثل قربةٍ لماعذ، أو فقاعة غازية بين عالمين، كان لأحد أخوته الذكور الذين رحلوا إلى العالم الآخر منذ زمن قليل)، هل كان يحاول الولوج به إلى عالمه؟

... هو الموت إذن...

يا إلهي، أرجوك... تعبتي.

قام متوجّهاً إلى التراس يستعيد سجائره، وعندما عاد وجدها  
تغطّي في النوم، تتمدّد بارتخاء وقد غطّت نصفها السفلي بملاءة  
تحوي استدارة رديفها، وإحدى ذراعيها تحت رأسها وفخذاها  
وساقها تطلّ من حافة الشرشف، مضمومة، كما لو كانت تحافظ  
على عتباتها من أن يغزوها أحد غيلة... استند بظهره على وسائد  
الفراش يدخن، تطلع إلى جسدها الرّيان، الرّخص، المزهف،  
الأمّلد، المصقُول، المتناغم يتمطى مثل تمثال إغريقي... ظلال  
لأشباح وخشبيّة تعكس على الحائط تحيل جسدها إلى جزيرة  
من الألفة والمؤانسة...

مثل رؤيا في حلم أو كابوس... مثل حلم جنائذي يشاهد  
”ذاته“ المنهارة على نفسها تنزل من على مذبح جنائذي...

غدًا، وعندما تنتهين من مناقشة رسالتك، وتحصلين على  
درجة الدكتوراه سوف تكرينني كما أنكرك بطرس الصياد السيد  
المسيح، غدًا سوف تبيعيني بثلاثين مثقالاً من فضّة، كما باع  
يهوذا الإسخريوطي يسوع...

لم يشأ أن يخبرها أن عميد الجامعة أبلغه أن ملفّ ترقيته  
للعلماء نُحّي لدواع أمنية، وأن الجاهل حاتم عبد اللطيف قد حصل  
عليها... لم يشأ أن يُثقل كاهلها بأن مسرحيته عن الحياة لا تجد من  
ينتجها... لم يشأ أن يُشتتها وهي مُقبلة على لقاء سوف ينقل حياتها  
لكوكب آخر، تحمل فيه لقب دكتورة في علوم النقد الأدبي...

## الموت هو ما ينتظره...

أيهْد<sup>(36)</sup> الليل، وبينما كانت ممدَّدةً في أحضانه على أريكة الغواية، سمع فرقةً دوِّيَّ مُفاجئٍ ليجد باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه، غمد الصالة ضوءً شبيحياً كابٍ قادمٍ من العالم الآخر جعلهما عاريَّين مُمدَّتين في سهوب ثلجية، قام مذعوراً، نحَّأها جانباً وقام ينظر باب الشقة المسيَّج بزوايا حديد والموصد بگالُونين، أخذته الحيدة، كيف يمكن لقوة أرضية أن تفتحها؟... ثمة من اقتحم عالمه قادمًا من عالم الغيب، شعد بهم موَّعين في أرجاء المكان، هم رُسل الموت مُقبلون من أجله، وقفوا يغطُّون رؤوسهم في أوريثحة سوداء، تخفي عيونهم الغائرة فجوات تشتعل بنيران جهنم... يسألهم إذا كانوا يقبلون بكوب من شاي أو قهوة وربما كأس من الويسكي... التمعت عيونهم الغائرة بالظلمة بدغبتهم...

## الآن جاء أوان الرجيل أيها الفانيه...

طلب أن يعقد معهم اتفاقاً بأن يُبقوا عليه حتى يُنهي مهمَّته مع السيدة الشابة التي تتولَّد صدره...

قام يغلق الباب وجلس جوارها وقد فاضت روحه بالبؤس... غداً ترحلين إلى عالمٍ جديد يضمُّ رجالاً نافذين، مثقفين وكتَّاباً وإعلاميين، روائيين وشعراء، ولاؤهم لأي سُلطة، غداً سوف ترحلين وتتركينني للوحشة، والكآبة، والغربة. شعركِ الحالك،

(36) البهرة: حيث أبهر الليل وبلغ منتصفه. انتصف الليل، أي بلغ الثانية بعد منتصف الليل.

حواجبك المرسومة مثل قوس المحاربات الأمازونيّات، عيناك  
النافذتان بالوَرع والنزاهة، وجنتاك المخذولتان بالحزن  
الشفيف، شفّاتك التخينتان الناضجتان لمواسم القطاف، عنق  
شاهقٍ، ينبثق من كتف محنيّة بالوداعة، المستعدّة دوماً للإشراق  
عن شمسين ورديّتين دافئتين، في منتصفهما يطلُّ بركانان من  
لهبٍ شفقيّ. كل هذا سوف أخسره غداً عندما تنتهين من إنشاد  
أغنية استغاثةك (SOS)<sup>(37)</sup>، التي أطلقتها يوماً ولم تجد صدّي  
لها إلاّ سواي...

\* \* \* \*

---

(37) "SOS": إشارة تشير للآخرين أنّك في خطر وتحتاج إلى المساعدة بسرعة.



اللیل والنہار یجتمعان  
 یضمیران لی واحدًا من کوا بیسی  
 قاعة احتفالية . . . جمهرة كبيرة .  
 حشدٌ غفیر من طلابٍ وخریجین  
 أساتذة جامعة . . . صحفیین . . . إعلامیون . . . مثقفون  
 رجال فی بدک وربطات العنق الرسمية  
 آخرون فی بنرات عسكرية  
 سیدات فی ملابس سهرة  
 بعضهن یغطین مرؤوسهن بالحجاب  
 البقية سافرات  
 الجمع بانتظار مسؤول كبير

\* \* \* \*



استيقظت مع أشعة السحر الأولى، أخذت حمامًا ساخنًا، وتناولًا الإفطار وفنجان قهوة، وفي الظهيرة ذهبت الى الكوافير، وكانا قد خاضا جدًا طويلًا حول الذهاب إلى المناقشة ترتدي الحجاب أم سافرة، واستقرًا على أن تطلق شعرها دون حجاب مع مكياج خفيف.

في الخامسة والنصف مساءً يوم المناقشة التقطها بسيارته بصحبة والدتها وأختها وبنات أختها من أمام منزلها، كانت أنيقة جميلة، وكان المطر غزيرًا، لم ينبسا بكلمة، كانت متأخرة، تقدموا وسط مئات السيارات بصعوبة، أمام بوابة الكلية قفزت وهي تدفع صندلها الذهبي في كعبها الوردي وانطلقت تجري في الردهات ورجال الأمن يفسحون الطريق ويفتحون لها الأبواب.

كان المدرج مكتظًا بالحضور، ألقى لها أحد العاملين بالروب الجامعي، ارتدته على عجل واتخذت موقعها على المنصة، وهي تتفادي نظرات تأنيب، دخل متأخرًا عنها يوارى وجهه، وصعد الصفوف الخلفية للمدرج، شاهدته فغضت الطرف ووجهت وجهها إلى الأرض...

قَالَ لَهُ يَسُوعُ: "الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ دَيْكَ تُتَكْرَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"<sup>(38)</sup>.

(38) (إنجيل متى 26: 34).

حلَّ الهدوء واستراحت عندما علمت أن الدكتور المناقش لا يزال في الطريق، وأن موعد المناقشة تأخر لحين حضوره.

رأى الجميع حولها في ابتهاج وفرح... حدثت نفسه "بعد إعلان حصولك على الدكتوراه سوف توجهين الشكر العميق لكل من وقف في طريقك، ورمائك بأشنع التُّهم والافتراءات، وكل من لا يعلم عن رسالتك شيئاً، وسوف تتجاهلينني...". غفا من فرط تعبها، شاهدها في ملابس الزفاف البيضاء، ورجال الدين يعلنون الزواج المبارك بينها وبين المؤسسة الأكاديمية، تابعها والحضور ينتقل معها إلى حفل راقص...

سيرقص الجميع وتعطين انطباعاً خاصاً لكل رجلٍ من رجال (أخ أكبر ما)، أن الله خلقهم وحشرهم في الوجود المعاش كي تكوني له وحده... أمّا كل ما جاء في الرسالة فليحتفل الجميع بتمزيقه وحرقة على مذبح شيطان التفاهة...

\* \* \* \*

ضواء شديدة، مشهد غيد واضح... يدي نفسه يقف في منتصف الممر الأيمن للمسرح... في نهاية الممر باب القاعة مفتوح على مصراعيه يكشف عن جمهرة الطلبة والطالبات والمعVIDين والأساتذة يعبدون من أمام القاعة... صديقه السرية الصحفية تجلس في منتصف المدرج، تلوّح له بسعادة، تدعوه للجلوس جوارها، يهدُّ رأسه بالموافقة، لكنه يوضّح أيضاً أنه سوف يفعل بعد قليل... صديقه السرية الشابة هي من تنبّهت إلى ظهور حبيبته التي رحلت إلى السماء على سرج أحلامه،

هتفت بفدح طفولي، لا تشوبه غيرة النساء: أستاذ، إنها هناك... قال لها مؤكِّدًا ما رأيته... قد رأيتهَا... هاتفها أن تخبرها بوجوده، أن تحضرها حيثما يقف... نشاهدها تطفو فوق المقاعد نحو الباب الخارجي حيث اختفت...

مثل حلمٍ عُذريٍّ يخفُّ الصوت ويتلاشى، لتبقى أجساد رجال ونساء يسبحون في الفراغ... لمح "دُماه" يعبرته، يتسمن بإغراء وجاذبية مُحِبَّة... تطفو من مطلع سيقانهن الرخامية، ملابسهن الداخلية تطلُّ من أسفل جيباتهن وتُوراتهن القصيدة الملوّنة... تنتهي بأحذية نسائية حديثة وجميلة، بكعوب مُدبَّبة رشيعة... يتابعهن وهُنَّ يُحِظُن بسيدة (لا يرى وجهها)، تقف بجوار مدخل القاعة، يتبادلن معها حديثًا، ترددي بالطو بيح، تذكّر أنه التقاها في مدينة فسيباند الألمانية، تُخفي وجهها بقُبْعة سوداء ذات حافة دائرية عريضة، لمحهنَّ ينهمكن في الحديث مع السيدة الغامضة وهُنَّ يتطلَّعن ويُبيدن نحوه... كُنَّ ينقلن أسرارها وخبايا حياته السرية... يطلعونها على جنون كوابيسه التي يستيقظ منها منهارًا، هذيانه بذاك الخليط الذي يجمع بينها وبين طالبة الدكتوراه التي أرسلتها إليه...

ما أثار ريبته... ثمة علاقة وثيقة بينها وبينهن؟ هي على معرفة سابقة بهنَّ؟... تُحدِّثهنَّ بلهجة آمرة... وهُنَّ يستمعن إليها بانتباه شديد ويَهْرُزن رؤوسهن بالموافقة...

خفق قلبه عندما رآها تستدير نحوه... "فاتن"... مَنْ عاش عمره يحبها، مَنْ هام بها عشقًا... تقف وسط

”دُمَاه“ اللأى كُنَّ يُحَيِّينَهُ إِذْأَنَّا بِدَحِيلِهِنَّ... وَجَهَاهَا،  
عِينَاهَا اللامعتان المشدقتان، نُغْدَاهَا القدمذي، وَجَنَّتَاهَا  
الوردِيَّتَانِ، ذَقْنَاهَا المُدَبَّب... يَتَحَوَّلُ إِلى ابْتِسَامَةٍ مَطْلُوقَةٍ  
مِنَ البَهْجَةِ... لِمَاذَا يُحَوَّلُ ظَهْرُهَا كَوَابِيسِي إِلى حَلْمٍ  
جَمِيلٍ؟

استيقظ من غفوته، كان لا يزال جالساً على البنش الخلفي  
للمدرج، والدكتور المشرف يتلو القرار بنيل الطالبة سوزي  
محمد كامل درجة الدكتوراة مع مرتبة الشرف، امتلأت القاعة  
بالتصفيق، أعطيت الكلمة للطالبة التي قدّمت شكرها العميق  
للسيد وزير التعليم العالي، الذي جعل من التعليم الجامعي  
المصري في العقد الرابع من الألفية الثالثة نموذجاً على عظمة  
التعليم في العالم، وأعقبته بعميد الجامعة، الذي جعل الجامعة  
تتبوأ أعلى مراكز الترتيب العالمي للجامعات، والسيد عميد  
الكلية، الذي جعل منها نبزاً للعلم ومشعلاً حضارياً للفكر  
والثقافة والحرية...

فتح فاه وقد تملّكته الدهشة وهو يسأل نفسه متى كتبت تلك  
المقدمة، وهي لم تغب عنه لحظة... قالت له فيما بعد إنها كانت  
تتلو من ورقة كتبت لها سلفاً، وطلب منها قراءتها دون زيادة أو  
نقصان... توجّهت بجزيل الشكر والامتنان والعرفان الذي أغرقها  
في ثناياه السيد الدكتور حاتم عبد اللطيف فهمي أستاذ القسم  
المشرف على الرسالة، أثنت عليه كثيراً، وأقرت أنها لولاه ما  
تمكّنت من التحصيل العلمي اللازم، وأن وجود أمثاله في الوسط

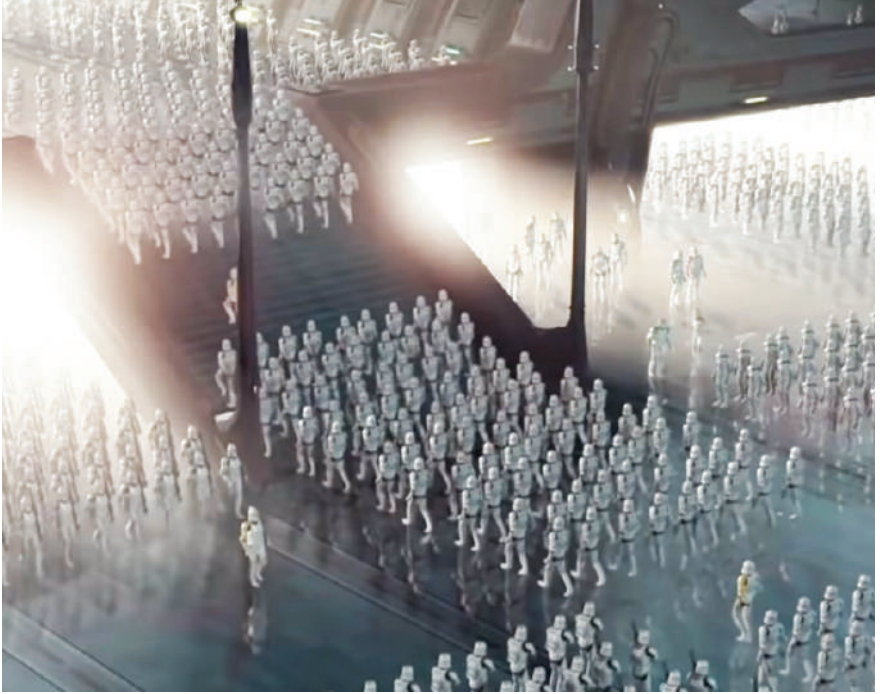
الأكاديمي يرفع من قيمة الجامعات المصرية عاليًا... سمعها  
تشكر كل البشر في حياتها دون أن تأتي على اسمه... كانت كلمتها  
عربون براءة الدكتور حاتم المشرف على الرسالة ممًا يمكن أن  
تتهمه به مستقبلاً... ها هو يشهد نكرانها الثاني له...

بعد زمن لا يدركه، كان يطفو في قاعةٍ امتلأت بمياه  
عطنة وقد انقلب كل شيء رأسًا على عقب، وأجساد  
الحضور تسبح وسط كائنات حرشوفية سوداء.. رجال  
ونساء في ملابس السهرة يطفون في محطة فضائية  
تخلّصت من جاذبيتها الأرضية... ليس ثمة ألم، ليس  
ثمة قلق أو هلع، لا شعور ببرد قارص... فأين ذهب  
إكسيد عشقه، وأين اختفت من تهبُّه روح الحياة، نادى  
عليها... لو تنتشلي نيني من كوابيس المعتمة... لو  
تأخذيني من كهف الوحدة... حياة الكراهية... الظلم...  
الفقر... الخبث... الوهم... حيث الشيطان يعبث كما  
يريد، لو تحرّريني من سلاسل العبودية... هذا  
المصدر المُهيك...

**COSMIC BANK  
FORTY SIXTH  
WAR FLEET**

عاد من غفوته... قاعة  
تخلو من الأحياء، انتظرها  
لساعتين، وكانا على موعد  
احتفالاً بنبيلها الدكتوراه، لكن هاتفها  
كان مُغلّقًا أو خارج الخدمة، غادر مبنى الكلية، ها  
هي تنكره للمدة الثالثة.. تحقّقت النبوءة...  
قاد سيارته على غيد هدى، تحدوه رغبة في الموت  
والتخلُّص من حياته البائسة... تنظر إليه السماء بلؤم،

تفجُّ بعيون الشيطان، المطر سيول غزيرة، ومَساحات  
سيارته لا تتوقَّف عن الدوران، ترتفع أمواج البحر عاليًا،  
تضرب الشاطئ بقسوة، العواصف تقهقه منه ساخدة،  
السحاب كراديس ملوَّنة يفتال الأحمد جهنمي الأسود  
المظلم، ها هو الكون يُعبِّد عن غضبه من الوجود  
الإنساني مطلقًا إحدى نواته.



يصعد من كوابيسه ذلك الشيطان الهائل ذو الود  
المذروع في جبهته، يعتدض الطليق، يمسك السيارة  
بقيضته، يدفعها عاليًا، يلقي بها لتدور بعيدًا في فضاء  
شبحي، وهو محض كائن ضعيف وحيد... تسقط وسط  
السكون حيث لا مطر ولا عواصف، لا بحر ولا أمواج ولا  
أعاصيد، والكون بحيدة خامدة لا يخلو من أريز الحدائق...

\* \* \* \*

انتصبت جواره السفينة العملاقة التي طالما رآها من تراس  
شقته وهي في عرض البحر، كانت تقيء من جوفها آلاف من  
جنود آليين مؤتمتين يغادرون ذرعاتها الجانبية ويتحرّكون  
بالخطوة العسكرية باتجاه مدينة الدُمى... لم تكن راياتهم  
تحمل النسر الأمريكي أو الأسد البريطاني، لم تكن ترفع بيارق  
النسر الروماني... كانت أعلامها تحمل رايات الأسطول السادس  
والأربعين الحربي التابع للبنك الكوني...

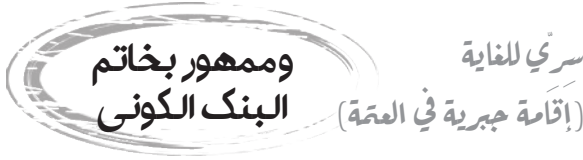
\* \* \* \*





وقف يشاهد صفوف جنود الأسطول التابع للبنك الكوني الذي أنشئ بديلاً لهيئة الأمم المتحدة؛ بهدف نشر الرخاء العالمي، ومساعدة الدول الفقيرة. وتأديب المتمردين والعصاة، رأى أحدهم يشير نحوه، أسرع يحاول الاختفاء، لكن ثلّة من الجنود الآليين أحاطوا به، حاول أن يخبرهم أن الصدفة أو الشيطان هو من أوقعه في طريقهم، دكّت رأسه هراوة، وسقط مغشياً عليه.

استيقظ حيث وجد نفسه مجرد مُستدٍ إلكتروني محشور وسط آلاف المستندات لكتاب ومتقنين معارضين من أنحاء العالم، في ملف عليه علامة رمادية مكتوب عليه:



عندما استعاد وعيه لم يعد هناك شمس ولا نهار، غابت فواصل الزمن، رحل الغسق مصطحباً معه الغروب والشفق والسحر، لتحلّ في المكان روح العمّة.

كان حبيس زنزانة إلكترونية داخل جهاز إلكتروني، تعرّف خلال محبسه على مئات من شخصيات تنتمي لأزمنة قديمة، يعرفهم حقّ المعرفة رغم أنه لم يسبق له أن التقاهم.

خلال تحقيق المحققين الآليين معه، قدّم طلباً بالإفراج عنه، موضّحاً أنه مواطنٌ لا يحقُّ لأحد أن يحبس حريته، ولفرط دهشته استُجيب لطلبه، وتمّ الإفراج عنه على أن يظل لمدة شهر في مدينة الدُمى تحت الإقامة الجبرية حتى الانتهاء من استكمال التحريات.

في عالم العتمة التقى صديقه الروائي الذي طالما أمضياً الوقت معاً في مقاهي فلور وريش والبستان في رسوم من نسخ ألوان الباستيل، يجلس في ركن قصي وحيداً تحت منصة اغتيال افتراضية، تدلّت فوق رأسه أنشطة المشتقة وفي عينيه نظرات احتضار.

كان يشكو اضطراره إلى التوقف عن الكتابة وتعطيل مشروعه التالي، قال إنه يبدو أن السعادة التي عبّر عنها لرئيس المؤسسة في حال نشر ملحمة التي أطلق عليها (الإيزية) قد أثار "أخ أكبر ما" وهو ما حدث عندما تجاهل إنتاج مسلسلاته الدرامية التي كتبها. قال إنه كان يظن أن نشر ملحمة عن الحروب التي دارت في الشرق الأوسط سيكون أمر شديد الأهمية، وهو يذكر في هذا الصدد مقولة أحد المفكرين العسكريين لا يذكر اسمه يقول:

**"إن الأمم التي لا تهتم بدراسة هزائم الماضي، لن تتمكن من الانتصار فيه المستقبل."**

لكن يبدو أن لأخ أكبر (ما)، وجهة نظر أخرى. وهو أمر ترتب عليه إثارة غضب أخوة كبار (ما). قلت له ألا بيأس، فكما أن هناك طرقاً للاغتيال الثقافي، هناك طرقاً للاغتيال الإنساني،

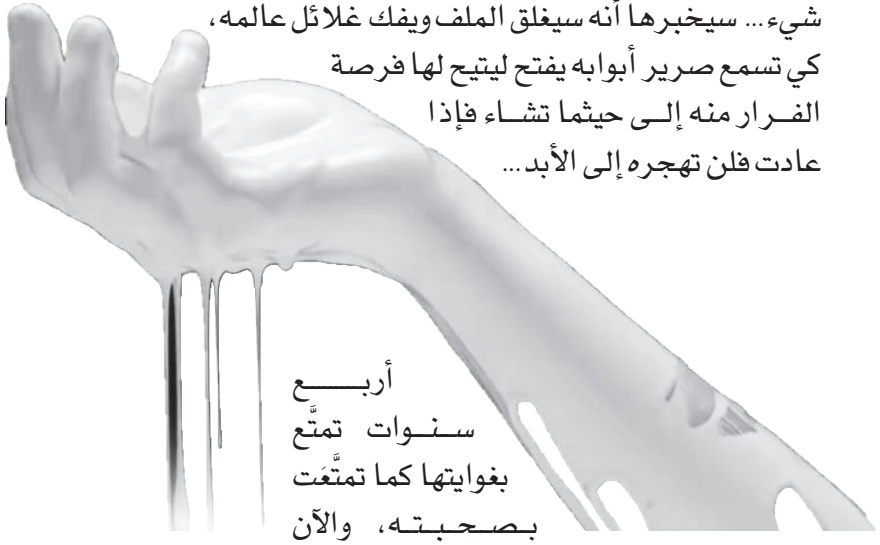
قال كيف؟ قلت عندما تُقايضُ عليك المرأة التي ساندتها مقابل  
الانخراط في عالم السُّلطة، عندما تعطي الحب لأقرب الناس  
إليك فيبادلونك الكراهية والبغض. قال بوضوح إنه لن يقبل، لن  
يمكنهم من اغتياله؛ ولهذا قرَّر أن يعيش حياته عارياً مثلما هي  
الحقيقة.

\* \* \* \*

الليل والنهار يجتمعان  
البحر والرياح يلتقيان،  
يُضمِران لي نهاياتٍ غير سعيدة

غَطَّ في النوم لأيام عديدة استعاد خلالها علاقته الطيبة  
بُدماه، يقوم ليمضي لحظات ثم يعود لكوايبسه... المرّة تلو المرّة  
يشهد ذاته تحلّق في سماء مُعتمّة فوق قرية الصيادين، نوافذها  
كوّات تبرز منها ألسنة لهبٍ وشَرَر... توجّه إلى المرسى حيث  
فلوكته الموعلة في القِدَم، فكّ حبالها وتقدّم في الظلمة داخل  
البحر... جدّف بلا توقّف... جدّف بلا نهاية... يشهد المياه تتسلّل  
من قاع الفلوكة وتصعد حثيثاً إلى أعلى، تغمره مياه ينابير الثلجية،  
تبلغ نصفه السُّفلي، تُغطي بدن وعتبة الفلوكة... ترتفع مياه البحر  
إلى الحافة... تغمره... رغم العبث الذّهاني يعلم أن ذاته لن تتوقّف  
عن التجديف... تغوص الفلوكة في البحر وهو جالسٌ يُجدّف دون  
توقّف، يتقدّم إلى حيث لا غاية سوى الهبوط إلى أسفل... اختفى  
الفضاء وتلاشت السماء والسُّحُب وصار العالم أسماكاً ملونة  
وسلطعوناً وسلاحفٍ... يفكّر: يا له من كابوس لا يتوقّف!

رَنَّ جرس الهاتف... عَثَّر عليه بصعوبة، سوف يزجرها...  
يلومها على تجاهلها له... سيخبرها أنه بسببها صار يفرق،  
وأصبح غير قادر على التنفس.. لكنه سيغفر لها، أن ينسى كل  
شيء... سيخبرها أنه سيفلق الملف ويفك غلائل عالمه،  
كي تسمع صرير أبوابه يفتح ليتها لها فرصة  
الفرار منه إلى حيثما تشاء فإذا  
عادت فلن تهجره إلى الأبد...



أربع  
سنوات تمَّتْ  
بغوايتها كما تمَّتْ  
بصحبه، والآن

حصلت على مبتغاها ورحلت ككل النساء  
الذين عبروا حياته... حسناً، ليس ثمة خاسرٍ أو مهزوم... قُدِّر له  
أن يمضي حياته وحيداً... هتف: سوزي!... أيوه يا دكتورة...

على الطرف الآخر جاء صوت خجول يحمل نبذة مضطربة:  
- أنا مش بسوزي يا أستاذ...  
- أيوه؟ آسف.  
- أنا عندي مشكلة كبيرة قوي يا دكتور... ممكن أطلب  
مساعدتك؟ قبل أن يسألها عن اسمها... هتف وهو لا  
يتوقّف عن الغرق ولا عن التجديف... مساعدتي...  
مساعدتي أنا... غمغم... ولكني أغرق... أنا من في  
حاجة للمساعدة... تحامل على نفسه وتنهّد يسألها...  
ممكن أعرف... مين حضرتك؟

\* \* \* \*

## هوامش:

(i) الفتنة- جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر: تأليف د. هشام جعيط- دار الطليعية بيروت- عام 1991. وهو الكتاب الذي أوضح إن تأريخ الفتنة الصغرى (قتل القراء لعثمان بن عفان) بدأ بعد موت النبي مباشرة في واقعة السقيفة التي وطدت سلطة عصبية قريش في مواجهة الأنصار، بفعل أقرب رجلين إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام: "واستعادة أعراف وعصبيات الجاهلية وانتصارها من خلال الحجج التي ساقها في مواجهة الأنصار لثلاثي، أبا بكر وعمر وأبا عبيدة لتمكين أبو بكر الصديق من سلطة الخلافة لتوحيد الدولة الإسلامية، وأن هذا الحدث بدوره يُعد مقدمة للفتنة الكبرى والتي انتهت بمصرع عليّ بن أبي طالب وهزيمة الثورة التي سُحقت بين شقي رحى المغلاة في التشدد، وقوة الأعراف العصبية الجاهلية ما مكن معاوية بن أبي سفيان من الاستيلاء على الخلافة وتوطيد حكم وراثي في نسله. وتحويل الإسلام من ثورة الشرق (طبقا لمقولة هيجل) إلى مُلكِ عَضُوضٍ ولكل أشكال الصراع على السلطة في تاريخنا القديم والحديث.

(ii) مناخوليا: كلمة ميلانخوليا مأخوذة من اليونانية القديمة تشير إلى الحزن الناجم عن خلل في اختلاط الواد الأربع التي خلق منها الإنسان-طبقا للفلسفة اليونانية القديمة- وهم الماء والهواء والنار والتراب. منذ نحو 400 عام قبل الميلاد أشار ابقراط إلى المناخوليا وقال إنها نوع من الاكتئاب وهي مرض عقلي مثل الصرع والهوس وجنون العظمة، إلى أن المعني الحرفي للمناخوليا هو سوء الطبع الأسود، يعاني الشخص المصاب بها من السوداوية ويتملكه الإحباط مع أعراض مثل القلق وقلة النوم وفقدان الطاقة والكسل، وقد تختلف وأعراضها عن الاكتئاب بأنها حالة من عدم الواقعية والجنون الذي يهاجم العقل والمنطق. وأشار أرسطو عام 370 قبل الميلاد أن المناخوليا حالة يعاني منها كل المفكرين والشعراء والفنانين والحكام.

ومن سمات الأشخاص الذين يعانون من تلك الحالة كونهم غير اجتماعيون، يعشقون الكمال، حب الفنون الجميلة، التمتع بالعبقرية، قدرة هستيرية على التحليل والتركيز على التفاصيل بحثا عن الكمال. التشاؤم نتيجة التركيز على الجوانب السلبية والسوداء في أي موضوع، الحساسية والتأثر السريع وسهولة الشعور بالإهانة.

(iii) يقول ابن جرير في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" وهو يشبه ما جاء في كتاب العلامة أبي إسحق أحمد النيسابوري، المعروف بالثعلبي، قال أهل العلم: "إن آدم غُشي حوَاء فولدت له قابيل وتوأمه إقليما في بطن واحد، ثم هابيل، وتوأمه لبودا في بطن واحد، فلما شَبُوا أراد آدم -عليه السلام- أن ينكح قابيل لبودا أخت هابيل، وينكح هابيل

إقليمها أخت قابيل، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقًا، فذكر آدم ذلك لولده هايبيل فرضي وسخط قابيل وامتنع، وأراد أن يستأثر بها على أخيه، وقال: هي أختي، ولدت معي في بطن وهي أحسن من أخت هايبيل؛ فأنا أحقُّ بها، ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض، فقال آدم إنها لا تحلُّ لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك، وقال لأبيه آدم إن الرب يهوه لم يأمرِك بذلك وإنما هو من رأيك، فقال لهما آدم: قَرِّبَا قَرْبَانًا، فإيًّاكما يُقبَل قَرْبانه فهو أحقُّ بها. فصعدا على الجبل، وكان هايبيل راعيًا صاحب غنم، فقرب جَذَعَة سَمِينَة، وأضمر في نفسه الرضا بما يؤتى به من الرب، وكان قابيل صاحب زرع، وقرب حزمة من زرع، وأضمر في نفسه ما أبالي أن يقبل مئتي أم لا؛ لا يتزوج أختي أبدا. تقبل الربُّ يهوه قربان هايبيل، ولم يتقبل قربان قابيل، ونزلت نار فأكلت قربان هايبيل، وتركت قربان قابيل؛ فغضب قابيل وأتى إلى هايبيل وهو في غنمه، فقال: لأقتلنك، قال: ولم؟ قال: لأن الله قبل قربانك، وحتى لا تتكح أختي الحسناء وأنك أختك الدميمة فيتحدث الناس أنك خير مئتي وأفضل، ويفتخر ولدك على ولدي، فقال له هايبيل: وما ذنبي؟ (إنما يتقبل الله من المتقين)، هام هايبيل على رؤوس الجبال، ثم أتاه قابيل وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه، فمات، ونزل قابيل من الجبل، أخذًا بيد أخته إقليما، والتي أطلق عليها المفسرون (الجساسة) أو (الدساسة) أو (الدَّهْمَاءُ)، وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن.

iv) رواية الأرض: لأميل زولا. نُشِرت عام 1887 من سلسلة روايات بطلها چان ماكار، تدور أحداثها في أواخر القرن التاسع عشر خلال السنوات التي سبقت الحرب الفرنسية- البروسية عام 1870. وتجري الوقائع في منطقة "لابوس" الفرنسية، وتقدم وصفًا حيًا لمصاعب وغمف الحياة الريفية في الإمبراطورية الفرنسية الثانية، في سنوات قبل اندلاع الحرب الفرنسية البروسية عام 1870، وهو ذات العصر الذي كتب عنه تولوستوي إلياذة العصر الحديث في رائعته "الحرب والسلام".







هلاوس... هذيان... كوايبس تصاحب أستاذ جامعي ومثقف معارض، يعيش أسير عزلة سياسية، وحالة من الوحدة، في برزخ كائن بين الحياة والموت، بعد أن رحلت زوجته التي عاش معها قصة حب وعشق ضربت جذورها منذ سنوات المراهقة، وتركته يعاني مشاعر الؤلّة والفقد وعدم القدرة على تقبل موتها، يستعيز عن فقدانها بالحياة وسط عالم من (دمي) لمانيكان من عارضات أزياء وممثلات شهيرات، إبتدعهن هذاه وتهيؤاته، أو تسوقهن (أوتلاين) عبر الشبكة العنكبوتية، يستعين بهن على قضاء حياة ممتنعة عن التفسير.

على غير سابق إنذار تلجأ إليه طالبة تعاني من أزمات نفسية تحضر رسالة دكتوراه في الأدب، تطاردها إشاعات تمس شرفها العلمي، وتحرش الدكتور المشرف على الرسالة بها. ترجوه أن يعونها، يرفض ولكن إزاء توسلاتها وبكائها وانهارها العصبي يفرض عليها شروط تعجيزية في محاولة لحنها على الرحيل من تلقاء نفسها، يبدأن معا في معالجة سردية نقدية لفن الرواية تؤسس لرؤية معارضة للساند، يكتشفان خلالها عوالم من البهجة والغبطة التي تخلقها مناورات وألعاب الغواية والافتتان بين رجل وامرأة شابة يواجهان عالم متداعي، تمكنت منه وغرزت أنيابها ومغالبتها ثقافة الفساد وقيم الانحطاط وتشويه الوعي الانساني العام...

(القاهرة يناير 2018 - الإسكندرية يناير 2020)

